تاريخ المغول
وسقوط بغداد

إعداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم
بخيت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب:	تاريخ المغول وسقوط بغداد
إعداد:	رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعة:	ط أولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م
الناشر:	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر ت : ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠١٢/٩٩٦١٦٣٥ - ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠/٠١٠٤١١٥

٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

ت : ٠١٢/٢١٠٨٤٩٣ - ٠٢/٥١١٤٣٧١

حقوق النشر:

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب في أي صورة من الصور (ورقية - أقراص مدمجة - على شبكة الإنترنت الدولية - على الشبكات الداخلية في المؤسسات التعليمية أو خلاف ذلك) وأيضاً لا يجوز اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأية طريقة إلا بموافقة الناشر على هذا . وبصورة مُسَجَّلة وموثقة في الشهر العقاري بجمهورية مصر العربية.

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

* * *

أحل الكفر بالإسلام ضيمًا ::: يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح ::: وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبًا ::: ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرًا ::: على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق ::: وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل ::: لطفل في عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر ::: وعيش المسلمين إذًا يطيب
أما لله والإسلام حق ::: يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا ::: أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

* * *

ربّ وا معتصماه انطلقت ::: ملء أفواه الصبايا اليتم
لامست أسماعهم لكنّها ::: لم تلامس نخوة المعتصم

* * *

المقدمة

الحمد لله الذى على منوال إرادته تنسج مقاطع الأمور، ومن ينبوع قضائه إلى لجج قدره يجرى تيار الأعصار والدهور، أذاق بعض بنى آدم بأس بعض ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور، وأرسل عليهم في القرن السابع والثامن من الهجرة بحار فتن أقبلت كقطع الليل المظلم، لم يدر أحد ما هى فإذا هى تمور، أحمده حمد من كان على شفا جرف من نارها فأنقذه منها، وأشكره شكر من ورطه فيها عدله فأنجته أيادى فضله عنها، وأشهد أن لا إله إلا الله الحكم العدل، الذى يقتص للمظلوم من الظالم يوم الفصل، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى أرسله رحمة للعالمين وجعله رسول الله وخاتم النبيين، فأخبر ﷺ عن السر المصون، ونبأ بما كان في الأزل وبما يكون إلى يوم يبعثون، واستعاذ من غلبة الدين وقهر الرجال، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال، صلى الله عليه صلاة تذكى المسك الأذفر في صدور الكتب والتواريخ، وتدنى لقائلها في يوم الجزاء ثمرات الحسنات من أعلى الشماريخ، وعلى آله وصحبه الذين أفاضوا سيول الفتح في الأقاليم فغمروها، وشيدوا أركان الإسلام وأثاروا الأرض بالإيمان، وعمروها بالعدل والإحسان أكثر مما عمروها، وسلم تسليمًا غزيرًا دائمًا أبدًا كثيرًا. والله أسأل إلهام الصدق وسلوك طريق الحق إنه ولى الإجابة ومسدد سهم المرام إلى غرض الإصابة وهو حسبى ونعم الوكيل.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد على كل حال.

أما بعد:

ما أشبه الليلة بالبارحة، وأما أشبه اليوم بالأمس، وإن التاريخ يعيد نفسه، هذه خلاصة تاريخ المغول، فالمتأمل لواقع المسلمين الآن لا يجد فرقا كبيرًا بين ما يحدث لهم الآن وسيحدث - إن لم يصلحوا من أنفسهم ويعودوا لربهم ونبيهم ودينهم -، وبين ما كان يحدث للمسلمين على يد المغول في القرن السابع والثامن الهجري؛ لأن الله عز وجل من رحمته بخلقه جعل لهم في الأرض سننًا لا تتغير ولا تتبدل وأوضح عن طريق رسله وكتبه أنه بهذه السنن تستقيم حياتهم، ولو كان لكل زمان سنّة، أو لكل مكان سنّة تختلف عن غيرها لاضطربت حياة الناس، ولضاعت كل الخبرات السابقة..

ودراسة التاريخ والكتابة فيه ليست للتسلية وقضاء الأوقات فقط، وليست للدراسة وتحصيل الدروس والحصول على الدرجات فقط، إنما هى للعبرة والعظة واستخلاص النتائج، واستلهام طريق الخلاص وتصحيح الأوضاع، والأمة التى لا تستفيد من تجارب السابقين وتسير على خطى الأولين، من أسلافها الصالحين والمصلحين، وتسفيد من ماضيها، لاتملك حاضرها وتفرط طواعية في مستقبلها.

وإنى لست أفضل أن أستعرض أو أتحدث عن فصول الكتاب أو ألخصها في المقدمة، وأفضل أن أترك القارئ والباحث لكى يراها بعين النقد والتمحيص، ويخرج منها بالعبر والدروس، وأترك الكتاب لكى يتحدث عن نفسه ويصف أحداثه التاريخية.

أخيـــرًا:

أسأل الله أن أكون قد وفقت في إتمام هذا العمل، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله منى وأن يثيبنى عليه، وأن يجعله في ميزان حسناتى يوم العرض عليه، وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يدعوا الله لى بحسن الخاتمة وأن يرزقنى الشهادة في سبيله، وأن يدخلنى الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

الفصل الأول:
المغول قبل جنكيز خان

إن الحديث عن تاريخ المغول قبل ظهور " جنكيز خان " غاية في الصعوبة، ويحتاج إلى كثير من البحث والمتابعة والتنقيب للحصول عن المعلومة - التى هى في الأصل نادرة الوجود - واستخلاصها من بين الأساطير وأشعار المغول القديمة.

والمغول قبل " جنكيزخان " وتحديدًا في القرن السادس الهجري/ الثانى عشر الميلادى في الأصل كانوا برابرة وبدوًا رحلا يسعون خلف الكلأ، ويعيشون حول محيط من الحضارات، ويجب للحديث عن المغول وصف الحضارات والدول التى كانت موجودة في آسيا آنذاك والتى كانت لها علاقات مع قبائل المغول الرحل، وقبيل ظهور دولة المغول كدولة.

آسيا في القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادي:

كانت آسيا في هذه الفترة - القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى - قبيل ظهور " جنكيز خان "، تحفل بخليط من الدول المستقرة التى أنشأت حضارات عريقة وتركت لها بصمة على وجه التاريخ والحضارة الإنسانية، والأمم البدوية البربرية الرحل التى تسعى وراء الكلأ، ولا تعرف للاستقرار والحضارة والمدنية أى معنى وتخضع لغيرها من الأمم المتحضرة.

أولا: الأمم والدول المتحضرة:

١ - الصينيون:

ويتمركزون بصفة أساسية في شرق الصين، وينقسمون بين أسرتين حاكمتين:

- أسرة " كين ":

وكانوا يرأسون طوائف من الجنس الأصفر، ويسيطرون على ممالك " الخطا " (أى الصين الشمالية). هذا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في منشوريا ومنغوليا. وقد اتخذوا من مدينة " بكين " عاصمة لدولتهم، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مدينة " كاى فونج "، وجعلوها العاصمة بدلا من بكين. وكان المغول يطلقون على حكام هذه الأسرة لقب " التون خان "

- أسرة " سونج ":

وكانوا يسيطرون على أقاليم الصين الجنوبية، وقد اتخذوا من مدينة " هانج تشو " عاصمة لهم. (١) (انظر الشكل رقم ١).

٢ - الأتراك الأويغوريون:

وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال شرقى تركستان الحالية، و" الأويغوريون " كلمة تركية تعنى الارتباط والتعاون، وتقول الروايات إن " أوغور " أبو الأتراك كان يؤمن بالله، ويدين بالوحدانية، ولكن أباه وأعمامه كانوا كفارًا فنازعوه عقيدته، وقاموا ضده، وأرادوا القضاء عليه، فانضم إليه بعض من أقاربه، وانحازوا إليه، وصاروا يساندونه ويعاونونه، فأطلق عليهم اسم " أويغور " فغلب عليهم هذا الاسم، أما البعض الآخر فقد أخذ جانب أبيه وأعمامه وإخوته، ثم قامت الحرب بين الفريقين فانتصر " أويغور " وأتباعه، ومن هذه الجماعة تناسل جميع أقوام " الأويغور ".

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ١ / ٢١.

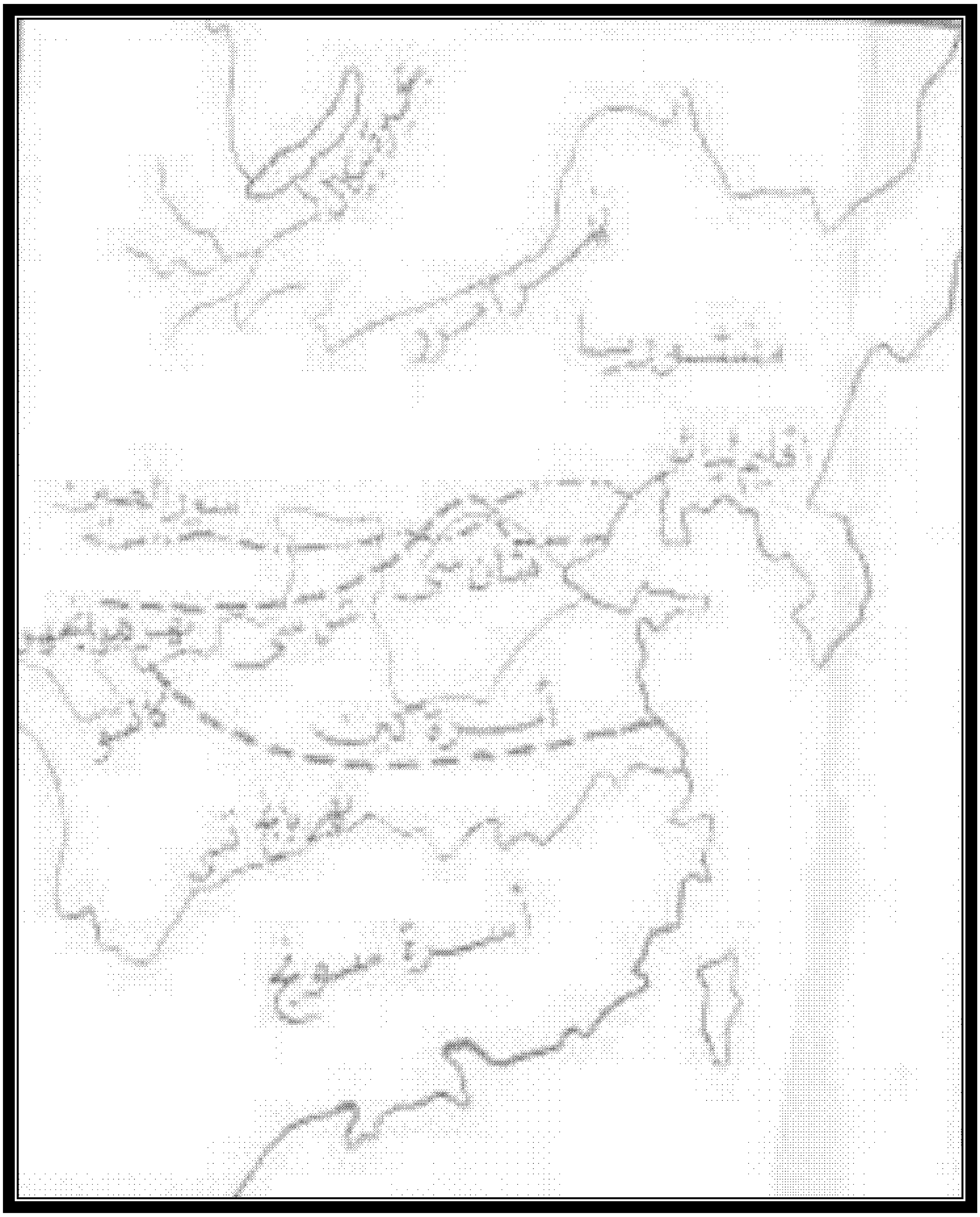

الشكل رقم (١) أقاليم الصين والأسر الحاكمة فيها

والمعروف عن الأويغوريين أنهم ظلوا مدة طويلة دون أن يكون لهم ملك أو رئيس. وكل ما في الأمر أنه كلما ظهر شخص قوى بين إحدى الطوائف يصير أميرا عليهم. فلما تشاورت تلك الطوائف في شئونها المضطربة قالوا: لا مفر لنا من ملك نافذ الرأى ينزل الجميع على حكمه،

فوقع اختيارهم على شخص يدعى " منكوباى " ولقبوه بلقب " ايل ايلتريل ". ثم اختاروا شخصًا آخر عرف بمقدرته وكفاءته من قوم " أورقندر " ولقبوه بلقب " كول إيركين " ونصبوا الاثنين ملكين على جميع الأقوام. وقد استمر أعقابهما يحكمون مدة مائة سنة.

وفى النهاية اصطلح الأويغور على تسمية ملكهم باسم " ايدى قوت " أي: رئيس الدولة، والمعروف عن هؤلاء الأويغوريين أنهم كانوا أكثر الأقوام التركية تمدنًا، وكانت ديانتهم مانوية وبوذية ومسيحية (١).

٣ - الأتراك القراخطائيين:

وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولي، وتقع ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق. وكان شاطئ نهر سيحون يكون حدًّا فاصلاً بين ممالك القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية.

وأصل هؤلاء القراخطائيين من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين. وهم خليط من المغول والتانجوت. وقد حدث في بداية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي، أن ظهر من بينهم زعيم قوى أخضع هذه القبائل لسلطته، ونصب نفسه إمبراطورًا عليهم سنة (٣٠٤ - ٣١٥ هـ / ٩١٦ - ٩٢٧م)، وسمى نفسه " تاى تسو "، واستطاع خلفه أن يخضع شمال بلاد الصين، ثم منح أسرته لقب " لياؤو " نسبة إلى الإقليم المسمى بهذا الاسم. وقد استمرت هذه الأسرة تحكم من سنة (٣٠٤ - ٥١٩ هـ / ٩١٦ - ١١٢٥م) أى حوالى قرنين من الزمان.

كذلك كانت قبائل الخطا تسيطر على أقاليم الصين الشمالية. غير أنه حدث لهذه الأسرة ما حدث لكل شعب محارب بطبيعته عندما يخلد إلى الدعة وينغمس في تيار المدنية، فلقد بهرت هؤلاء الخطا الحضارة الصينية وما كانت عليه من بذخ وترف، فتأثروا بهذه الحضارة تأثرًا شديدًا، الأمر الذى أفقدهم روحهم الحربية، وجعل الضعف يتطرق إليهم تدريجيًّا، فانتهز هذه

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ١ / ٢١.

الفرصة جماعة " كين " الذين كانوا يسكنون أحد أقاليم منشوريا، وكانوا تابعين للخطا، فحارب هؤلاء سادتهم الذين عجزوا عن مقاومتهم، فانهارت دولتهم في الصين الشمالية سنة ٥١٩ هـ / ١٢٢٥م

٤ - الخوارزميون:

وكانوا يقيمون دولة تشمل كل منطقة ما وراء النهر وإيران تقريبًا. وهم من أصل تركي، ويدينون بالإسلام، وكانوا ذوى ثقافة عربية وفارسية. (انظر الشكل رقم ٢).

٥ - بقية بلدان آسيا الإسلامية:

وتقع هذه المناطق غرب بلاد الدولة الخوارزمية. وهى مقسمة بين طائفة الإسماعيلية في قلعة " الموت " وكانت ثقافتهم فارسية. وبين الخلفاء العباسيين في بغداد، وكانت ثقافتهم عربية، وبين سلاطين الأيوبيين، وهم من أصل كردي، وذوو ثقافة عربية. وكان مقرهم في سورية ومصر، وبين سلاجقة الروم، وهم من أصل تركي، ومغرمون جدًّا بالثقافة الفارسية. وكان مقرهم آسيا الصغرى[1].

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٤.

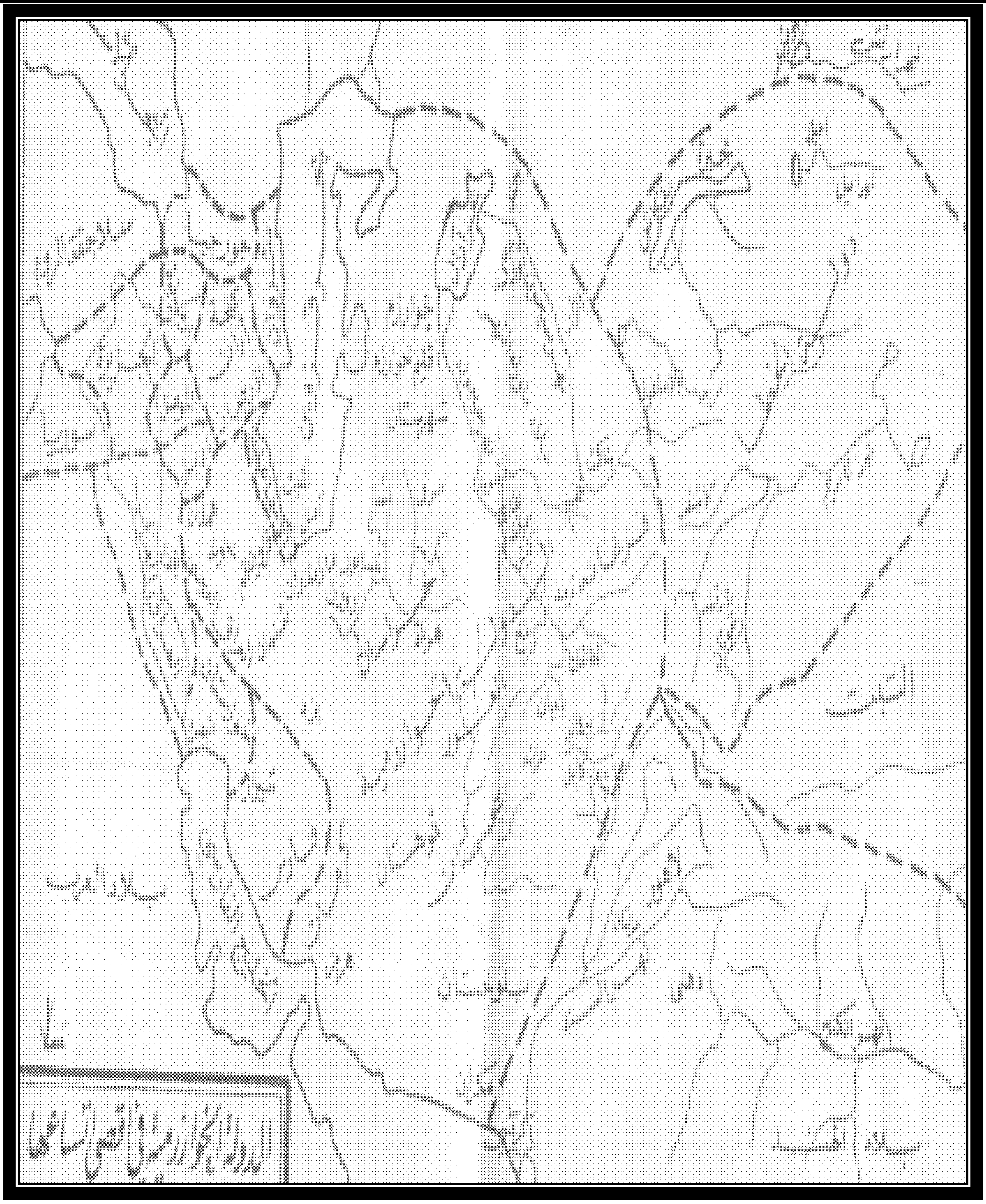

الشكل رقم (٢) الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

ثانيًا: قبائل المغول والتتار:

وإلى جانب الحضارات والأمم المتحضرة كانت توجد في أقصى الشمال على حدود سيبيريا المغولية، وفى إقليم السهوب شمالى صحراء جوبى [1]، نحو جبال

(١) صحراء جوبى، هى صحراء في أواسط آسيا ما بين جنوب سيبيريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق التركستان. بين جبال التاى غربًا وجبال خنجان شرقًا.

التاى وخانجاى وكنتاى بقيت مجموعة كبيرة هى أشبه ما تكون بخلية النحل من حيث تعدد قبائلها وكثرة حركاتها وتنقلاتها من مكان إلى مكان.

هذه القبائل من البدو الرحالة التابعين للفروع الثلاثة: الأتراك والمغول والتونغور [١] وجميعهم من الجنس الألتائي. والمغول والتتار قبائل من الترك البدو كانوا يسكنون الجزء الشرقى من بلاد التركستان وما يليها شرقًا من بلاد الصين في العصور الوسطى، ويذكر مؤرخو الترك ونسَّابوهم أن " ألنجة خان " أحد ملوك الترك ولد له في الأزمنة القديمة ولدان توأمان هما " مغول خان "، " وتتار خان " وقد تفرعت منهما قبائل المغول والتتار.

وقد عاش أولادهم في صفاء مدة طويلة ثم حدث نزاع بينهما تغلب فيه التتار أولاً وصارت لهم السيادة مدة طويلة ثم اتحدت قبائل المغول وحاربت التتار وهزمتهم وانتزعت منهم السيادة وظل الملك متوارثًا فيهم إلى عهد " يسوكاى " والد " جنكيز خان ".

وبالرغم من وجود اختلاف في لغات هذه القبائل إلا أنهم جميعًا كانوا من قبائل البدو الذين يقطنون الأقاليم العليا من آسيا، وكانت حياتهم تجرى على نظام واحد، ويعيشون في جوٍّ واحد، ومتقاربى الشبه والخلقة ويتمتعون بصفات بدنية تناسب البيئة التى عاشوا فيها كل المناسبة، إذ كانت وجوههم عريضة، ورؤوسهم كبيرة، وأنوفهم فطساء، وخدودهم بارزة، وعيونهم صغيرة غائرة ذات جفون مسترخية، وشفاههم غليظة، وذقونهم جرداء، وشعورهم سوداء خشنة، وجلودهم سمراء تميل إلى السواد، قد لفحتها الشمس وأثرت فيها الرياح والثلوج. وهم قصار القامة ذوو أجسام ممتلئة كالكتل، وأفخاذهم قوية العضلات. وهذا طبيعى جدًّا لأن مثل هذه المناطق الشاسعة التى تجتاحها الرياح الثلجية في الشتاء، والملتهبة الحرارة خلال عدة أسابيع في الصيف، تستلزم أجناسًا قوية لتكافح ضد هذه الطبيعة بنفس

---

(١) قسم من تتار المانجو، وقد أطلق عليهم الروس هذا الاسم (تونغور) ويسمون أحيانًا (صولون) وتعنى بلغة المانجو: الصيادون الرماة.

القوة والعنف. [١]

وأهم هذه القبائل وأصولها وأماكن تواجدها الآتي:

١ - التتار:

وكانوا يقطنون المنطقة التى تحد شمالاً بنهرى أرقون وسيلنجا ومملكة القرغيز، وشرقا بإقليم الخطا (الصين الشمالية)، وغربًا بممالك الأويغور، وجنوبًا بإقليم التبت ومملكة التانجوت، كانت هذه القبائل من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشًا وجبروتًا في أقاليم آسيا الشمالية، وهم يتشعبون إلى شعب كثيرة، وكان هؤلاء التتار في أغلب الأوقات مطيعين وخاضعين لملوك الخطا. ومن حين إلى آخر كانوا يثورون على الخطا فيسرع هؤلاء لمقاومتهم، وإجبارهم على الخضوع مرة أخرى.

وعاش هؤلاء التتار في صراعات مريرة فيما بينهم لأتفه الأسباب، وقد تستمر المعارك بينهم عدة سنوات، وقد اشتهروا بالطعان والنزال، ولم يكن لهم قانون يحكمهم أو شريعة يسيرون عليها [٢].

وقد ميز الصينيون - من حيث درجة الحضارة - بين التتر البيض في الجنوب الذين كانوا قريبين جدًّا من حدود الصين الجنوبية، والتتر السود الذين كانوا يعيشون في أبعد من ذلك إلى الشمال، والتتر المتوحشين، أو تتر الغابات الذين كانوا يعيشون على عكس بقية القبائل البدوية الأخرى على الصيد ويمارسون السحر. الشامانيون (أى السحرة) الذين كانوا يأتون من هذه المنطقة كانوا يعتبرون الأكثر ثقة وجدوى [٣].

٢ - المغول:

كان ظهور المغول في الهضبة المعروفة بهضبة منغوليا شمالى صحراء جوبى في أواسط أسيا، جنوبى سيبيريا وشمال التبت وغربى منشوريا، وشرقى التركستان

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٥.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٦.

(٣) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١١.

من جبال التاى غربًا وسلسلة جبال خنجان شرقا [(١)].

ولم تكن للقبائل المغولية في موطنهم الأصلى حضارة سابقة، وإنما كانت على عهد بالبداوة لم تعرف المدنية، ويغلب على أبنائها الشراسة والوحشية، ومن علامات بداوتهم أن كل قبيلة كانت تشكل وحدة متماسكة من ناحية الجنس واللغة، ويتزعمها رئيس يحمل لقب نومان [(٢)].

وكانت أمة المغول منقسمة إلى عدة قبائل، منها:

- قبائل النايمان:

الذين سكنوا في أقصى الغرب بين إيرتيش الأعلى والأوريغون، إلى الشمال من الألتائي، وقد نفذت إليهم عناصر كثيرة من ثقافة آسيا الوسطى كان من أهمها الديانة المسيحية وبخاصة على المذهب النسطوري، وكان النايمان يشكلون القبيلة الأكثر تمدنًا بين المغول، ويقرب منهم كثيرًا من حيث الحضارة [(٣)].

وكان لهؤلاء النايمان ملوك مشهورون أقوياء، ولهم جيوش عديدة، وفى قديم الزمان كان يطلق على ملوكهم اسم " كوشلوك خان أو " بويروق خان ". ومعنى كوشلوك: ملك عظيم وقوي، أما بويروق فمعناه معطى الأمر، ولكن مع هذا كله كان لكل ملك اسم أصلى يختاره له أبواه [(٤)].

- قبائل الكيريت أو الكيرايت:

الذين كانوا يسكنون إلى الشرق من النايمان على ضفاف نهر الأورخون وإلى الجنوب منه، في صحراء جوبي، وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم، وقد اعتنقوا في معظمهم عام ١٠٠٧م / ٣٩٨هـ المسيحية على المذهب النسطورى [(٥)].

---

(١) محمود الحويري، العلاقات المبكرة بين أوربا والمغول، ص ٧.
(٢) نومان كلمة مغولية بمعنى الأمير أو الشريف والسيد العظيم.
(٣) بيرتولد شبولير، " " المغول في التاريخ " "، ص ١١.
(٤) فؤاد عبد المعطى الصياد، " " المغول في التاريخ " "، ص ٣٠.
(٥) بيرتولد شبولير، " " المغول في التاريخ " "، ص ١١.

- قبائل الميركيت أو مركيت: وهم يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكيرايت على ضفاف مجرى نهر السيلنجا، جنوب بحيرة بايكال، وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد في الحروب، وقد عرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن. ولهذا شن عليهم جنكيزخان حربًا شعواء مستعملاً أقسى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة. ولم يقف عند هذا الحد بل أصدر أوامره بالقضاء عليهم جميعًا، فلم ينج من سيوفهم سوى إلا بعض الهاربين أو من استطاعوا الاختفاء عند بعض أقاربهم، أو من كانوا لا يزالون أجنة في بطون أمهاتهم (١).

- قبائل الأورات أو الأويرات:

وهم قبائل بدائية جدًّا، وكانوا يقيمون في المنطقة الواقعة ما بين نهر أونن وبحيرة بايكال، وكان عددهم كبير جدًّا، وقد تشعبوا إلى عدة شعب. وكان لهم ملك يأتمرون بأمره. ولما جاء جنكيزخان خالفوه بعض الشيء، إلا أنهم سرعان ما قدموا له فروض الولاء والطاعة وتم ذلك على خير وجه. وقد صاهرهم جنكيزخان (٢).

- قبائل الأورات أو الأويرات:

وإليها ينسب " جنكيزخان " المغولى حيث قدر له أن يولد بينهم، وهم يسكنون المنطقة الممتدة في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وهى منطقة تمتد في أواسط آسيا جنوبى سيبيريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان بين جبال التاى غربا وجبال خنجان شرقا. وتبوأت تلك القبيلة مكانة مرموقة بين القبائل المغولية - بالذات - بعد ظهور جنكيزخان وقيادته للشعب المغولى (٣).

انظر الشكل رقم (٣)

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " " المغول في التاريخ " "، ص ٢٨.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١١.

(٣) عبد السلام فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ١٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٣٠.

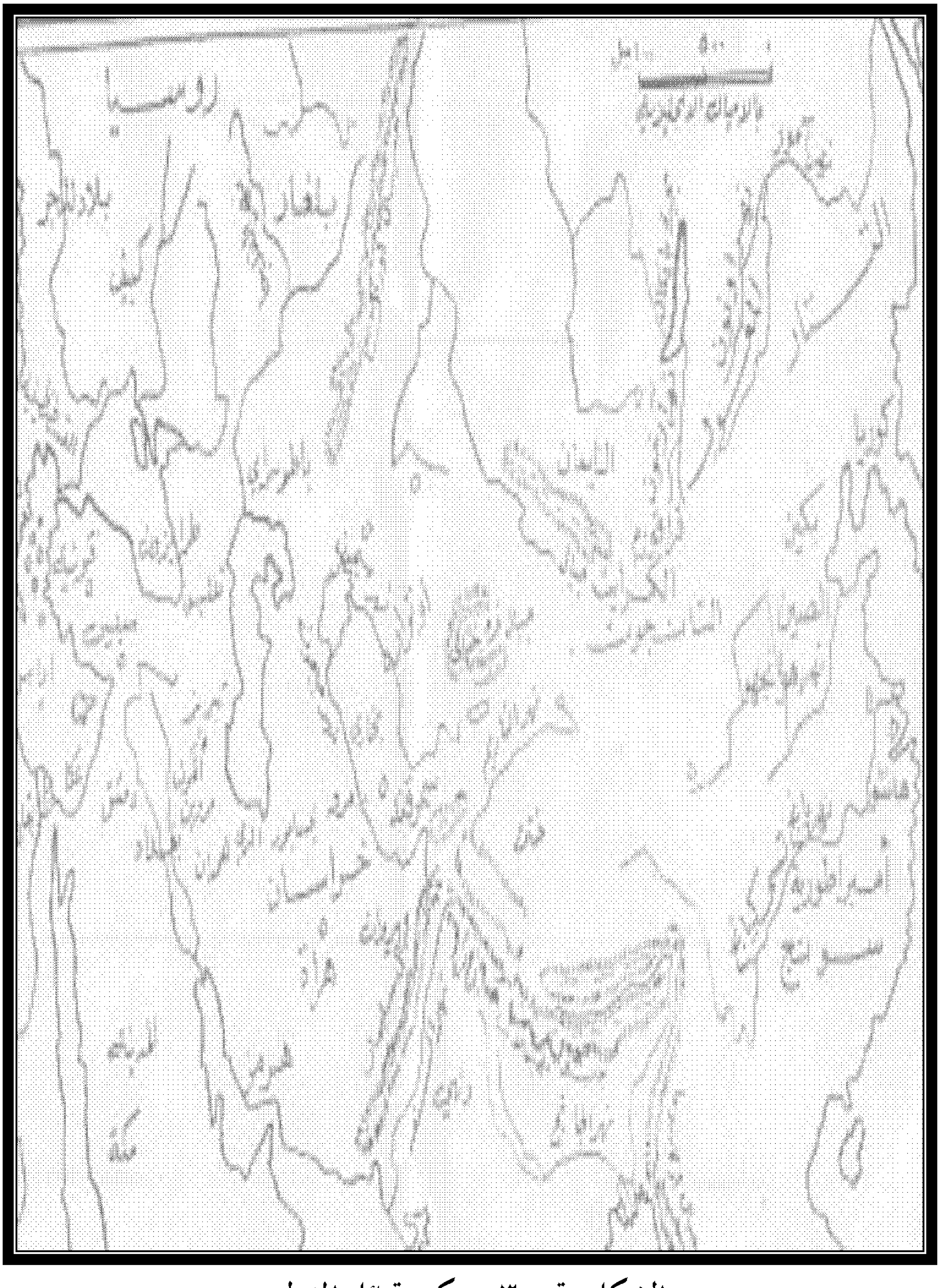

الشكل رقم (٣) سكنى قبائل المغول

لمحة عن بيئة المغول وتشكيل شخصيتهم:

شكلت العوامل البيئية حياة المغول بشكل خاص، ذلك أن الظروف المناخية القاسية لمنغوليا باتت عاملاً حال دون زراعة الأرض، باستثناء أماكن متفرقة، فضلاً عن البرودة القاسية في فصل الشتاء مما أوجب العناصر السكانية إلى أن يستطيبوا حياتهم المدنية وفق ما تمليه تلك الظروف، فعملوا بالرعى ودأبوا على التنقل من مكان إلى آخر سعيًا وراء العشب والكلأ.

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الظروف البيئية التى شكلت حياة المغول في موطنهم الأصلى تدفع بهؤلاء إلى التنازع من جراء سعيهم خلف حياة أفضل بحثًا عن الكلأ والمرعي، وصارت هذه الظروف بالضرورة تدفعهم إلى عقائد تلائم نظامهم العام.

وواقع الأمر أن البيئة البدوية كثيرًا ما تشكل مستوطنيها بعادات وتقاليد تتسم بالثبات وتظل مظاهرها الاجتماعية على وتيرة واحدة، وهكذا كانت العناصر المغولية في هضبة منغوليا تحيا حياة بدائية وفرسانًا رحل يعيشون في الخيام تحكمهم قوانين وعادات قبلية لعل أكثرها ظهورًا خضوعهم لرئيس القبيلة أو الطائفة، كما أنهم إلى جانب منازعاتهم القبلية فيما درجت عليه حياتهم قبل انطلاقهم إلى الغرب كانوا يعتمدون في طعامهم على الخيل، فيأكلون لحومها ومنتجات ألبانها، ومما قيل في هذا السبيل أنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها بما في ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان الفقر وجدب البلاد سبيلاً دفع بهم إلى أكل لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة لحوم أعدائهم، وبلغ بهم الأمر في إحدى غزواتهم في الصين - التى شنوا عليها عدة غارات حتى أتموا غزوها سنة ٦١٥ - أن كانوا يضحون بواحد من كل عشرة رجال في جيوشهم حينما تدعوهم الحاجة إلى ذلك ليكون طعامًا للباقين [١].

وكان المغول يتنقلون للرعى وفق ما تمليه عليهم ظروف بيئتهم، حيث كانوا ينتقلون شمالاً للمراعى الصيفية حينما تذوب الثلوج، على حين كانوا يتجهون صوب

(١) محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس في الإسلام، ص ٩.

الجنوب مع الشتاء إلى المراعى الشتوية على ما جرت به عادة أهل السهوب.

وكان ارتباط المغول ببيئتهم في شرق آسيا تدفع بهم إلى المضى قدمًا نحو الخير ومدافعة الشرور والآثام من خلال الالتجاء إلى الطبيعة، وصار من الطبيعى أن يلجأوا إلى الكهنة من الرجال الذين عرفوا بولعهم بعلوم الطبيعة كعلم الفلك ومعرفة وقوع الكسوف والخسوف في أوقاتها، وأخذوا عنهم الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة، ويعرف هؤلاء من رجال الدين باسم الشامان، وظل الشامان هؤلاء موضع تقدير المغول واحتلوا مكانة رفيعة تتسم بالقداسة والإجلال، حتى صارت الوثنية عندهم تعرف بالديانة الشامانية، وكان المغول طبقًا للعقيدة الشامانية يعبدون كل شيء يسموا على مداركهم وما يرهبهم، وينزل بهم خوفًا وهلعًا، فكانوا يعبدون طائفة من الظواهر الطبيعية. ومن ذلك الجبل والشجرة الكبيرة والشمس والقمر والبرق الخاطف والرعد القاصف.

وبلغ رجال الشامان نفوذًا خفيًا وسلطانًا غريبًا حتى قيل: إن رؤوساء المغول كانوا يأخذون بآراء رجال الدين هؤلاء حينما يقبلون على عمل هام، وأنهم لا يعبئون الجيوش أو يدخلون حربًا إلا بعد الرجوع إليهم، وأخذ موافقتهم، ومما قيل: إن هؤلاء الشامان كانوا يعتمدون فيما يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقوق التى تظهر على أكتاف الحيوانات المحروقة، وأنهم كانوا يعتبرون الأغنام والوعول هى أصلح الحيوانات لهذا الغرض، خاصة إذا كانت مقدمة كقرابين للألهة (١).

تاريخ المغول قبل ظهور جنكيزخان:

تقول الأسطورة التاريخية، بأن اثنين من أفراد المغول كانا يقومان بالصيد في البرارى هما الأخوين دوا سوقور (أى ذو العين الواحدة) ومرجين (دوبون الحكيم)، وبينما كانا يتسلقان أحد الجبال إذ لمحا مجموعة من الناس يرعون في سفح الجبل ووقعت عين دوبون الحكيم على امرأة شقراء تسير أمام القافلة فوقع في قلبه الغرام بها، وكانت هذه المرأة هى قوا أى (أى ألان الشقراء)، وكانت من أصل طيب تنتمى إلى قبيلة قورى تميت التى كانت تعيش على صد حيوانات الفراء على الشاطئ

(١) محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس في الإسلام، ص ١٠.

الغربى لبحيرة بايكال، وكان والدها ويدعى قوريلاتى قد تشاجر مع عائلته وترك الغابات حيث مسقط رأسه، وسار مع أفراد أسرته طلبًا للرزق على سفوح جبل برقان قالدون بالقرب من منازل قبائل المغول، فلما تقدم دوبون الحكيم لخطبة يد ابنته " ألان الشقراء " رحب بذلك الطلب وأسرع للموافقة عليه، حيث وجد في هذه الزيجة السكن والملاذ الآمِنْ في جوار قبيلة قوية تقدم له الحماية، وليعيش بأمان بين ظهرانى هذه البلاد الجديدة التى قدم إليها. وهكذا تزوج دوبون الحكيم من ألان الشقراء [١].

وقد أثمر هذا الزواج عن إنجاب خمسة بنين ذكور [٢]، ثم بعد أن مات دوبون جمعت الأم أبناءها وحثت على الاتحاد وعدم التفرق لأن في الاتحاد قوة، وأعطت كل ولد من أولادها سهمًا، وطلبت منه أن يكسره، وقد نفذ كل واحد منهم ما أمرته به دون صعوبة، ثم سلمتهم حزمة مؤلفة من خمسة سهام، فلم يستطع أى منهم أن يكسر الحزمة، وهنا بدأت الأم تفسر لهم مغزى هذه القصة بقولها: يا أولادى إذا تفرقتم فإن عدوكم سوف يأسركم واحدا تلو الآخر، كما كسرتم السهام فرادى، ولكن إذا بقيتم مرتبطين متلاحمين كالسهام في الحزمة فلا يستطيع أن يغلبكم أو يكسركم [٣].

وبعد وفاة الأم ألان الشقراء، لم يعمل بنوها - في بداية الأمر - بنصيحتها، وتفرقوا، حيث تم تقسيم قطعانها ومواشيها بين أبنائها الأربعة، بينما حرم الابن الخامس وكان يسمى (بودونشار) من أى حق في ميراثها لصغر سنه وضعفه.

ولم يجد بودونشار بُدًّا من الخروج والنزوح بعيدًا عن إخوته والسعى خلف الصيد في الغابات، وظل يضرب في الأرض حتى وصل إلى أسفل وادى نهر أونون، ثم التحق بقبيلة جارشوأوت المغولية الذين عاملوه بكل كرم وثقة، وأوه

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٥.

(٢) تقول الأسطورة أن دوبون الحكيم كان في أحد رحلات الصيد وبعد أن حاز صيدا وفيرا مرَّ على رجل فقير وضعيف وبصحبته ابنه، وكان هذا الرجل يتضور من شدة الجوع، فعرض على دوبون الحكيم أن يبيعه ابنه مقابل أن يعطيه بعض الطعام، فوافق على الفور دوبون الحكيم، واصطحب معه هذا الغلام وجعله كخادم له، ثم إنه بعد أن أنجب طفلين من ألان الشقراء مات، ثم أنجبت ألان الشقراء من بعده ثلاثة أبناء، أغلب الظن أن هؤلاء الثلاثة كانوا من نسل هذا الغلام الذى اشتراه دوبون الحكيم. رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٨.

(٣) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٩.

ونصروه، وأضافوه عندهم، وقدموا له الحليب يوميًّا، وأنقذوا حياته.

وبعد فترة من الزمن تذكر الأخوة الأربعة أن لهم أخًا، قد انفصل عنهم، فخرج الأخ الأكبر لبودونشار وهو بوجو كاتاجى (أى الوعل القوي) للبحث عن أخيه واستعادته من جديد، فلما وصل إليه والتقى الأخوان وعرفا بعضهما البعض، أباح الأخ الأصغر لأخيه الأكبر عن ملاحظة مهمة من خلال معايشته لقبيلة جارشو أوت فقال: " إن القبيلة التى عشت بجانبها كانت تُسيِّر شئونها دون وجود رؤساء لها، وهذا يسبب الفوضى، فهم لا يميزون بين الرأس والقدم، فلا فرق بينهما عندهم، ولما كانت أمورهم بهذا الشكل فليس من الصعب مباغتتهم والاستيلاء على كل ما لديهم من أموال ومواشٍ ".

عندما سمع الأخ الأكبر هذا الكلام راقت له هذه الفكرة خصوصًا أن وراءها الحظ الربح غير المرتقب، ثم رجع الأخوان إلى معسكر العائلة حيث استحسن الأخوة الثلاثة الباقون هذه الفكرة هم أيضا، وهب الجميع وامتطوا خيولهم حيث كان بودونشار يقيم، وكان هو على رأسهم يقودهم، وفى طريقهم أسروا امرأة شابة حبلى وأجبروها على إخبارهم عن أحوال تلك القبيلة، وقاموا بمهاجمة القبيلة واستولوا على القطعان والمؤن وسبوا النساء وقتلوا الرجال.

إن هذه القصة تظهر لنا العادات والأعراف الوحشية على حقيقتها الفجة، فإن بودونشار البسيط الذى أذله إخوته واضطروه للاعتزال وترك، وطنه بسبب ضعفه يعود إلى إخوته معززًا مكرمًا، وذلك لأنه جازى مضيفيه من قبيلة جارشو أوت الذين عاملوه بكرم وثقة فيه، وجازاهم بكل خيانة ونذالة، وهذا العمل على خسته ونذالته يعد مظهرًا من مظاهر المجد لدى المغول وصارت هى القانون الذى سار عليه أبناء وأحفاد بودونشار من بعده في تعاملهم مع الدول والأشخاص وهدم الحضارات (١).

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ١٤.

وقد حاول بودونشار وأبناؤه من بعده تحقيق وحدة القبائل المغولية - الذى حققه فعلاً جنكيزخان فيما بعد -، وقد حدث أن توحدت القبائل المغولية فعلاً في كثير من الحالات، ولكن سرعان ما انفرط عقد هذا التحالف، لتعود حالة الانقسام والتفتت القبلى القديم، والخصومات المريرة والفوضى والعجز، وتلك الحالة التى كان عليها المغول قبل جنكيزخان.

وقد حاول كثير من أبناء بودونشور تحقيق وحدة المغول ولكن دائمًا ما كانت تلك المحاولات تصطدم بصخرة التفرق والتشرذم التى جبل عليها قبائل البدو الرحل الذين كانوا يعيشون على الصيد والرعي، حتى جاء حفيد بودونشار والذى يدعى " مينين تودون " وقد أضنته المحاولات لتوحيد المغول، حتى قضى نحبه وهو مايزال في ريعان الشباب، تاركًا خلفه زوجته " نومولون " وسبعة من البنين، كان أكبرهم هو " قاش كولوج " (أى قاش البطل)، وأصغرهم هو " ناشين باتور " (أى ناشين الشجاع)، وأصبح على هذه المرأة مهمة تربية أبنائها والحفاظ على ملكية زوجها على قبائل المغول، ولكن في ظل حياة المغول التى لم تكن تعترف إلا بسلطة الأقوى، لم تستطع تلك المرأة أن تحافظ على ميراث زوجها، ولم تصمد أمام هجرات قبائل الجلائر على أراضيها، ولم تستطع صد هجماتهم، وراحت ضحية لأحد هذه الهجمات ولم تكن وحدها بل لقى معظم أبنائها نفس المصير، ولم يبق من أبنائها السبعة سوى الابن الأصغر ناشين الشجاع الذى كان قد سبق تلك الهجمات وهاجر إلى بلاد أرغوشين واستقر هناك وتزوج وأقام هو وأسرته الجديدة في البلاد الجديدة على الشاطئ الشرقى لبحيرة بايكال، ولم يبق من العائلة أيضًا سوى طفل صغير يدعى قايدو، وهو ابن قاشى كولوج أى الولد الأكبر لنومولون، وأصبح هذا الطفل الصغير هو الوريث الرئيسى للأسرة بصفته ابن الأخ الأكبر (١).

وعندما وصلت الأخبار لباتور الشجاع عن ذبح عائلته على ضفاف نهر الأونون (موطن أسرته) انطلق بأقصى سرعة متجها إلى أراضى عائلته على ضفاف الأونون العليا، ولكنه لم يستطع فعل شيء إذ لم يجد سوى بعض العجائز اللواتى لم يهتم

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص١٤.

الجلائر بهن، ومعهن ابن أخيه الطفل قايدو الذى أنقذنه في الوقت المناسب بوضعه خلف كومة من الحطب، أو تحت جرة من جرار الحليب.

واستشاط ناشين الرجل الشجاع الحساس غضبًا وغيظًا، وأصبح يتحرق للانتقام لعائلته، ولإرجاع الخيول التى سلبها المعتدون، والتى تعد ثروة البدوى الحقيقية، فركب حصانه وسار خلف الجلائر وظل يتحين الفرص المناسبة التى ينقض فيها عليهم، وتوجه رأسًا إلى خيام العدو على نهر كيرولين، وقابل أولاً فارسين كل منهما على مسافة من الآخر، فاقترب من الفارس الأصغر، وسأله إذا كان قد رأى حصانًا فحلاً على رأس قطيع من الخيول متجهًا نحو الشرق، ودخل معهما في حديث ولكنه غافلهما وهما يدوران في طريق متعرج، وطعن الفارس الذى كان يتحدث معه ببرود وهدوء مدهش، ثم توجه رويدًا رويدًا إلى الفارس الآخر - وكان قد أصبح على مسافة فلم يعلم ماذا يحدث - وبعد قليل انتهز فرصة وأجهز على الفارس الآخر وقتله، وحاز الخيول التى كانت معهما، ثم تقدم في السير فرأى بضعة مئات من الخيول ترعى في أحد الوديان يراقبها بضعة من الرعيان الشباب، ولم يتطرق إلى ذهنه أى شك أن هذه الخيول هى خيول عائلته، فصعد أعلى التلة، وأخذ يراقب الأفق بعناية، فلم ير أى رجل مسلح قريب من المنطقة، إذ إن رجال العدو بعد أن حققوا النصر عادوا لممارسة أعمالهم اليومية العادية، عندها انقض ناشين الشجاع على جملة الشباب الرعاة وقتلهم، ثم ساق قطيع الخيول إلى مراعى عائلته حيث شعر أنه يدخل دخول الظافرين، ولكنه خشية أن يعود الجلائريون إلى مهاجمته جمع كل من احتوته المنطقة من أهله الطاعنين في السن ومعهم قايدو ابن أخيه، وكذلك الفحول من الخيل والخصيان منها والأفراس، وتوجه بهم إلى منطقة زوجته حيث الغدران والوديان الواقعة شرقى بحيرة بايكال، وهى أراضى باغو [(١)].

وبعد أن بلغ قايدو مبلغ الرجال اعترف به عمه ناشين الشجاع زعيمًا لقبائل المغول عن طيب خاطر، وعندها قاد قايدو شعبه لحرب انتقامية ضد الجلائريين فكسرهم شر كسرة، وأخذ منهم الجزية، بل إنه نصب معسكرًا في المقر القديم لآبائه وأجداده إلى الجنوب الشرقى لجبل كنتى قرب منابع الأونون والكيرولين المقدسة.

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ١٨.

وهرعت الأسر من مختلف القبائل واحدة تلو الأخرى لتضع نفسها تحت حمايته، وارتفع عدد أتباعه يومًا بعد يوم، وكان قايدو مثالاً مجسدًا للسيادة البدوية، فقد كانت شخصية الزعيم وهيبته لازمة كملاذ للعشائر المنكسرة الجائعة والأسر المنعزلة التى تبحث عن حام لها، وللمغامرين المتعطشين للعب بسيوفهم، ولرماة السهام الذين يتوقون للاستفادة من رمايتهم في جلب الغنائم ولحم الطرائد، فالمملكة التى أسسها قايدو هى أول مملكة مغولية في التاريخ، وكانت هذه المملكة صوتًا من وراء الغيب يبشر بقدوم جنكيزخان، فقد كان قايدو أول رجل من شعبه حاز لقب خان (أى ملك) ولكن بعضهم يطلق عليه لقب " قاغان " أى إمبراطور، ولكن من الواضح أن هذه التسمية أتت في وقت متأخر كما لو أن الفاتحين بعد جنكيزخان أرادوا أن يكونوا من نسل رجال عظماء أيضًا.

ومن الناحية الأخرى نرى أن صعود نجم قايدو المفاجئ وهو الذى نجا من الموت بعد تلك المذبحة الرهيبة التى أتت على جميع أفراد أسرته، هذا الصعود المفاجئ يقدم لنا صورة حية عن تفاهة إمبراطوريات البدو الرحل، وكيف أن القبيلة يمكن أن تصبح بين عشية وضحاها صفرًا ليس لها أى شأن عندما تخسر أراضيها ويذبح رجالها وتصادر خيولها، ثم كيف أن هذه القبيلة ربما عادت إلى سابق مجدها وتوسعت في اللحظة التى تسنح لها ظروفها الجديدة بممارسة شئونها الخاصة في الصيد وتربية المواشي، أما بالنسبة لتوقيت هذه الحوادث فلا يمكننا أن نحدد تواريخ دقيقة، ولكن هنالك دلائل تشير إلى أن الحوادث التى لخصناها تعود إلى الثلث الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى (١).

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ١٩.

دخول المغول المعترك السياسي:

بعد وفاة قايدو أول خان مغولي، انقسمت القبائل المغولية بين أبنائه الثلاثة، مما أضعف مركز الأسرة بين بقية القبائل، وكان أبرز أبنائه هو الابن الأكبر وكان يدعى باى شنقور دوقشين (أى الصقر المريع)، وكان شخصية قوية وبالرغم من ذلك لم نسمع كثيرًا عن أعماله ولم يكن كشخصية أبيه، ولكن حفيد هذا الخان ويدعى وهو الخان قابول كان زعيمًا مقتدرًا، ففى زمنه دخل المغول في غمرة السياسة العالمية، بعد أن كانت آفاقهم السياسية لا تتعدى سكناهم في محيط جبل كنتي، فأصبحوا قوة لا يستهان بها، وأخذ بلاط بكين يحسب لهم حساب.

كانت بكين والصين الشمالية في ذلك الزمن تحت سلطة جماعة الجورشيت الذين أتوا من منشوريا، وكان أمراء الجورشيت يحملون اللقب الصينى " كن " أي: ملوك الذهب، وقد سيطروا على المنطقة الممتدة من غابات نهر آمور إلى مدخل منطقة يانجتز - كيانج، ثم توسعوا حتى وصلوا إلى نهر يانجتز على حساب الإمبراطورية الصينية التى بدأت تتقلص بعد مجيئهم وتتحصر في الجنوب، وبما أن ملوك الذهب تاقوا إلى تأمين ظهورهم ضد خطر المغول في منغوليا لذلك عمدوا إلى مدِّ يَدِّ الصداقة للخان قابول، الذى تجمعت تحت سيطرته قبائل كنتي، وأصبح مصدرًا من مصادر التهديد لسلطتهم، فدعا ملك الذهب الزعيم المغولى الخان قابول لزيارته في بلاطه، إما في بكين نفسها أو في أحد منتجعات الصيد الملكية في منشوريا.

وقبل الخان المغولى الدعوة ولباها، حيث التقى مع قيادات الدولة الصينية، حيث انبهر هذا الخان المغولى بالحضارة الصينية، ثم عاد إلى وطنه محملاً بالهدايا الثمينة من الذهب والحجارة الكريمة والحلل الملكية. ولكن سرعان ما توترت العلاقات بين كلا الرجلين وسعى ملك الذهب إلى اعتقال الخان المغولي، فأرسل إليه ملك الذهب - بناء على نصيحة بعض مستشاريه المغرضين - يستدعيه لزيارته مرة ثانية، ولكن الخان المغولى اشتم رائحة الغدر والمؤامرة فرفض العودة إلى بلاط ملك الذهب، وعندها قبض عليه المبعوثون الذين أرسلهم ملك الذهب ولكنه أفلت منهم، وامتطى صهوة مهرته الشهباء، واستطاع الهرب من الشرك الذى وضع له، ثم عاد ووضع نهاية دامية لمبعوثى بلاط بكين.

وفى عام ١١٣٩م وعام ١١٤٧م تورط الصينيون في حرب في الشمال ضد المغول، واضطروا للتنازل لهم عن عدة مقاطعات على الحدود، وشرع الملك الصينى ابتداء من العام ١١٤٨ م في إرسال هدايا ثمينة للقبائل المغولية من المواشى والأغنام والحبوب، وذلك بمثابة جزية لتأمين السلم على حدود بلاد المغول، وتذكر مصادر المغول أن ملك الذهب اعترف بعدوه الزعيم المغولى وشرفه بأن أنعم عليه بلقب ملك المغول، مع التحفظ بأنه يعتبره شخصًا تحت حمايته ورعايته.

ثم إن الخان المغولى " قابول " ترك سبعة أبناء أقوياء شجعان استحقوا لقب " كيات " أى السيول، ذلك اللقب الذى ورثه أحفادهم، ويرد ذكر هؤلاء الأبناء السبعة مرارًا وتكرارًا في أشعار الشعراء المغول الغنائيين، لأن هؤلاء البدو الرحل مع أنهم وصلوا حتى إلى درجة الشحاذين، إلا أنهم كانوا متمسكين بأنسابهم وأصولهم بكل فخر واعتزاز.

وهؤلاء السبعة هم: أوكينبار قاق، وبارتان باتور (الشجاع)، وقوتوقتو مونجور، وأوتولا، وقولان، وقاداغان، وتودوبين.

ولكن وعلى الرغم من أن الخان المغولى قابول قد ترك سبعة رجال كان كل واحد منهم حريًّا بلقب الخان، إلا أنه لم يورث إى واحد من أبنائه هؤلاء العرش، ولكنه نقل الملكية إلى ابن عمه أمباقي، وهو أحد أحفاد الخان المغولى قايدو زعيم عشيرة تاى شى أوت (١).

الخلاف بين المغول والتتار:

كانت بداية الخلاف بين المغول والتتار عندما مرض صهر الخان قابول، فدعى لمعالجته أحد السحرة الشامان (التتار) ولكن هذا الساحر لم يستطع بما أوتى من قوة وسحر أن يمنع موت الرجل المريض، مما جعل أقارب الميت الغاضبين يتهمون الساحر بالنوايا السيئة، وبالتالى اللحاق به وهو راجع إلى بيته وقتله، وهذا ماجعل التتار يحملون السلاح حالاً للانتقام لكاهنهم، بينما بدأ أبناء قابول بالاستعداد لقتالهم.

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص٢٣.

وظلت الخلافات قائمة بين الشعبين المغولى والتترى ولم يوقف نزيف الدم بين القبيلتين إلا مصالح بلاط بكين وملك الذهب اللذان رأيا في هذا الخصام فرصة لضرب البدوى بالبدوي، وبهذه الطريقة يأمنان غاراتهما، وعلى هذا عندما قويت شوكة المغول قررت حكومة بكين أن تساعد التتار في تلك الظروف، وعندما اتحد التتار والجورشيت استطاعا أن يضعا القوة المغولية تحت محك الاختبار.

وقد حاول الخان المغولى الجديد أمباقى أن يضع حَدًّا للخلاف بين المغول والتتار ولا سيما وأنهما من أصول واحدة، وهو الأصل التركي، فسعى إلى التحالف مع قبائل التتار، وسعى إلى تزويج إحدى بناته من أحد زعماء التتار الذين يقطنون على نهر أورشيؤن بين بحيرتى كولين وبويور، ولكن الحقد الذى بين المغول والتتار كان أكبر من أن تذيبه مثل هذه الزيجة، إذ عندما توجه أمباقى ومعه ابنته إلى بلاد أصهاره الجدد، قامت قبيلة تترية بالقبض عليه شخصيًّا ثم حملته تحت حراسة مشددة وسلمته إلى ملك الذهب، وعلى ما يبدو أن بلاط بكين كان يضمر السخط الشديد على المغول، فقد أذاق الخان المغولى أفظع أنواع العذاب حتى الموت، وبعد فترة من الزمن أخذ الابن الأكبر للخان المغولى قابول وهو أوكين بارقاق أسيرًا وسلم إلى ملك الذهب، الذى أمر بتعذيبه وقتله هو الآخر.

ومثل هذه الفظائع لا يمكن أن تنسى، فقد عمل أمباقى قبل قتله على إرسال رسالة على يد رسول يدعى بالأقاشى من قبيلة بيزوت إلى قوتولا وهو أقوى ولد من أبناء الخان المتوفى قابول، وكذلك إلى أبنائه قال فيها: " إننى أنا الزعيم الأكبر للمغول، قد أمسكنى التتار وأنا ذاهب مع ابنتى إليهم، فليكن ما حدث لى درسًا لكم لا تنسونه، والآن عليكم أن تنتقموا لى حتى لو حطمتم أظافركم وأنتم تشدون أوتار قِسِّيكم، لا بل وحتى لو حطم الواحد منكم أصابعه العشرة " وقبل موته حذر أمباقى ملك الذهب من أن الانتقام منه سوف يكون مريعًا، وفى الحقيقة فإن الحقد الدفين ظل يتأجج في قلوب المغول، وهو ذلك الحقد الذى عمد جنكيزخان إلى إطفائه وإسكان أواره بواسطة حمامات الدم التى بدأها أولا مع آخر ملك تتاري، وبعده مع آخر ملوك

الذهب [١].

وبعد وفاة أمباقى المأساوية، أجمع المغول على انتخاب قوتولا الابن الثالث للخان المتوفى قابول، ولم يكد قوتولا يرتقى إلى العرش حتى بادر مع أخيه قادا آن إلى إثارة الحرب مع التتار، للثأر لأمباقي، وخاض ثلاث عشرة معركة مع الزعيمين التتريين كوتون / برقا، وجالى / بوقا (الثور)، غير أنه وبالرغم من الجهود المضنية التى بذلها الخان المغولى إلا أنها لم تؤت ثمارها المرجوة في الانتقام من التتار وتحقيق انتصار حاسم عليهم وإنزال العقاب بهم، اللهم إلا ما ذكر من أن يسوكاى الشجاع - والد جنكيزخان - ابن أخى قوتولا قد أسر في إحدى المعارك زعماء تتاريين من بينهم " تيموجين أوج " [٢] و " قورى بوقا "، وسوف نعرف أن جنكيزخان المستقبل كان مدين باسمه لتلك الظروف. وكان انتصار يسوكاى هذا كان في العام ١١٦٦م.

وبالرغم من أن الخان قوتولا لم يحقق أى انتصار حاسم على التتار إلا أنه أراد أن يمد غزواته ويوسعها باتجاه أراضى ملك الذهب، ومن المحتمل أيضًا أن يكون قد مدَّ غزواته إلى أراضى منشوريا المغولية الحالية، ولكن لم يستطع فعل شيء أمام تحالف ملك الذهب مع قبائل التتار، حيث تؤكد المصادر الصينية أنه في عام ١١٦١م قرر ملك الذهب أن يضع حدًّا إلى الأبد لغزوات البدو المغول، فأرسل جيشًا إلى منغوليا تسانده قوات من التتار، تمكن هذا الجيش أن يضع حدًّا لهجمات المغول، بل ويعلى من قدر التتار وجعلهم هم أسياد لمنطقة جوبى ويسيطرون على المغول، وتنامت قوى التتار بدرجة كبيرة جعلت ملك الذهب الصديق لهم يشعر بالخوف من تنامى قوتهم وعدم الرضى عنهم.

ولم يعرف شيء عن نهاية الخان المغولى " قوتولا "، وكل ما ذكر أنه ترك ثلاثة أبناء هم: " جوشى "، " وجريماو "، " وألتان "، ولكن لم يستول أى منهم على السلطة، وحتى ابن أخيه يسوكاى الشجاع، الذى ظلت الملحمة المغولية تمجده وتطلق

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٢٧ - ٢٨.
(٢) وقد سمى يسوكاى الشجاع ابنه تيموجين (جنكيزخان) نسبة إلى هذا الأمير التترى المأسور لديه.

عليه لقب خان لا يوجد إثبات على أنه أصبح خان بعد عمه، ولكن أهميته الخاصة تتبع من كونه والد جنكيزخان، والواضح هنا فقط أن المملكة المغولية الأولى حطمها اتحاد التتار مع ملوك الذهب، إنما كيف؟ لاندري!؟ فقد انهارت مرة ثانية وانقسمت إلى عدة إمارات قبلية لا قيمة لها.

وبسقوط أول دولة مغولية يبدو أن الفوضى التامة قد سادت بين صفوف الشعب المغولي، وليس مرد هذا إلى انحلال الروابط السياسية فحسب، بل لتفكك الروابط العائلية أيضًا، وأصبح المغول يعيشون حالة من اللصوصية وقطع الطريق كوسيلة لكسب العيش، وسرقة الخيول والاغتصاب وقتل الأخ أو الأخت، فلقد أخبر كوكوشو أبناء جنكيزخان بما يلي: " قبل ولادتكم كانت منغوليا في لجة من الفوضى والاضطراب، في كل مكان كانت القبيلة تحارب القبيلة الأخرى ولم يكن هناك أى نوع من الأمان " (١).

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٣٢، بعد هذا العرض يتضح لنا أنَّ المغول والتتار شعبان مختلفان، كان كلاهما يسكن هضبة منغوليا، فيقطن التتار جنوبها جهة الصين، ويحتل المغول شمالها جهة سيبريا، بل كانت مراعى المغول تمتد صيفًا حتى أقاصى سيبيريا.
وطبعًا كان كلا الشعبين (و هما أبناء عمومة مع الترك) يعيشان على الرعي، ولكن كان للتتار حضارة بدائية نتيجة احتكاكهم بالصينيين. بل إن آخر الأسر الحاكمة لشمال الصين قبل سقوطها في أيد جنكيزخان كانت ترجع أصولها إلى التتار!! وحين ظهرت حركة جنكيزخان استطاع توحيد الشعبين وذلك في مطلع القرن الثالث عشر الميلادى وكان هو قد بلغ الأربعين من العمر، حيث ولد ما بين ١١٦٥ م و١١٦٧ م. ثم قادهما لغزو الصين، ثم بلاد خوارزم وفارس وروسيا.. إلخ.
و كون جنكيزخان مغوليًا جعل الرياسة للمغول، في حين كان التتار على الأغلب يتحكمون نسبيًّا في المغول قبل ظهور جنكيزخان. وكان أكابر قادته كسابوتاى وجيبى وغيرهما من المغول أيضًا، ولم يمنع ذلك ظهور بعض الوزراء من التتار، لاحتياجه إليهم نظرًا لتحضرهم النسبى مقارنة بالمغول.
أما سبب ذكر مؤرخى الإسلام للتتار عوضًا عن المغول فلأمور:
الأول: كون طلائع الجيوش الغازية لبلاد الإسلام من التتار، فقد كان المغول يقدمونهم لتجنب وقوع الخسائر في صفوفهم (المغول).
الثاني: هو اعتياد المغول على الأجواء الباردة ونفرتهم من الحر، لاعتيادهم سكنى شمال هضبة منغوليا وسيبيريا، فكانوا يعودون لبلادهم بعد انتهاء الغزو ويتركون في البلاد حاميات من التتار.
الثالث: أن غزوات التتار المتأخرة بقيادة " تيمورلنك "، ومشابهة التتار للمغول في كل شيء جعلت مؤرخى الإسلام ينسبون الجميع إلى العنصر التتاري.

" يسوكاى الشجاع " وبداية ملامح دولة المغول:

بعد سقوط دولة المغول الأولى على يد التتار وبلاط بكين وبعد مقتل الخان المغولى قوتولا، وبعد تفرق المغول شعوبًا وقبائل، بدأت تلوح في الأفق شخصية مهمة كان لها الدور الأبرز في تاريخ المغول، هى شخصية يسوكاى الشجاع ابن أخ الخان المغولى قوتولا، حيث بدأ يجمع حوله قبيلة كيات - أحد قبائل المغول الثانوية - وأخذ يرسى دعائم الدولة المغولية الجديدة وتأمينها والحفاظ على سيادتها ضد غوائل القبائل الأخرى، فبدأ في التحالف مع قبيلة كرايت المغولية القوية، والتى امتازت بأن المسيحية قد انتشرت بينهم منذ بدايات القرن الحادى عشر الميلادي، وكانت هذه القبيلة قد دخلت في حرب شعواء مع التتار لطردهم من صحراء جوبى التى كانوا يعيشون بالقرب منها، ولكن تدخل بلاط ملك الذهب في بكين إلى جانب التتار رجح كفتهم فتمكنوا من هزيمة قبيلة " كرايت " بزعامة ملكهم " مرغز بيروق "، بل وأسر الخان المغول هو وسلموه إلى ممثلى ملك الذهب حيث لقى نفس النهاية المشينة التى لقيها الأمراء المغوليين الأوائل، الذين سبق أن ذكرنا مصيرهم.

وقد ترك هذا الخان ولدين هما: قرجاقوز، وقورخان، وقد تولى قرجاقوز السلطة بعد أبيه، ثم سعى إلى التحالف مع شعب النيمان المغولي، بالزواج من ابنة ملكهم، وقد أفاده هذا التحالف كثيرًا إذ حينما هاجمه التتار وأوغلوا في أرضه قدَّم له النيمان المساعدة وردوا التتار على أعقابهم، وبعد وفاة قرجاقوز خلفه ابنه الأكبر طغريل (الباز) (١) الذى كان قد أسره المغول وكان عمره لا يزال في الثالثة عشرة من عمره، وأرغموه على رعى جمالهم وخيولهم، ولكنه استطاع الفرار من قبضتهم، ثم تولى السلطة بعد أبيه، ولكنه - ولكى يضمن عدم منازعته السلطة - أقدم على قتل اثنين من إخوته، بينما فر الآخرون منه ولجأوا إلى قبيلة النيمان خوفًا أن ينالهم نفس المصير.

وقد قدَّم شعب النيمان بزعامة خانهم " إينانش بلق " يد المساعدة لهؤلاء الأمراء

---

(١) هذا الخان المغولى له أهمية كبيرة في التاريخ المغولي، إذ يذكر التاريخ أنه سوف يلجأ إلى يسوكاى - والد جنكيزخان - وسوف تربطهما علاقة صداقة ومودة ولذلك سوف يعمل فيما بعد على الاتصال بجنكيزخان ويقدم له الحماية في أوائل أيام شبابه.

الفارين، ضد أخيهم المستبد، ولما ثار " جور خان " - عم طغريل - قدم له المساعدة الكبيرة وساعده على الإطاحة بطغريل من سدة الحكم وأجبره على الفرار من بلاده إلى قبيلة المركيت المغولية وقدم ابنته هوجا أور لكى يتزوج بها ملكهم " طقتأى "، وكان يظن أن هذه الزيجة سوف تقدم له المساعدة في استعادة منصبه المسلوب منه، ولكن خاب مسعاه، ولم يجد أى معاونة من قبيلة المركيت.

ولما لم يجد طغريل مساعدة من المركيت لجأ إلى يسوكاى واستجار به على عمه جور خان، فأجابه يسوكاى بقوله: " بما أنك تستجير بى فإنى سوف أصطحب معى رجالى المقاتلين، وسوف نعمل معًا على إعادة حكمك على شعبك ". وبعد أن قال هذا الكلام جمع رجاله وبدأ في الهجوم على جور خان وأجبره على الهرب إلى قبيلة التانجوت.

وهكذا فقد كان لتدخل يسوكاى الشجاع الفضل في إعادة طغريل إلى عرش الكرايت، وقد أقسم يسوكاى وطغريل معًا على قسم الحب والصداقة الأبدية في الغابة السوداء حينما أعلن طغريل ليسوكاي: " لن تزول ذكرى الخدمات التى قدمتها لي، وتعبيرًا عن شكرى وامتنانى لك فإنى سأكون معينًا لك ولأبنائك وأحفادك من بعدك، والسماوات والأرض يشهدون على ما أقول ". إنه لقسم عظيم بموجبه صار يسوكاى وطغريل أخوين، وكلمات هذا القسم هى التى أكدت وأمنت في المستقبل حماية طغريل ورعايته لجنكيزخان بن يسوكاى [(١)].

على كل حال فإن يسوكاى أخذ يوطد نفوذه بين القبائل المغولية والمجاورة لقبيلته، بخلاف إحكام السيطرة على مقاليد الأمور داخل قبيلته، ثم إن يسوكاى قد أنجب من زوجته أو - إلون [(٢)] أربعة أبناء ذكور هم:

- تموجين (جنكيزخان): أول أبناءه وأكبرهم وأفضلهم، وهو الذى سوف يرث

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٤٣.

(٢) تقول قصة هذا الزواج أن أو - إلون كانت زوجة لأحد الأمراء المغول الذى خرج للصيد على ضفاف نهر أونون وكانت زوجته أو - إلون في صحبته، فلما رآها يسوكاى أعجب بها ووقع في قلبه غرامها، فقرر الاستيلاء عليها من زوجها بالقوة، وظل يطارد هذا الأمير هو وإخوته حتى اقتنص منه زوجته ثم تزوجها هو بعد ذلك.

والده ويُكَوِّنُ إمبراطورية المغول الكبيرة.

- جوجى قسار: كان على قدر كبير من القوة والشجاعة وكثيرًا ما كان يقف إلى جوار أخيه جنكيزخان في أزماته وحروبه مع أعدائه.

- قاجيون: كان ذا منزلة كبيرة لدى إخوته لحكمته.

- تموا تجكن أو أوتجى نويان: كان أقرب إخوته إلى قلب جنكيزخان لا سيما بعدما تزوج من امرأة كانت تمت بالصلة إلى زوجة جنكيزخان، واشتهر عنه ميله الشديد للعمارة والتشييد والبناء وإقامة القصور والحدائق.

كما كان ليسوكاى ولدان من زوجة أخرى اسمهما (بلكوتى نويان) و(بكتير) وكان دائما يلازمان جنكيزخان في حله وترحاله [١]

وظل يسوكاى يحكم قبيلته، ويعمل على تربية أبنائه، ولكن جاءت وفاته لتغير مجرى هذه الأسرة جميعًا، ففى أحد الأسفار التى كان يقوم بها يسوكاى اضطرته الظروف إلى المرور في ديار التتار، وكان يسوكاى عندها عطشًا فنزل ضيفًا على مجموعة من التتار وطلب منهم الماء لكى يروى ظمأه، ويبدو أنه قد نسى العداوة المتأصلة بينه وبين التتار، وعره التتار فقالوا: " إنه يسوكاى قد أتى إلينا! يسوكاى الذى أغار علينا فيما مضى عدة مرات، ها قد أتى وقت الانتقام، وقد ساق القدر لهم عدوهم اللدود فدسوا له السم في الطعام، ولكن السم كان من النوع البطيء، فلم يشعر بألم الموت إلا بعد مرور ثلاثة أيام بعد أن كان قد وصل إلى إهله وعشيرته، وسرعان ما عانى سكرات الموت، ولم يمكث طويلاً وانقضى أجله [٢].

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ١ / ٢٠٣ - ٢٠٧، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ١ / ٤١، رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص٥٩.

(٢) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٥٣.

إن موت يسوكاى الدرامى كان له وقعه الأليم على أسرته وقبيلته من بعده، فقد كان ابنه الأكبر تموجين (جنكيزخان) في الثالثة عشرة من عمره، فانفض عنهم أكثر الأقارب والأتباع، واستغلت قبيلته صغر سنه ورمته بالضعف، ورفضت أن تطيعه، وأعلن التمرد والعصيان، وبالرغم من أن أمه أو - إلون كانت على قدر كبير من النشاط ورجاحة العقل وبعد النظر، إلا أنها وأبناءها الأربعة كان ينقصهم شيء مهم جدًّا وهو القوة التى تحمى القبيلة والشعب والممتلكات، تلك القوة التى كانت هى المؤهل الحقيقى لحكم القبيلة وليس العقل وحده، ولذلك لما رحل كثير من أفراد القبيلة إلى قبائل التانجوت المجاورة - بحثا عن الأمان والحماية - لحقت بهم تلك المرأة لإثنائهم عن الرحيل قالوا لها: لا حاجة لنا في امرأة ضعيفة وأبناء مساكين.

وفى النهاية كان قرارهم: " إن الرباط القوى الذى كان يمنحنا القوة والمنعة قد ذهب، والصخرة التى كنا نحتمى وراءها قد تحطمت. ولم يبق غير المرأة وأبنائها، فما لنا وإياهم[1].

* * *

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ١ / ٤١.

الفصل الثاني:
جنكيزخان وإخضاع القبائل المغولية لسيطرته

بعد موت يسوكاى الشجاع عاش الابن الأكبر جنكيزخان (تموجين) أيام عصيبة حالكة السواد، عملت على صهره في آتون الحياة البدوية البربرية المتوحشة، فمن المعلوم طريقة المغول الوحشية الشرسة في الأحراش والسهوب، وحياة الكمائن والخيانة والخطف واصطياد الرجال، الأمر الذى كان بالنسبة لهم كصيد الغزلان البرية، وفى خضم هذا المجتمع القاسى قذف بذلك اليتيم تيموجين الشاب الصغير الذى حرم من حدب الوالد، ولما يتجاوز سن الصبا بعد [١].

وقد وصف مؤرخو المغول حياة " تيموجين " بأنها كانت عيشة ملؤها البؤس والشقاء، فقد نشأ على صيد الحيوانات والأسماك، واشترك مع إخوته الذين يصغرونه سنًّا في صيد الحيوانات الصغيرة التى توجد بالقرب من المراعى القريبة، مثل السمور [٢] أو الفأر البريّ، أو الثعلب الأسود. وكانوا يأكلون لحومها، ويدخرون الأوتار والجلد.

وكان باستطاعة " تيموجين " أن يبقى ثلاثة أو أربعة أيام بدون طعام، وكثيرًا ما كان يشعر بألم الجوع قبل أن يعثر على طعام جديد. وفى بعض الأحيان كان يخرج سِكينًا ويقطع وريدًا من أوردة فرسه الذى يركبه، ويشرب قليلاً من دمه ثم يسد الوريد، ويواصل طريقه، وحدث أن سرق من " تيموجين " عصفور وسمكة، فأقدم تيموجين على قتل السارق دون أن تأخذه في ذلك شفقة أو رحمة، وهذه الحادثة الأليمة إن دلت على شيء فإنها تدل على ما كانت تعانيه هذه الأسرة البائسة من شظف العيش، وما كانت تكابده من آلام الجوع والحرمان [٣].

وكان على جنكيزخان وإخوته وأمه الأرملة أن يواجهوا ليس شظف العيش فقط،

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٥٤.

(٢) السمور: حيوان برى يشبه السنور وهو من ثعالب الترك يتخذ من جلده الفراء للينه وخضته ودفئه وحسنه " حياة الحيوان " ١ / ٥٧٤.

(٣) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٤٢.

بل كان عليهم مواجهة خطر الوحدة بعد أن انفض عنهم الأقارب والأتباع، فبعد وفاة يسوكاى الشجاع عقد أمراء قبيلته مؤتمرًا مطولاً فيما بينهم، وبعد انفراط عقد المؤتمر أعلنوا الرحيل عن المنطقة وهدم الخيام التى كانوا يقيمون فيها، وترك الأرملة وأطفالها في مكانهم دون أى معين وليواجهوا مصيرهم المحتوم وحدهم.

لكن الأم (أو - إلون) لم تستسلم لليأس، فقد بدأت هذه المرأة الشجاعة العمل الدءوب الرائع بعد أن خانها وهجرها مع أطفالها كل من كانت تنتظر أن تعتمد عليه، وامتطت صهوة جوادها حاملة راية القبيلة، وبكل شجاعة خرجت خلف القبائل المرتحلة، وحاولت إثنائهم عن الرحيل وأخذت تذكرهم بما كان لزوجها عليهم من وعود وعهود، وأخذت تستجديهم أن يعودوا إلى ما كانوا عليه، ولكن توسلاتها ذهبت أدراج الرياح ولم تجد آذانًا صاغية ولا عقولاً ملبية [١].

لقد كان على هذه الأرملة أن تعتنى بجميع أطفالها الصغار، وقد هجرها كل أتباعها ورموا بها من حياة زعامة القبيلة إلى وجود أشبه بوجود الخارجين على القانون والضائعين الضالين بين الغابات والسهوب، في تلك البلاد الموحشة في أعالى نهر أونون، ولكن اليأس لم يجد إلى نفسها سبيلاً طيلة الوقت، فقد استجمعت قواها وتدبرت أحوال هؤلاء الأطفال بحيث لا يموتون جوعًا وعمدت إلى جمع ما تستطيع من القوت لأبنائها الصغار، وأخذت تطوف الأرض حول ضفاف نهر أونون تقطف التفاح البرى والتوت البرى وقد ساعدتها منطقة ما وراء هذا النهر حيث الغابات والمرتفعات حيث تكثر الأدغال والشجيرات التى تحمل عنب الدب أو عنب الأحراج أو العنبية، وهو نبات شوكى له ثمرة تشبه العنب الصغير، كل هذه الأثمار كانت تساعد قليلاً في إسكات جوع الجائعين المنبوذين، وقدمت الأشياء لأبنائها ليأكلوها، وكذا البصل والثوم، وحالما اشتد عودهم بدءوا بمساعدتها، فقد صنعوا الشباك لصيد الأسماك لاسيما أسماك السالمون الكبيرة، على ضفاف نهر الأونون [٢].

وكان للحياة الخشنة التى عاشها تيموجن (جنكيزخان) وإخوته ردود فعل عنيفة وفظة، لكنها منتظرة من شباب ربوا في المحيط الذى نشأ فيه هؤلاء الشباب، زد على

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٥٩.

(٢) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٦٠.

ذلك وجود بعض عوامل الحسد والغيرة التى لا تخلو من الأسر والأقارب مع الحقد والضغائن الأخوية الماكرة التى تزيد حياة العزلة والفقر في اشتعالها، وقد زاد من حدة هذه العوامل أن أبناء يسوكاى كانوا ينتمون إلى والدتين مختلفتين، أى أبناء السيدة " أو - إلون " الأربعة، وأكبرهم تيموجين، ثم أبناء الزوجة الأخرى سوشيجيل وهما بكتير وبلجوتي.

وفى أحد الأيام بينما كان تيموجين وأخوه الأصغر قاسار ومعهما أخواهما من أبيهما بكتير وبلجوتى جالسين على ضفاف النهر يصطادون السمك، إذا بهم يمسكون سمكة صغيرة ولكنها جميلة وبراقة، وفجأة حصل بينهم شجار حول من يأخذ هذه السمكة، وقد كان تيموجين وقاسار ضد بكتير وبلجوتي، وقد كان هذان الآخران أقوى جسديًا، لهذا امتلكا السمكة، ولكن عندما رجعوا جميعًا إلى خيامهم شكا تيموجين وقاسار إلى أمهما، وقالا: " كانت سمكة جميلة وبراقة في الشباك، ولكن بكتير وبلجوتى أخذاها منا "، ولكن أمهما (أو - إلون) لم تتعاطف معهما، إذ كانت تفكر بعقلية الزعيمة، وليس بعقلية الأم، ولم يهمها إلا مصلحة العشيرة والقبيلة، فقالت: " دعوا هذه القضايا، كيف تتقاتلون على هذه الأشياء وأنتم إخوة!؟ " ثم أخذت تذكرهم بحالتهم المزرية ووبختهم قائلة: " ليس لكم أى رفيق سوى ظلكم "، ثم شرعت تذكرهم بالواجب الملقى على عواتقهم، وهو أخذ الثأر، ثأر والدهم فقالت: " يجب عليكم أن تفكروا في شيء واحد فقط، وهو كيف تنتقمون للإساءة التى وجهت إليكم على يد قبائل التايشى أوت، فهل تريدون أن يبدر منكم الاختلاف الذى ظهر بين الأبناء الخمسة لألان الشقراء!؟ " (١).

ولكن كل هذا الكلام لم يقنع تيموجين وقاسار، إذ كانا يعتقدان أن أخوهما بكتير قد اعتاد على أخذ حقوقهما، فقبل مدة من الزمن اختطف منهما طائرًا كانا قد اصطاداه بسهامهما ولذلك ردًا على أمهما بقولهما: " بالأمس طائرًا واليوم سمكة، لهذا فنحن لا نستطيع أن نعيش معه! " واندفعا بغضب وبصورة جنونية كلها حقد وكراهية متوجهين إلى أخوهما لقتله، وكان يرعى خيول العائلة، فصوبا إليه سهامهما

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٦٢، هارولد لام، جنكيزخان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، ص ١٥ - ١٦، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول، ص ٤٢.

ولم تشفع له عندهما توسلاته، وأطلقا سهميهما عليه فأردياه قتيلاً.

وعندما رجعا إلى الخيمة التى يقيمان فيها، فهمت أمهما أو - إلون ما حدث بمجرد أن لاحظت تعابير وجهيهما المشؤمة الخبيثة، وصبت جام غضبها عليهما، وقالت: " أيها القاتلان... إنكما كالنمر الذى ينقض من فوق الصخرة، إنكما كالأسد الهادر الذى لا يستطيع أن يسيطر على غضبه، إنكما كالثعبان الضخم الذى يبغى التهام فريسته وهى حية،... إنكما كالذئب الذى يهاجم تحت ستار العاصفة، إنكما كالبطة البرية التى تفترس أولادها،... إنكم الوحش الذى يهاجم بشكل طائش أعمى، ولهذا فلن يصبح لكما رفيق سوى ظلكما، ولن يمكنكما في حياتكما أن تنتقما للعار الذى لحق بنا على يد التايشى أوت ". ولقد كانت دوافع تيموجين لقتل أخيه أكبر من مجرد سرقة طائر أو سمكة، فلقد أقدم على قتل أخيه الوحيد الذى كان بمقدوره أن يعارضه، وبمقتله فقد خلت له الساحة ليقوم بدور الزعامة والقيادة على نطاق الأسرة والقبيلة (١).

ولم تكن تلك الحياة البائسة هى وحدها أشد ما كان يعانيه جنكيزخان، فلقد عانى الأمرين من هجمات قبائل التايشى أوت التى كانت تناصبه العداء ولم تتركه وشأنه يقاسى شظف العيش، بل كانت تشن عليه الهجمات تلو الأخرى، فلقد كان زعيم تلك القبيلة تارقوتاى - قيريلتوق يتوق لمعرفة ماذا يحدث لعائلة يسوكاى الشجاع وما هو مآل ومصير أرملته وأبنائه، وكان يشعر بالندم لأنه لم يقض على هذه العائلة القضاء المبرم عندما كان الأطفال صغارًا وكان لسان حاله يقول: " إن أفراخ الشر لابد أن يكونوا قد اكتسوا بالريش الآن، وأصبحوا يستطيعون الطيران، فقد كانوا صغارًا يسيل اللعاب من أفواههم، ولكن الآن يجب أن يكونوا قد كبروا " لقد كان هذا الزعيم يشعر شعورًا غامضًا بالخطر، وكان لديه حدس بأن أبناء يسوكاى الشجاع، والأرملة القادرة سوف لن يسكتوا إلى الأبد عما لحق بهم من الأذى والضرر وسوف لا يتورعون عن إراقة دماء التايشى أوت لا محالة، ولذلك فكر في فكرة القضاء على هذه البراعم في مهدها، وإزالة خطر الانتقام، وذلك بالقبض على أفراد هذه الأسرة

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٦٢، هارولد لام، جنكيزخان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، ص ١٥ - ١٦، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول، ص ٤٢.

قبل فوات الأوان، وهكذا توجه زعيم التايشى أوت على رأس كوكبة من فرسانه إلى المراعى حيث سكنت الأم " أو - إلون " مع أولادها يعانون حياتهم التعيسة القاسية، وتمكن هذا الزعيم من أسر تيموجين (جنكيزخان)، ولم تفلح محاولات أمه في إخفائه عن أعينهم، حيث كان هو مقصدهم الأهم، فقد أعلن زعيم قبيلة التايشى أوت أنه لا يريد سوى تيموجين. ولما أسر تيموجين وضعوا في رقبته النير الخشبى الثقيل، وأخذوا يتنقلون به من خيمة إلى أخرى تحت حراسة مشددة بصفته سليل تلك العشيرة المعادية، وبصفته المنتقم المنتظر، فلم يكن أحد في عشيرة التايشى أوت يفكر في إخلاء سبيله، وكان عليه الانتظار أن تأتيه الفرصة المواتية للهرب من قبضتهم. ولكنه بدهائه وذكائه المعهود استطاع الخلاص والهروب من قبضتهم، وهو يملؤه الحقد والكراهية لهذه القبائل، وكله عزم وتصميم على الصبر والمثابرة حتى تسنح له الفرصة للانتقام من الأعداء [١].

لقد كانت التقلبات التى قابلها جنكيزخان في شبابه، والتجارب والمحن التى مر بها في حياته، ومقاومته للمناخ القاسي، وما فيه من برد قارص وحرارة خانقة، ومقدرته على تحمل آلام الجوع والحرمان لعدة أيام، وعدم اهتمامه بما يصيبه من جروح وآلام، أو بسوء معاملته في أيام الضعف والانكسار، هذه الظروف القاسية التى واجهت جنكيزخان، كانت جديرة بالقضاء على غيره، ولكن جنكيزخان خرج منها منتصرًا وقويًّا، وأكسبته القدرة على تحمل المشاق والصعوبات، وصنعت منه رجلاً صلبًا حديديًا أدهش العالم، ويصفه المؤرخون بأنه: كان رجلاً طويل القامة، قوى البنية، ضخم الجثة، له عينان كعينى القط، وهو في غاية الجلد والذكاء والعقل والدهاء والهيبة. وكان محاربًا عادلاً حازمًا شديد الوطأة على عدوه، شجاعًا سفاكًا متعطشًا للدماء [٢].

وفى ظل هذه الحياة القاسية، بدأ يظهر جبروت جنكيزخان وبطشه، فلقد أجاد فن الرماية، ومهر في الصيد، واشترك في حلبات سباق الخيل، وأتقن المصارعة،

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٧٠، هارولد لام، جنكيزخان وجحافل المغول، ص ١٥ - ١٦، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول، ص ٤٣.

(٢) الجوزجاني، طبقات ناصري، ص ٣٧٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٤٤.

وتفوق على أقرانه، وبالرغم من أنه كان يميل إلى النحافة فإنه كان باستطاعته أن يتغلب على أقوى الصبيان المصارعين، كما كان سريع الحركة، شديد المكر كالثعلب، كما برع في رسم الخطط وتدبير الأمور، وآمن بعقيدة راسخة تتلخص في أن البقاء للأقوى، فلقد ذكر المؤرخون أنه سرق منه اللصوص ثمانية أفراس - كانت هى كل ما تمتلكه أسرته -، فتحدث إخوته فيمن سوف يطارد اللصوص، فما كان من جنكيزخان - الزعيم المطاع داخل الأسرة - إلا أن قال لهم: " لا أحد منكم سوف ينجح، إن الذى سوف يطارد اللصوص هو أنا، وليس غيري. " وامتطى صهوة جواده وأسرع نحو المراعى العشبية مقتفيًا آثار اللصوص.

وظل جنكيزخان يعدو بفرسه ثلاثة أيام حتى أنهك التعب الفرس ولم يعد قادرًا على المواصلة، وكان قد وصل إلى قبيلة أرولات وزعيمها المدعو تاقوبايان (أى تاقو الغني) فقدم له ابنه الوحيد بو أورشو يد المساعدة وأبدله بفرسه المنهك فرسًا جديدًا أقوى وأسرع منه، بل اصطحبه في طريقه وساعده في استعادة قطيعه المسروق، وهنا شكر جنكيزخان صديقه بو أورشو بحرارة وقال له: " أيها الصديق كيف كان لى أن أسترد خيولى لولا مساعدتك؟ لهذا يجب أن نتقاسمها، فكم تريد منها؟ " ولكن بو أورشو الشهم رفض أن يأخذ شيئًا لأنه فعل ما فعل تعاطفًا مع الزعيم الصغير، فقال: " إننى لم أشترك معك في البحث إلا بعد أن رأيت أنك واقع في مأزق، فرغبت في مساعدتك لاسترداد مالك، فكيف إذن أقاسمك في قطيعك؟ إن والدى يعنى تاقو الغني، وإنى ولده الوحيد، وإن إرثه كاف لى وسوف لا أقبل منك شيء! " ومنذ تلك اللحظة وأصبح " بو أورشو " صديقًا حميمًا لجنكيزخان وسوف تتضح معالم هذه الصداقة فيما بعد، حينما يسطع نجم جنكيزخان، ويبدأ في إقامة إمبراطوريته الكبيرة على جثث وأشلاء الآخرين.

وسوف نرى فيما بعد وبشكل متتالٍ متتابع في علو الدرجة العشائر والقبائل والشعوب والممالك التى تخضع له وتصبح رهن إشارته، وقد أثرت مواهبه في الجميع، تلك المواهب القيادية، والإحساس المرهف بالعدالة والإنصاف، والامتنان لكل الخدمات التى تقدم له، وحبه المتفانى لأصدقائه القدامى أيام شبابه مثل " بو أورشو " ذلك الحب الذى يمكننا أن نعتبره مثاليًّا، وتلك الرقة وذلك الحنان للأصدقاء

لم يكن له ما يضاهيه ويقابله من جهة أخرى إلا تلك الشراسة المتناهية والقسوة التى كان يظهرها في التعامل مع أعدائه (١).

ثم كانت المرحلة الثانية من حياة جنكيزخان، حيث بدأ يتطلع إلى الزعامة والرياسة ولم تعد أسرته ولا قبيلته منتهى آماله، فسعى أولاً إلى الزواج، ولكن لم يكن الزواج العادى بغيته، بل سعى إلى زواج سياسى يقدم له الدعم والحماية قبل أن يكون زواجًا لإشباع الرغبات الفسيولوجية، فتقدم لخطبة الفتاة " بورتى " ابنة " ديشين " زعيم عشائر الأونجيرات، ولم يكن هناك ما يعوق تحقيق هذه الرغبة، فقد وصل جنكيزخان درجة من العلو والمكانة بين القبائل والعشائر المغولية جعلته محط ترحيب واهتمام كل زعماء العشائر والقبائل، كما أنه كان هناك اتفاق سابق بين يسوكاى وديشين على إتمام هذه الزيجة (٢).

على كل حال فقد تم الزواج بعد قليل من التقدم لخطبة الفتاة بورتي، التى كانت لها من الصفات ما جعل زوجها جنكيزخان يعتمد عليها كثيرًا في ممارسة ومباشرة أعباء الحكم أثناء غيابه في مهماته الحربية خارج البلاد، وسوف تقوم " بورتى " زوجة جنكيزخان بدورها، وسوف تكون نعم المعين والداعم الأول لقوته، ففى المقام الأول ولدت له أربعة أبناء أشداء، وهذا أمر أساسى وهام جدًّا بالنسبة للرجل المغولي، وأما أبناؤها فهم:

- جوجي.
- وجغتاي.
- وأوكتاي.
- وتولوي.

وفضلا عن ذلك فقد برهنت أنها مستشار حكيم لا يمكن الاستغناء عن

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٧٩، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول، ص ٤٥.
(٢) وكان يسوكاى الشجاع والد جنكيزخان قد خطب هذه الفتاة له قبل وفاته ولكن جاءت وفاته لتعطل هذه الزيجة، ثم ما قابل جنكيزخان من عقبات، جعلت من تحقيق هذه الزيجة أمرًا مستحيلاً ولكن شجاعة وصلابة جنكيزخان وما كان يتحلى به من صفات جعلت هذا الأمر شيئًا واقعًا.

مشورته، ففى اللحظات الحاسمة الحالكة عندما كان جنكيزخان المستقل يتردد في البت في أمر من الأمور، كانت أفكار بورتى هى التى تسود وتنفذ، إذ إن خلف تلك الأفكار كان الهدف وبعد النظر واضحًا، وقد تمتعت بورتى بالاحترام الشديد في عينى زوجها، ومن المؤكد أنه - كجميع زعماء المغول - لم يتردد في اتخاذ زوجات ثانويات، وكان يأخذهن في حملاته إلى البلدان البعيدة، بينما لم تبرح بورتى وظلت في منغوليا دائمًا، ثم إن أبناء بورتى فقط هم الذين كان لهم الحق في الوراثة والإرث، ومرتبة بورتى كانت أعلى المراتب، سواء بين الرجال أو النساء، ولم يتأثر احترامه لها حتى بعد أن سبتها عصابات المركيت ورجعت بعد تسعة أشهر وهى حامل، ثم ولدت ولدًا، ومراعاة لمشاعرها لم يقم جنكيزخان حتى بالتحقيق أو السؤال في هذه القضية الحساسة، وبقيت بورتى بعدها السيدة الأولى (القاتون، الخاتون) المفضلة، شريكة الفاتح في فتوحاته وانتصاراته في هذه الملحمة البطولية المذهلة (١).

ثم بدأ جنكيزخان في زيادة قوته العسكرية، فشرع في استدعاء صديقه الشاب (بو أورشو) ليكون رفيقًا له في المرحلة الحاسمة من حياته، فأرسل أخوه بلجوتى لإحضاره، ولم يتأخر الصديق الشاب عن تلبية الدعوة فقد حضر على وجه السرعة. إن " بو أورشو " له أهمية كبيرة في حياة جنكيزخان، إذ إنه سيصبح فيما بعد مارشال ذلك الجيش الضخم الذى سوف يغزو به العالم ويحطم الحضارات.

ثم كانت الخطوة التالية التى قام بها جنكيزخان أنه بدأ يبحث عن الحماية له ولدولته الناشئة من جانب القوى الأكبر منه، ولم يجد خيرًا من أصدقاء أبوه القدماء، فتقدم إلى صديق أبيه القديم طغريل، زعيم قبائل الكرايت، وقدم له نفسه، وذكره بما كان لأبيه عليه من يد بيضاء، وقدم له هدية ثمينة، وطلب منه الحماية مقابل الاعتراف بسيادته على بلاده.

---

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٨٢، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول ص ٤٥.

سر طغريل كثيرًا بالهدية، وطمأن جنكيزخان أنه سوف يكون له نعم المعين والمؤيد في استعادة مملكة والده وقال: " إنني سوف أرجع لك شعبك الذى تركك وتخلى عنك، وسوف ألم شعث أولئك الذين تشتتوا من شعبك "، وكان هذا الوعد اتفاقا مقدسًا وافق به ملك الكرايت على حماية ابن صديقه القديم، وبه اعترف تيموجين (جنكيزخان) بتأييدجه وتبعيته لطغريل، وقد ظل هذا الميثاق نافذ المفعول حتى عام ١٢٠٣م، وخلال تلك الفترة كان تأييد الكيرايت لجنكيزخان تامًّا ومؤكدًا لتمكينه من الانتصار على معظم القبائل المغولية، وإرجاعه إلى حظيرته حسبما وعد الملك، وبالمقابل فقد عمد جنكيزخان إلى مساعده ومليكه ضد أية حركة تقوم ضده، أو أى اعتداء يقع عليه (١).

بعد ذلك نظر جنكيزخان إلى ما جاوره من القبائل، وعزم على إخضاعها، فانتصر على قبيلة التايجوت التى كان قد لقى من زعيمها الهوان والعذاب، وبهذا بسط سيطرته على منطقة شاسعة تمتد شمال صحراء جوبى حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار، ثم عمل على إخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى، وذلك وفق سياسة محكمة عبر عنها أصدق تعبير فقال: " كان الرجال الحكماء المسنون يعلموننا دائمًا أن العقول والقلوب المتباينة لا يمكن أن تكون في جسد واحد. ولكنني أريد أن أثبت أن ذلك ممكن عمليًّا، فسوف أبسط نفوذى على جميع جيراننا " (٢).

وكانت بداية جنكيزخان هى إخضاع قبائل المغول المجاورة له فكان على موعد مع قبيلة الكيرايت المغولية، وهذه القبيلة كانت تمتاز بالقوة والبأس وتتفوق في العدد والعدة عن غيرها من القبائل المغولية الأخرى، وكان جنكيزخان على وفاق مع زعيمها " أونك خان "، كما كان صديقا لوالده يسوكاى الشجاع، وقد امتدت الصداقة من يسوكاى إلى ابنه جنكيزخان

(١) رينيه جروسيه، جنكيزخان، ص ٨٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول ص ٤٥.

(٢) بيرتولد شبولر، المغول في التاريخ، ص ١٦، هارولد لام، جنكيزخان وجحافل المغول، ص ٤٦، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٤٦.

مع أونك خان، ولكن علو شأن جنكيزخان وارتفاع مكانته لدى أونك خان قد أغضب البعض في بلاط أونك خان، فوشوا به، وأوغروا صدره عليه، حتى تغير عليه وعزم على غزوه والخلاص منه.

ولكن أونك خان كان يعلم مدى مكانة جنكيزخان وقوته العسكرية، فلم يعلن نيته على الملأ، وأخذ يعمل في الخفاء للقضاء عليه، وقرر مهاجمته في وقت السحر وأخذه على حين غرة، ولكن كان للخيانة دور في إنقاذ جنكيزخان، فقد هرب رجلان من أتباع أونك خان وأخبروا جنكيزخان بما يبيت له بليل [1]، وأطلعاه على تفاصيل المؤامرة، فأخذ جنكيزخان حذره وخرج وأهله بعيدًا عن سكنى القبيلة، وعمل على الاستعداد الجيد لمباغتة أونك خان وجيشه.

وفى الوقت المحدد هاجم أونك خان منازل جنكيزخان، فوجدها خاوية على عروشها، وظل يبحث عنه، ولم يجد له أى أثر، ولم يدر إلا وجنكيزخان يهاجمه ويأخذه على حين غرة، ودارت بين الفريقين حرب ضروس، دارت فيها الدائرة على أونك خان وأتباعه، فقتل أونك خان وتفرق عنه أتباعه، ونال جنكيزخان الكثير من الغنائم من أرض المعركة، وكانت أحداث هذه المعركة قد وقعت تقريبًا في العام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م [2].

وعلى ما يبدو أن ازدياد قوة ونفوذ تيموجين (جنكيزخان) وتوسعه على حساب القبائل الأخرى، قد أزعج كثيرًا من رؤساء القبائل المجاورة، فبعد تغلب تيموجين على قبائل الكيرايت وبسط سيطرته عليهم، تأكد تايانك خان رئيس قبيلة النايمان أن تيموجين (جنكيزخان) سوف يهاجمه، ويقضى عليه كما فعل بأونك خان، فبدأ في التنسيق والتعاون مع زعيم قبيلة الإنكوت، وطلب أن ينضم إليه في حربه ضد تيموجين، غير أن هذا الزعيم خشى من

---

(١) ظل جنكيزخان يحفظ جميل هذين الرجلين، فرفع قدرهما، وكان معززين مكرمين لديه، ومنحهما الأموال والخيول والمتاع، وأعفاهما من كثير من الأعباء والضرائب التى كانت تفرض في ذلك الحين، وظلا من المقربين إليه، وعملوا في خدمته وخدمة ملوك المغول من بعده.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٤٦ - ٤٧.

عاقبة التعاون معه ضد تيموجين وخشى بأسه وآثر السلامة بأن أرسل إليه رسولاً يطلعه على تفاصيل المؤامرة ضده، فأخذ حذره واستعد لقتاله، فلما التقى الفريقان في العام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م، تمكن تيموجين من التغلب على خصمه وقتله، وأسر زوجته فتزوجها، وساق بين يديه الكثير من الغنائم والأسلاب.

وقد تعلم جنكيزخان الدرس، فلم يترك القبائل المغولية تتحالف ضده، وسعى إلى إيقاع الفرقة بينها حتى يضمن عدم تحالفها ضده أولاً، ثم يسهل عليه ثانيًا السيطرة عليها، وبهذه الطريقة تمكن من السيطرة على جميع القبائل المغولية والتتارية في منطقة التبت وشرقى تركستان، ولما أراد أن يعتلى عرش الزعامة لم يجد من ينافسه أو ينازعه هذا المنصب، فقد قام بجمع حشد كبير من قبائل المغول على ضفاف نهر الأون وأقام حفلاً كبيرًا في العام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م وأعلن المجتمعون على اختياره إمبراطورًا عليهم وأطلقوا عليه لقب " جنكيزخان " ويعني: إمبراطور البشر [(١)].

وكان من تدبير القدر أن يدخل جنكيزخان تحت حماية قبيلة كرايت القوية، بزعامة زعيمها أونك خان الذى كان يدين بالمسيحية وكانت له علاقات طيبة مع والد جنكيزخان، ولكن لم تدم هذه العلاقة الطيبة في ظل سعى جنكيزخان للسيطرة والزعامة على قبائل المغول مما أوقع الرجلين في صدام مسلح نتج عنه تغلب تموجين (جنكيزخان) على أونك خان، وعلو نجم تموجين بين القبائل وسعيه الحثيث للسيطرة على قبائل المغول بالحيلة تارة وبالقوة تارة وبالوقيعة بين القبائل تارة أخرى، حتى تحققت الرياسة والزعامة لجنكيزخان على قبائل المغول و(التتار) سنة ٦٠٣ هـ /١٢٠٦ م، وأجمعت القبائل على انتخابه إمبراطورًا عليها وسمى نفسه جنكيزخان بدلاً من تموجين، وهى كلمة تعنى أعظم الحكام أو إمبراطور البشر، واتخذ من مدينة قرا قوم [(٢)] قاعدة لإمبراطوريته المغولية [(١)].

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ١ / ٩٧، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٤٨.
(٢) قرة قوم: مدينة وقاعدة التتار، وهى قرية جنكيزخان التى أخرجته، ونشأ بها.
القلشقندي، صبح الأعشى (جـ٤/ ص٤٨٠ - ٤٨١).

ومن قراقوم انطلقت شرارة التدمير والهدم، حيث انطلق جنكيزخان يوسع دائرة نفوذه وسلطانه على ما كان يجاوره من مناطق وسكان، ووضع لدولته الدستور والقانون الذى تسير عليه حيث أخرج الياساق أو الياسا أو السياسة: وهى مجموعة القوانين التى خمنها جنكيزخان وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكامًا وحدد فيها حدودًا أكثرها مخالف للشريعة المحمدية لذلك سماها الياسا الكبرى وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته ومعظم هذه الأحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت شرعًا متبعًا يقدمونه على أى شيء آخر [٢].

---

(١) مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى، ص ٧٨،)، خطط المقريزي، ٣ / ٦٠، القلقشندي، صبح الاعشى ٤ / ٣١٠، " المغول في التاريخ "، ص١٩ - ٢٠، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٣٠.

(٢) المقريزي، خطط ٣ / ٦٠، القلقشندي، صبح الاعشى ٤ / ٣١٠.

بداية ظهور مملكة المغول (التتار) سنة ٦٠٣هـ

واشتمل ذلك القانون على مبادئ صارمة تضمن احترام المجتمع المغولى واحترام الصغير للكبير، وفيه مبادئ ونصوص نظام المغول العسكرى والحربى وجملته الطاعة العمياء واحترام الرتبة لمن يعلوه رتبة عسكرية، هذا بالإضافة إلى العقوبات الشديدة الصارمة لمن يخرج على أحكام إليساق أو هذا القانون ومن يقصر عن أداء واجبه العسكرى من

الضباط والجنود يعرض نفسه للعقوبات الشديدة، وكان مما شرعه فيه أن من زنى يقتل، لا فرق بين محصن وغير محصن، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل، ومن بال في الماء أو على الرماد قتل، ومَنْ أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل، ومن وجد عبدًا هاربًا أو أسيرًا هاربًا ولم يرده على من كان في يده قتل، وأن من ذبح حيوانًا كذبيحة المسلمين ذبح، ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال وكان وراءه واحد فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله قتل، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنه أمير ومن يناوله أسير، وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يشركه معه في أكله، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى، ومنع أن يقال لشيء أنه نجس وقال بأن جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس، وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم على الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده. ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوفًا وأمراء مئين وأمراء عشرات، وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى بنفسه بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة، ولو كانت بذهاب نفسه، ومن تغير من موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل، وغيرها من النصوص الصارمة القوية التى استطاع جنكيزخان بها أن يحافظ على قوام دولته وأن أن يوسع أملاكه في المناطق المجاورة لنفوذ قبيلته [(١)].

يقول المقريزي: "... وذلك أن جنكيزخان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان وصارت له دولة، قرّر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب، سمّاه

(١) المقريزي، خطط ٣ / ٦٠، القلقشندي، صبح الأعشى ٤ / ٣١٠، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٣٠، الخضري، تاريخ الدولة العباسية، ص٥٤٣ - ٥٤٤.

ياسه، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسه، ولما تمم وضعه كتب ذلك نقشًا في صفائح الفولاذ، وجعله شريعة لقومه فالتموه بعد حتى قطع الله دابرهم. وكان جنكيزخان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره، فصار الياسه حكمًا بتًّا بقى في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه.

... ومن جملة ما شرعه جنكيزخان في " الياسه " أن: من زنى قُتِلَ، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن. ومن لاط قُتِلَ، ومن تعمَّد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد، أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قُتِل. ومن بال في الماء أو على الرماد قُتِل. ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يُقتل بعد الثالثة. ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قُتِل ومن وجد عبدًا هاربًا أو أسيرًا قد هرب ولم يردّه على من كان في يده قُتِل. وأنْ الحيوان تُكتَّف قوائمه ويشقُّ بطنه ويُمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه. وأنَّ من ذبح حيوانًا كذبيحة المسلمين ذُبح. ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكرّ أو يفرّ في حالة القتال وكان وراءه أحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله قُتِل. وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه مؤنة ولا كلفة، وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أوّلاً، ولو أنه أمير، ومن يناوله أسير. وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يُشركه معه في أكله. وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه، ولا يتخطى أحد نارًا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه، وأنّ من مرّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم، وليس لأحد منعه. وألزمهم أن يُدخِلَ أحد منهم يده في الماء، ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم بل

يلبسونها حتى تبلى، ومنه أن يُقال لشيء أنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس. وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويُدعى باسمه فقط، وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج قد قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه. وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخرِ والكلفِ في مدّة غيبتهم في القتال، وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه. وألزمهم عند رأس كلّ سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهنّ لنفسه وأولاده.

ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشراوات، وشرَّع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يُلقى نفسه إلى الأرض بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع، حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة، ولو كانت بذهاب نفسه. وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك، فمن تردد منهم لغير الملك قتل، ومن تغير عن موضعه الذى يُرسم له بغير إذن قُتِل. وألزم السلطان بقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة، وجعل حكم الياسه لولده جغتاى بن جنكيزخان، فلما مات التزم من بعده من أولاده وأتباعهم حكم الياسه، كالتزام أوّل المسلمين حكم القرآن، وجعلوا ذلك دينًا لم يعرف عن أحد منهم خالفته بوجه [١].

ثم إن جنكيزخان بدأ يتطلع إلى الأقوام التى تجاوره، فتغلب على قبائل القرغيز، ثم دخل في حرب ضروس مع الأويغور في المناطق الواقعة شمال شرقى التركستان، وشمال نهر تاريم، وكان هؤلاء الأقوام يخضعون للقراخطائيون في بلاد ما وراء النهر ويدفعون لهم الخراج أو الجزية سنويًّا، وكان القراخطائيون يسومونهم العذاب الشديد، ويتشددون معهم في جمع الأموال، فلما علم الأويغور بأنباء انتصارات جنكيزخان واستيلائه على بلاد

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٢ / ٤٢٠.

الخطا، وسيطرته على قبائل المغول جميعًا أسرع ملك الأويغور (إيدى قوت) وأعلن الثورة على القراخطائيين وقتل رسلهم، ودخل في طاعة جنكيزخان، وسار إليه بنفسه، في العام ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، وأهداه الكثير من التحف والهدايا القيمة، وأصبح منذ ذلك الحين وأصبح الأويغور تحت السيطرة المباشرة لجنكيزخان (١).

وبعد سيطرة جنكيزخان على جميع القبائل المغولية لم يعد أمامه سوى إمبراطورية كين في الصين الشمالية، وكانوا لا يكفون عن تحريض القبائل المغولية والتترية على جنكيزخان، حتى يتسنى لهم إضعافه وإبعاده عن طريقهم، فأراد جنكيزخان أن - بعد أن شعر بالقوة - أن يضع حدًّا لنفوذ وسيطرة هذه القبيلة، وحمل لواء الحرب ضدها، فحشد جيشًا جرارًا واستعد لحرب طويلة الأمد مع الصينيين، وخرج بنفسه على رأس الجيش في العام ٦٠٨ هـ / ١٢١١م وتابع الحملات على الصينيين سنويًّا حتى تمكن من هزيمتهم والاستيلاء على عاصمتهم بكين في العام ٦١٢هـ / ١٢١٥م، ولكن الظروف اضطرت جنكيزخان إلى ترك بكين والعودة إلى موطنه الأصلي في منغوليا، فاستطاع الأمراء الصينيين استعادة بعض الأملاك التي فقدوها لمصلحة جنكيزخان، وأعادوا مملكتهم، وظلت قائمة حتى تمكن أوكتاى خليفة جنكيزخان من القضاء عليها نهائيًّا في عهده (٢).

* * *

---

(١) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطي، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، ص ٤٨، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٧، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٥٠.

(٢) الباز العريني، المغول، ص ٦٦، حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١١٣، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٧، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٥٣.

الفصل الثالث:
أحوال العالم الإسلامى قبيل الغزو المغولي

بعد أن اطمأن جنكيزخان إلى حدود مملكته الشرقية، بدأ يتطلع إلى حدوده الغربية حيث العالم الإسلامي، حيث كانت المساحات الإسلامية في هذا الوقت كانت تقترب من نصف مساحات الأراضى المعمورة في الدنيا.. كانت حدود البلاد الإسلامية تبدأ من غرب الصين وتمتد عبر آسيا وأفريقيا لتصل إلى غرب أوروبا حيث بلاد الأندلس.

وهى مساحة شاسعة للغاية، لكن وضع العالم الإسلامى - للأسف الشديد - كان مؤلمًا جدًّا.. فمع المساحات الواسعة من الأرض، ومع الأعداد الهائلة من البشر، ومع الإمكانيات العظيمة من المال والمواد والسلاح والعلوم.. مع كل هذا إلى أنه كانت هناك فرقة شديدة في العالم الإسلامي، وتدهور كبير في الحالة السياسية لمعظم الأقطار الإسلامية.. والغريب أن هذا الوضع المؤسف كان بعد سنوات قليلة من أواخر القرن السادس الهجري.. حيث كانت أمة الإسلام قوية منتصرة متحدة رائدة.. ولكن هذه سُنة ماضية: " وتلك الأيام نداولها بين الناس ".. [(١)].

ولنلق نظرة على العالم الإسلامى في أوائل القرن السابع الهجري:

١- الخلافة العباسية:

وهى خلافة قديمة جدًّا؛ فقد نشأت بعد سقوط الدولة الأموية العظيمة في سنة ١٣٢ هـ.. وكانت - في مطلع القرن السابع الهجرى - قد ضعفت جدًّا، حتى أصبحت لا تسيطر حقيقة إلا على العراق العربى وخوزستان، وكان الخليفة العباسى في ذلك الوقت هو الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ - ١٢٢٥م) واتخذت الخلافة العباسية من بغداد عاصمة لها منذ سنة ١٣٢ هجرية...، ولم تعد قادرة على أن تبسط سلطانها على ما جاورها من أقاليم، وحول نطاق الخلافة العباسية في العراق العربى

---

(١) د. راغب السرجاني، قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، ص ٥.

وخوزستان عشرات من الإمارات المستقلة استقلالاً حقيقيًّا عن الخلافة، وإن كانـت لا تعلن نفسهـا

العالم الإسلامى في بداية القرن السابع الهجرى

* * *

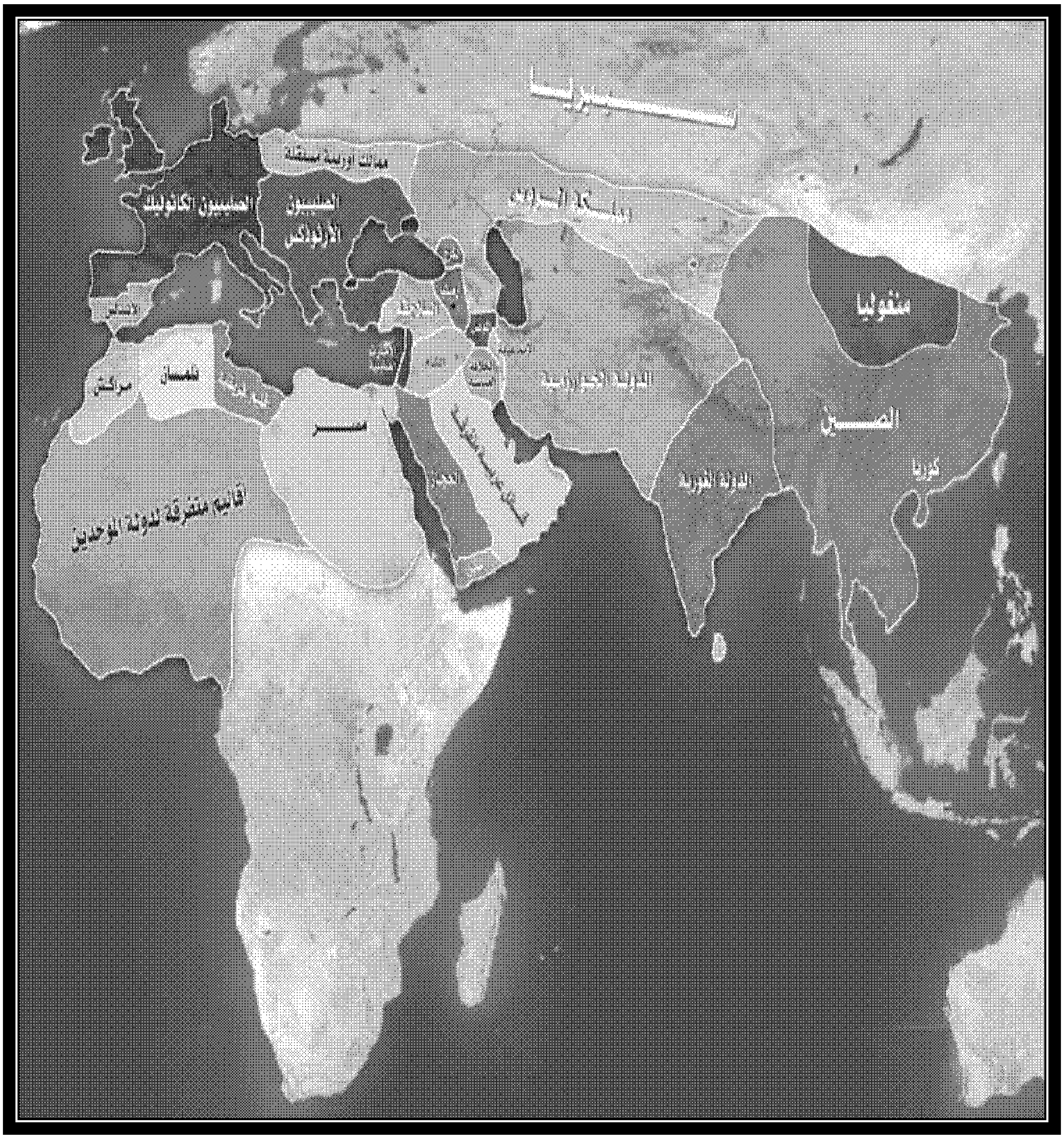

الإمارات والدويلات الإسلامية في بداية القرن السابع الهجري

كخلافة منافسة للخلافة العباسية.. فتستطيع أن تقول: إن الخلافة العباسية كانت " صورة خلافة " وليست خلافة حقيقية.. وكانت كالرمز الذى يحب المسلمون أن يظل موجودًا حتى وإن لم يكن له دور يذكر.. تمامًا كما يُبقى الإنجليز الآن على ملكة إنجلترا كرمز تاريخى فقط، دون دور يذكر لها في الحكم، بخلاف الخليفة العباسى الذى كان يحكم فعليًّا منطقة العراق باستثناء الأجزاء الشمالية منها. وكان الخليفة العباسى الناصر يظن أنه يستطيع النهوض بالخلافة من جديد ويعيد لها هيبتها، ويعمل على اتساع رقعتها بمجرد أن شعر بضعف السلاجقة وانقسام دولتهم، وبعد أن

خفت قبضتهم عن الخلافة العباسية، فوضع كل أمله في حكام الدولة الخوارزمية ليزيح من طريقه دولة السلاجقة، ولكن سرعان ما اتضح له أنه كان واهمًا في ظنه، إذ تكشفت له الحقيقة المرة، وهى أن الخوارزميين لهم أطماع إقليمية أكثر من مجرد مساعدة الخليفة العباسي، بل كانوا يهدفون ليس لمجرد السيطرة على الخلافة بدلاً من السلاجقة ومن قبلهم البويهيين فقط بل إلى إزالة الخلافة العباسية من الوجود تمامًا(١).

والحقيقة أنه كان يتعاقب على حكم المسلمين في العراق خلفاء من بنى العباس.. حملوا الاسم العظيم الجليل: " الخليفة "، ولكنهم (في هذه الفترة من القرن السابع الهجري) ما اتصفوا بهذا الاسم أبدًا، ولا رغبوا أصلاً في الاتصاف به؛ فلم يكن لهم من همّ إلا جمع المال، وتوطيد أركان السلطان في هذه الرقعة المحدودة من الأرض.. ولم ينظروا نظرة صحيحة أبدًا إلى وظيفتهم كحكام.. لم يدركوا أن من مسئولية الحاكم أن يوفر الأمان لدولته، ويقوى من جيشها، ويرفع مستوى المعيشة لأفراد شعبه، ويحكم في المظالم، ويرد الحقوق لأهلها، ويجير المظلومين، ويعاقب الظالمين، ويقيم حق الله عز وجل على العباد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدافع عن كل ما يتعلق بالإسلام، ويوحد الصفوف والقلوب...

لم يدركوا هذه المهام الجليلة للحاكم المسلم، كل ما كانوا يريدونه فقط هو البقاء أطول فترة ممكنة في كرسى الحكم، وتوريث الحكم لأبنائهم، وتمكين أفراد عائلتهم من رقاب الناس، وكذلك كانوا يحرصون على جمع الأموال الكثيرة، والتحف النادرة، ويحرصون على إقامة الحفلات الساهرة، وسماع الأغانى والموسيقى والإسراف في اللهو والطرب.

حياة الحكام كانت حياة لا تصلح أن تكون لفرد من عوام أمة الإسلام فضلاً عن أن تكون لحاكم أمة الإسلام..

لقد ضاعت هيبة الخلافة.. وتضاءلت طموحات الخليفة!..

كانت هذه هى " الخلافة " العباسية في أوائل القرن السابع الهجري.. (٢).

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٦٩.
(٢) د. راغب السرجاني، قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، ص٦.

٢- مصر والشام والحجاز واليمن:

كانت هذه الأقاليم في أوائل القرن السابع الهجرى في أيدى الأيوبيين أحفاد صلاح الدين الأيوبى الذى كان وما زال مثلا أعلى ورمزًا من رموز الجهاد في سبيل الله، فقد كان هذا الرجل العظيم قائدًا محنكًا وسياسيًّا بارعًا، رأى في الوحدة العربية ملجأ وملاذًا وشرطًا أساسيًّا للانتصار على الصليبيين، واستعادة الحقوق والأراضى الإسلامية المسلوبة، وعلى رأسها المقدسات الإسلامية في فلسطين، فكتب إلى الخليفة العباسى المستضيء رسالته الخالدة التى تعبر عن هذه الحقيقة وهذا المبدأ في أجلى بيان: " ولو أن أمور الحرب تصلحها الشراكة، لما عز علينا أن يكون هناك كثر من المشاركين، ولا ساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير، لم يحتمل في اللقاء إلا العدة " (١).

ولكن - للأسف - لم يكن خلفاء صلاح الدين على شاكلته.. ولم يراعوا أن سبب قيام دولتهم ونجاحها في هزيمة الصليبيين هو وحدة الصف وإعلاء فريضة الجهاد، فأهمل الجهاد في سبيل الله، وتعرضت الوحدة الإسلامية التى كونها صلاح الدين وقضى عمره مجاهدًا من أجل تحقيقها للانهيار، فقد قامت المنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبى حول تقسيم التركة التى تركها صلاح الدين وتنازعوا الحكم فيما بينهم، وقسَّموا الدولة الأيوبية الموحدة (التى هزمت الصليبيين في حطين هزيمة منكرة) إلى ممالك صغيرة متناحرة!!

فاستقلت الشام عن مصر، واستقلت كذلك كل من الحجاز واليمن عن الشام ومصر.. بل وقسمت الشام إلى إمارات متعددة متحاربة!!.. فانفصلت حمص عن حلب ودمشق.. وكذلك انفصلت فلسطين والأردن، وما لبثت الأراضى التى كان حررها صلاح الدين من أيدى الصليبيين أن تقع من جديد في أيديهم بعد هذه الفرقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!..

وكثيرًا ما كان يحتدم النزاع بين حكام هذه البلاد، فيستعين الواحد منهم بالآخر على عدو ثالث، بل وصل الأمر إلى استعانة بعضهم بالصليبيين على إخوانهم في

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢ / ٤٨.

النسب والعقيدة الأيوبيين.

وكان من الطبيعى أن يغتنم الصليبيون تلك الفرصة فيحاولوا الاستيلاء على مصر التى كانت بمثابة القلب لدولة المسلمين، فقد أيقن الصليبيون فشل مشاريعهم الصليبية في الشام بسبب مصر، فكان التفكير في ضرب العالم الإسلامى في قلبه النابض مصر، ولذلك فقد تكررت محاولاتهم لغزو مصر والسيطرة عليها ولكن باءت محاولاتهم جميعًا بالفشل، ولكن نجحت محاولاتهم في اقتطاع جزء كبير من بلاد الشام من أيدى الأيوبيين بسبب كثرة منازعاتهم بعضهم بعضًا ففشلوا وذهبت ريحهم على أيدى مماليكهم في مصر وبلاد الشام، وقامت على أنقاض دولتهم دولة المماليك (١).

ولم تكن بلاد الشام بأحسن حالاً مما يحدث في مصر بحكم الجوار والتبعية للأيوبيين ومن بعدهم للمماليك، فقد كانت تعيش حالة من الضعف والإهمال الشديد، والدسائس والمؤامرات، والانقسامات، ونتيجة لهذه الحالة لم تستطع مقاومة التيار الصليبى الذى اقتطع جزءًا كبيرًا من الجسد الإسلامى في بلاد الشام، ولما شن المغول هجماتهم على بلاد الشام عجز حكامه أن يحركوا ساكنا بل كان منهم من مد يده - تحت ضغط الخوف والهلع - لمساعدة المغول ضد إخوانه في العقيدة. وأفضل ما فعله الكثير منهم أنهم وقفوا يراقبون الأحداث من غير اهتمام ولا بعد نظر منتظرين عاقبتهم الآتية.

٣- بلاد المغرب والأندلس:

كانت تحت إمرة " دولة الموحدين ".. وقد كانت فيما سبق دولة قوية مترامية الأطراف تحكم مساحة تمتدّ من ليبيا شرقًا إلى المغرب غربًا، ومن الأندلس شمالاً إلى وسط أفريقيا جنوبًا.. ومع ذلك ففى أوائل القرن السابع الهجرى كانت هذه الدولة قد بدأت في الاحتضار.. وخاصة بعد موقعة "

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن تلك الحقبة التاريخية اقرأ " تاريخ الدولة الأيوبية " للمؤلف، من نشر دار الإيمان للطبع والنشر بالمنصورة.

العقاب " الشهيرة سنة ٦٠٩ هـ هجرية، والتى كانت بمثابة القاضية على هذه الدولة الضخمة.. دولة الموحدين.. [١].

٤- الدولة الخوارزمية:

كانت الدولة الخوارزمية دولة مترامية الأطراف، وكانت تضم معظم البلاد الإسلامية في قارة آسيا.. تمتد حدودها من غرب الصين شرقا إلى أجزاء كبيرة من إيران غربًا.. وكانت هذه الدولة تجاور دولة القراخطائيين [٢] التى تفصل بينها وبين جنكيزخان، ولكن الخوارزميون لم يقرأوا الجغرافيا جيدا فعملوا على إزالة هذه الدولة ليصبحوا وجها لوجه مع جنكيزخان...

وكانت قبائل الخطا قد نزحت منذ النصف الأول من القرن السادس الهجرى من موطنها الأصلى في شمال الصين، على إثر الاضطراب الذى ساد هذه المنطقة، واستقروا غرب التركستان حيث كونوا دولة عرفت باسم " القراخطائيين " واستطاع ملوك هذه الدولة - الذين كانوا يلقبون بلقب " كورخان " أي: ملك الملوك - توسيع مملكتهم الجديدة شرقا وغربا حتى امتدت إلى صحراء جنوبى إلى نهر سيحون، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا، وحدث أنهم تغلبوا على السلاطين المسلمين في بلاد ماوراء النهر وأخضعوها لحكمهم المباشر وقبلوا منهم دفع الجزية السنوية، وأقاموا الحاميات العسكرية فيها لحمايتها وضمان إخضاعها.

ولما كانت هذه المناطق من الأتراك المسلمين، فإن القراخطائيين قد أبقوا عليهم،

---

(١) راغب السرجاني، " قصة التتار من البداية إلى عين جالوت "، ص ٦.

(١) القراخطائيون قوم من المغول الترك، أقاموا دولة قوية في بداية القرن العاشر الميلادى في منشوريا وشمال الصين، ولما انقضى عهد هذه الدولة في تلك البقاع، ذهب الفارون من فلولها، وأقاموا بين الصين وتركستان، واتخذوا من ملوك الأويغور في تركستان حماة لحدودهم مع الصين، نظير جرايات وإقطاعيات، ولما ساءت العلاقات بين هؤلاء القراخطائيين وبين ملوك التركستان المسلمين، زحف القراخطائيون على بلادهم، وقضوا على الدولة الخاقانية (الأويغورية) عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤١م واستولوا على كاشغر وختن.. ثم زحفوا على بلاد ما وراء النهر، واستولوا عليها وأخذوها من يد السلاجقة، وامتدت دولتهم في بلاد القراخطائيون شمالا إلى مدينة بلخ جنوبًا، ومن خوارزم غربًا إلى صحراء جوبى شرقًا، وكان هؤلاء القراخطائيين غير مسلمين، ولذلك لم يكن التعاون بينهم وبين النوعية المسلمة في تركستان قائمًا، بما يسهل القضاء على دولتهم. دائرة المعارف الإسلامية، ١ / ٤٢ - ٤٥، محمد الخضري، تاريخ الدولة العباسية، ط القاهرة ١٩٧٠م، ص ١٩٢.

واكتفوا بأخذ الخراج منهم، وأقاموا في بلادهم الحاميات العسكرية. وكان نصرة الدين عثمان خان بن إبراهيم (٦٠٠ - ٦٠٩ هـ/ ١٢٠٣ - ١٢١٢م) هو آخر ملوكهم، وقد اختار الإقامة في سمرقند، وقد تلقب بلقب سلطان السلاطين [١].

ونتج عن استيلاء القراخطائيين على منطقة بلاد ماوراء النهر، أنهم أصبحوا يجاورون ممالك الدولة الخوارزمية، وقد قبل سلاطين الدولة الخوارزمية أن يدفعوا لهم الجزية السنوية والتى قدرت بحوالى ٣٠٠٠ دينار من الذهب، مقابل أن لا يتعرضوا لهم بسوء، وقد ظل هذا الأسلوب متبع حتى عهد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه.

ولكن هذا السلطان لم يكن راضيًا عن هذه التبعية، وأن يخضع المسلمون لسلطة حكام وثنيين بوذيين، لا سيما وأنه قد استولى على بلدان كثيرة، وبدأ يشعر بالقوة، ووجد أن تبعيته لملك بوذى يعتبر حطًّا من شأنه وتقليلاً من قيمته، وبدأ يتطلع إلى خلع قيود التبعية للقراخطائيين بل والتفكير في التخلص منهم نهائيًّا، وقد شجعه على ذلك ما كان يصله من عثمان خان صاحب سمرقند من رسائل تحضه على مهاجمة القراخطائيين. وفيها تعهد صريح من عثمان بأن يكون حليفًا أمينًا لخوارزم شاه وتابعًا مخلصًا له، وبأن يدفع له الجزية السنوية التى كان يدفعها للخطا، بل ويسك العملة باسمه، ويدعوا له على منابر سمرقند وبخارى، كما يتبين من هذه الرسالة " أن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة المال وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدى الكفار، وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة والسكة " [٢].

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٦٦.

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ٩ / ٢٩١ فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٦٧.

ولم يكن عثمان خان فقط هو الذى شجعه على القيام بهذه الخطوة بل أيده وساعده على اتخاذ هذه الخطوة كوجلك خان (١) الذى كان يجاور ممالك من جهة الشرق، فأرسل رسالة سرية إلى السلطان محمد ينبئه فيها أنه من ناحية الشرق، وخوارزم شاه من ناحية الغرب يمكنهما القضاء نهائيًا على ممالك القرا خطائيين واستئصال شأفتهم نهائيًا واقتسام أملاكهم، وانتهى الأمر بإزالة الدولة في سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م.

وفى الحقيقة كان إزالة هذه الدولة خطأ كبيرًا ارتكبه السلطان محمد، فبإزالة هذه الدولة أتاح السلطان محمد بتصرفه هذا لكوجلك خان أن يجاوره وهو المعروف عنه الخيانة وعدم حفظ الجميل لسادته، كما أنه لم يكن خافيًا على أحد العداوة الشديدة التى كانت بينه وبين جنكيزخان، ولم يكن المتوقع أن يزول أثر هذه العداوة بسهولة، ولم يكن جنكيزخان ليغفل عن تصرفاته وأخباره، ولذلك سرعان ما تقدم جنكيزخان إلى كوجلك خان وقضى على دولته وأعدمه، وأصبح جنكيزخان يجاور الدولة الخوارزمية وما يعنى ذلك من خطر محدق بهم وبدولتهم (٢).

وكانت هذه الدولة على خلاف كبير مع الخلافة العباسية.. وكانت بينهما مكائد ومؤامرات متعددة، فقد حاول السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه أن تكون له

---

(٣) بعد أن هزم جنكيزخان قبائل النايمان وقضى على ملكهم تايانك خان فر ابنه كوجلك خان في جمع من أصحابه وأتباعه، ودخل في خدمة دولة القراخطائيين وحاكمها كورخان، واستغل الخلاف بينه وبين خوارزم شاه وتظاهر بأنه يسعى لمساعدة كورخان ضده، فكون جيشا من أتباعه وبنى جلدته الذين فروا من وجه جنكيزخان ولحقوا به، وأظهر نفسه في ثوب التابع المخلص لكورخان، حتى إذا لمس منه ضعفا، لبس جلد النمر، وصمم على الغدر بولى نعمته، والقضاء عليه واتفق مع السلطان محمد خوارزم شاه على إزالة دولة القراخطائيين واقتسامها بينهما، فصادف ذلك هوى في نفس خوارزم شاه ووافق على التدخل، فانتصر على كورخان وأسره وزج به في السجن وتزوج ابنته التى أقنعته بترك المسيحية والعودة إلى البوذية، وأخذ كوجلك يوسع دولته فأخضع كثيرًا من القبائل المجاورة ومد سلطانه من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية، ولكنه سام المسلمين في بلاده الذل والهوان حيث أجبرهم على ترك الإسلام والتدين إما بالبوذية أو المسيحية، وأجبرهم على التزى بزى القراخطائيين، وانقطع الآذان وحيل بين المسلمين وبين أداء شعائرهم الدينية، وظل هذا الوضع قائما حتى تمكن جنكيزخان من القضاء على كوجلك وعلى دولته وقتلوه في سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٥٧.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٦٧ - ٦٨.

المنزلة الأولى في بغداد، وكان يرغب في أن تذكر الخطبة باسمه على منابر بغداد، كما كان الوضع في عهد السلاجقة والبويهيين من قبلهم، فلما عجز عن تحقيق ذلك بالطرق الودية، لم يجد بدًّا من استعمال القوة، فصمم على غزو بغداد.

وكان بداية الخلاف الحقيقى عندما أهان الخليفة العباسى الناصر لدين (٥٧٥ - ٦٢٢هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥م) رسل السلطان محمد عندما قدموا له الهدايا والعلم التى أهداها إلى الحجاج، في حين أنه قبل الهدايا والعلم التى وصلته من جلال الدين الحسن الإسماعيلي، المشهور بـ " نومسلمان " من خلفاء الحسن بن الصباح، ورحب برسله.

كما أن الخليفة العباسى كان يناصر ويؤيد معارضى ومعاندى السلطان الخوارزمي، فبعد أن استولى خوارزم شاه على غزنة عاصمة الغوريين سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م عثر على رسائل رسمية من الخليفة العباسى تحث شهاب الدين الغورى سلطان الغوريين على مهاجمة السلطان محمد الخوارزمى والقضاء عليه.

كما أن الخليفة العباسى الناصر ظل في تدبير المكائد والدسائس للخوارزميين، وتأييد كل خروج عليهم، فقد حرض القراخطائيين، وأبدى استعداده للتحالف معهم، ووعدهم بتأيد سلطانهم على البلاد التى يسيطرون عليها، وأثار على الخوارزميين أتابكة فارس وأذربيجان وزين لهم الاستيلاء على العراق العجمى وانتزاعه من الخوارزميين، وأدهى وأمر من ذلك أنه تحالف مع الإسماعيليين للغرض نفسه، بل إنه راح يحتضن عدة أشخاص من الحشاشين الفداوية ويحركهم ضد الخوارزميين، فقتلوا " أغلمش " نائب الخوارزميين في العراق العجمى [(١)].

وكان رد السلطان علاء الدين الخوارزمى أن أعلن تشيعه، وعمل جاهدًا على إسقاط الخلافة العباسية وإقامة الخلافة الشيعية وجمع الفقهاء وأئمة الدين في دولته، وحصل منهم على فتوى صريحة مؤداها أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من العلويين أصحاب الحق الشرعى فيها، فينبغى أن يختار لهذا المنصب رجل من نسل الحسين بن على بن أبى طالب، وأن الخليفة العباسى قد ارتكب عدة مخالفات توجب

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٧٠.

على كل مسلم مقاومته. وأصدر السلطان علاء الدين أمرًا بعزل الخليفة العباسي، وأسقط اسمه من السكة والخطبة، ووقع اختياره على رجل علوى من مدينة ترمذ اسمه " علاء الملك " فنادى به خليفة للمسلمين وخطب له على المنابر وضرب النقود باسمه.

وكان السلطان علاء الدين خوارزم شاه يهدف من وراء ذلك كله أن يكسب عمله صفة الشرعية، وليستميل أهالي تلك البلاد التى تجاوره لا سيما وأن أكثرهم يدينون بالمذهب الشيعي، فيكون هذا حافزًا لهم على الانضمام إليه لمحاربة الخليفة العباسى (١).

ووقع الصدام المسلح بين الفريقين عندما قاد السلطان محمد جيشه قاصدًا بغداد سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م. وفى العراق العجمى التحم بالأتابك سعد بن زنكى الذى كان توجه إلى تلك الديار بقصد الاستيلاء عليها بعد أن أطمعه فيها الخليفة العباسي، ولكن السلطان الخوارزمى انتصر عليه وأسره، وأخيرًا أطلق سراحه، بعد أن قبل الدخول في طاعته، وتعهد له بأن يتنازل له عن ثلث خراج إقليم فارس سنويًّا وإعطائه بعض الامتيازات الأخرى (٢).

وكذلك أوقع خوارزم شاه الهزيمة بأوزبك بن البهلوان، أتابك أذربيجان، الذى جاء هو الآخر بتحريض الخليفة العباسي، ولكن خوارزم شاه تمكن من استمالته وأدخله في طاعته بعد أن أمنه على حياته، وضرب السكة وأقام الخطبة باسمه وأرسل إليه الهدايا والتحف الثمينة (٣).

ولما وجد الخليفة العباسى أن كل القوى التى اعتمد عليها في محاربة خوارزم شاه ضعيفة ومنحلة ولم تستطع تلبية تطلعاته، ولم تقف في وجه هذا العدو القوي، وتأكد من إصرار السلطان محمد بن خوارزم شاه على غزو بغداد، وأنه لا قبل له بمقاومته لم يجد مفرًّا من أن يلجأ إلى جنكيزخان القائد المغولى الأعلي، والذى كان قد ذاع صيته وانتشر في شرق آسيا وغربها، فرأى فيه الخليفة الرجل الوحيد الذى

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٧٠ - ٧١.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣١٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٧١.

(٣) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٧١.

يستطيع أن ينقذه من تلك الورطة، ويوقف خوارزم شاه عند حده [١].

وعلى ما يبدو أن جنكيزخان لم يلب الدعوة في حينها بل لم يعرها أى اهتمام، والدليل على ذلك أن الخليفة العباسى لجأ إلى حيلة السياسة بأن أرسل رسولاً من قبله هو شهاب الدين السهروردى ليعرض على خوارزم شاه الصلح وتفادى الصدام المسلح، ولكن هذا الرسول لم يستطع إثناء الخليفة العباسى عن مقصده بغزو بغداد [٢].

وعلى ما يبدو أن السلطان الخوارزمى كان عازمًا على تطبيق خطته القاضية بغزو بغداد وخلع الخليفة العباسى بالقوة العسكرية، فقد خرج على رأس جيش جرار باتجاه بغداد، ولم ينقذ بغداد والخليفة العباسي من نيته التى أضمرها سوى هبوب عاصفة ثلجية شديدة فأهلكت عددًا كبيرًا من الجنود والدواب وأتلفت مؤن الجيش، وتعرضت بقايا الجيش المتبقية لهجمات الأتراك والأكراد وتشتت شمل الجنود الخوارزمية، ولم يجد السلطان الخوارزمى بدًّا من العودة إلى بلاده ببقايا جيشه ممن كتبت لهم النجاة [٣].

والخلاصة أن مالت الدولة الخوارزمية في بعض فترات من زمانها إلى التشيع، وكثرت فيها الفتن والانقلابات، وقامت في عصرها حروب كثيرة مع السلاجقة والغوريين والعباسيين وغيرهم من المسلمين.. وظل السلطان الخوارزمى يدخل في حروب جانبية لا طائل منها حتى فاجأته قوات المغول فلم يستطع الصمود في وجهها بعد أن أنهك قواته في حروب لم يجن من ورائها سوى الخراب والدمار.

---

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣ / ٣٦١، المقريزي، السلوك، ١ / ٢١٨، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٧١.

(٢) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٦ / ٢١٩ - ٢٢٠.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٩.

٥- الهند:

كانت تحت سلطان الغوريين في ذلك الوقت، وكانت الحروب بينهم وبين دولة خوارزم كثيرة ومتكررة.. (١).

٦- إسماعيلية فارس:

(وهى إيران الحالية)، فقد كانت أجزاء من فارس تحت سلطان الخوارزميين، وكانت الأجزاء الغربية منها - والملاصقة للخلافة العباسية - تحت سيطرة طائفة الإسماعيلية، وهى طائفة من طوائف الشيعة كانت شديدة الخبث، ولها مخالفات كثيرة في العقيدة جعلت كثيرًا من العلماء يخرجونهم من الإسلام تمامًا.. حيث خلطت طائفة الإسماعيلية الدين بالفلسفة، وكانوا أصلا من أبناء المجوس؛ فأظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية، وتأولوا آيات القرآن على هواهم، وهم إحدى فرق الباطنية، وقد سميت بالإسماعيلية لأن أتباعها كانوا ينادون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، إذ كان لجعفر الصادق أربعة أولاد أكبرهم إسماعيل الذى كان حفيدًا للحسن بن على رضى الله عنه من جهة أمه، وقد عهد أبيه إليه بالإمامة من بعده. ولكنه كان يعاقر الخمر، وملتفًا حول أبى الخطاب الأسدى هذا الرجل الفاسق شارب الخمر الولوع بالنساء، الذى بدأ داعيًا لإمامة جعفر الصادق، ثم بالغ في حب جعفر الصادق ووصل به الحد إلى تأليه جعفر الصادق، فلما رأى جعفر الصادق ذلك من أبو الخطاب أقصاه عنه، فاشتدت صلته - أبو الخطاب - بابنه إسماعيل وأخذ يعلمه مذاهب الأقدمين من الزنادقة والملاحدة والباطنية كالمزدكية والمانوية والزرادشتية وغيرها من مذاهب أهل الضلال (٢).

ولما رأى جعفر الصادق تقرب ابنه إسماعيل من أبو الخطاب، أقصاه وسحب منه الوصية بالإمامة وأسندها إلى ابنه الآخر موسى الكاظم (٣).

كما عرفوا بالباطنية، لأنهم كانوا يظهرون خلاف ما كانوا يبطنون، ويدعون بأن

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، ص ٦.

(١) رجب محمود بخيت، الشيعة.. التاريخ الكامل، ط دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، المنصورة، ص ١٧٩.

(٢) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٣٤، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٧٩.

لكل ظاهر باطنًا ولكل تنزيل تأويل، وكانوا يقولون: إن للشريعة باطنًا وظاهرًا، والأصل هو الباطن، فإذا كان الناس عالمين بباطن الشرع فلا خلل يحدث إذا استهانوا بالظاهر (١).

وهم الذين يؤمنون بأن لكل أمر ظاهر في الدين أمرًا آخر باطنًا خفيًّا لا يعلمه إلا بعض الناس (وهم من أولئك الناس) ولا يُطلعون أحدًا على تأويلاتهم، إلا الذين يدخلون معهم في ملتهم، وهم ينكرون الرسل والشرائع، ومن أهم مطالبهم " الملك والسلطان "؛ ولذلك فهم مهتمون جدًّا بالسلاح والقتال..

واشتهر الإسماعيلية باسم الملاحدة؛ لأنهم غيروا وبدلوا في أركان الدين، ودعموا أرائهم بالأقوال التى وصلت إليهم عن فلاسفة اليونان، كما اقتبسوا بعض المبادئ من مذاهب المجوس السابقة مثل المانوية والمزدكية والزرادشتيه، وغيرها من مذاهب الملاحدة.

وسموا بذلك بعدة تسميات مثل السبعية نسبة لاعتقادهم بأن دور الإمامة سبعة سبعة... ولقولهم أن تدبير العالم السفلى منوط بالكواكب السبعة، زحل ثم المشتري، ثم المريخ، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم عطارد ثم القمر (٢).

وقد غلت الإسماعيلية غلوًّا أخرجها عن دائرة الإسلام على الرغم من حرصها على العمل في إطاره والتستر على غلوها وتطرفها بستار كثيف من التأويل على أوسع نطاق لهدم أركان الإسلام كلها، وفيهم يقول محمد بن مالك اليماني: " ويلبسون على كل جاهل بكلمة حق يراد بها باطل يحضونه على شرائع الإسلام من الزكاة والصلاة والصيام كالذى ينثر الحب للطير ليقع في شركه (٣).

ويبدأ نشأة الإسماعيلية كفرقة لها دورها في السياسة للعالم الإسلامى حين توفى الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م حيث دب الخلاف بين أنصاره الشيعة، حيث كان الإمام جعفر الصادق قد عين غبنه البكر إسماعيل لكى يتولى الإمامة من

---

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٢١، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٧٩.

(٤) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ١٠٨ - ١١٠، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٨٠.

(١) محمد بن مالك اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ص ١٩٤، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٨١.

بعده، ولكن الإمام جعفر مالبث أن خلع إسماعيل لعدة أسباب قد أوردناها، ونص على تعيين ابنه التالى موس لكى يصبح إمامًا بعد أبيه، وقد قيل: إن إسماعيل قد توفى في حياة أبيه جعفر الصادق، وحرر جعفر محضرًا لإثبات وفاته وقع عليه جماعة من علماء المدينة ومشايخها ودفنه بالبقيع (١).

وبوفاة جعفر الصادق انشقت الشيعة ومال جماعة منهم إلى إمامة موسى الكاظم بعد أبيه، وهذا ما عليه أغلب الشيعة وبخاصة الشيعة الإمامية، ومال قسم آخر إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ورفضوا إمامة موسى الكاظم (٢).

وقد انضم غلاة الشيعة المتطرفين إلى جانب إسماعيل بن جعفر الصادق وسموا بالإسماعيلية، وجعلوا الإمامة من بعده لابنه محمد بن إسماعيل، وبعد وفاة محمد بن إسماعيل زعمت الإسماعيلية أنه لم يمت وأنه حي، وأنه غائب مستتر في بلاد الروم، وأنه القائم المهدى (٣).

ولقد تحقق للدعوة الإسماعيلية في نهاية الأمر غرضها بقيام الدولة الفاطمية بشمال إفريقية سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م، وظهر الإمام المستتر، ثم انتقال مقر الخلافة إلى القاهرة سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م، وما تلا ذلك من اتساع أملاك الفاطميين، وامتداد نفوذهم إلى الجهات التى كان يسيطر عليها العباسيون، وتهديدهم لبغداد.

وما إن أقام الفاطميون دولتهم، حتى أخذوا يروجون للمذهب الشيعى في المشرق الإسلامي، واضعين نصب أعينهم إضعاف الخلافة العباسية، تمهيدًا للقضاء عليها، ولقد كان لمدارس الدعوة الشيعية في القاهرة أثر فعال في نشر مذهب الإسماعيلية في إيران، إذ نجح الحسن بن الصباح في تكوين قوة هائلة، عجز عن مقاومتها أقوى الحكام والسلاطين (٤).

وعلى هذا النحو، ظل الفاطميون يتزعمون الحزب الإسماعيلى حتى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) الذى دان له الإسماعيلية

---

(١) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٥٨.
(٢) القمي، المقالات والفرق، ص ٨٠ - ٨١.
(٤) النوبختي، فرق الشيعة، ص ٧٤، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٨٤.
(٤) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٧٧.

جميعًا بالطاعة، واعترفوا بإمامته في الشرق والغرب، وكان المستنصر قد أوصى بأن يكون ابنه الأكبر نزار وليًّا للعهد، غير أنه بعد وفاته أن تقرر خلع نزار وتولية أخيه (المستعلي) عرش الخلافة الفاطمية، فكان هذا سببًا في انقسام الحزب الإسماعيلى إلى فرقتين متعارضتين: أحدهما تناصر المستعلى والأخرى تناصر نزار، وكانت الفرقة الأولى تتمثل في الفرع الغربى الذى كان يقوم في مصر وسورية وشمال إفريقية، وأما الفرقة الثانية فكانت تتمثل في الفرع الشرقى الذى انتشر في إيران ومد نفوذه فيما بعد إلى بلاد الشام، وهذا الفرع الذى كان يضم طائفة الإسماعيلية بزعامة الحسن بن الصباح، وكان يقال لهم النزارية، وإليهم آلت زعامة الحركة الإسماعيلية في مختلف الأقطار الإسلامية بعد سقوط الدولة الفاطمية في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م.

ويعتبر الحسن بن الصباح هو المؤسس الحقيقى لهذه الفرقة في إيران، إذ أخذ في الاستيلاء على كثير من القلاع المجاورة في قوهستان، وكانت أهمها قلعة " آلموت " التى استولى عليها في سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، فصارت عاصمة للإسماعيلية وقاعدة ملكهم، ولم يقف أمر الحسن بن الصباح عند هذا الحد، بل استطاع - بمعاونة أتباعه - أن يستولى على المنطقة الواقعة جنوبى بحر قزوين بأكملها [١].

وأظهر الإسماعيلية قوة وشدة بأس أعجزت سلاطين السلاجقة الأقوياء، فلم يستطع حتى سلاطين السلاجقة المتعصبين للمذهب السنى القضاء عليهم، وقد حاول السلطان ملكشاه أكثر من مرة استرداد قلعة " الموت " من أيديهم ولكنه فشل في هذا الأمر. وجاءت الصراعات الدموية بين أفراد الأسرة السلجوقية وتنازعهم على العرش واشتراك الأمراء والوزراء والولاة في هذه المحنة، فرصة للإسماعيلية لاشتداد ساعدها بعد أن أصبحت الساحة خالية أمامهم، بعد أن انشغل السلاجقة بخلافاتهم وأصبح بأسهم بينهم شديد، وأخذ الإسماعيلية في نشر مذاهبهم، وكذلك استغل أحمد بن عبد الملك عطاش رئيس الإسماعيلية في أصفهان فرصة النزاع الذى وقع بين السلاجقة حول العرش بين بركيارق وابن السلطان ملكشاه وأخيه محمود فاستولى على قلعة " شاهدر " سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، تلك القلعة الشامخة المنيعة

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٧٩.

التى كانت تشرف على مدينة أصفهان.

ولكن جهود الإسماعيلية في أصفهان وما جاورها سرعان ما تحطمت وانهارت عندما حمل عليهم السلطان محمد السلجوقى (٤٩٨ - ٥١١هـ / ١١٠٥ - ١١١٨م) حملة موفقة وهاجمهم في عقر ديارهم، " شاهدر " سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م واستطاع أن يقضى على زعيمهم أحمد بن عبد الملك، كما استأصل شأفة من بقى منهم في هذه القلعة(١).

ولكن جاءت وفاة السلطان السلجوقى محمد لتأخر القضاء على الإسماعيلية في قلعتهم الحصينة " الموت " وينال ذلك الشرف المغول، ولوطال العمر بهذا السلطان عدة سنوات لربما أتيحت له فرصة الاستيلاء على قلعة الموت، وأن يسبق المغول في القضاء على هذه الطائفة في عقر دارها، ويريح منها البلاد والعباد، ولقد كان السلطان محمد بن ملكشاه متحمسًا في كفاحه ضد الإسماعيلية لدرجة أنهم خشوا بأسه فدسوا له السم فمات، كما أن النزاعات التى قامت بين السلاجقة حول وراثة العرش من بعده قد أعطت الإسماعيلية الفرصة في ترتيب صفوفهم التى كانت قد اهتزت بشده في عهد السلطان محمد السلجوقي.

وفى عهد السلطان سنجر حاول أكثر من مرة الوصول إلى قلعة الموت والاستيلاء عليها وقتل الحسن بن الصباح الذى حاول أن يصد السلطان سنجر بالحيلة تارة والتهديد تارة أخري، ولما لم يستطع لجأ إلى حيلة طريفة تتلخص في أنه اجتذب إليه إحدى وصيفات السلطان سنجر وأغراها بغرس الخنجر بجوار فراشه حتى إذا استيقظ أخذه الفزع والرعب، ثم أتبع ذلك برسالة تهديد للسلطان سنجر يقول له فيها: إن الذى يستطيع أن يغرس هذا الخنجر في الأرض اليابسة يستطيع أن يغرسه في صدر السلطان " وكان لهذه الرسالة أثرها في فك الحصار عن قلعة الموت، إذ خاف السلطان سنجر عاقبة هذا التحذير، بل نجد هذا السلطان يعقد معاهدة سنة ٥١٢هـ مع الحسن بن الصباح، تعهد فيها الحسن بألا يزيد في تحصين قلاعه أو يقوى نفسه حربيًّا بشراء آلات الحرب، أو يدخل في مذهبه آخرين، وفى مقابل ذلك تعهد السلطان

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٨٠.

بإعفاء الإسماعيلية من أهالى إقليم دكوة من الضرائب.

وإذا نظرنا إلى هذه المعاهدة نرى أن السلطان سنجر قد أعطى ولم يأخذ، إذ لم يعمل الحسن بن الصباح بما نصت عليه المعاهدة، بعكس السلطان سنجر الذى لم يوجه جهوده ضد الإسماعيلية بعد ذلك لفترة طويلة من الزمن [١].

والشيء الذى يؤسف له حقًا أن سلاطين السلاجقة من ناحية والخلفاء العباسيين من جهة أخرى كانوا يتسابقون في خطب ود هذه الطائفة المارقة عن الدين، ويستعينون بهم للخلاص من الأشخاص المعادين لهم، مع أن هؤلاء وهؤلاء يعلمون تمام العلم أن الإسماعيلية ألد أعدائهم، وأنهم يهدفون أولاً وأخيرًا إلى الإطاحة بهم جميعًا، وكان هذا التحالف يتم لمنفعة هذه الطائفة أولاً، وعلى حساب النظام والقانون والأخلاق ثانيًا.

وقد استغل الإسماعيلية الخلاف الذى وقع بين الخلفاء العباسيين والسلاجقة، ولجأ السلاجقة إلى الاستعانة بالإسماعيلية على الخلفاء العباسيين، لذلك نرى أنه لما دب الخلاف بين الخليفة المسترشد وبين السلطان مسعود، قتل جماعة من الفدائيين الخليفة وفتكوا به بأن قطعوا أنفه وأذنيه، وكان ذلك بإيعاز من السلطان السلجوقى مسعود[٢].

ويدلنا مقتل الخليفة المسترشد على مبلغ استهتار الإسماعيلية بأكبر رأس في قلب الدولة الإسلامية، ولا يفوتنا أن نذكر أن هدف هذه الطائفة الأساسى كان إسقاط الخلافة العباسية، غير أن هذا الهدف لم يتحقق، بمقتل الخليفة المسترشد، إذ تولى ابنه الراشد من بعده وأخذ يعمل على الانتقام لأبيه من الإسماعيلية، وكانت النتيجة أنهم قتلوه بمدينة أصفهان سنة ٥٣٢هـ... وليس ببعيد أن يكون السلطان معود والسلطان سنجر هما اللذان دبرا قتله لعداوته لهما، وخاصة أنهما كانا السبب في مقتل أبيه المسترشد.

---

(١) عثمان عبد الحميد عشري، الإسماعيليون في بلاد الشام، ص ٤٠، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٩٦.

(٢) أحمد الحفناوي، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام، ص ٥١٤.

وقد عمد الإسماعيلية إلى أعمال السلب والنهب وشن حرب العصابات، فقاموا سنة ٥٥٣هـ بالهجمات القريبة من معاقلهم في قوهستان، وسلبوا ما بها وسلبوا النساء وأسروا الأطفال وأحرقوا ما لا يستطيعون حمله، وكان يسكن هذه الأقاليم جماعة من التركمان كانوا متغيبين عن منازلهم في الوقت الذى شن فيه الإسماعيلية هجومهم، فلما عاد التركمان اقتفوا أثر الإسماعيلية وتمكنوا من الوصول إليهم حيث وضعوا السيف في رقابهم (١).

وعلى ما يبدوا أن إسماعيلية سورية قد وجدوا في الصراع الإسلامى الصليبى فرصة للوجود على الساحة والمشاركة في أحداث التاريخ، هذه الظروف جعلتهم يفكرون في اغتيال صلاح الدين الأيوبي، وكانت له معهم محاولتان باءتا بالفشل: الأولى أثناء حصاره لحلب، والثانية أثناء حصاره حصن " عزاز "... ولكنه سلم في المرتين واكتشف المتآمرين وقتلوا!!

وقد حاول صلاح الدين الأيوبى أكثر من مرة القضاء على إسماعيلية الشام، ولكن دائمًا ما كانت تحول بينه وبينهم ظروف الصراع الإسلامى الصليبي، ففى سنة ٥٦٩هـ تقدم صلاح الدين في أراضيهم في محاولة للقضاء عليهم، ولكنه فوجئ بهجوم صليبى على منطقة " البقاع "... ودل ذلك على أن هناك اتفاق مسبق وإستراتيجية واحدة، لكل من الصليبيين والإسماعيلية الحشاشين... فاضطر صلاح الدين إلى الانسحاب من حصار قلاع الحشاشين لمواجهة الخطر الصليبي.

كما أن صلاح الدين أعاد الكرة في الهجوم على قلاع الإسماعيلية في الشام وكاد يصل إلى بغيته في القضاء عليهم، إلا أنه قبل شفاعة خاله الحارمى فيهم، وعفا عنهم(٢).

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١ / ٩٧.

(٢) عن علاقة صلاح الدين الأيوبى بطائفة الحشاشين.. انظر تاريخ الدولة الأيوبية للمؤلف.

ولم تقتصر الاغتيالات الإسماعيلية في سورية على القادة والأمراء المسلمين، بل تعداها إلى الصليبيين، إذ إنهم تمكنوا من اغتيال الماركيز الفرنسى " كونراد " ملك بيت المقدس، لحساب ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا الذى استفاد من ذلك وأعلن ضم بيت المقدس إلى ممتلكاته في فلسطين (١).

وكان لهذه الطائفة جهاز سرى وتنظيم سرى يتكون من طائفة من الشبان المغامرين الشجعان الممتلئين قوة وحماسة، وتضحية وفداء وتفانيًا في الدفاع عن عقيدتهم، وكان هؤلاء الفدائيين يجيدون فن التخفي، وساعدهم على هذا طبيعة الدعوة الإسماعيلية التى كانت تجرى في سرية تامة، بحيث كان يتعذر على المرء أن يميز بين الشخص الباطنى من غيره، وكان أعضاء هذا الجهاز يختارون في سن مبكرة، ويدربون تدريبات شاقة مضنية على استعمال السلاح وأساليب القتال وطرق الاغتيال وسفك الدماء (٢).

ومن الملاحظ أن الحسن بن الصباح وخلفاءه كانوا يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على هؤلاء الفدائيين الذين كانوا يضحون بأنفسهم في سبيل إرضائه، ولذلك يعتبر الفدائيون سر نجاحه، وكان يختارهم من الشبان المتحمسين الذين أصبحوا أداة للانتقام والذين أوقعوا الرعب في قلوب جميع السكان في بلاد المشرق.

وقد تدرب الفدائيون على فن التخفى واستعمال السلاح وتعلم اللغات الأجنبية، وكانوا يقتلون المسلمين في أيام الجمع في المساجد، وكان الحسن بن الصباح إذا أراد أن يقتل أميرا من الأمراء أو خليفة من الخلفاء أرسل إليه عادة ثلاثة من الفدائيين فينتهزون فرصة خروج ذلك الأمير إلى الصلاة فينتهزون فرصة خروج الأمير إلى الصلاة، حتى إذا ما استقر بالمسجد وثب عليه الرجل الأول، وكال له الطعنات بخنجره، وإذا فشل هذا الرجل أكمل الثانى والثالث مهمته (٣).

---

(١) أحمد الحفناوي، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام، ص ٥٢٤ - ٥٢٥. وللمزيد عن أخبار وتاريخ الإسماعيلية انظر: الشيعة.. التاريخ الكامل للمؤلف، من طبع دار الإيمان بالمنصورة.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٨٢.

(٣) حافظ حمدي، الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولي، ص ٧١، رجب محمود بخيت، الشيعة، ص ١٩٣.

وعلى هذا الأساس راح كثير من رجالات الدولة الإسلامية فريسة لانتقام زعماء الإسماعيلية الحشيشية... وفى مقدمة هؤلاء الوزير نظام الملك السلجوقي، الذى كان أول من قتله الفدائيون، وكانت هذه الجريمة بداية " لحرب الرعب " شنها الإسماعيليون الحشاشون ضد قواد وأمراء ومسئولين في الحكومة السلجوقية... بل ورجال دين كانوا قد أفتوا: بأن قتل ملحد واحد منهم - أى من الإسماعيلية - أكبر ثوابًا من قتل سبعين من كفار الروم، ولقد كان القاتل من الإسماعيلية لا يحاول الهرب ولكنه ينتظر ليتم الإمساك به وقتله في ضحيته إيمانًا منه بأنه بذلك يكون له الثواب الأوفى.

كذلك اغتال الإسماعيليون الحشاشون هؤلاء الخليفتين المسترشد والراشد، فقتلوا الأول سنة ٥٢٩هـ، وقتلوا الثانى سنة ٥٣٢هـ (١).

وعلى العموم، فإن " الإسماعيلية " من أخطر طوائف الباطنية، وقد كانت سببًا دائمًا لتحريف العقيدة والدين، ولقلب أنظمة الحكم الإسلامية، ولاغتيال الشخصيات الإسلامية البارزة، سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو علماء أو قوادًا.

٧ - الأناضول (تركيا):

وهذه المنطقة كانت تُحكم بسلاجقة الروم، وأصول السلاجقة ترجع إلى الأتراك، ومؤسس تلك الدولة هو سليمان بن قطلمش بن أرسلان سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م. وهذه الدولة أول من اصطدم بالحملة الصليبية الأولى من القوى الإسلامية. وقد نقلت عاصمتها من نيقية إلى قونية على إثر سقوط نيقية في أيدى الصليبيين سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م. وعلى الرغم من ذلك ظلت تلعب دورًا هامًّا في مصائر الصليبيين عامة، بل أفادت مما كان بين الصليبيين والدولة البيزنطية من كره متبادل، فحافظت بذلك على كيانها وقوتها حتى أواسط القرن السابع الهجري، وكان لهم في السابق تاريخ عظيم وجهاد كبير، وذلك أيام القائد السلجوقى المسلم الفذ " ألب أرسلان " رحمه الله، ولكن للأسف فإن الأحفاد الذين كانوا يحكمون هذه المنطقة الحساسة والخطيرة والملاصقة للإمبراطورية البيزنطية كانوا على درجة شنيعة من الضعف أدت إلى

(١) أحمد الحفناوي، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ لإسلام، ص ٥٠٤.

مواقف مؤسفة من الذل والهوان..

وكان حكام هذه المنطقة في نزاع مستمر مع غيرهم من سلاطين المسلمين، كما كان لهم نافسون من الروم أو البيزنطيين ينازعونهم في الأناضول.

وبعد..

فهذه نظرة على الأمة الإسلامية في ذلك الوقت..

ونلاحظ أنه قد انتشرت فيها الفتن والمؤامرات، وتعددت فيها الحروب بين المسلمين وإخوانهم في الدين، وكثرت فيها المعاصي والذنوب، وعم الترف والركون إلى الدنيا.. وهانت الكبائر على قلوب الناس.. حتى كثر سماع أن هذا ظلم هذا، وأن هذا قتل هذا، وأن هذا سفك دم هذا.. يقال هذا الكلام بدم بارد.. وكأن الأرواح التى تزهق ليست بأرواح بشر!..

وقد عُلم على وجه اليقين أن من كان هذا حاله فلا بد من استبداله!!..

وأصبح العالم الإسلامى ينتظر كارثة تقضى على كل الضعفاء في كل هذه الأقطار، ليأتى بعد ذلك جيل من المسلمين يغير الوضع، ويعيد للإسلام هيبته، وللخلافة قوتها ومجدها..

بقى أن نشير في عجالة إلى أحوال القوة الثانية في الأرض في أوائل القرن السابع الهجرى والتى كانت تشارك المسلمين وغيرهم العيش على المعلوم من الكرة الأرضية وهى قوة الصليبيين..

وكان المركز الرئيسى لهم في غرب أوروبا، حيث لهم هناك أكثر من معقل.. وقد انشغلوا بحروب مستمرة مع المسلمين.. فكان نصارى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا يقومون بالحملات الصليبية المتتالية على بلاد الشام ومصر، وكان نصارى أسبانيا والبرتغال - وأيضًا فرنسا - في حروب مستمرة مع المسلمين في الأندلس..

وبالإضافة إلى هذا التجمع الصليبى الضخم في غرب أوروبا كانت هناك تجمعات صليبية أخرى في العالم، وكانت هذه التجمعات أيضًا على درجة عالية من

الحقد على الأمة الإسلامية، وكانت الحروب بينها وبين العالم الإسلامى على أشدها، **وكانت أشهر هذه التجمعات كما يلي:**

١ – **الإمبراطورية البيزنطية**: وحروبها مع الأمة الإسلامية شرسة وتاريخية، ولكنها كانت في ذلك الوقت في حالة من الضعف النسبى والتقلص في القوة والحجم؛ فلم يكن يأتى من جانبها خطر كبير، وإن كان الجميع يعلم قدر الإمبراطورية البيزنطية.

٢ – **مملكة أرمينيا**: وكانت تقع في شمال فارس وغرب الأناضول، وكانت أيضًا في حروب مستمرة مع المسلمين، وخاصة السلاجقة.

٣ – **مملكة الكُرج**: وهى دولة جورجيا حاليًّا، ولم تتوقف الحروب كذلك بينها وبين أمة الإسلام، وتحديدًا مع الدولة الخوارزمية.

٤ – **الإمارات الصليبية في الشام وفلسطين وتركيا**: وهذه الإمارات كانت تحتل هذه المناطق الإسلامية منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (بدءًا من سنة٤٩١ هجرية).

وعلى الرغم من انتصارات صلاح الدين الأيوبى - رحمه الله - على القوات الصليبية في حطين وبيت المقدس وغيرها إلا أن هذه الإمارات لا زالت باقية، بل ولا زالت من آن إلى آخر تعتدى على الأراضى الإسلامية المجاورة غير المحتلة، وكانت أشهر هذه الإمارات: أنطاكية وعكا وطرابلس وصيدا وبيروت.

وهكذا استمرت الحروب في كل بقاع العالم الإسلامى تقريبًا، وزادت جدًّا ضغائن الصليبيين على أمة الإسلام..

وشاء الله سبحانه تعالى أن تكون نهاية القرن السادس الهجرى سعيدة جدًّا على المسلمين، وتعيسة جدًّا على الصليبيين، فقد أذن الله عز وجل في نهاية القرن السادس الهجرى بانتصارين جليلين لأمة الإسلام على الصليبيين.. فقد انتصر البطل العظيم " صلاح الدين الأيوبى " رحمه الله على الصليبيين في موقعة " حطين " في الشام، وذلك في عام ٣٨٥ هجرية،

وبعـدها بثمـانى سـنوات فقـط انتصـر البطـل الإسـلامى الجليـل " المنصـور الموحـدى " - رحمـه الله - زعـيم دولـة الموحـدين علـى نصـارى الأنـدلس فـي موقعة " الأرك " الخالدة في سنة ٥٩١ هجرية..

وبالرغم من هذين الانتصارين العظيمين إلا أن المسلمين في أوائل القرن السابع الهجرى كانوا في ضعف شديد، وذلك بعد أن تفكك شمل الأيوبيين بوفاة صلاح الدين الأيـوبي، وكـذلك انفـرط عقـد الموحـدين بعـد وفـاة المنصـور الموحـدي، غيـر أن الصليبيين كانوا كذلك في ضعف شديد لم يمكنهم من السيطرة على البلاد المسلمة، وإن كانت رغبتهم في القضاء عليها قد زادت..

كان هذا هو وضع العالم في أوائل القرن السابع الهجري..

وبينما كـان هذا هو حـال الأرض فـي ذلك الوقـت، ظهـرت قوة المغول الناشئة التـى قلبت المـوازين، وغيـرت مـن خريطـة العـالم، وفرضـت نفسـها كقـوة ثالثـة فـي الأرض.. أو تستطيع أن تقول: إنها كانت القوة الأولـى فـي الأرض فـي النصـف الأول من القرن السابع الهجري..

هذه القوة هى قوة دولة المغول!!.. (١).

* * *

(١) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية حتى عين جالوت، ص ٩ - ١٠.

الفصل الرابع:
غزو المغول للدولة الخوارزمية

توتر العلاقة بين المغول والدولة الخوارزمية:

بعد أن نجح جنكيزخان في القضاء على دولة القراخطائيين التركية أصبح خان مملكة عظمى تضم جميع القبائل التركية على اختلاف عقائدها، ثم بدأ " جنكيزخان " يفكر في أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق، فوجد أن التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، هى أفضل وسيلة لتحقيق هذه الفكرة؛ لأن المسافة ضخمة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش التترية في منطقة متوسطة بين العراق والصين.. كما أن هذه المنطقة التى تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية.. وكانت من حواضر الإسلام المشهورة، وكنوزها كثيرة.. وأموالها وفيرة.. هذا بالإضافة إلى أنه لا يستطيع تكتيكيًا أن يحارب العراق وفى ظهره شعوب مسلمة قد تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد..

كل هذه العوامل جعلت " جنكيزخان " يفكر أولاً في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتى تعرف في ذلك الوقت بالدولة الخوارزمية.. وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل: أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران.. وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هى مدينة " أورجندة " (في تركمنستان حاليًّا).

وكان جنكيزخان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم (محمد بن خوارزم شاه) على حسن الجوار، ومع ذلك فلم يكن جنكيزخان من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، ولكنه عقد هذا الاتفاق مع ملك خوارزم ليؤمّن ظهره إلى أن يستتب له الأمر في شرق آسيا، أما وقد استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غربًا في أملاك الدولة الإسلامية!.. [(١)].

ورأى جنكيزخان أنه من الأفضل أن يمهد لغزوه الأراضى الخوارزمية، فعول

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية، ص ١٦.

على أن يقف على أحوال هذه الدولة، فبدأ هذه المرحلة بإعلان رغبته لعلاء الدين محمد خوارزم شاه في إبرام معاهدة تجارية تكون سبيلاً لفتح الطريق أمام التجار، ووافق علاء الدين محمد سنة٦١٥هـ / ١٢١٨م، على عقد المعاهدة، واتخذ جنكيزخان من ذلك الاتصال فرصة لنشر أطماعه، فسرعان ما نشر حراسه في آسيا الوسطى بحجة حماية الطريق التجارى من اللصوص وقطاع الطرق، وكان هؤلاء الحراس يسمون قراقجية (أى مستحفظين) وأصدر الأوامر إليهم بحراسة التجار الأجانب، ومرافقتهم سالمين إلى معسكرات المغول (١).

وتقول المصادر التاريخية عن ظروف عقد المعاهدة التجارية أن " جنكيزخان " قد أوفد في سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م رسالة مع بعض التجار إلى علاء الدين خوارزم، وقد حملهم بالهدايا الثمينة التى كان من بينها الفضة والأحجار الكريمة وسبائك الذهب وبعض الطيور، والمنسوجات الصوفية، ووصل هؤلاء التجار إلى بلاط السلطان في مدينة بخارى بعد عودته منخذلاً من العراق على إثر فشل حملته التى جردها للقضاء على الخلافة العباسية، وقد سلم هؤلاء الرسل الرسالة التى وجهها جنكيزخان والتى جاء فيها: " ليس يخفى على عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقد علمت بسطة ملكك وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الوجبات، وأنت عندى مثل أعز أولادي، وغير خاف عليك أيضًا أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لى قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع، وشملت الفوائد (٢).

وعندما تلا السلطان الخوارزمى هذه الرسالة، اشتد غضبه؛ لأنها تحمل في طياتها طابع التهديد والوعيد، إذ أن جنكيزخان قد أهانه حينما اعتبره في منزلة الابن لديه، وهذا يعنى التبعية للخان المغولي، فمن المعروف أن العلاقة بين الابن وأبيه، وبين الأخ الصغير والأخ الكبير، وبين العم وبين الأخ، إنما تدل على أنواع مختلفة

(١) ابن العبري، " تاريخ مختصر الدول "، ص ٢٢٩، محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس الإسلام، ص ٢٦.
(٢) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٨٣ - ٨٤.

من التبعية، كانت تكتب في المعاهدات بين أمراء آسيا، الذين كانوا لا يعرفون معنى العلاقات السياسية التى تقوم على المساواة بين الطرفين المتحالفين، كما أن " جنكيزخان " حرص على لفت أنظار السلطان إلى ما حدث للعناصر التركية والعناصر الصينية، وإخضاعها لمشيئته، ومقدار قوته العسكرية (١).

وبالرغم من أن السلطان الخوارزمي، قد أبرق وأرعد وهاج وماج، إلا أنه كظم غيظه خلال مقابلته الوفد المغولى ولم يبح لهم بتبرمه من هذه الرسالة وعقد الاتفاقية التجارية معهم، بل إنه أكرم وفادة هذا الوفد ورد عليهم ردًّا حسنًا.

وربما الذى دفع السلطان الخوارزمى إلى الموافقة على عقد المعاهدة التجارية مع جنكيزخان والتغاضى عما برسالته من إهانة له وتقليل من شأنه، هو ما وصل إليه من أخبار عن قوة جنكيزخان الذى كان قد بلغ نفوذه الحد الأقصى في ذلك الوقت، خاصة بعد أن تغلب على كوجلك خان وقضى على البقية الباقية من قبائل النايمان، كما أن السلطان الخوارزمى كان ما يزال حديث عهد بالخسارة القاسية في مواجهته مع الخليفة العباسي، بعد أن فقد معظم جيشه في رحلته الفاشلة إلى بغداد، بدون الدخول مع الخليفة العباسى في معركة فاصلة بل نجا هو بأعجوبة، ولم تكن هذه الحقيقة خافية على جنكيزخان، الذى - على ما يبدو - أراد استغلالها جيدًا.

كما أن جنكيزخان بعد أن نجح في القضاء على كوجلك منح الحرية الدينية للمسلمين، وكان لهذا رنة فرح كبيرة بين مسلمى كاشغر وختن، لدرجة أنهم اعتبروا المغول رحمة إلهية لإنقاذهم من شرور الطاغية كوجلك خان، وبالتالى فقد كانت نظرة مسلمى تلك البلاد لجنكيزخان على أنه المخلص لهم، وكان له شعبية كبيرة بينهم، ولم يكن السلطان الخوارزمى له السلطة عليهم، وما له منهم من ظهير.

ويجب أن لا ننسى أن السلطان الخوارزمى كان قد انتهى من محاولة القضاء على الخلافة العباسية، ذات السلطة الروحية على جميع المسلمين في أنحاء المعمورة، كما كان قد خلع المذهب السنى وأعلن التشيع، وهذه الأشياء قد أفقدته التعاطف والمساندة ليس من جانب العالم الإسلامى فحسب، بل ومن جانب شعبه

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٩٩.

أيضًا، وهو الذى كان يدعى أنه حامى المسلمين، مما جعله في موقف غاية في الضعف، فلم يجد أمامه بُدًّا من الموافقة على عقد المعاهدة التجارية، بالرغم من إحساسه بالإهانة الشديدة.

وهذه الخطوة من جانب جنكيزخان لا تخلو من فائدة، ذلك أن الطريق بين الصين وأراضى الدولة الخوارزمية صار ممهدًا لعبور التجار، مارين بهذا الطريق ذهابًا وإيابًا، وبلغ الأمر أن استخدم جنكيزخان التجار في أداء مهامه السياسية التى يرمى من ورائها التوطئة لنشر أطماعه، حيث كان يسند إليهم مهمة حمل الرسائل وبعض الهدايا إلى الحاكم الخوارزمى (١).

وبالرغم من أن جنكيزخان نجح في عقد المعاهدة التجارية - التى ذكرناها - مع علاء الدين محمد خوارزم شاه، غير أن علاء الدين محمد بدأ تساوره الشكوك في نوايا وأطماع جنكيزخان التوسعية في آسيا الوسطى بزعم حماية الطريق التجاري، وأحس في ذلك بداية لظهور أزمة تلاحقه من قبل جنكيزخان.

وظلت مخاوف علاء الدين محمد حاكم خوارزم قائمة على الرغم من الود المائل بين الجانبين والذى كان من أهم مظاهره استقبال جنكيزخان للتجار المسلمين، بما ينطوى على الود والتكريم (٢).

وعلى ما يبدو أن جنكيزخان قد لمس مدى الضعف والوهن الذى أصاب السلطان الخوارزمي، فقام بإرسال وفد مغولى مكون من ٤٥٠ تاجرًا، وكان هؤلاء التجار يحملون أصنافًا كثيرة وأمتعة فاخرة من الذهب والفضة والحرير والأقمشة القيمة والمسك والأحجار الكريمة. والشيء الكثير من التجارات، ويكفى أن نقول: إن القافلة كانت تتكون من خمسمائة من الإبل، لكى نعرف مدى ضخامة ذلك الوفد التجاري، وقد كلف جنكيزخان أحد التجار بحمل رسالة خاصة إلى السلطان قال له فيها "... وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغى أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين ".

(١) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٨٣ - ٨٤، محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس الإسلام، ص ٢٦.

(٢) ابن خلدون، العبر، ٥ / ٥١٨، محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق وفارس الإسلام، ص ٢٦.

[1].

والحقيقة أن هذه الحملة لم تكن ذات صبغة تجارية كما وصفها جنكيزخان، بل كانت حملة استكشافية ذات صبغة سياسية وعسكرية في المقام الأول، والدليل على ذلك، أنها تكونت من عناصر من جميع الأديان، وهو أمر يشير إلى أن المهمة الاستكشافية بحاجة إلى أن يقوم بها عناصر متعددة الأجناس والأديان وفق ما تقتضيه الأحوال في أراضى الدولة الخوارزمية، وهكذا نجد أنه كان من بين العناصر أفراد تنتمى إلى أديان متعددة فضلاً عن انتسابها لأجناس متباينة، بغية أن تعود الحملة بأخبار وأسرار هائلة من شأنها تمهد لجنكيزخان الإعداد لغزو منظم في وقت لاحق، كما أن قوام هذه الحملة قد بلغ أربعمائة وخمسين من الأفراد وهو قدر كبير من حيث النسبة العددية، مما ينبئ بأن الحملة قد استهدفت أغراضًا سياسية في المقام الأول. كما أن الرسالة التى أرسلها جنكيزخان إلى السلطان الخوارزمي، تدل على مدى حرصه على عودة جميع أفراد الحملة سالمين، وعباراتها اللغوية تدل على ذلك، فضلاً عن كونها تحمل تهديدًا واضحًا من قبل جنكيزخان للسلطان الخوارزمى بعدم المساس بأفرادها وإلا سيعرض ذلك علاقات الدولتين للمشاكل.

على كل حال سارت القافلة المغولية متجهة نحو ممالك السلطان الخوارزمي، حتى وصلت مدينة " أترار " [2] وكان يحكم هذه المدينة رجل يدعى " ينال خان " وهو ابن خال السلطان الخوارزمى [3] فقام حاكم المدينة بقتل أفراد الحملة المغولية واستولى على أموالها وتجارتها وباعها لتجار سمرقند [4].

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٠.

(٢) تقع تلك المدينة على الساحل الغربى لنهر سيحون، وهى أول بلدة تقع في مناطق الدولة الخوارزمية، وكانت لها أهمية تجارية كبيرة، إذ أنها كانت ملتقى طرق التجارة بين شرقى آسيا وغربيها، فضلا عن أنها كانت مفتاحا لإقليم بلاد ما وراء النهر. انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١ / ٣١٠.

(٣) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٨٥.

(٤) عطا ملك الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٦٠.

أما عن سبب قتلهم.. فقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الحادثة:

فمنهم من يقول: إن هؤلاء ما كانوا إلا جواسيس أرسلهم جنكيزخان للتجسس على الدولة الإسلامية أو لاستفزازها، وقد أيقن حاكم أترار ماتخفيه مزاعم جنكيزخان فأقبل على قتل هذه الحملة المغولية [١].

ومنهم من يقول: إن هذا كان عمدًا كنوع من الرد على عمليات للسلب والنهب قام بها التتار في بلاد ما وراء النهر، وهى بلاد خوارزمية مسلمة..

ومنهم من يقول: إن هذا كان فعلاً متعمدًا بقصد استثارة التتار للحرب، ليدخل خوارزم شاه بعد ذلك منطقة تركستان، والتى هى في ملك التتار آنذاك.. وإن كان هذا الرأى مستبعدًا؛ لأن " محمد بن خوارزم شاه " لم تكن له أطماع تذكر في أرض التتار.. وكل ما كان يريده هو العهد على بقاء كل فريق في مملكته دون تعدٍّ على الآخر.. وليس من المعقول أن يستثير التتار وهو يعلم أعدادهم وجيشهم، وليس من المعقول أيضًا أنه لم يكن يدرى عن قوتهم شيئًا وهم الملاصقون له تمامًا، وقد ذاع صيت زعيمهم " جنكيزخان " في كل مكان..

ومن المؤرخين أيضًا من يقول: إنما أرسل جنكيزخان بعضًا من رجاله إلى أرض المسلمين ليقتلوا تجار التتار هناك حتى يكون ذلك سببًا في غزو البلاد المسلمة، وإن كان هذا الرأى لا يقوم عليه دليل.. [٢].

ومنهم من قال: أن " ينال خان " عندما وقع بصره على ما كان يحمله التجار المغول من نفائس شرهت نفسه، وطمع في أموالهم، فما كان منه إلا أنه كاتب السلطان وأدخل في روعه أن هؤلاء الناس ما هم إلا جواسيس في زى التجار، قدموا بغرض الاستطلاع وجمع الأخبار عن قوة الخوارزميين تمهيدًا لمهاجمتهم فصدقه السلطان، وطلب إليه أن يراقبهم ويأخذ منهم حذره حتى يرى فيهم رأيه. ولكن " ينال خان " لم يقف عند هذا الحد، بل قتل هؤلاء التجار واستولى على أمتعتهم [٣].

(١) محمد أحمد محمد، دخول مغول العراق فارس الإسلام، ص ٢٧.
(٢) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية، ص ١٦.
(٣) عطا ملك الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٦١.

وهناك رأى آخر يقول: إن السلطان محمد الخوارزمى هو الذى أمر بمصادرة أموال هؤلاء التجار المغول، وإرسالها إليه، كما أمر بقتل جميع أفراد القافلة، ثم باع السلع لتجار بخارى وسمرقند (١).

كل هذه احتمالات واردة، لكن المهم في النهاية أن التجار (أو الجواسيس) قد قُتلوا.. ووصل النبأ إلى جنكيزخان، فهاج وماج واشتد غضبه، ولكنه تمالك أعصابه وأرسل إلى السلطان محمد سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال من المسلمين يحملون رسالة يعترض فيها الخان بشدة على تصرف السلطان إزاء التجار المغول، ويطلب منه تسليمه حاكم أترار ليلقى جزاءه، فيقول جنكيزخان: " إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، ألا تعترض إلى حد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أن الذى ارتكبه " ينال خان " كان من غير أمر صدر منك، فسلم " ينال خان " إليَّ لأجازيه على ما فعل حقنًا للدماء وتسكينًا للدهماء. وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح.

ولكن " محمد بن خوارزم شاه " اعتبر ذلك تعديًا على سيادة البلاد المسلمة؛ فهو لا يسلم مجرمًا مسلمًا ليحاكم في بلدة أخرى بشريعة أخرى.. غير أنه قال: إنه سيحاكمهم في بلاده.. فإن ثبت بعد التحقيق أنهم مخطئون عاقبهم في بلاده بالقانون السائد فيها وهو الشريعة الإسلامية... كما أن السلطان إذا سلم ينال خان لجنكيزخان يكون قد أقر بضعفه وتخاذله، في حين كان يريد أن يبدو دائمًا قويًا مهابًا للجميع... كما أن " ينال خان " ابن أخى " تركان خاتون " والدة السلطان، والتى كانت ذات شخصية قوية وتتمتع بطاعة وتأييد قبيلتها من أتراك القنقلي، الذين كانوا رهن إشارتها وطوع أمرها، فلو أخذ السلطان برأى جنكيزخان، لتعرض لقيام ثورة عسكرية ضده من جانب رجال الجيش الذين كانوا يؤازرون والدته، وربما أدى ذلك إلى الإطاحة بعرشه (٢).

ولم يكتف السلطان بمذبحة أترار، بل أمر بقتل رسل جنكيزخان الثلاثة، أو على الأقل قتل واحدٍ منهم، سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، فقطع بذلك كل أمل ممكن للتفاهم وحل

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣١.
(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٠٥.

المشكلة بالطرق السلمية، وأصبحت الحرب بين الطرفين أمرًا لا مفر منه، وبهذا جر السلطان على نفسه وعلى الممالك الإسلامية الخراب والدمار. فيقول الجويني: "... إن كل قطرة دماء من هؤلاء التجار، قد أجرت أنهرًا من دماء المسلمين. وكان القصاص لكل شعرة مئات الآلاف من الرؤوس [(١)].

والحقيقة أن جنكيزخان لم يكن يرغب في أكثر مما حدث لكى يقوم بهجومه على البلدان الإسلامية؛ فليس المجال مجال حجة أو برهان أو دليل.. حقيقة الأمر أن جنكيزخان قد أعد لغزو بلاد المسلمين خططًا مسبقة.. ولن يعطلها شيء.. وإنما كان يبحث فقط عن علة مناسبة، أو شبه مناسبة، وقد وجد في هذا الأمر العلة التى كان يريدها..

اجتياح المغول للدولة الخوارزمية:

في الوقت الذى تأهب فيه المغول لاجتياح الدولة الخوارزمية نجد أن السلطان الخوارزمى لم يكن في أحسن حالاته العسكرية والسياسية، فقد كان منفصلا - بل معاديًا - للخلافة العباسية في العراق، ولغيرها من الممالك الإسلامية؛ فلم يكن على وفاق مع الأتراك ولا مع السلاجقة ولا مع الغوريين في الهند.. وهكذا كانت مملكة خوارزم شاه منعزلة عن بقية العالم الإسلامي.. ووقفت وحيدة في مواجهة الغزو المغولى المهول..

وهذه المملكة وإن كانت قوية وتمكنت من الثبات في أول اللقاءات، فإنها - ولا شك - لن تصمد بمفردها أمام الضربات المغولية المتوالية..

وفى رأيى أنه مع قوة المغول وبأسهم وأعدادهم إلا أن سبب المأساة الإسلامية بعد ذلك لن يكون في الأساس بسبب هذه القوة، وإنما سيكون بسبب الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

{وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} [الأنفال: ٤٦].

---

(١) عطا ملك الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٦١، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٠٥.

فجعل الله عز وجل الفشل قرينًا للتنازع.. والمسلمون كانوا في تنازع مستمر، وخلاف دائم.. وعندما كانت تحدث بعض فترات الهدنة في الحروب مع التتار - كما سنرى - كان المسلمون يغيرون على بعضهم، ويأسرون بعضهم، ويقتلون بعضهم...!! وقد عُلم يقينًا أن من كانت هذه صفتهم، فلا يكتب لهم النصر أبدًا..

خلاصة القول أن جنكيزخان وضع خطة محكمة لاجتياح أراضى الدولة الخوارزمية، ولم يمهل السلطان علاء الدين الفرصة للاستعداد، وخرج له " محمد بن خوارزم شاه " بجيشه أيضًا.. والتقى الفريقان في موقعة شنيعة استمرت أربعة أيام متصلة، وذلك شرق نهر سيحون (١) (وهو يعرف الآن بنهر " سرداريا "، ويقع في دولة كازاخستان المسلمة)، وقتل من الفريقين خلق كثير.. لقد استُشهد من المسلمين في هذه الموقعة عشرون ألفًا، ومات من التتار أضعاف ذلك.. ثم تحاجز الفريقان، وانسحب " محمد بن خوارزم شاه " بجيشه لأنه وجد أن أعداد التتار هائلة.. وذهب ليحصن مدنه الكبرى في مملكته الواسعة (وخاصة العاصمة: أورجندة) (٢).

الاستيلاء على مدينة أترار:

كانت مدينة أترار هى أول مدينة قصدها المغول، لأنها تعتبر من جهة مفتاح إقليم ما وراء النهر، ومن جهة أخرى كان لا يزال يحكمها " ينال خان " الحاكم الخوارزمى الذى قتل التجار المغول، فأثار بذلك حفيظة جنكيزخان وأعطاه الذريعة لاجتياح الدولة الخوارزمية، وجعله يصمم على تأديبه والثأر لرعاياه - وإن كنت أرى أنه لم يكن بحاجة لهذه الحجة لاجتياح الأراضى الإسلامية -.

أسرع المغول إلى محاصرة المدينة، ولكن ينال خان - الذى كان يعرف جيدًا مصيره إذا ما ظفر به المغول - لم يدخر وسعًا في تحصين المدينة

---

(١) سيحون: نهر ينبع من آسيا الوسطى من منطقة (كيركيسان KIRGHIZISTAN) الروسية، ويصب في بحر أرال. وكان يسمى باليونانية (جاكسارتس JAXARTES)، وفى العصر المغولى أضحى اسمه (سيرداريا SYRADARIA).

(٢) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١٦.

والدفاع عن عنها دفاع المستميت، فلا غرو أن صمدت في وجه المغول ما يقرب من خمسة أشهر، حيث اعتصم ينال خان مع جنوده داخل قلعة المدينة، واستمر مدة شهر يوقع الضربات الجريئة بجنود المغول، وينزل بهم أفدح الهزائم، حتى إذا وجد نفسه محاصرًا من كل الجهات وقد سقط جنوده من حوله صرعي، فقد الأمل في الصمود أمام المغول، وقذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل حيث كان يدافع عن نفسه بقطع الطوب والحجارة التى كانت تنتزعها بعض النسوة من الجدران، وأخيرًا وقع في قبضة المغول، فأرسلوه إلى معسكر جنكيزخان الذى سنحت له فرصة التشفى من خصمه والتنكيل به، فأمر بأن تصهر الفضة وتسكب في عينيه وأذنيه حتى مات بهذه الطريقة البشعة.

بدء الغزو المغولى (التتري) للدولة الخوارزمية

وعلى إثر دخول المغول مدينة أترار لم يبقوا على شخص قط، مدفوعين بالحقد الدفين في قلوبهم، فكل من وجدوه في طريقهم جعلوه طعمة لسيوفهم، وذلك بعد أن نهبوا ممتلكات هؤلاء الضحايا وأسروا عددًا كبيرًا من السكان. وكانت مذبحة يعجز القلم عن وصفها

واللسان عن ذكرها، من هول الفظائع التى ارتكبها المغول في حق السكان [١].

وعلى ما يبدو أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام القوات المغولية لاجتياح بقية الأراضى الخوارزمية، حيث لم يعد هناك ما يعوق تقدمهم، فبعد أترار سارت الجيوش المغولية نحو مدينة سقناق على نهر سيحون، وبالرغم من أن أهالى تلك المدينة أظهروا دروبًا من الشجاعة والصمود في مقاتلة المغول، إلا أن قلة الأقوات والجنود وكثرة أعداد المغول وأسلحتهم، جعلت الأهالى يسلمون المدينة بعد سبعة أيام من الحصار.

ثم كان الهدف التالى لقوات المغول بقية مدن الثغور الواقعة على نهر سيحون، حيث بدأ بمدينة جند، إحدى مدن الثغور على نهر سيحون، وكان جند الدولة الخوارزمية يعسكرون بها، وما أن علموا بمقدم القوات المغولية إليها حتى غادروها على وجه السرعة، ولم يجد الأهالى في تلك البلدة التعيسة بدًّا من التسليم للقوات المغولية ولم يجد نفعًا معهم التحصن بداخلها، فسقطت المدينة في شهر صفر عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م، ثم أجبر المغول الأهالى على مغادرة المدينة، ثم أعملا السلب والنهب في المدينة المكلومة وقتلوا عددًا كبيرًا من أهليها وأسروا عددًا آخر [٢].

سقوط مدينة بخاري:

لقد جهز جنكيزخان جيشه من جديد، وأسرع إلى اختراق كل إقليم كازاخستان الكبير، وكان هدف جنكيزخان الاستيلاء على المدن الرئيسية في منطقة بلاد ما وراء النهر، وفى مقدمتها بخارى وسمرقند، ولذلك اصطحب معه أمهر قواد وقادة المغول، وفى طريقه إلى تلك البلاد استولى على عدة مدن صغيرة، ووصل في تقدمه إلى مدينة بخارى المسلمة [٣] (في دولة أوزبكستان الآن)، وهى بلدة الإمام الجليل، والمحدث العظيم " البخاري " رحمه الله، وحاصر جنكيزخان البلدة المسلمة في ذى

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول، ص ١١٣.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول، ص ١١٤.

(٣) بخارى: من بلاد ما وراء النهر، تقع في إقليم الصغد غربى سمرقند. كانت قاعدة المملكة السامانية كما كانت إحدى مراكز الفكر الإسلامي. ينسب إليها عدد من العلماء منهم إمام أهل الحديث أبو عبدالله محمد ابن إسماعيل المعروف بالبخارى وأبو زكريا عبدالرحيم بن أحمد التميمى وابن سينا الحكيم أبو على الحسين ابن عبدالله وغيرهم. وتقع اليوم في إقليم أوزبكستان بروسيا الآسيوية.

الحجة سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩ هجرية، ثم طلب من أهلها التسليم على أن يعطيهم الأمان، وكان " محمد بن خوارزم شاه " بعيدًا عن بخارى في ذلك الوقت.. فاحتار أهل بخارى: ماذا يفعلون؟.. ثم ظهر رأيان:

أما الرأى الأول فقال أصحابه: نقاتل المغول وندافع عن مدينتنا، وأما الرأى الثانى فقال أصحابه: نأخذ بالأمان ونفتح الأبواب للتتار لتجنب القتل، وما أدرك هؤلاء أن التتار لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة..

وهكذا انقسم أهل البلد إلى فريقين: فريق من المجاهدين قرر القتال، وهؤلاء اعتصموا بالقلعة الكبيرة في المدينة، وانضم إليهم فقهاء المدينة وعلماؤها.. وفريق آخر من المستسلمين، وهو الفريق الأعظم والأكبر، وهؤلاء قرروا فتح أبواب المدينة، والاعتماد على أمان التتار!..

وفتحت المدينة المسلمة أبوابها أمام المغول.. ودخل جنكيزخان إلى المدينة الكبيرة.. وأعطى أهلها الأمان فعلاً في أول دخوله خديعة لهم، وذلك حتى يتمكن من السيطرة على المجاهدين بالقلعة..

وفعلاً.. بدأ جنكيزخان بحصار القلعة، بل أمر أهل المدينة من المسلمين أن يساعدوه في ردم الخنادق حول القلعة ليسهل اقتحامها، فأطاعوه وفعلوا ذلك!!! وحاصر القلعة عشرة أيام.. ثم فتحها قسرًا.. ولما دخل إليها قاتل من فيها حتى قتلهم جميعًا!!.. ولم يبق بمدينة بخارى مجاهدون..

وهنا بدأ جنكيزخان في خيانة عهده، فسأل أهل المدينة عن كنوزها وأموالها وذهبها وفضتها.. ثم اصطفى كل ذلك لنفسه.. ثم أحل المدينة المسلمة لجنده، ففعلوا بها ما لا يتخيله عقل!... "... فقتلوا من أهلها خلقًا لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا مع النساء الفواحش في حضرة أهليهن..!! (ارتكبوا الزنا مع البنت في حضرة أبيها، ومع الزوجة في حضرة زوجها)، فمن المسلمين من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم أشعلت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها، فاحترقت المدينة حتى صارت خاوية على عروشها.. "!!!

انتهى كلام ابن كثير.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!.. [١]

حقا... لا حول ولا قوة إلا بالله!..

هلكت المدينة المسلمة!!..

هلك المجاهدون الصابرون فيها.. وكذلك هلك المستسلمون المتخاذلون!!.. [٢]

وكثر البكاء والضجيج في البلد، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت خاوية على عروشها.

ويروى الجوينى أن جنكيزخان دخل المدينة ليتفقد ما فيها ثم ذهب إلى المسجد الجامع ووقف أمام المقصورة، وسأل عما إذا كان هو قصر السلطان، فلما قيل له أنه بيت الله، ترجل عن حصانه، وصعد المنبر، وصاح قائلا: " كانت الصحراء خالية من العلف، أما الآن فاملئوا بطون خيولكم وأشبعوها، وعلى الفور قام جنده بنهب المدينة، وفتحوا المخازن واستولوا على الغلات، ثم حملوا إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوى مصاحف القرآن الكريم، وألقوا بها تحت حوافر الخيل وحولوا الصناديق إلى مذاود للخيل، وبعد ذلك أحضروا كئوس النبيذ والمغنيات من المدينة وصاروا يشربون ويسمعون ويرقصون، ويغنون وفق أصول غنائهم وألحانهم، بينما وقف الأئمة والمشايخ والسادات والعلماء المجتهدون أمام المذاود يعلفون الخيول،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ٩٨، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١٨.

(٢) روى البخارى ومسلم عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ : يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:﴿نعم، إذا كثر الخبث﴾.. أخرجه البخارى برقم: ٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥، ومسلم برقم: ٢٨٨٠ والترمذى برقم: ٢١٧٨، وابن ماجه برقم: ٣٩٣٥، والبيهقى في السنن الكبرى: (١٠ / ٩٣ (وأحمد في المسند: ٦ / ٤٢٨ من حديث زينب به.

وكان الخبث قد كثر في هذه البلاد.. فمن الخبث ألا يرفع المسلمون سيوفهم ليدافعوا عن دينهم وأرضهم وعرضهم.. ومن الخبث أن يصدق المسلمون عهود الكافرين لهم.. ومن الخبث أن يُسلم المسلمون من رفعوا راية الجهاد فيهم إلى عدوهم.. ومن الخبث أن يتفرق المسلمون ويتقاتلوا فيما بينهم، ومن الخبث ألا يحتكم المسلمون إلى كتاب ربهم، وإلى سنة نبيهم محمد ﷺ.

هذا كله من الخبث!..

وإذا كثر الخبث، لابد أن تحدث الهلكة!.. وصدق الرسول الحكيم ﷺ..{وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ} [الرعد: ١١].

وهكذا هلكت بخارى في سنة ٦١٦ هجرية!!..

ويحافظون عليها، وينفذون ما يصدر إليهم من أوامر (١).

اجتياح " سمرقند.. " في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م:

بعد أن دمر المغول مدينة بخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها، وحرّقوا ديارها ومساجدها ومدارسها، انتقلوا إلى المدينة المجاورة " سمرقند " (٢) (وهى أيضًا في دولة أوزبكستان الحالية)، واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسارى المسلمين من مدينة بخارى، وكما يقول ابن الأثير: "... وألقوا النار في البلد، والمدارس، والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال؛ ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عنهم، وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى، فساروا بهم مشاة على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشى قتلوه... " (٣).

أما لماذا كانوا يصطحبون الأسارى معهم؟ فلأسباب كثيرة:

أولاً: كانوا يعطون كل عشرة من الأسارى علمًا من أعلام التتار يرفعونه، فإذا رآهم أحد من بعيد ظن أنهم من التتار، وبذلك تكثر الأعداد في أعين أعدائهم بشكل رهيب، فلا يتخيلون أنهم يحاربونهم، وتبدأ الهزيمة النفسية تدب في قلوب مَنْ يواجهونهم..

ثانيًا: كانوا يجبرون الأسارى على أن يقاتلوا معهم ضد أعدائهم.. ومن رفض القتال أو لم يظهر فيه قوة قتلوه..

ثالثًا: كانوا يتترسون بهم عند لقاء المسلمين، فيضعونهم في أول الصفوف كالدروع لهم، ويختبئون خلفهم، ويطلقون من خلفهم السهام والرماح، وهم يحتمون

---

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٨٠ - ٨١.

(٢) سمرقند: من بلدان ما وراء النهر المعروفة وكانت قاعدة بلاد الصغد شرقى بخارى خربها المغول سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩م) ثم جدد بناءها " تيمورلنك " واتخذها عاصمة له وشيد فيها المساجد وأقام الربط وما زال بعض ذلك قائمًا إلى يومنا. كانت أكبر مركز لصناعة الورق (الكاغد) ومنها انتشر في العالم الإسلامى منذ القرن الثالث الهجري. وهى اليوم تقع في ولاية (أوزبيكستان) الروسية. ينسب إليها كثير من العلماء منهم ابن بهرام الدارمى السمرقندى من أئمة حفاظ الحديث.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٣.

بهم..

رابعًا: كانوا يقتلونهم على أبواب المدن لبث الرعب في قلوب أعدائهم، وإعلامهم أن هذا هو المصير الذى ينتظرهم إذا قاوموا التتار..

خامسًا: كانوا يبادلون بهم الأسارى في حال أسر رجال من التتار في القتال.. وهذا قليل لقلة الهزائم في جيش التتار..

يقول ابن الأثير: "... فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة، وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم، حتى تقدموا شيئًا فشيئًا، ليكون أرعب لقلوب المسلمين؛ فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه.

فلما كان اليوم الثانى وصل الأسارى والرجالة والأثقال، ومع كل عشرة من الأسارى علم، فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة... " (١).

وكانت " سمرقند " في ذلك الوقت من حواضر الإسلام العظيمة، ومن أغنى مدن المسلمين في ذلك الوقت، ولها قلاع حصينة، وأسوار عالية.. ولقيمتها الإستراتيجية والاقتصادية فقد ترك فيها " محمد بن خوارزم شاه " زعيم الدولة الخوارزمية مابين خمسين وسبعين ألف جندى خوارزمى لحمايتها.. هذا فوق أهلها، وكانوا أعدادًا ضخمة تقدّر بمئات الآلاف.. أما " محمد بن خوارزم شاه " نفسه فقد استقر في عاصمة بلاده مدينة " أورجندة ".

وصل جنكيزخان إلى مدينة " سمرقند " وحاصرها من كل الاتجاهات.. وكان من المفروض أن يخرج له الجيش الخوارزمى النظامي، ولكن لشدة الأسف.. لقد دب الرعب في قلوبهم، وتعلقوا بالحياة تعلقا مخزيًا، فأبوا أن يخرجوا للدفاع عن المدينة المسلمة!!..

فاجتمع أهل البلد وتباحثوا في أمرهم بعد أن فشلوا في إقناع الجيش المتخاذل أن يخرج للدفاع عنهم.. وقرر البعض من الذين في قلوبهم حمية من عامة الناس أن يخرجوا لحرب التتار.. وبالفعل خرج سبعون ألفًا من شجعان البلد، ومن أهل الجَلد،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٣.

ومن أهل العلم.. خرجوا جميعًا على أرجلهم دون خيول ولا دواب.. ولم يكن لهم من الدراية العسكرية حظ يمكنهم من القتال.. ولكنهم فعلوا ما كان يجب أن يفعله الجيش المتهاون الذى لم تستيقظ نخوته بعد..

وعندما رأى التتار أهل " سمرقند " يخرجون لهم قرروا القيام بخدعة خطيرة، وهى الانسحاب المتدرج من حول أسوار المدينة، في محاولة لسحب المجاهدين المسلمين بعيدًا عن مدينتهم.. وهكذا بدأ التتار يتراجعون بعيدًا عن " سمرقند " وقد نصبوا الكمائن خلفهم.. ونجحت خطة التتار، وبدأ المسلمون المفتقدون لحكمة القتال يطمعون فيهم ويتقدمون خلفهم.. حتى إذا ابتعد رجال المسلمين عن المدينة بصورة كبيرة أحاط جيش التتار بالمسلمين تمامًا.. وبدأت عملية تصفية بشعة لأفضل رجال " سمرقند "..

وعاد التتار من جديد لحصار " سمرقند "..

وأخذ الجيش الخوارزمى النظامى قرارًا مهينًا... لقد قرروا أن يطلبوا الأمان من التتار على أن يفتحوا أبواب البلدة لهم.. وذلك مع أنهم يعلمون أن التتار لا يحترمون العهود، ولا يرتبطون باتفاقيات، وما أحداث بخارى منهم ببعيد، ولكن تمسكهم بالحياة إلى آخر درجة جعلهم يتعلقون بأهداب أمل مستحيل.. وقال لهم عامة الناس: إن تاريخ التتار معهم واضح.. ولكنهم أصروا على التسليم.. فهم لا يتخيلون مواجهة مع التتار، وبالطبع وافق التتار على إعطاء الأمان الوهمى للمدينة، وفتح الجيش أبواب المدينة بالفعل، ولم يقدر عليهم عامة الناس، فقد كان الجيش الخوارزمى كالأسد على شعبه، وكالنعامة أمام جيوش الأعداء!!..

وفتح الجنود الأبواب للتتار وخرجوا لهم مستسلمين، فقال لهم التتار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم، ونحن نسيّركم إلى مأمنكم.. ففعلوا ذلك في خنوع، ولما أخذ التتار أسلحتهم ودوابهم فعلوا ما كان متوقعًا منهم.. لقد وضعوا السيف في الجنود الخوارزمية فقتلوهم عن آخرهم!!.. ودفع الجند جزاء ذلتهم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

ثم دخل التتار مدينة " سمرقند " العريقة، ففعلوا بها مثلما فعلوا سابقًا في " بخارى ".. فقتلوا أعدادًا لا تحصى من الرجال والنساء والأطفال، ونهبوا كل ثروات البلد، وانتهكوا حرمات النساء، وعذبوا الناس بأنواع العذاب البشعة بحثًا عن أموالهم، وسبوا أعدادًا هائلة من النساء والأطفال، ومن لم يصلح للسبى لكبر سنه، أو لضعف جسده قتلوه، واستبقوا من يصلح للقتال، وبعد أن اختاروا عددًا كبيرًا من العمال والصناع وأرسلوهم إلى منغوليا، وأحرقوا الجامع الكبير، وتركوا المدينة خرابًا.. ولاقت سمرقند نفس المصير الذى لاقته بخارى [١].

يقول ابن الأثير: "... وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية، وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله، وأهل الجلد والقوة رجالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمى أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين، فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد، فلم يزل التتر يتأخرون، وأهل البلد يتبعونهم، ويطمعون فيهم، وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينًا، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد، ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولاً، فبقوا في الوسط، وأخذهم السيف من كل جانب، فلم يسلم منهم أحد؛ قتلوا عن آخرهم شهداء، رضى الله عنهم، وكانوا سبعين ألفًا على ما قيل.

فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك، فقال الجند، وكانوا أتراكًا: نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا؛ فطلبوا الأمان، فأجابوهم إلى ذلك، ففتحوا أبواب البلد، ولم يقدر العامة على منعهم، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم، فقال لهم الكفار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم؛ ففعلوا ذلك، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم.

فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم، ومن تأخر قتلوه، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب، والقتل، والسبي، والفساد، ودخلوا البلد

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٣، الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٩٥ - ٩٦، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٢٢.

فنهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع وتركوا باقى البلد على حاله، وافتضوا الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، وقتلوا من لم يصلح للسبي، وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة... " [١].

اجتياح بقية الدولة الخوارزمية ونهاية السلطان محمد بن خوارزم شاه:

واستقر جنكيزخان بسمرقند؛ فقد أعجبته المدينة العملاقة التى لم ير مثلها قبل ذلك، وأول ما فكر فيه هو قتل رأس هذه الدولة ليسهل عليه بعد ذلك احتلالها دون خوف من تجميع الجيوش ضده؛ فأرسل ثلاثين ألفًا من فرسانه يطلبون " محمد بن خوارزم شاه " زعيم البلاد.. والقضاء عليه، وأمرهم بألا يتوقفوا في الطريق ولا يهدءوا حتى يتخلصوا من عدوهم نهائيًا، وألا يتعرضوا للبلاد الكبيرة الواقعة في طريقهم خشية أن يصرفهم هذا عن هدفهم الأساسي، وهو تعقب السلطان... وقال لهم: " اطلبوا خوارزم شاه أين كان، ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه..!! " [٢].

وفى شهر ربيع الأول سنة ٦١٧هـ / مارس ١٢٢٠م انطلق الفرسان المغول فعبروا نهر جيحون باتجاه مدينة " أورجندة " حيث يستقر " محمد بن خوارزم شاه "، وهى مدينة تقع على الشاطئ الغربى من نهر جيحون (نهر أموداريا)، وجاء الجنود التتار من الجانب الشرقى للنهر، وهكذا فصل النهر بين الفريقين، وتماسك المسلمون، ولكن هذا التماسك لم يكن إلا لعلمهم أن النهر يفصل بينهم وبين التتار، وليس مع التتار سفن!!..

ولكن المغول لم يعدموا الحيلة بل تفتق ذهنهم عن حيلة غريبة ولكنها ناجحة وتؤدى الغرض لقد أخذوا في إعداد أحواض خشبية كبيرة ثم ألبسوها جلود البقر حتى لا يدخل فيها الماء، ثم وضعوا في هذه الأحواض سلاحهم وعتادهم ومتعلقاتهم، ثم أنزلوا الخيول في الماء، والخيول تجيد السباحة، ثم أمسكوا بأذناب الخيول، وأخذت الخيول تسبح والجنود خلفها.. يسحبون خلفهم الأحواض الخشبية بما فيها من سلاح وغيره..

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٣.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٣٣٤.

يقول ابن الأثير: "... فلم يجدوا هناك سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل في الماء، وأمسكوا أذنابها، وتلك الحياض التى من الخشب مشدودة إليهم، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره، فعبروا كلهم دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة... " (١).

وبهذه الطريقة عبر جيش التتار نهر جيحون، في حين كان السلطان قد قر قراره على ألا ينازل المغول في معركة من المعارك بل آثر الفرار هائمًا على وجهه!.. وفوجئ المسلمون بجيش التتار إلى جوارهم، ومع أن أعداد المسلمين كانت كبيرة إلا أنهم كانوا قد مُلئوا من التتار رعبًا وخوفًا، وما كانوا يتماسكون إلا لاعتقادهم أن النهر الكبير يفصل بينهم وبين وحوش التتار.. أما الآن وقد أصبح التتار على مقربة منهم فلم يصبح أمامهم إلا طريق واحد... طريق الفرار!!..؟!

يقول ابن الأثير: "... وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبًا وخوفًا، وقد اختلفوا فيما بينهم، إلا أنهم كانوا يتماسكون بسبب أن نهر جيحون بينهم، فلما عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات، ولا على المسير مجتمعين، بل تفرقوا أيدى سبأ، وطلب كل طائفة منهم جهة، ورحل خوارزم شاه لا يلوى على شيء في نفر من خاصته، وقصدوا نيسابور، فلا دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها.

وكانوا لا يتعرضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى مازندران، وهى له أيضًا، فرحل التتر المغربون في أثره، ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه، فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان يعرف بباب سكون، وله هناك قلعة في البحر، فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٣٣٤.

شاه رجعوا... " [١].

وكان السلطان الخوارزمى قد قصد نيسابور، فلما علم أن المغول قد عبروا نهر جيحون وأنهم يجدون في طلبه ترك المدينة على الفور، واتجه نحو إقليم العراق العجمي،... وكان من الممكن أن تُحاصَر هذه المقدمة المغولية في أى بقعة من بقاع البلاد الإسلامية التى يتجولون فيها.. لكن الرعب كان قد استولى على قلوب المسلمين؛ فكانوا يفرون منهم في كل مكان، وقد أخذوا طريق الفرار اقتداءً بزعيمهم الذى ظل يفر من بلد إلى آخر كما نرى..

ولم يكن التتار في هذه المطاردة الشرسة يتعرضون لسكان البلاد بالسلب أو النهب أو القتل؛ لأن لهم هدفًا واضحًا، فهم لا يريدون أن يضيعوا وقتًا في القتل وجمع الغنائم، إنما يريدون فقط اللحاق بالزعيم المسلم، ومن جانب آخر فإن الناس لم يتعرضوا لهم لئلا يثيروا حفيظتهم؛ فيصيبهم من أذاهم!..

وهكذا وصل التتار إلى مسافة قريبة من مدينة نيسابور العظيمة في فترة وجيزة، ولم يتمكن " محمد بن خوارزم شاه " من جمع الأنصار والجنود، فالوقت ضيق، والتتار في أثره، فلما علم بقربهم من نيسابور، ترك المدينة واتجه إلى مدينة " مازندران " (من مدن إيران)، فلما علم التتار بذلك لم يدخلوا نيسابور بل اتجهوا خلفه مباشرة، فترك مازندران إلى مدينة " الرى "، ثم إلى مدينة " همذان " (وهما من المدن الإيرانية أيضًا)، والتتار في أثره، ثم عاد إلى مدينة " مازندران "... حيث أكرم وفادته أمراء هذا الإقليم، وقاموا نحوه بما يليق من تبجيل واحترام [٢].

وقد كان المغول يظنون أول الأمر أن السلطان سيفر إلى بغداد فاستمروا يتعقبونه عدة أيام، ولكنهم عادوا أدراجهم بعد أن تبين لهم عدم صحة هذا الخبر. بعد ذلك سمع خوارزم شاه بقرب وصول المغول إلى مازندران، وكان متواريًا في إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر، ولم يلبث أن رأى المغول يهجمون عليه، فركب سفينة وأسرع بها، بينما كانت سهام المغول تنهال عليه دون أن تصيبه، وسار إلى

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٣٣٥.

(٢) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ٢ / ١١٣، حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٢٨ - ١٢٩.

عمق البحر، وأخيرًا استطاع أن يصل سالمًا إلى إحدى الجزائر الصغيرة المنعزلة في بحر قزوين، وجاء التتار ووقفوا على ساحل البحر، ولم يجدوا ما يركبونه خلفه... [١].

ويصف النسوى حالة السلطان علاء الدين محمد عندما كان في السفينة فيقول: " حدثنى غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب، قالوا: كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما آيسه من الحياة، وهو يظهر الاكتئاب ضجرًا ويقول: لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار. وما هى إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولى الألباب " [٢].

وبالرغم من أن السلطان قد سر بنجاته من قبضة المغول، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، فقد أعياه المرض الذى اشتد عليه، وعاش مدة شهر في الجزيرة في كرب وعناء، ولما أحس بدنو أجله استدعى ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي، وابنيه الآخرين اللذين كانا معه في الجزيرة وهما: أزلاغ شاه وآق شاه، وأعلن خلع ابنه قطب الدين أزلاغ شاه من ولاية العهد، والبيعة لابنه جلال الدين؛ لأنه وجد فيه الشخص الوحيد الذى يستطيع مقاومة المغول واستعادة أملاك الدولة الخوارزمية وكان مما قاله لأبنائه في هذا الشأن العبارة الآتية: " إن عرى السلطنة قد انفصمت، والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه وتشبث بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ ثأرى منه إلا ولدى (جلال الدين) منكبرتي، وها أنا ذا موليه العهد فعليكما بطاعته، والانخراط في سلك تباعته " وعهد إليه بولاية العهد ومحاربة المغول [٣].

ثم حدث بعد ذلك بقليل أن وصلت الأخبار إلى خوارزم شاه بأن المغول قد استولوا على مازندران، والقلعة التى كان قد احتمى فيها نساؤه وأبناؤه، وأن أولاده الصغار قد قتلوا، ووقع نساؤه في الأسر، فلم يحتمل وقع هذه المصائب التى أخذت

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٣٣٥.
(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١٠٦ - ١٠٧.
(٣) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١٢٠.

تنهال على رأسه الواحدة تلو الأخري، فأسلم الروح في شوال سنة ٦١٧ هـ/ ١٢٢١م. والشيء الذى يؤسف له حقًا أن أتباعه لم يجدوا كفنا يكفنونه به، وأخيرا صنعوا له كفنا من قميص واحد منهم، ودفن بالجزيرة سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢١م [١].

إن السلطان علاء الدين كان من أعظم الملوك الخوارزميين فيقول عنه ابن كثير: "... وقد كان خوارزم شاه فقيهًا حنيفًا فاضلاً، له مشاركات في فنون العلم، يفهم جيدًا، وملك بلادًا متسعة، وممالك متعددة، إحدى وعشرين سنة وأشهرًا، لم يكن بعد ملوك بنى سلجوق أكثر حرمة منه، ولا أعظم ملكًا منه، لأنه إنما كان همته في الملك لا في اللذات والشهوات، ولذلك قهر الملوك في تلك الأراضي، وأحل بالخطا بأسًا شديدًا، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وعراق العجم غيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدى نوابه. " [٢]

ويقول ابن الأثير – رحمه الله –:

" هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش، وكان مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهورًا تقريبًا، واتسع ملكه، وعظم محله، وأطاعه العالم بأسره، ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه، فإنه ملك من العراق إلى تركستان، وملك بلاد غزنة وبعض الهند، وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس، وفعل بالخطا الأفاعيل العظيمة، وملك بلادهم.

وكان فاضلاً، عالمًا بالفقه والأصول وغيرهما، وكان مكرمًا للعلماء محبًّا لهم محسنًا إليهم، يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه، وكان صبورًا على التعب وإدمان السير، وغير متنعم، ولا مقبل على اللذات، إنما همه في الملك وتدبيره، وحفظه ورعاياه؛ وكان معظمًا لأهل الدين، مقبلاً عليهم، متبركًا بهم... وكان " محمد بن خوارزم شاه " قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم من التتار لم يبق في البلاد من يمنعها ولا من يحميها ".. [٣].

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٢٣.
(٢) البداية والنهاية، ١٣ / ١٠٤.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٦.

في هذا النص تفسير واضح جلى لمدى المأساة التى كان يعيشها المسلمون في ذلك الوقت.. لقد كان " محمد بن خوارزم شاه " جيدًا في ذاته وفى إدارته، لكنه قطع كل العلاقات بينه وبين من حوله من الأقطار الإسلامية.. لم يتعاون معها أبدًا، بل على العكس قاتلها الواحدة تلو الأخرى.. وكان يقتل ملوك هذه الأقطار ويضمها إلى مملكته، ولا شك أن هذا خلف أحقادًا كبيرة في قلوب سكان هذه البلاد، وهذا ليس من الحكمة في شيء.. انظروا إلى رسول الله ﷺ عندما كان يفتح البلاد، كان يولى زعماء هذه البلاد عليها ويحفظ لهم مكانتهم ويبقي لهم ملكهم فيضمن بذلك ولاءهم وحب الناس له.. فأبقى على حكم البحرين ملكها المنذر بن ساوى، وأبقى على حكم عمان ملكَيْها: جيفر وعباد.. بل وأبقى على اليمن واليها " باذان بن ساسان " الفارسى عندما أسلم، وهكذا...

هذه سياسة وحكمة في آنٍ معًا.. هذا مزج جميل بين الحزم وبين الحب.. هذا أسلوب راقٍ في الإدارة..

أما هنا في قصتنا.. فقد افتقد الزعيم محمد بن خوارزم هذا الجمع الحكيم بين الحب والحزم.. وأصبح حاكمًا بقوّته لا بحب الناس له، فلما احتاج إلى الناس لم يجدهم، ولما احتاج إلى الأعوان افتقر إليهم.. فلم تكن الصراعات بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية فقط، بل قامت الدولة الخوارزمية نفسها على صراعات داخلية وخارجية، ومكائد كثيرة، ومؤامرات عديدة.. فلم تتوحد القلوب في هذه البلاد، ومن ثم لم تتوحد الصفوف ولم يحدث النصر.. وما كان للنصر أن يتحقق والأمة على هذا النحو..

{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾} [الصف: ٤].

كان هذا هو سر اللغز في حياة قائد عالم فقيه اتسع ملكه وكثرت جيوشه.. ثم مات طريدًا شريدًا وحيدًا في جزيرة نائية في عمق البحر.. (١).

(١) د/ راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٣٣ - ٣٤.

بعد أن فرَّ خوارزم شاه من قبضة المغول إلى بحر قزوين (الخزر) فقد كان هم القوات المغولية الأكبر هو الوصول إلى بقية أبنائه وأمه وزوجاته، وكانت تركان خاتون - والدة السلطان - قد غادرت إقليم خوارزم مصطحبة معها نساء السلطان وأبنائه، وحاملة معها ما خف وزنه وغلا ثمنه، قد عبرت نهر جيحون، واخترقت الطريق الصحراوى قاصدة خراسان، ثم توجهت إلى مازندران، حيث لجأت إلى إحدى القلاع الحصينة الموجودة بهذه المنطقة.

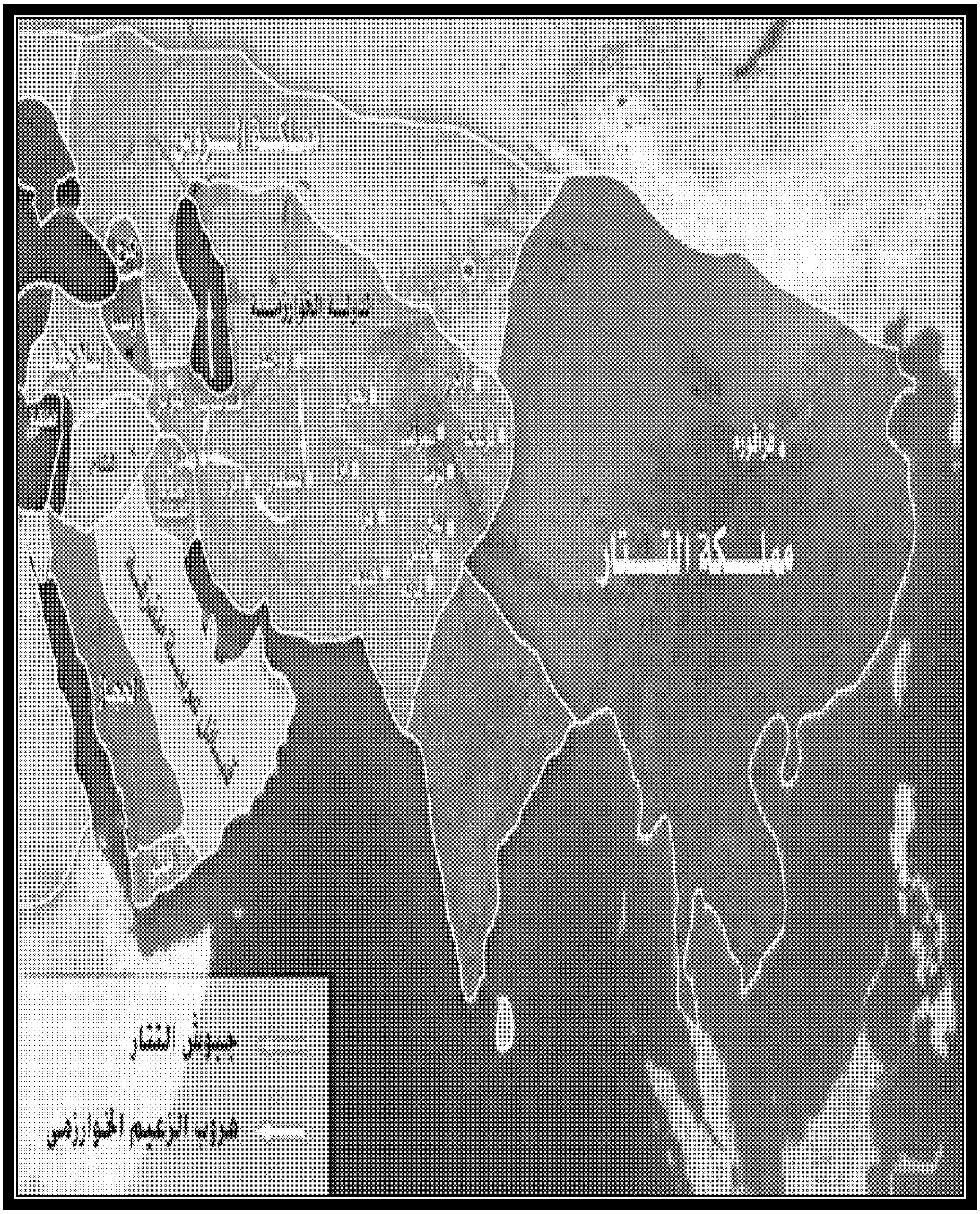

غزو المغول (التتار) للدولة الخوارزمية

ولكن المغول كانوا قد شرعوا في حصار تلك القلعة في أوائل سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠ م، عندما كانوا يطاردون السلطان محمد، واستمروا يحاصرونها مدة ثلاثة أشهر إلى أن نفذ الماء لدى المحاصرين، فسلمت " تركان خاتون " ومن معها، وسيق الجميع إلى معسكر جنكيزخان، وقد بقيت تركان خاتون أسيرة عند المغول إلى أن

صحبوها معهم عندما قرروا العودة إلى بلادهم، حيث ظلت تعيش أسيرة ذليلة إلى أن ماتت في سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م. أما أبناء السلطان محمد الصغار فقد تخلص جنكيزخان منهم رغم صغر سنهم(١).

ثم وضعت القوات المغولية نصب عينيها - بعد الخلاص من السلطان الخوارزمى - الاستيلاء على مدينة جرجانية (٢) قاعدة إقليم خوارزم وعاصمته، التى كانت في نفس الوقت حاضرة الدولة. وقد كان " جنكيزخان " يعرف جيدًا مدى أهمية هذه المدينة، لذلك نجده يحشد لغزوها ما يزيد على مائة ألف مقاتل من أمهر الجنود، فلما تقدمت تلك الجموع المغولية من المدينة، خرج أهل المدينة لقتالهم ولم يستسلموا كما حدث مع كثير من المدن الأخرى، واشتبكوا مع المغول وأجبروهم على التراجع إلى الخلف، ولكنه كان تراجعًا تكتيكيًا من المغول حيث أطمعوا الأهالى بالخروج من المدينة والابتعاد عنها، ثم فجأة أطبقوا عليهم من كل الجهات، وأعملوا فيهم السيف فمات عدد كبير من الأهالي، ولكن بعد أن قتلوا عددا كبيرًا أيضًا من المغول. فلما غابت الشمس دخل الأهالى المدينة وتحصنوا بها، فضرب عليهم المغول الحصار الخانق.

وقد أظهر الأهالى ضروبًا من الشجاعة النادرة في قتال المغول، ولم يستجيبوا لنداءات الاستسلام التى أطلقها المغول مقابل الأمان والعفو عنهم، كما لم يستجيبوا لطلب السلطان علاء الدين محمد الذى طلب منهم التسليم للمغول حقنًا للدماء، وبالرغم من أن قائد الحامية العسكرية الخوارزمية قد خارت قواه هو وجنوده وأعلنوا التسليم للمغول، إلا أن الأهالى ظلوا على مقاومتهم الباسلة، والاستماتة في الدفاع عن أنفسهم وأهليهم والحفاظ على سلامة مدينتهم.

ولما رأى المغول هذه المقاومة الشرسة من الأهالي، أجبروا الأسرى المسلمين الذين كانوا بحوزتهم على حفر خندق حول المدينة، وأمروا بملئه بالماء، فأتموها في عشرة أيام، وعملوا على تخريب أسوار المدينة وضربها بالمجانيق، ثم اقتحموها عنوة بعد حصار دام أربعة أشهر كاملة. ودار قتال رهيب بين المغول والمسلمين،

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٢٥.
(٢) قاعدة خوارزم وتقع على الجانب الغربى من نهر جيحون واسمها (كركنج) وسماها العرب (جرجانية).

وفنى من الفريقين عدد كبير جدًّا، إلا أن السيطرة الميدانية كانت للمغول، ثم تدفقت جموع جديدة من المغول على المدينة، وحلت الهزيمة الساحقة بالمسلمين، ودار القتل على أشده فيهم، وبدأ المسلمون في الهروب والاختفاء في السراديب والخنادق والديار، فقام المغول بعمل بشع إذ قاموا بهدم سد ضخم كان مبنيًّا على نهر جيحون، وكان يمنع الماء عن المدينة، وبذلك أطلقوا الماء الغزير على خوارزم، فأغرق المدينة بكاملها.. ودخل الماء في كل السراديب والخنادق والديار، وتهدمت ديار المدينة بفعل الطوفان الهائل، ولم يسلم من المدينة أحد البتة!! فمن نجا من القتل قتل تحت الهدم أو أغرق بالماء، وأصبحت المدينة العظيمة خرابًا، وتركها المغول وقد اختفت من على وجه الأرض وأصبح مكانها ماء نهر جيحون، ومن مر على المدينة الضخمة بعد ذلك لا يستطيع أن يرى أثرًا لحياة سابقة(١).

وبعد سقوط المدينة في أيدى المغول، فعلوا بها الأفاعيل واستباحوها، فأسروا من بقى من النساء والأطفال، ووضعوا السيف في رقاب من نجا من الغرق من الرجال، ولم يبقوا على أحد من سكان المدينة على قيد الحياة، اللهم إلا أرباب الحرف والصناعات الذين أرسلوا إلى بلاد المغول حيث يتم استخدامهم (٢).

اجتياح خراسان:

بعد أن اطمأن جنكيزخان إلى هروب " محمد بن خوارزم شاه " زعيم البلاد في اتجاه الغرب، وانتقاله من مدينة إلى أخرى هربًا من الفرقة التترية المطاردة له، وسقوط معظم المدن الكبرى في يديه، بدأ جنكيزخان يبسط سيطرته على المناطق المحيطة بسمرقند، وعلى الأقاليم الإسلامية الضخمة الواقعة في جنوب " سمرقند " وشمالها..

وجد جنكيزخان أن أعظم الأقاليم وأقواها في هذه المناطق: بقية مدن إقليم خوارزم وكل إقليم خراسان..

---

(١) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١٧١ - ١٧٢.
(٢) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ١٠١.

وكان إقليم خراسان يعد من الأقاليم الشاسعة وبه مدن عظيمة كثيرة مثل بلخ ومرو ونيسابور وهراة وغزنة وغيرها (وهو الآن في شرق إيران وشمال أفغانستان)..

وأما إقليم خوارزم فهو الإقليم الذى كان نواة للدولة الخوارزمية، واشتهر بالقلاع الحصينة والثروة العددية والمهارة القتالية، وهو يقع إلى الشمال الغربى من " سمرقند "، ويمر به نهر جيحون (وهو الآن في دولتى أوزبكستان وتركمنستان).. ولكن جنكيزخان أراد القيام بحرب معنوية تؤثر في نفسيات المسلمين قبل اجتياح هذه الأقاليم العملاقة والعمل على بث الرعب والفزع في نفوس الأهالي، فقرر البدء بعمليات إبادة وتدمير تبث الرعب في قلوب المسلمين في الإقليمين الكبيرين خوارزم وخراسان، فأخرج جنكيزخان من جيشه ثلاث فرق:

فرقة لتدمير إقليم " فرغانة " والوادى الأعلى من نهر جيحون (في أوزبكستان الآن) وهو على بعد حوالى خمسمائة كيلومتر إلى الشرق من " سمرقند ".. وقد بدأ هذا الجيش مهمته بمحاصرة مدينة " بناكت " أو " فناكت " الواقعة على هذا النهر، وكان حكامها من الأتراك، وبعد ثلاثة أيام دخل المغول المدينة، بعد كف الأهالى عن مقاومتهم، وفضلوا تسليمها إليهم، ثم توجهت القوات المغولية بعد ذلك نحو مدينة خجند إلى الجنوب من بناكت، وكانت في ذلك الوقت مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم. أما حاكم المدينة " تيمور ملك " فقد كان رجلا جريئًا مقدامًا، استمر يحمل علم الكفاح والجهاد ضد المغول فترات طويلة، ولكن وبالرغم من صمود المدينة وحاكمها في وجه المغول إلا أن المغول قاموا بحشد أعداد كبيرة من المقاتلين على مقربة من المدينة، وقاموا بسد نهر جيحون بقنطرة من السفن، وأخيرًا وقعت المدينة في قبضة المغول، واضطر حاكمها إلى الهرب إلى خراسان، ثم الرحيل إلى بلاد الشام (١).

فرقة لتدمير مدينة " ترمذ " (٢)، فرقة لتدمير قلعة " كلابة " وهى من أحصن

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٧١ - ٧٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١١٦.

(٢) ترمذ مدينة من أمهات مدن ما وراء النهر تقع على نهر جيحون من جانبه الشرقى في منطقة

قلاع المسلمين على نهر جيحون..

وقد قامت الفرق الثلاث بدورها التدميرى كما أراد جنكيزخان، فاستولت على كل هذه المناطق، وأعملت فيها القتل والأسر والسبى والنهب والتخريب والحرق، مثلما اعتاد التتار أن يفعلوا في الأماكن الأخرى، ووصلت الرسالة التترية إلى كل الشعوب المحيطة: إن التتار لا يرتوون إلا بالدماء، ولا يسعدون إلا بالخراب والتدمير، وأنهم لا يُهزمون، فعمت الرهبة منهم أرجاء المعمورة، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

ولما عادت هذه الجيوش من مهمتها القبيحة بدأ جنكيزخان يعد للمهمة الأكبر، حيث بدأ يعد لاجتياح إقليمى خراسان وخوارزم.. [١].

اجتياح مدينة بلخ وما حولها (شمال أفغانستان الآن):

تقع هذه المدينة على الضفة الغربية من نهر جيحون، وكانت في ذلك الوقت من أهم المدن في إقليم خراسان ولا شك أن أخبار مدينة " ترمذ " قد وصلت إليهم.. وكان في قلوب أهل هذه البلدة رعب شديد من التتار، فلما وصلت جيوش التتار إليهم طلبوا منهم الأمان، وعلى غير عادة التتار فقد قبلوا أن يعطوهم الأمان، ولم يتعرضوا لهم بالسلب أو النهب، وقد تعجبتُ من فعل التتار مع أهل بلخ! وتعجبتُ لماذا لم يقتلوهم كما هى عادتهم؟! ولكن زال العجب عندما مرت الأيام ووجدت أن " جنكيزخان " قد عاد إلى بلخ وأمر أهلها أن يأتوا معه ليعاونوه في فتح مدينة مسلمة أخرى هى " مرو " كما سيأتي، والغريب أن أهلها جاءوا معه بالفعل لمحاربة أهل مرو!!.. [٢].

الصغانيان. في تركمنستان الآن. وهى مدينة الإمام " الترمذى " صاحب السنن رحمه الله، على بعد حوالى مائة كيلومتر جنوب " سمرقند "..

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ١٠٣ - ١٠٤، د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٣٥.

(٢) وإن كنا نذكر ذلك على سبيل العجب الآن، فقد رأيناه في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي، وما زلنا نراه، فقد استخدم الأمريكان أهل الشمال في أفغانستان (نفس منطقة بلخ) لحرب المسلمين في كابل سنة٢٠٠٢

ولكن موقف جنكيزخان لم يستمر على تلك السجية إذ سرعان ما تغير رأيه - كالعادة - بعد أن علم بظهور جلال الدين منكبرتي في هذه المنطقة وتأييد الناس له، فطلب من بقية أهالى بلخ الهجرة إلى خارج المدينة، ثم أجهز عليهم دفعة واحدة. وتم تخريب المدينة تخريبًا كاملاً (١).

اجتياح الطالقان:

وبعد استيلاء " جنكيزخان " على مدينة بلخ قرر عدم الاستمرار في فتح بقية مدن الإقليم. وسار نحو الطالقان (٢) تاركًا مهمة غزو إقليم خراسان لابنه تولوي، وقد صعب عليه فتحها لمناعة حصونها، إلا أن جنكيزخان كان قد صمم على غزوها واستباحتها وعدم التراجع عنها وحاصرها شهورًا حتى تم فتحها، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، ونهبوا أموالها ومتاعها كما كانت عادتهم.. (٣).

اجتياح مدينة نسا:

وقد أطاع تولوى أمر أبيه وقاد جيشًا مغوليًا مؤلفًا من سبعين ألف جندى قاصدًا خراسان، ويمم وجهه شطر مدينة " نسا " (٤)، ولم تستسلم المدينة في بادئ الأمر للحرب النفسية التى يشنها المغول على المسلمين، وبدأت في مقاومتهم، وأظهر المسلمون فيها شجاعة كبيرة في القتال حتى نجحوا في قتل أحد القوات المغول، فجن جنون المغول، الذين انطلقوا كالثور الهائج، وشددوا الحصار على المدينة وقلعتها

ميلادية، واستخدم الأمريكان أيضًا أكراد الشمال العراقى في حرب بقية العراق ولا حول ولا قوة إلا بالله.. د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٣٥.

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١١٤ - ١١٥، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٢٩.

(٢) قاعدة إقليم طخارستان أحد أقاليم خراسان وتقع بين مدينتى مرو وبلخ وينسب إليها جماعة من العلماء. (شمال شرق أفغانستان بالقرب من طاجاكستان).

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ١٠٣ - ١٠٤، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١١٤ - ١١٥، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٢٩.

(٤) من مدن خراسان، تقع غربى مدينة (أبيورد) وشمالى مدينة (طوس) وشرقى مدينة بسطام، على حدود إقليم جرجان ينسب إليها كثير من العلماء منهم زهير بن حرب أبو خيثمة النسائي، محدث بغداد، وأحد شيوخ مسلم بن الحجاج صاحب المسند ومنها أبو عبد الرحمن النسائي، صاحب التصنيف المشهور في الحديث.
الحموي، معجم البلدان، ٥ / ٢٨٢ - ٢٨٣.

مدة خمسة عشر يومًا، لم يفتروا خلالها عن القتال، وضربوا المدينة بالمجانيق بطريقة شرسة، إلى أن خارت قوى المدافعين عن المدينة ولم يجدوا بُدًّا من التسليم بعد أن نفذت منهم الأقوات وآيسوا من المعونة العسكرية، ولما دخل المغول المدينة فعلوا بها الأفاعيل، ونكلوا بالأهالى حيث... ساقوهم إلى فضاء وراء البساتين... كأنهم قطعان الضانية تسوقها الرعاة. ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب أو نهب، إلى أن حشروهم إلى هذا الفضاء الواسع بالنساء والصغار. والضجيج يشق جلباب السماء، والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا الناس بأن يكتف بعضهم بعضًا، ففعلوا ذلك خذلانًا!، وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدوًا بغير قتال. والجبل قريب لنجا أكثرهم!!؟ فحين كتفوا جاؤوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدا وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء! فمن دماء مسفوكة، وستور منهوكة، وصغار على ثدى أمهاتها المقتولة متروكة. وكان عدة من قتل بلسان من أهلها. ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعين ألفا [1].

اجتياح مرو:

وكان المغول يدركون مدى أهمية مدينة مرو [2] التى كانت هى عاصمة الإقليم، فقد كانت مقر السلاطين السلاجقة، ووقع اختيار الخوارزميين عليها لتكون حاضرة لهم، وذلك على إثر استيلائهم على أملاك السلطان " سنجر " في خراسان، ولذلك فقد حشد المغول لها العدد الأكبر من قواتهم، فتقدم " تولوى " على رأس ذلك الجيش، واستعان في هذه الموقعة بأهل بلخ المسلمين كما ذكرنا من قليل.. وتحرك الجيش

---

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١١٤ - ١١٥، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٠.

(٢) حد أقاليم خراسان، وقاعدته مدينة (مرو)، التى أضحت في وقت ما عاصمة خراسان، وتدعى (مرو الكبرى) أو (مرو الشاهجان) أى مرو السلطانية، لكونها مقر الأمير الحاكم. يقال أن مؤسسها هو الملك السلجوقى (أنطوخيوس الأول)، سنة (٢٨٠ - ٢٤٠ ق. م)، وقد جعلها مستعمرة يونانية، ثم استولى عليها الفرس. لها في التاريخ الإسلامى وفى تاريخ الفكر الإسلامى دور واسع كبير. فيها قتل " يزد جرد " آخر ملوك الفرس وسبيت له ابنتان حملتا إلى العراق ثم إلى المدينة، فتزوج إحداهن الحسين بن عليّ فولدت له عليًّا زين العابدين، وتزوج الثانية عبد الله بن عمر فولدت له سالمًا. والنسبة إليها مروزي. ومرو مدينة كبيرة جدًّا في ذلك الوقت، وتقع الآن في دولة تركمنستان المسلمة، على بعد أربعمائة وخمسين كيلومترًا تقريبًا غرب مدينة بلخ الأفغانية.

المغولى الرهيب الذى لم تذكر الروايات عدده، ولكنه كان جيشًا هائلاً يقدر بمئات الألوف.. هذا غير المسلمين من شمال أفغانستان، وعلى أبواب مرو وجد المغول أن المسلمين في مرو قد جمعوا لهم خارج المدينة جيشًا يزيد على مائتى ألف رجل، وحدثت المواجهة بين الفريقين، وكانت موقعة رهيبة على أبواب مرو.. وحدثت المأساة العظيمة، ودارت الدائرة على المسلمين، وانطلق التتار يذبحون في الجيش المسلم حتى قتلوا معظمهم، وأسروا الباقي، ولم يسلم إلا قليل القليل، ونهبت الأموال والأسلحة والدواب من الجيش.. ويعلق ابن الأثير في أسى وإحباط على هذه الموقعة فيقول: " فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا، فصبر المسلمون، وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة ".

وقعت الهزيمة المرة بالجيش المسلم، وفتح الطريق لمدينة مرو ذات الأسوار العظيمة.. وكان بها من السكان ما يزيد عن سبعمائة ألف مسلم من الرجال والنساء والأطفال..

وحاصر التتار المدينة الكبيرة، وقد دب الرعب في قلوب أهلها بعد أن فنى جيشهم أمام عيونهم، ولم يفتحوا الأبواب للتتار مدة أربعة أيام، وفى اليوم الخامس أرسل قائد جيش " تولوى " ابن جنكيزخان رسالة إلى قائد مدينة مرو يقول فيها: " لا تهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا نجعلك أمير هذه البلدة، ونرحل عنك "..

فصدق أمير البلاد ما قاله زعيم التتر، أو أوهم نفسه بالتصديق، وخرج إلى قائد التتار، فاستقبله قائد التتار استقبالاً حافلاً، واحترمه وقرّبه، ثم قال له في خبث: " أخرج لى أصحابك ومقربيك ورؤساء القوم حتى ننظر من يصلح لخدمتنا، فنعطيه العطايا، ونقطع له الإقطاعات، ويكون معنا "، فأرسل الأمير المخدوع إلى معاونيه وكبار وزرائه وجنده لحضور الاجتماع الهام مع " تولوى " بن جنكيزخان شخصيًّا.. وخرج الوفد الكبير إلى التتار، ولما تمكن منهم التتار قبضوا عليهم جميعًا وقيدوهم بالحبال!..

ثم طلبوا منهم أن يكتبوا قائمتين طويلتين:

- أما القائمة الأولى: فتضم أسماء كبار التجار وأصحاب الأموال في مدينة مرو..

- وأما القائمة الثانية: فتضم أسماء أصحاب الحرف والصناع المهرة.. ثم أمر " تولوى " بن جنكيزخان أن يأتى المغول بأهل البلد أجمعين، فخرجوا جميعًا من البلد حتى لم يبق فيها واحد، ثم جاءوا بكرسى من ذهب قعد عليه تولوى بن جنكيزخان ثم أصدر الأوامر الآتية:

الأمر الأول: أن يأتوا بأمير البلاد وبكبار القادة والرؤساء فيقتلوا جميعًا أمام عامة أهل البلد!! وبالفعل جاءوا بالوفد الكبير وبدءوا في قتله واحدًا واحدًا بالسيف، والناس ينظرون ويبكون..

الأمر الثاني: إخراج أصحاب الحرف والصناع المهرة، وإرسالهم إلى منغوليا للاستفادة من خبراتهم الصناعية هناك..

الأمر الثالث: إخراج أصحاب الأموال وتعذيبهم حتى يخبروا عن كل مالهم، ففعلوا ذلك ومنهم من كان يموت من شدة الضرب ولا يجد ما يكفى لافتداء نفسه..

الأمر الرابع: دخول المدينة وتفتيش البيوت بحثًا عن المال والمتاع النفيس، حتى إنهم نبشوا قبر السلطان " سنجر " السلجوقى أملاً في وجود أموال أو ذهب معه في قبره..

واستمر هذا البحث ثلاثة أيام..

ثم الأمر الخامس الرهيب:

أمر تولوى بن جنكيزخان - لعنه الله ولعن أباه - أن يُقتل أهل البلاد أجمعون!!..

وبدأ المغول يقتلون كل سكان مرو.. يقتلون الرجال.. والنساء.. والأطفال!!..

قالوا: إن المدينة عصت علينا وقاومت، ومن قاوم فهذا مصيره..

يقول ابن الأثير رحمه الله: " وأمر ابن جنكيزخان بعد أن قتلوا جميعًا أن يقوم التتار بإحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون!! "..

قتل من مدينة مرو سبعمائة ألف مسلم ومسلمة، وهذا ما لا يتخيل، وحقًا فإنه لم تمر على البشرية منذ خلق آدم ما يشبه هذه الأفعال من قريب ولا بعيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

وفنيت مدينة مرو، واختفى ذكرها من التاريخ!!!.. [(١)].

يقول ابن الأثير: "... فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذى بها متقدمًا على من فيها يقولون له: لا تهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك؛ فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد، فأمنهم، فخرج إليهم، فخلع عليه ابن جنكزخان، واحترمه، وقال له: أريد أن تعرض على أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه، وأعطيناه إقطاعًا، ويكون معنا.

فلما حضروا عنده، وتمكن منهم، قبض عليهم وعلى أميرهم، وكتفوهم؛ فلما فرغ منهم قال لهم: اكتبوا إلى تجار البلد ورؤسائه، وأرباب الأموال في جريدة، واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى، واعرضوا ذلك علينا؛ ففعلوا ما أمرهم، فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم، فخرجوا كلهم، ولم يبق فيه أحد، فجلس على كرسى من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم، فأحضروا، وضربت رقابهم صبرًا والناس ينظرون إليهم ويبكون.

وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء والأطفال والأموال، فكان يومًا مشهودًا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل، وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم، وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال، فربما مات أحدهما من شدة الضرب، ولم يكن بقى له ما يفتدى به نفسه، ثم إنهم أحرقوا البلد، وأحرقوا تربة السلطان سنجر، ونبشوا القبر طلبًا للمال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة، وقال: هؤلاء عصوا علينا، فقتلوهم أجمعين؛ وأمر بإحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم " [(٢)].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ / ٣٣٩، د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٣٥، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣١.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٠.

اجتياح نيسابور:

كانت القوات المغولية المطاردة للسلطان الخوارزمى علاء الدين قد استولت على مدينة نيسابور [1] أثناء تعقبه ثم رحلت عنها خلف السلطان الخوارزمي، ثم إن المدينة استعادت عافيتها بعد رحيل القوات المغولية عنها في إثر السلطان الخوارزمي، وهى مدينة كبيرة أخرى من مدن إقليم خراسان، واتجهت إليها فرقة عسكرية من فرق المغول بقيادة القائد المغولى طغاجار - زوج ابنة جنكيزخان -، وشرع في فرض الحصار عليها في منتصف شهر رمضان سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م، ولكنه قتل في اليوم الثالث من بداية الحصار بسهم من أحد المدافعين عن المدينة، وقد رأى المغول رفع الحصار والابتعاد عن المدينة لحين وصول القائد المغولى تولوى بن جنكيزخان، فتوجه إليها بجيشه بعد أن ترك خلفه مدينة مرو وقد خربت تمامًا، وهناك حاصروا مدينة نيسابور، وكان تولوى يرغب في الانتقام من هذه المدينة لمقتل زوج أخته بأيديهم، وكان الأهالى لا يرجون منه خيرًا ويتوقعون منه كل شر، ولكن لا قبل لهم بهذه الحشود المغولية الجرارة، فطلبوا منهم الأمان مقابل دفع مبلغ من المال سنويًا، ولكن " تولوى " رفض ذلك، وصمم على الانتقام من الأهالي، ودخل التتار المدينة في العشر من صفر سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، وأخرجوا كل أهلها إلى الصحراء، وشرع المغول في احتلال المدينة من كل جانب، وعندئذٍ تركوا صفاتهم الآدمية وتحولوا إلى وحوش كاسرة، فأمر تولوى بن جنكيزخان أن يقتل كل رجال البلد بلا استثناء، وأن تقطع رؤوسهم لكى يتأكدوا من قتلهم، ثم قام اللعين بسبى

---

(١) نيسابور:وتسمى (أبرشهر) ويقول بعضهم (إيران شهر). من مدن خراسان، وإحدى عواصمها. كانت في العصر العباسى من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران، وذلك قيل أن يدمرها زلزال أصابها سنة ٥٤٠ هـ، ثم أكمل خرابها غزو المغول لها سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م). نسب إليها كثير من العلماء منهم الشيخ أبو منصور عبد الملك الثعالبى صاحب كتاب (يتيمة الدهر)، وأبو الفضل الميكالي، وأبو الحسن على بن أحمد الواحدي، وغياث الدين أبو الفتح عمر الخيام، وأبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى (نسبة إلى ميدان زياد وهو محلة بنيسابور)، صاحب كتاب مجمع الأمثال، ومسلم بن الحجاج صاحب (المسند الصحيح)، ويحيى بن يحيى النيسابوري، وأبو عبد الله بن أحمد بن نصر النيسابوري، وأبو بكر البيهقى النيسابورى صاحب كتاب (السنن)، وكتاب (المبسوط) في الفقه الشافعي. وأبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور النيسابوري، صاحب كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف، وأسد بن الفرات الفقيه الكبير والقائد العظيم الذى فتح جزيرة صقلية والذى استشهد سنة ٢١٢ هـ، في حصار مدينة (سرقوسة(. (وهى تقع الآن في الشمال الشرقى لدولة إيران).

كل نساء المسلمين في مدينة نيسابور، وأقاموا في المدينة خمسة عشر يومًا يفتشون الديار عن الأموال والنفائس.. وكانت زوجة " طغاجار " - التى كانت تتحرق شوقًا للأخذ بالثأر لزوجها - قد دخلت المدينة هى الأخرى بصحبة عشرة آلاف جندي، فقتلوا من صادفهم من رجال ونساء وأطفال...

وأدهى من ذلك وأمَرّ أنهم قطعوا رؤوس القتلى وبنوا منها أهرامات عالية أحدها للرجال وأخرى للنساء والثالث للأطفال، وبذلك ضمنوا ألا ينجوا مخلوق من حد سيوفهم بادعاء الموت وارتمائه بين الأشلاء والجثث المتراكمة... (١)، ثم تركوا نيسابور بعد ذلك أثرًا بعد عين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. (٢).

اجتياح هراة:

وبعد اجتياح نيسابور توجه تولوى بن جنكيزخان إلى هراة (٣)، ولم تكن أحسن حظًا من سابقاتها من المدن التى أقدم المغول على تدميرها، فلم المدينة من المصير الذى قابلته مدينتا مرو ونيسابور، فقتل فيها كل الرجال، وسبيت كل النساء، وخربت المدينة كلها وأحرقت.. وإن كان أميرها - وكان يُدعى: " ملك خان " - قد استطاع الهروب بفرقة من جيشه في اتجاه غزنة في جنوب أفغانستان!! وهكذا كان الملوك والرؤساء في ذلك الزمن يُوَفَّقون إلى الهروب، بينما تسقط شعوبهم في براثن المغول!!!.. (٤).

---

(١) وفعل المغول هذه الفعلة الشنيعة والوحشية، لأنه جاء من أخبر ابن جنكيزخان أن بعضًا من سكان مدينة مرو قد سلم من القتل، وذلك أنهم ضربوا بالسيف ضربات غير قاتلة، وظنهم التتار قد ماتوا فتركوهم، ولذا فقد أمر ابن جنكيزخان في مدينة نيسابور أن يقتل كل رجال البلد بلا استثناء، وأن تقطع رؤوسهم لكى يتأكدوا من قتلهم.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٠، الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١/ ١٤٠، براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدي، ص ٥٦٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٢، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٤٢.

(٣) هراة: من أمهات مدن خراسان، تقع قرب بوشنج، وهى اليوم من مدن أفغانستان. وفى إقليم فارس، قرب مدينة اصطخر مدينة تحمل اسم هراة. والنسبة إلى هراة (هروي)، وإليها ينسب كثير من العلماء منهم أبو عاصم محمد بن أحمد الهروى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ، وغيره من العلماء. وهى من أحصن البلاد الإسلامية، وكانت مدينة كبيرة جدًّا كذلك، وتقع في الشمال الغربى لأفغانستان.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ١٠٤ - ١٠٥، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٢، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٤٢.

وبسقوط هراة يكون إقليم خراسان قد سقط بكامله في أيدى التتار، ولم يبقوا فيه على مدينة واحدة، وتمت كل هذه الأحداث في عام واحد هو العام السابع عشر بعد ستمائةٍ من الهجرة.. وهذا من أعجب الأمور التى مرت بالأرض على الإطلاق!!!..

اجتياح باميان:

كان جنكيزخان قد انتقل من بلخ إلى الطالقان، ثم سار إلى باميان (١) فكان أهلها على قدر كبير من الشجاعة، ولم يتأثروا بما حدث للمسلمين من مذابح على أيدى المغول، فقرروا الصمود وقتال المغول، وصمدوا في وجوههم وقاتلوهم قتالاً شديدًا، وحدث أن تمكن المقاومون من قتل الأمير " ‘موتوجن بن جغتاى " حفيد جنكيزخان، وكان من أحب الأحفاد إليه، فعظمت المصيبة، وملأ الغيظ قلوب المغول، فجدوا في القتال إلى أن فتحوا المدينة، وقتلوا كل من فيها حتى الأجنة والدواب، ولم يأسروا منها أحد قط، بل تركوها أرضًا فقرًا لا يسكنها أحد وأسموها " ماو باليغ " أي: مدينة البؤس(٢).

جلال الدين منكبرتي ولواء المقاومة:

بتدمير إقليمى خراسان وخوارزم يكون المغول قد سيطروا على المناطق الشمالية ومناطق الوسط من دولة خوارزم الكبرى، ووصلوا في تقدمهم إلى الغرب إلى قريب من نهاية هذه الدولة (على حدود العراق)، ولكنهم لم يقتربوا بعد من جنوب دولة خوارزم.. وجنوب دولة خوارزم كانت تحت سيطرة " جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه "، وهو ابن الزعيم الخوارزمى الكبير محمد بن خوارزم، وكان قد عهد عليه بحكم قبل هذا الإقليم في حياته وقبل تنامى الخطر المغولي، ثم استدعاه ليساعده في الحرب مع المغول، ثم اصطحبه في رحلة الفرار من قبضة المغول إلى أن وصل إلى جزيرة في بحر قزوين، ثم أوصى له قبل وفاته بولاية العهد من بعده بعد عزل أخيه أزلاغ شاه، وحَمَّله لواء الحرب والجهاد ضد المغول.

---

(١) باميان بكسر الميم وياء وألف ونون: بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة بها قلعة حصينة والقصبة صغيرة والمملكة واسعة بينها وبين بلخ عشر مراحل وإلى غزنة ثمانى مراحل. الحموي، معجم البلدان، ١ / ٣٣٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٠، عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ١ / ١٢٦.

وكان الذى حدث أنه عقب وفاة السلطان الخوارزمى عاد أبناؤه الكبار إلى خوارزم حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والترحاب، وسرعان ما تكون جيش خوارزمي، حيث بدأ جلال الدين منكبرتي منذ العام ٦١٨ هـ العمل على إحياء فكرة الجهاد بين الجموع المتحاربة، واستجمع الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم، وظل على تلك الحال يستنفر أهالى غزنة (١) وجنوب دولة خوارزم - الذى كان يشمل وسط وجنوب أفغانستان وباكستان، وكان يفصل بينه وبين الهند نهر السند -، ويحضهم على الجهاد، حتى كون جيشًا قويًّا (٢).

وكان على جلال الدين منكبرتي أن يواجه عوامل الفرقة والاختلاف التى نشأت ليس في صفوف الجيش فقط بل في صفوف قادة المسلمين جميعًا، والسبب في ذلك أن هذا الجيش كان يتكون من القبيلة التى تنتمى إليها تركان خاتون زوجة السلطان الخوارزمى علاء الدين، ولما علم هؤلاء باختيار جلال الدين وليًّا للعهد وخلع أزلاغ شاه، ثاروا ولم يوافقوا على هذا التغيير، ودب الخلاف في صفوفهم، وحاولوا القبض على جلال الدين وإيداعه السجن أو الخلاص منه نهائيًّا، فلما علم جلال الدين بما يدبر له اضطر إلى الهرب إلى خراسان ومعه ٣٠٠ فارس بقيادة " تيمورملك " الحاكم السابق لمدينة " جند" (٣).

كما أن العداء الماثل بينه وبين جيرانه من الأمراء المسلمين الذين وجدوا في أهدافه التوسعية ما يرمى إلى الوثوب عليهم، فانعدمت على أثر ذلك الوحدة بين القادة المسلمين، والذى ساعد على ترسيخ تلك الفكرة هو أن جلال الدين منكبرتي قد ترك بلاد الهند متجهًا إلى أراضى الدولة الخوارزمية، وباغت أخاه غياث الدين شيرشاه على مقربة من الرى واستولى على الأقاليم الغربية من أراضى الدولة الخوارزمية،

---

(١) غزنة: من أشهر مدن سجستان (أفغانستان). كانت دارًا لملوك آل سبكتكين، وإليها ينسب البيت الغزنوى والدولة الغزنوية التى اشتهرت في القرن الخامس والسادس للهجرة. ينسب إليها كثير من العلماء منهم: أبو الفضل محمد بن أبى يزيد طيفور السجاوندى الغزنوى صاحب كتاب (عين المعاني) في تفسير القرآن. ومدينة غزنة في أفغانستان الآن، وتقع على بعد حوالى مائة وخمسين كيلو مترًا جنوب مدينة كابول، وهى مدينة حصينة تقع في وسط جبال باروبا ميزوس الأفغانية)..

(٢) أبو الفدا، المختصر، ٣ / ١٢٨، النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٢٥.

وسرعان ما بايعه قواد الدولة ونادوا به سلطانًا على البلاد، ونجح جلال الدين منكبرتي في احتواء حكام المدن الذين استقلوا ببعض الولايات في خراسان ومازندران والعراق العربى بعد رحيل المغول عنه (١).

هذه الوقائع جعلت الكثير من المسلمين ينظرون بعين الريبة إلى تحركات وفكرة الجهاد التى أعلنها جلال الدين منكبرتي، ولا يجب أن ننسى العداوات التى ورثها جلال الدين منكبرتي عن أبيه، الذى كان قد عادى معظم الحكام المسلمين والمجاورين له، إضافة إلى الرعب والهلع المتمكن في قلوب الناس من المغول، وسيادة الشائعة التى تقول بأنهم جيش لا يقهر، كل هذه عقبات قد جعلت فكرة الجهاد التى أعلنها جلال الدين منكبرتي تواجه صعوبات جمة.

على كل حال فإن جلال الدين منكبرتي كان هو رجل الساعة، فقد تغلب على معظم العقبات التى واجهته، فبعد وفاة أبيه سار إلى إقليم خوارزم، ولكنه أضطر لتركه لمهاجمة المغول له، وتوجه إلى مدينة نسا، ثم غادرها إلى نيسابور ومنها إلى غزنة، وكان جلال الدين يحكم هذا الإقليم من قبل أبيه، ثم استدعاه أبوه بعد مدة ليكون إلى جانبه في حروبه ضد المغول، إذ كان يلمس فيه الشجاعة والبطولة.

وعندما وصل جلال الدين إلى غزنة رحب به الأهالى وانضم إلى لوائه كثير من مختلف الأجناس، كما انضمت إليه الجنود الخوارزمية المشتتة في كابل وبيشاور وغيرهما من المدن الواقعة على حدود الهند، وانضم إليه أحد ملوك الأتراك المسلمين اسمه " سيف الدين بغراق "، وكان شجاعًا مقدامًا صاحب رأى ومكيدة في الحروب، وكان معه ثلاثون ألف مقاتل، ثم انضم إليه أيضًا ستون ألفًا من الجنود الخوارزمية الذين فروا من المدن المختلفة في وسط وشمال دولة خوارزم بعد سقوطها، كما انضم إليه أيضًا " ملك خان " أمير مدينة هراة بفرقة من جيشه، وذلك بعد أن أسقط جنكيزخان مدينته.. وبذلك بلغ جيش جلال الدين عددًا كبيرًا (٢).

ولما اطمأن جلال الدين إلى إعداد جيشه خرج به في ربيع سنة ٦١٨ هـ /

(١) أبو الفدا، المختصر، ٣ / ١٢٨ - ١٣٥، ابن خلدون، العبر، ٥ / ٥٢٣ - ٥٢٥.
(٢) أبو الفدا، المختصر، ٣ / ١٣٢ - ١٣٥.

١٢٢١م إلى منطقة بجوار مدينة غزنة تدعى " بلق " (١).. وانتظر جيش التتار في هذا المكان الحصين، ولما جاء جيش التتار دارت بين قوات جلال الدين المتحدة وقوات التتار معركة من أشرس المواقع في هذه المنطقة.. وقاتل المسلمون قتال المستميت.. فهذه أطراف المملكة الخوارزمية، ولو حدثت هزيمة فليس بعدها أملاك لها، وكان لحمية المسلمين وصعوبة الطبيعة الصخرية والجبلية للمنطقة، وكثرة أعداد المسلمين، وشجاعة الفرقة التركية بقيادة سيف الدين بغراق، والقيادة الميدانية لجلال الدين... كان لكل ذلك أثر واضح في ثبات المسلمين أمام جحافل التتار..

ثم أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين.. وانهزم التتار للمرة الأولى في بلاد المسلمين!! وكثر فيهم القتل، وفر الباقون منهم إلى ملكهم جنكيزخان، والذى كان يتمركز في " الطالقان " في شمال شرق أفغانستان..

وارتفعت معنويات المسلمين جدًّا.. فقد وقر في قلوب الكثيرين قبل هذه الموقعة أن التتار لا يهزمون، ولكن ها هو اتحاد الجيوش الإسلامية في غزنة يؤتى ثماره.. لقد اتحدت في هذه الموقعة جيوش جلال الدين، مع بقايا جيوش أبيه محمد بن خوارزم شاه، مع الفرقة التركية بقيادة " سيف الدين بغراق "، مع " ملك خان " أمير هراة.. واختار المسلمون مكانًا مناسبًا وأخذوا بالأسباب المتاحة.. فكان النصر..

ولكن جنكيزخان الذى لم يعتد على الهزيمة في حروبه السابقة، قد أغضبه كثيرًا ما وقع لجيشه فقرر الانتقام، فأعد على الفور جيشًا كبيرًا، وجعل عليه ابنه، والتقى الجيشان بالقرب من " كابول " (٢) ودارت رحى الحرب بين الطرفين واستمرت يومين، ففى اليوم الأول لم تنته المعركة إلى نتيجة حاسمة، وحل اليوم الثانى فإذا القائد المغولى يلمس قوة بأس جلال الدين منكبرتي وبسالة جنوده، فأراد أن يخدع الخوارزميين وذلك بإيهامهم أنه تلقى إمدادات كثيرة أثناء الليل، فأوصى جنوده أن

---

(١) بلق بالفتح ثم السكون وقاف ناحية بغزنة من أرض زابلستان وهى منطقة وعرة وسط الجبال العظيمة، الحموي، معجم البلدان، ١ / ٤٨٩.

(٢) المدينة المعروفة في أفغانستان، وكانت قديمًا عاصمة سجستان وطخارستان، وهى اليوم عاصمة أفغانستان. ومدينة كابول مدينة إسلامية حصينة تحاط من كل جهاتها تقريبًا بالجبال؛ فشمالها جبال هندوكوش الشاهقة، وغربها جبال باروبا ميزوس، وجنوبها وشرقها جبال سليمان.. الحموي، معجم البلدان، ٤ / ٤٢٦ - ٤٢٧.

يضعوا قلانسهم على رؤوس خيولهم حتى يظن الخوارزميون أنهم جنود جدد انضموا إلى الجيش المغولي، وكادت الحيلة تنطلي على جنود جلال الدين منكبرتي عندما هموا بالتقهقر، ولكن جلال الدين أثناهم عن عزمهم، وألهب في نفوسهم الحماسة والحمية فثبتوا للمغول، وانقلبوا من مدافعين إلى مهاجمين واستطاعوا القضاء على الكثير من جند المغول، فرت البقية الباقية من ميدان المعركة لا تلوى على شيء [١].

وكان لانتصار المسلمين رنة فرح وسرور كبيرة في جميع البلاد التى تئن تحت وطأة المغول، فقامت بثورات ضد هؤلاء الغزاة أسفرت عن مقتل بعض الحكام المغول في هذه البلاد، فقد ثار الأهالى في هراة وقتلوا الحاكم المغولي، فما كان من جنكيزخان إلا أن عنف ابنه تولوى لأنه لم يتخلص من أهالى هذه المدينة دفعة واحدة، وسير على الفور جيشًا كبيرًا لإخماد تلك الثورة، وكانت النتيجة أن قتل جميع السكان وخربت المدينة تخريبًا كاملاً. [٢]

وقد ثبت المسلمون، وحققوا نصرًا غاليًا على التتار، بل وأنقذوا عشرات الآلاف من الأسرى المسلمين من يد التتار. وأخذ المسلمون غنائم كثيرة نفيسة من جيش التتار، ولكن سبحان الله، بدلاً من أن تكون هذه نعمة على جيش المسلمين، أصبحت هذه الغنائم نقمة شديدة وهلكة محققة!!..

لقد وقع المسلمون في الفتنة!!..

اختلف المسلمون على تقسيم الغنيمة!!..

قام " سيف الدين بغراق " أمير الترك، وقام أمير آخر هو " ملك خان " أمير مدينة هراة.. قام كل منهما يطلب نصيبه في الغنائم.. فحدث الاختلاف.. وارتفعت الأصوات.. ثم بعد ذلك ارتفعت السيوف!!..

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤١، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٢، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٤.

نعم.. ارتفعت السيوف ليتقاتل المسلمون على تقسيم الغنيمة.. وجيوش التتار ما زالت تملأ معظم مدن المسلمين!!..

وسقط من المسلمين قتلى على أيدى المسلمين.. وكان ممن سقط أخ لسيف الدين بغراق، فغضب سيف الدين بغراق وقرر الانسحاب من جيش جلال الدين ومعه الثلاثون ألف مقاتل الذين كانوا تحت قيادته!! وحدث ارتباك كبير في جيش المسلمين، وحاول جلال الدين أن يحل المشكلة، وأسرع إلى سيف الدين بغراق يرجوه أن يعود إلى صف المسلمين؛ فالمسلمون في حاجة إلى كل جندى وإلى كل طاقة وإلى كل رأي، فوق أن هذا الانسحاب سيؤثر على معنويات المجموعة الباقية؛ لأن الفرقة التركية كانت من أمهر فرق المسلمين.. ولكن سيف الدين بغراق أصر على الانسحاب، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه وذكره بالجهاد، وخوفه من الله تعالى.. لكن سيف الدين بغراق لم يتذكر وانسحب فعلاً بجيشه!!

وانكسر جيش المسلمين انكسارًا هائلاً.. لقد انكسر ماديًا، وكذلك انكسر معنويًّا!!..

ولم يفلح المسلمون في استثمار النصر الغالى الذى حققوه في غزنة وكابول.. (١)

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢، ابن الوردي، تتمة المختص في أخبار البشر، ٢ / ١٥٥، براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٧٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٥، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٣.

روى البخارى ومسلم عن عمرو بن عوف رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :﴿.. فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم﴾.. قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ١٠٣٦ في صحيح الجامع.

لقد كانت قلوب المسلمين في هذه الحقبة من الزمان مريضة بمرض الدنيا العضال، إلا ما رحم الله عز وجل.. لقد كانت حروبهم حروبًا مادية قومية.. حروب مصالح وأهواء.. ولم تكن في سبيل الله.. لقد كان انتصارهم مرة وثانية لحب البقاء، والرغبة في الملك، والخوف من الأسر أو القتل.. فكانت لهم جولة أو جولتان.. لكن ظهرت خبايا النفوس عند كثرة الأموال والغنائم..

لقد وقع المسلمون في الفتنة!!..

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :﴿إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء﴾.. (صحيح) انظر حديث رقم: ١٦٠٨ في صحيح الجامع.

لم يدرك المسلمون في هذه الآونة حقيقة الدنيا، وأنها دار استخلاف واختبار وامتحان، وليست دار قرار

يقول ابن الأثير: "... لما فرغ التتر من خراسان وعادوا إلى ملكهم جهز جيشًا كثيفًا وسيره إلى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكًا لها، وقد اجتمع إليه من سمل من عسكر أبيه، قيل: كانوا ستين ألفًا، فلما وصلوا إلى أعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع ابن خوارزم شاه إلى موضع يقال له بلق، فالتقوا هناك واقتتلوا قتالاً شديدًا، وبقوا كذلك ثلاثة أيام، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان، فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالى الذى عندهم للتتر فقتلوه، فسير إليهم جنكزخان عسكرًا فملكوا البلد وخربوه كما ذكرناه.

فما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولاً إلى جنكزخان يقول له: في أى موضع تريد أن يكون الحرب حتى نأتى إليه؟ فجهز جنكزخان عسكرًا كثيرًا، أكثر من الأول مع بعض أولاده، وسيره إليه، فوصل إلى " كابل "، فتوجه العسكر الإسلامى إليهم، وتصافُّوا هناك، وجرى بنيهم قتال عظيم، فانهزم الكفار ثانيًا، فقتل كثير منهم، وغنم المسلمون ما معهم، وكان عظيمًا؛ وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير، فاستنقذوهم وخلصوهم.

ثم إن المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة، وسبب ذلك أن أميرًا منهم يقال له: سيف الدين بغراق، أصله من الأتراك الخلج، كان شجاعًا مقدامًا، ذا رأى في الحرب ومكيدة، واصطلى الحرب مع التتر بنفسه، وقال العسكر جلال الدين: تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعبًا؛ وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير، فاستنقذوهم وخلصوهم.

وكان من المسلمين أيضًا أمير كبير يقال له ملك خان، بينه وبين خوارزم شاه نسب، وهو صاحب هراة، فاختلف هذان الأميران في الغنيمة، فاقتتلوا، فقتل بينهم أخ لبغراق. فقال بغراق: أنا أهزم الكفار ويقتل أخى لأجل هذا السحت! فغضب وفارق العسكر وسار إلى الهند، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفًا كلهم يريدونه، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه، وذكره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين

وبقاء وخلود.. نسى المسلمون امتحان ربهم، ولم يستعدوا له..
نسى المسلمون التحذير النبوى الخطير.. " فاتقوا الدنيا ".. فسقط المسلمون سقطة هائلة..

يديه، فلم يرجع، وسار مفارقًا، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا.

فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر أن جنكيزخان قد وصل في جموعه وجيوشه، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر، ولم يقدر على المقام، سار نحو بلاد الهند، فوصل إلى ماء السند، وهو نهر كبير، فلم يجد من السفن ما يعبر فيه... " (١)

وفى ظل هذا الانقسام وجد جلال الدين نفسه عاجزًا عن مواجهة المغول بجيوشه المفككة والمنقسمة على نفسها، فاضطر إلى التقهقر نحو السهل الواقع غربى نهر السند، وخاصة عندما علم أن جيوش جنكيزخان تتعقبه.

لقد أخذ جيشه وبدأ يتجه جنوبًا للهروب من جيش جنكيزخان، أو على الأقل لتجنب الحرب في هذه الظروف..

ولكن جنكيزخان كان مصرًا على اللقاء فأسرع خلف جلال الدين، الذى بدأ يفعل مثلما فعل أبوه من قبل..!! لقد بدأ ينتقل من مدينة إلى مدينة متوجهًا إلى الجنوب، حتى وصل إلى حدود باكستان الآن فاخترقها، ثم تعمق أكثر حتى اخترق كل باكستان ووصل إلى نهر السند، الذى يفصل في ذلك الوقت بين باكستان وبين الهند.. فأراد جلال الدين أن يعبر بجيشه نهر السند ليفر إلى الهند، مع أن علاقاته مع ملوك الهند المسلمين لم تكن على ما يرام.. ولكنه وجد ذلك أفضل من لقاء جنكيزخان!!..

وعند نهر السند فوجئ جلال الدين وجيشه بعدم وجود السفن لنقلهم عبر النهر الواسع إلى الناحية الأخرى، فطلبوا سفنًا من مكان بعيد، وبينما هم ينتظرون السفن إذ طلع عليهم جيش جنكيزخان!!..

ولم يكن هناك بُدٌّ من القتال، فنهر السند من خلفهم، وجنكيزخان من أمامهم، ودارت موقعة رهيبة بكل معانى الكلمة.. حتى إن المشاهدين لها قالوا: إن كل ما مضى من الحروب كان لعبًا بالنسبة إلى هذا القتال.. واستمر اللقاء الدامى ثلاثة أيام متصلة.. واستحر القتل في الفريقين، وكان ممن قتل في صفوف المسلمين الأمير " ملك خان "، والذى كان قد تصارع من قبل مع " سيف الدين بغراق " على الغنائم..

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢.

وها هو لم يظفر من الدنيا بشيء، بل ها هي الدنيا قد قتلته، ولم يتجاوز لحظة موته بدقيقة واحدة.. ولكن شتان بين من يموت وهو ناصر للمسلمين بكل طاقته، ومن يموت وقد تسبب بصراعه في فتنة أدت إلى هزيمةٍ مُرة..

وفي اليوم الرابع انفصلت الجيوش لكثرة القتل، وبدأ كل طرف يعيد حساباته، ويرتب أوراقه، ويضمد جراحه، ويعد عدته.. وبينما هم في هذه الهدنة المؤقتة جدًّا جاءت السفن إلى نهر السند، ولم يضيع جلال الدين الوقت في تفكير طويل، بل أخذ القرار السريع الحاسم وهو: " الهروب!!.. " وقفز الزعيم المسلم إلى السفينة، ومعه خاصته ومقربوه، وعبروا نهر السند إلى بلاد الهند، وتركوا التتار على الناحية الغربية من نهر السند..

ولكن.. هل ترك المسلمون التتار وحدهم في هذه الأرض؟

كلا!!.. إنما تركوهم مع بلاد المسلمين، ومدن المسلمين، وقرى المسلمين.. تركوهم مع المدنيين دون حماية عسكرية.. وجيوش التتار لا تفرق بين مدني وعسكري.. بالإضافة إلى الحقد الشديد في قلب جنكيزخان نتيجة كثرة القتلى في التتار في الأيام الأخيرة.. فانقلب جنكيزخان على بلاد المسلمين يصب عليها جام غضبه.. ويفعل بها ما اعتاد التتار أن يفعلوه وأكثر..

وكانت أشد المدن معاناة هي مدينة غزنة، والتي انتصر عندها المسلمون منذ أيام أو شهور عندما كانوا متحدين.. دخل جنكيزخان المدينة الكبيرة.. عاصمة جلال الدين ابن خوارزم فقتل كل رجالها بلا استثناء، وسبى كل الحريم بلا استثناء، وأحرق كل الديار بلا استثناء!!.. وتركها - كما يقول ابن الأثير - خاوية على عروشها، كأن لم تغن بالأمس!!..

ويجدر بالذكر أن نشير إلى أنه في جملة الذين أمسك بهم جنكيزخان من أهل المدن كان أطفال جلال الدين ابن خوارزم.. وقد أمر جنكيزخان بذبحهم جميعًا.. وهكذا ذاق جلال الدين من نفس المرارة التى ذاقها الملايين من شعبه.. (١).

وبذلك حقق جنكيزخان حلمًا غاليًا ما كان يتوقع أن يكون بهذه السهولة، وهذا الحلم هو احتلال " أفغانستان "!!.. (٢).

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢، ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ٢ / ١٥٥، الجويني، تاريخ جهانكشاي، ٢ / ١٤٢، براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٧٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٥، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٣.

(٢) ولكن.. لماذا يكون احتلال أفغانستان بالتحديد حلمًا لجنكيزخان أو لغيره من الغزاة؟! لماذا يكون احتلال أفغانستان بالذات خطوة مؤثرة جدًا في طريق سقوط الأمة الإسلامية؟! ولماذا يجب أن يكون سقوط أفغانستان في يد محتل - أيًا كان - نذير خطر شديد للأمة بأسرها؟!.

الواقع أن سقوط أفغانستان يحمل بين طياته كوارث عدة:

أولاً: الطبيعة الجبلية للدولة تجعل غزوها شبه مستحيل، وبذلك فهى تمثل حاجزًا طبيعيًا قويًا في وجه الغزاة، وهذا الحاجز يخفف الوطأة على البلاد المجاورة لأفغانستان، فإن سقطت أفغانستان كان سقوط هذه البلاد المجاورة محتملاً جدًا، وسيكون غزو أو مساومة باكستان وإيران ثم العراق بعد ذلك أسهل جدًا..

ثانيًا: الموقع الاستراتيجى الهائل لأفغانستان يعطيها أهمية قصوى، فهى في موقع متوسط تمامًا في آسيا، والذى يحتلها سيملك رؤية باتساع ٣٦٠ درجة على المنطقة بأسرها.. فهي على بعد خطوات من دول في غاية الأهمية.. إنه لا يراقب باكستان وإيران فقط، ولكنه يراقب أيضًا دولاً خطيرة مثل روسيا والهند، وفوق ذلك فهو قريب نسبيًا من الصين.. وبذلك تصبح السيطرة على كامل آسيا - بعد احتلال أفغانستان - أمرًا ممكنًا..

ثالثًا: الطبيعة الجبلية لأفغانستان أكسبت شعبها صلابة وقوة قد لا تتوفر في غيرها من البلاد، فإن سقط هؤلاء فسقوط غيرهم سيكون أسهل..

رابعًا: يتمتع سكان هذا البلد بنزعة إسلامية عالية جدًا، وبروح جهادية بارزة، وليس من السهل أن يقبلوا الاحتلال، وظهر ذلك واضحًا في انتصارهم مرتين على التتار بينما فشلت كل الجيوش الإسلامية في تحقيق مثل هذا النصر، ولا شك أن سقوط هؤلاء يُعد نجاحًا هائلاً للقوى المعادية للمسلمين..

خامسًا: فوق كل ما سبق، فإن الأثر المعنوى السلبى على الأمة الإسلامية، والإيجابى على التتار، سوف يكون عاملاً شديد التأثير في الأحداث، فأنّى لأمة محبطة أن تفكر في القيام، وأنى لأمة ذاقت طعم النصر الصعب أن تفرط في الانتصارات السهلة!!.. هذا عادة لا يكون!!..

اجتياح أذربيجان:

مر التتار في أثناء مطاردتهم السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم على مدينة تبريز[١] فقرر زعيم أذربيجان " أوزبك بن البهلوان " - وكان يستقر في مدينة تبريز - أن يصالح التتار على الأموال والثياب والدواب، ولم يفكر مطلقًا في حربهم؛ لأنه كان لا يفيق من شرب الخمر ليلاً أو نهارًا!! ورضى التتار منه بذلك، ولم يدخلوا " تبريز " ليس اعترافًا بقوته ولا رأفة بأحوال المسلمين المكلومين ولكن لأن الشتاء القارص كان قد حل، وتبريز في منطقة باردة جدًّا، فاتجه التتار إلى الساحل الغربى لبحر قزوين، وبدءوا في اجتياح الناحية الشرقية لأذربيجان متجهين ناحية الشمال.[٢]

يقول ابن الأثير: "... لما هجم الشتاء على التتر في همذان، وبلد الجبل، رأوا بردًا شديدًا، وثلجًا متراكمًا، فساروا إلى أذربيجان، ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم، وخربوا وأحرقوا، ووصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان، فلم يخرج إليهم، ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلاً ونهارًا لا يخرج إليهم، ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلاً ونهارًا لا يفيق، وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال، وثياب، ودواب، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر، لأنه يكون قليل البرد، ليشتوا عليه والمراعى به كثيرة لأجل دوابهم، فوصلوا إلى " موقان "، تطرقوا في طريقهم إلى بلاد الكرج، فجاء إليهم من الكرج جمع كثير من العسكر، نحو عشرة آلاف مقاتل، فقاتلوهم، فانهزمت الكرج، وقتل أكثرهم [٣].

---

(١) مدينة في الجزء الشمالى الغربى من إيران، وهى عاصمة منطقة أذربيجان، مدينة على هضبة أذربيجان وتقع في شمالى غربى إيران وهى قاعدة أذربيجان وإليها ينسب كثير من العلماء منهم أبو زكريا يحيى المعروف بابن الخطيب التبريزى الإمام الحجة في اللغة والنحو. (كانت مدينة أذربيجانية في ذلك الوقت بينما هى الآن من مدن شمال إيران).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ١٠٤، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥١.

(٣) الكامل، ٩ / ٤٤٣.

وبعد الخلاص من السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد بهروبه ثم وفاته في إحدى جزر بحر قزوين، وفرار ابنه جلال الدين منكبرتي إلى الجنوب بعد انقسام جيشه، وجد المغول الفرصة سانحة لاستكمال ما كانوا قد بدأوه، وعادوا من جديد إلى إقليم أذربيجان المسلم سنة ٦١٨ هجرية ودخلوا مدينة " مراغة " [١] المسلمة.. ومن عجيب الأمور أن امرأة كانت ترأس هذه المدينة.

حاصر التتار مراغة ونصبوا حولها المجانيق، وأخذوا يضربون المدينة من كل مكان.. فخرج أهلها للقتال، فإذا بالتتار يدفعون بالأسارى المسلمين الذين أتوا بهم من بلاد متعددة ليقاتلوا عنهم، والتتار يحتمون بهم، ومن تأخر من الأسارى عن القتال قُتل.. فبدأ الأسارى المسلمون يقاتلون إخوانهم المسلمين في مراغة طمعًا في قليل من الحياة.

---

(١) مدينة من أكبر مدن أذربيجان، تقع جنوبى شرقى بحر قزوين، كانت من المراكز التجارية والعسكرية الهامة أيام الحكم العباسي. أضحت أيام المغول قاعدة أذربيجان. في ظاهرها المرصد العظيم الذى بناه الفلكى نصير الدين الطوسى بأمر هولاكو، وما زالت أطلاله باقية.

دخل التتار مدينة مراغة المسلمة في ٤ صفر سنة ٦١٨ هجرية، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما صلح لهم وكل ما استطاعوا حمله، أما ما كانوا يعجزون عن حمله فكانوا يحرقونه كله.. ولقد كانوا يأتون بالحرير الثمين كأمثال التلال فيضرمون فيه النار!!..

ويذكر ابن الأثير - رحمه الله - فساروا عنه إلى مدينة مراغة، فحصروها وليس بها صاحب يمنعها، لأن صاحبها كانت امرأة، وهى مقيمة بقلعة رويندز، وقد قال النبى ﷺ: ﴿لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة﴾.

فلما حصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق، وزحفوا إليها، وكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون، فإن عادوا قتلوهم، فكانوا يقاتلون كرهًا، وهم المساكين، كما قيل: (كالأشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر)؛ وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأسارى، وهم بنجوة منه.

فأقاموا عليها عدة أيام، ثم ملكوا عنوة وقهرًا رابع صفر، ووضعوا السيف في أهلها، فقتل منهم ما يخرج عن الحد والإحصاء، ونهبوا كل ما يصلح لهم، وما لا يصلح لهم أحرقوه، واختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم: نادوا في الدرب أن التتر قد رحلوا؛ فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل.

وبلغنى أن امرأة من التتر دخلت دارًا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلاً، فوضعت السلاح وإذا هى امرأة، فقتلها رجل أخذته أسيرًا؛ وسمعت من بعض أهلها أن رجلاً من التتر دخل دربًا فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحدًا واحدًا حتى أفناهم، ولم يمد أحد يده إليه بسوء، ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيرًا، نعوذ بالله من الخذلان!!.. [١].

اجتياح أرمينيا وجورجيا..:

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٣، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥١ - ٥٢.

هذان الإقليمان يقعان في غرب وشمال أذربيجان، وقد اتجهوا إليهما قبل الانتهاء من مدن أذربيجان؛ لأنهم سمعوا بتجمع قبائل " الكرج " (١) لهم، وقبائل الكرج هي قبائل وثنية ونصرانية تقطن في منطقة جورجيا الروسية، وكان بينهم وبين المسلمين قتال دائم، وقد علموا أن الخطر يقترب منهم فتجمعوا في مدينة تفليس (٢) وحدث هناك قتال طويل بينهم وبين المغول انتهى بانتصار المغول وامتلاك أرمينيا وجورجيا، وقُتل من الكرج ما لا يحصى في هذه الموقعة.. (٣).

اجتياح همذان وأردبيل:

وقد أصبح الطريق مفتوحًا أمام المغول لاجتياح بقية مدن آسيا الوسطى والقوقاز، وقد حاصر المغول همذان (٤)، ثم دار القتال بعد ذلك مع أهلها بعد أن انقطع عنهم الطعام، ووقعت مقتلة عظيمة في الطرفين، لكن في النهاية انتصر المغول، واجتاحوا البلد، وسفكوا دماء أهلها وأحرقوا ديارها، ثم تجاوزوها إلى أردبيل (٥) فملكوها وقتلوا من فيها وخربوا وأحرقوا..

(١) الكرج: جورجيا حاليًّا، تقع على السفوح الجنوبية لجبال القوقاز. يحدها من الشمال داغستان، الشيشان، إنجوشتيا، أوستيا الشمالية، قبردينو - بلقاريا، قرة تشاى - شركسيا، وكراسنودار كراي. ومن الجنوب الشرقى أرمينيا ومن الجنوب أذربيجان ومن الجنوب الغربى تركيا. ومن الغرب البحر الأسود.. عاصمتها مدينة تفليس.

(٢) بلدة تقع جنوبى غربى بحيرة (وان) بأرمينية وتسمى أيضًا (بتليس) و(تفليس) وهى اليوم عاصمة ولاية (جورجيا) السوفيتية. (في جورجيا الآن).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣ / ١٠٤، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥١.

(٤) همذان: مدينة مشهورة من مدن الجبال قيل: بناها همذان بن فلوج بن سام بن نوح عليه السلام ذكر علماء الفرس أنها كانت أكبر مدينة بأرض الجبال وكانت أربعة فراسخ في مثلها فالآن لم تبق على تلك الهيئة لكنها مدينة عظيمة لها رقعة واسعة وهواء لطيف وماء عذب وتربة طيبة ولم تزل محل سرير الملوك ولا حد لرخصها وكثرة الأشجار والفواكه بها. وهى من مدن إيران حاليًّا.

(٥) أردبيل: من أشهر مدن إقليم أذربيجان تقع بالقرب من الساحل الجنوبى الغربى لبحر قزوين، وكانت حتى صدر العهد العباسى عاصمة الإقليم. وهى من مدن إيران حاليًّا.

المغول على أبواب تبريز:

واتجه المغول إلى تبريز.. المدينة الإيرانية الكبيرة.. [1] وكان المغول قد رضوا سابقًا بالمال والثياب والدواب من صاحبها المخمور " أوزبك بن البهلوان "، [2] ولم يدخلوها؛ لأنهم جاءوا إليها في الشتاء القارص.. أما الآن وقد تحسن الجو وصفت السماء، فلا مانع من خيانة العهود ونقض المواثيق..

ولكنهم - في طريقهم إلى تبريز - علموا بأمر قد جد على هذه البلدة.. لقد رحل عنها صاحبها المخمور " أوزبك بن البهلوان "، وتولى قيادة البلاد رجل جديد هو " شمس الدين الطغرائى "، وكان رجلاً مجاهدًا يفقه دينه ودنياه، فقام - رحمه الله - يحمس الناس على الجهاد وعلى إعداد القوة.. وقوّى قلوبهم على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني..

يقول ابن هبة الله: " ثم ساروا إلى تبريز، وكان بها شمس الدين عثمان الطغرائي، قد جمع كلمة أهلها بعد مفارقة صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان للبلاد خوفًا من التتار ومقامتهم، فقوى الطغرائى نفوس الناس على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل، وحصن البلد " [3].

---

(١) تبريز: مدينة في الجزء الشمالى الغربى من إيران، وهى عاصمة منطقة أذربيجان، مدينة على هضبة أذربيجان وتقع في شمالى غربى إيران وهى قاعدة أذربيجان وإليها ينسب كثير من العلماء منهم أبو زكريا يحيى المعروف بابن الخطيب التبريزى الإمام الحجة في اللغة والنحو.

(٢) صاحب تبريز السلطان مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان بن إلدكز.
عظم أمره لما قتل " طغرل " آخر سلاطين السلجوقية، وامتدت أيامه، وكان منهمكًا في الشرب واللذات، فنازلته المغول، فصانعهم، وبذل لهم الاموال، فسكتوا عنه، ثم ضايقوا الخوارزمية، وقالوا له: اقتل من عندك من الخوارزمية، ففعل، وكان قد تزوج ببنت السلطان طغرل وجرت له أمور، ثم دهمه خوارزم شاه جلال الدين في سنة اثنتين وعشرين، واستولى على أذربيجان، وعظم سلطانه، فهرب أزبك إلى كنجة فتزوج خوارزم شاه بابنة السلطان، حكم له القاضى بوقوع طلاق أزبك لها، ثم هرب أزبك منه إلى بعض القلاع، وهلك وتلاشى أمره، وكان أبوه ملكًا أيضًا.
الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢ / ١٩٠ - ١٩١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢، شرح نهج البلاغة، ٨ / ٢٣٢.

فلما وصل المغول، ورأوا اجتماع كلمة المسلمين وحصانة البلد، طلبوا منهم مالاً وثيابًا، فاستقر الأمر بينهم على شيء معلوم، فسيروه إليهم، فلما أخذوه رحلوا... فتحركت الحمية في قلوب أهل تبريز، وقاموا مع قائدهم البار يحصنون بلدهم، ويصلحون الأسوار، ويوسعون في الخندق، ويجهزون السلاح، ويضعون المتاريس، ويرتبون الصفوف.. لقد تجهز القوم - وللمرة الأولى منذ زمن - للجهاد!!..

وسمع المغول بأمر المدينة، وبحالة العصيان المدنى فيها، وبحالة النفير العام.. سمعوا بدعوة الجهاد، والتجهز للقتال... سمع المغول بكل ذلك، فماذا فعلوا؟

لقد أخذ التتار قرارًا عجيبًا!!..

لقد قرروا عدم التعرض لتبريز، وعدم الدخول في قتال مع قوم قد رفعوا راية الجهاد في سبيل الله..!! لقد ألقى الله الرعب في قلوب المغول - على كثرتهم - من أهل تبريز - على قلتهم -.. [(١)].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٢، لقد نُصر رسول الله ﷺ بالرعب مسيرة شهر، وكذلك ينصر بالرعب كل من سار على طريقه ﷺ..

لقد فعل الجهاد فعله المتوقع.. بل إن القوم لم يجاهدوا، ولكنهم فقط عقدوا النية الصادقة، وأعدوا الإعداد المستطاع، فتحقق الوعد الربانى - الذى لا خلف له - وهو وقوع الرهبة في قلوب أعداء الأمة.. وهذا درس لا يُنسى..

{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } [الأنفال: ٦٠].

فكانت هذه صورة مشرقة في وسط هذا الركام المظلم..

ورحم الله شمس الدين الطغرائى الذى جدد الدين في هذه المدينة المسلمة.. تبريز..

د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٢.

اجتياح بيلقان:

وبعد تبريز انتقل المغول إلى مدينة بيلقان (١)، ولكن حاكم تلك المدينة وأهلها لم يرفعوا راية الجهاد، ولم يفعلوا مثل فعل تبريز، فدخل المغول بيلقان في رمضان ٦١٨ هجرية، ووضعوا فيها السيف، فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة، حتى إنهم - كما يقول ابن الأثير - كانوا يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأجنة، وكانوا يرتكبون الفاحشة مع النساء ثم يقتلونهن، ولما فرغوا من البشر في المدينة نهبوا وخربوا وأحرقوا كعادتهم.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. (٢).

(١) بيلقان بالفتح ثم السكون وفتح القاف وألف ونون مدينة قرب الدربند الذى يقال له باب الأبواب تعد في أرمينية الكبرى قريبة من شروان قيل: إن أول من استحدثها قباذ الملك لما ملك أرمينية وقيل: إن أول من أنشأها بيلقان ابن أرمنى بن لنطى بن يونان وقد عدها قوم من أعمال أران قال أحمد بن يحيى بن جابر: سار سلمان بن ربيعة في أيام عثمان بن عفان ولم يضبط التاريخ إلى أران ففتح البيلقان صلحًا على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم واشترط عليهم أداء الجزية والخراج ثم سار إلى برذعة وجاءها التتر سنة ٦١٨ هـ فقتلوا كل من وجدوه بها قاطبة ونهبوها ثم أحرقوها فلما انفصلوا عنها تراجع إليها قوم كانوا هربوا عنها وانضم إليهم آخرون وهى الآن متماسكة وقد ينسب إليها قوم منهم أبو المعالى عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عبد كان البيلقانى رحل في طلب الحديث إلى خراسان والعراق فسمع ببغداد أبا جعفر بن المسلمة وغيره وتوفى ببيلقان بعد سنة ٩٤٦، وهى من مدن إيران حاليًّا.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٤٣، ابن هداية الله، شرح نهج البلاغة، ٨ / ٢٣٢، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٢.

المغول يقفون على أبواب مدينة " كنجة":

وسار المغول إلى مدينة " كنجة " [١] ولكن هذه المدينة لم تستسلم للمغول ولم ترفع راية الاستسلام، بل رفعت راية الجهاد في سبيل الله، ووقف أهلها جميعًا على أهبة الاستعداد لقتال المغول، وكان هذا أشد شيء يخشاه المغول، فتجنبوا هذه المدينة وتركوها ورحلوا إلى مدينة أخرى.

وليس من قبيل المصادفة أن البلاد التى رفعت راية الجهاد وأعدت له هى البلاد التى لم يجرؤ التتار على غزوها.. ليس هذا من قبيل المصادفة أبدًا.. إنها سنة من سنن الله عز وجل.. ولو فعلت ذلك كل مدن المسلمين ما استطاع التتار ولا غيرهم أن يطئوا بأقدامهم أرض المسلمين.. لقد حافظ المسلمون على هذه البلاد سنوات وسنوات.. لا بكثرة الأعداد، ولا بالاتفاقيات والمعاهدات.. إنما حافظوا عليها بجهاد صادق، ودماء زكية، وقلوب طاهرة مخلصة..

وسنة الله لا خلف لها.. إنما الذين يخالفون هم العباد..

والله عز وجل لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون..

---

(١) كنجة بالفتح ثم السكون وجيم: مدينة عظيمة وهى عاصمة بلاد أران وأهل الأدب يسمونها جنزة بالجيم والنون والزاي، وكنجة من نواحى كردستان بين خوزستان وأصبهان.

اجتياح داغستان والشيشان:

وهما تقعان في شمال أذربيجان على ساحل بحر قزوين من ناحية البحر الغربية، (وهما من البلاد المسلمة الواقعة تحت الاحتلال الروسى الآن، ونسأل الله لهما التحرير الكامل)، وقد قام التتار كعادتهم بتدمير كل شيء في هذه البلاد، وقتل معظم من وجدوه في طريقهم، وكانت أشد المدن معاناة من المغول هى مدينة شماخى المسلمة[١].

وبذلك يكون التتار قد وصلوا من الصين إلى كازاخستان ثم أوزبكستان ثم التركمنستان ثم أفغانستان ثم إيران ثم أذربيجان ثم أرمينيا ثم جورجيا وقد اقتربوا جدًّا من العراق (انظر الخريطة رقم ٦).

التهديد بغزو شمال العراق:

بعد أن سيطر المغول على المناطق الشمالية من الخلافة العباسية لا سيما مناطق أذربيجان وأرمينية وجورجيا بدأوا يفكرون جديًّا في غزو العراق واستحسنوا المدن القريبة منهم وهى مدينة " أربل " [٢] في شمال العراق، ودب الرعب في مدينة أربيل، وكذلك في مدينة الموصل في غرب أربيل، وفكر بعض أهلها في الجلاء عنها للهروب من طريق التتار، وخشى الخليفة العباسى الناصر لدين الله أن يعدل التتار عن مدينة أربيل لطبيعتها الجبلية، فيتجهون إلى بغداد بدلاً منها، فبدأ يفيق من السُبات العميق الذى أصابه في السنوات السابقة، وبدأ يستنفر الناس لملاقاة المغول في أربيل إذا وصلوا إليها.. وأعلنت حالة الاستنفار العام في كل المدن العراقية، وبدأ جيش الخلافة العباسية في التجهز..

---

(١) شماخي: مدينة عامرة وهى كانت قديمًا قصبة بلاد شروان في طرف إقليم أران تعد من أعمال باب الأبواب وهى الآن تقع في دولة داغستان الآن ضمن الاتحاد الروسي..

(٢) (أربل)، مدينة قديمة وقلعة حصينة تقع في ولاية الموصل على بعد ٨٠ كيلو مترًا من مدينة الموصل بين نهرى الزاب (الكبير والصغير) اللذان يصبان في نهر دجلة. ترجع هذه المدينة إلى أقدم العهود الآشورية واسمها الأشورى (أربا - أيلو): أى الآلهة الأربعة إذ أنها كانت موطنًا لعبادة هذه الآلهة. وهى اليوم مدينة كبيرة من مدن العراق وتسمى (أربيل)، وهى مركز لواء أربيل من ألوية العراق الشمالية.

تُرى.. كم من الرجال استطاع الخليفة أن يجمع؟

لقد جمع الخليفة العباسى " الناصر لدين الله " ثمانمائة رجل فقط!!

ولم يستطع قائد الجيش " مظفر الدين " طبعًا أن يلتقى المغول بهذا العدد الهزيل.. ولكن انسحب بالجيش، ومع ذلك - سبحان الله - فقد شعر المغول أن هذه خدعة، وأن هذه هى مقدمة العسكر، فليس من المعقول أن جيش الخلافة العباسية المرهوبة لا يزيد عن ثمانمائة جندى فقط!.. ولذلك قرروا تجنب المعركة وانسحبوا بجيوشهم.. [١]

لذلك فقد انسحب المغول بإرادتهم ليطول بذلك عمر العراق عدة سنوات أخرى..[٢].

ويقول ابن الأثير معلقا على ما يحدث للمسلمين على أيدى المغول: "... وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين، ويرحمهم، ويرد هذا العدو عنهم... " [٣].

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٦٠، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٣.

(٢) وانسحاب جيوش التتار يحتاج منا إلى وقفة وتحليل.. فقد كان الرعب يملأ التتار من إمكانيات الخلافة العباسية التى كانت ملء سمع وبصر الدنيا، وكانت تزهو على غيرها من الأمم بتاريخ طويل وأمجاد عظيمة، ولا شك أن دولة لقيطة مثل دولة التتار ليس لها على وجه الأرض إلا بضع سنوات ستحسب ألف حساب لدولة هائلة يمتد تاريخها إلى أكثر من خمسمائة سنة؛ ولذا فالتتار كانوا يقدرون إمكانيات العراق بأكثر من الحقيقة بكثير، ومن ثم فقد آثروا ألا يدخلوا مع الخلافة في صدام مباشر، واستبدلوا بذلك ما يُعرف " بحرب الاستنزاف "، وذلك عن طريق توجيه ضربات خاطفة موجعة للعراق، وعن طريق الحصار الطويل المستمر، وأيضًا عن طريق عقد الأحلاف والاتفاقيات مع الدول والإمارات المجاورة لتسهيل الحرب ضد العراق في الوقت المناسب..

د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩ /٤٦٠.

توسع إمبراطورية المغول (التتار) على حساب العالم الإسلامي

اجتياح الجنوب الغربى من روسيا:

استمر التتار في صعودهم في اتجاه الشمال، وبعد الانتهاء من الشيشان وصلوا إلى حوض نهر الفولجا الروسي، واستمروا في قتال أهل هذه المناطق، وكانوا جميعًا من النصارى، وأثخنوا فيهم القتل، وارتكبوا معهم من الفظائع ما كانوا يرتكبونه مع المسلمين..

وبذلك انتهت سنة ٦١٨ هجرية وقد وصل التتار إلى أرض الروس، وأصبحت كل البلاد ما بين شرق الصين وجنوب غرب روسيا ملكًا لهم.. [١].

تقييم الموقف في سنة ٦١٩ هجرية:

في هذه السنة استمرت العمليات المغولية في منطقة أرض الروس، وأكد التتار سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق، فثبتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية، وهذا يشمل الآن أسماء الدول الآتية من الشرق إلى الغرب:

١- كازاخستان..

٢- قيرغيزستان

3- طاجيكستان..

4- أوزبكستان..

5- تركمنستان..

6- باكستان.. (باستثناء المناطق الجنوبية فيها، والمعروفة بإقليم: كرمان).

7- أفغانستان..

8- معظم إيران (باستثناء الحدود الغربية لها مع العراق والتى يسكنها الإسماعيلية).

9- أذربيجان..

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٤.

10- أرمينيا..

11- جورجيا..

12- الجنوب الغربى لروسيا [١].

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٥.

تقييم الموقف في سنة ٦٢٠ هجرية:-

بينما كان جنكيزخان يبسط سطوته على الدولة الخوارزمية استمرت الحملات المغولية على منطقة روسيا..

ولي تعليق على أربع حوادث وقعت في هذه السنة، وهي توضح الحال التي كان عليها المسلمون في هذه الفترة، وتفسر كذلك لماذا امتلك المغول هذه البلاد الشاسعة بهذه السرعة الرهيبة، وتضع أيدينا على بعض الأمراض التي تسببت في تلك الكوارث الشنيعة:

الحادثة الأولى:

أن المغول توغلوا في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عدة، ولكنهم في نهاية المطاف التقوا بطائفة من الروس تدعى طائفة البلغار (وهي في روسيا وليست في بلغاريا)، وحدثت بينهم موقعة عظيمة هُزم فيها المغول للمرة الأولى في هذه المناطق، وقتل منهم خلق كثير، وتوقف الزحف التتري في أرض روسيا، بل وقلت أعدادهم للدرجة التي فقدوا فيها السيطرة على كل المناطق الواقعة في غرب بحر قزوين (روسيا وجورجيا وأرمينيا والشيشان وداغستان وأذربيجان وشمال إيران).. وكانت هذه فرصة للمسلمين لكي يعيدوا ترتيب صفوفهم، وتجهيز عدتهم ليقابلوا التتار وهم في حال الاضطراب بعد الهزيمة من البلغار..

كان هذا متوقعًا، ولكنه لم يحدث!!..

أما الذي حدث فهو أن أحد أمراء المسلمين في هذه المنطقة - وتحديدًا في منطقة أرمينيا - قد جمع عدته وهجم على قبائل الكرج في جورجيا.. وهذا الأمير كان تحت قيادة الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة (وهو من الأكراد وكان يحكم شمال العراق)..

والحدث عجيب؛ لأنه وإن كان بين الكرج والمسلمين حروب مستمرة إلا أنهم في شبه هدنة غير رسمية الآن، وليس من الحكمة فتح جبهات جديدة على المسلمين في وجود العدو الأكبر لهم وهو التتار، وبالذات أن الكرج أيضًا كانوا يكرهون التتار، ويعانون منهم كما يعاني المسلمون.. فكان المتوقع من المسلمين في ذلك الوقت إما أن

يتحالفوا بحذر مع الكرج ضد التتار، أو على الأقل أن يحيّدوا صفهم في هذا الوقت لكى لا يستنزفوا قوة المسلمين في حروب جانبية، خاصة وأن الكرج يعرفون خبايا هذه المناطق، ولو استمالهم التتار في حربهم ضد المسلمين لكان هذا وبالاً على المسلمين..

لقد ابْتُلى المسلمون في هذه الآونة بما يمكن أن نسميه: (العمى السياسي!!)، وافتقدوا الرؤية الصحيحة، والحكمة العسكرية، والهدف الواحد، والاتحاد بين الصفوف، فكانت مثل هذه الأعمال غير المتوازنة وغير المنضبطة وغير المدروسة!!

دارت الحرب بين المسلمين والكرج، وفقد كل منهما عددًا كبيرًا من القتلى، كما فقدوا الثقة في إمكانية التحالف ضد المغول.. وهكذا لم يستغل المسلمون موازين القوى في هذا الوقت لصالحهم، وكان هذا من أسباب ضعفهم.. ثم سكنت الحرب، وأقيم الصلح من جديد، ولكن بعد فقد طاقة كبيرة جدًّا من الطرفين.. يقول ابن الأثير: ".. في هذه السنة، في شعبان، سار صاحب قلعة سرماري، وهى من أعمال أرمينية إلى خلاط، لأنه كان في طاعة صاحب خلاط، وهو حينئذٍ شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب، فحضر عنده، واستخلف ببلده أميرًا من أمرائه، فجمع هذا الأمير جمعًا وسار إلى بلاد الكرج، فنهب منها عدة قرى وعاد.

فسمعت الكرج بذلك، فجمع صاحب دوين، واسمه شلوة، وهو من أكابر أمراء الكرج، عسكره وسار إلى سرمارى فحضرها أيامًا، ونهب بلدها وسوادها ورجع.

فسمع صاحب سرمارى الخبر، فعاد إلى سرماري، فوصل إليها في اليوم الذى رحل الكرج عنها، فأخذ عسكره وتبعهم، فأوقع بساقتهم، فقتل منهم وغنم، واستنقذ بعض ما أخذوا من غنائم بلاده.

ثم إن صاحب دوين جمع عسكره وسار إلى سرمارى ليحصرها، فوصل الخبر إلى صاحبها بذلك، فحصنها، وجمع الذخائر وما يحتاج إليه، فأتاه من أخبره أن الكرج نزلوا بوادى بنى دوين وسرماري، وهو وادى ضيق، فسار بجميع عسكره جريدة، وجد السير ليكبس الكرج، فوصل إلى الوادى الذى هم فيه وقت السحر، ففرق

عسكره فرقتين: فرقة من أعلى الوادي، وفرقة من أسفله، وحملوا عليهم وهم غافلون، ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا وأسروا، فكان في جملة الأسرى شلوة أمير دوين، في جماعة كثيرة من مقدميهم، ومن سلم من الكرج عاد إلى بلدهم على حال سيئة.

ثم إن ملك الكرج أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة، وهو الذى أعطى خلاط وأعمالها الأمير شهاب الدين، يقول له: كنا نظن أننا صلح، والآن فقد عمل صاحب سرمارى هذا العمل، فإن كنا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر، وإن كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا.

فأرسل الأشرف إلى صاحب سرمارى يأمره بإطلاق الأسرى وتجديد الصلح مع الكرج، ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح، وأطلق الأسرى (١).

الحادثة الثانية:

نتيجة انهزام المغول في هذه المنطقة ظهر أحد أولاد " محمد بن خوارزم " في منطقة شمال إيران، وهو " غياث الدين بن محمد بن خوارزم شاه " وهو أخو " جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه " الهارب في الهند..

جمع غياث الدين الرجال، واستغل الفراغ النسبى الذى تركه المغول في هذه المنطقة فتملكها، وسيطر على مدن الرى وأصبهان، ووصلت سيطرته إلى إقليم كرمان (في جنوب إيران)، وهى منطقة لم يكن المغول قد وصلوا إليها..

إذن أصبحت سيطرة غياث الدين بن خوارزم شاه على مناطق شمال وغرب وجنوب إيران، أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران (وهى إقليم خراسان بكامله) فكانت تحت السيطرة المغولية.. وبذلك يصبح " غياث الدين " بمثابة حائط صدٍّ بين المغول والخلافة العباسية..

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٢٤.

وكان المتوقع من الناصر لدين الله الخليفة العباسى في ذلك الوقت أن يساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، وكان المتوقع منه أن يتناسى الخلافات القديمة بينه وبين مملكة خوارزم.. وذلك لأنهم الآن يواجهون عدوًّا مشتركًا ضخمًا وهو التتار..

كان ذلك المتوقع منه.. إن لم يكن بسبب دوافع الدين والأخوة والنصرة للمسلمين، فليكن بسبب الأبعاد الاستراتيجية الهامة وراء تثبيت قدم غياث الدين في هذه المنطقة.. ذلك لأن غياث الدين هو الذى يقف مباشرة في مواجهة التتار.. ويُعتبر البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد.. وإن استطاع التتار أن يقهروا غياث الدين فستكون المحطة الثانية هى الخلافة العباسية..

لكن الخليفة العباسى الناصر لدين الله لم يكن يدرك كل هذه الأبعاد.. لقد كان يعانى هو الآخر من العمى السياسي.. لقد كان - كما وصفه المؤرخون - رجلاً ظالمًا مستبدًا، فرض المكوس والضرائب على كل شعبه؛ في كل أزمة اقتصادية يفرض ضريبة جديدة، ويعتمد في الخروج من الأزمة على قوت الشعب وكدّه وكدحه..

كما اهتم بالحفلات والملذات والصيد واللعب.. وعم الفساد في زمانه، وارتفعت الأسعار، وقلت المواد والمؤن.. وكان رجلاً يفتقر إلى النظرة العميقة والفهم الثاقب للأحداث، فلم يكن أبدًا على مستوى الأحداث الضخمة التى حدثت في زمانه..

ماذا فعل الخليفة الناصر لدين الله؟.. إنه لم ينس خلافاته القديمة مع المملكة الخوارزمية.. فأراد أن يقوض أركان السلطان هناك؛ ناسيًا أنهم بينه وبين التتار.. وراسل خال غياث الدين وكان اسمه " إيغان طائسى "، وكان رجلاً كبيرًا وصاحب رأى في الحرب يعمل أميرًا في جيش غياث الدين، وكان غياث الدين لا يقطع أمرًا دون مشورته.. فراسله الخليفة الناصر لدين الله، ورغّبه في الانقلاب على غياث الدين، وعظم له الاستيلاء على الملك، وبذلك يضمن الخليفة ولاء " إيغان طائسى " له، ويبعد غياث الدين عن المنطقة.. ولم يهمه تلك الفتنة التى ستدور في الأرض المجاورة له، والتى تعتبر العمق الاستراتيجى الهام له..

وأعجبت الفكرة " إيغان طائسي "، وكانت تدور في رأسه من قبل ولكن لم تكن

له طاقة، فلما راسله الخليفة ووعده بالمساعدة قويت نفسه على ذلك، فذهب إلى بعض العسكر والقواد فاستمالهم له، ولما قويت شوكته وكثُر أتباعه، أعلن العصيان والانقلاب على غياث الدين، وأخذ من معه، ومضى في البلاد يفسد ويقطع الطريق، وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها.. والناس لا تدرى من أين تأتى الهلكة؟! أتأتى من جنود التتار أم تأتى من جنود المسلمين؟!.. وانضم إلى " إيغان طائسى " جمع كبير من أهل الفساد والعنف!..

كل هذا والتتار على بُعد خطوات، والخليفة الناصر لدين الله - في غباء شديد - سعيدًا بالفتنة الدائرة على مقربة منه!.. ثم قرر " إيغان طائسى " أن يقاتل ابن أخته غياث الدين في معركة فاصلة!!..

والتقى الفريقان المسلمان، ودارت مجزرة بين المسلمين، وسقطت الأعداد الغفيرة من المسلمين قتلى بسيوف المسلمين.. وانهزم " إيغان طائسى " خال غياث الدين، وقُتل من فريقه عدد ضخم، وأسر الباقون، وفر هو ومن بقي معه مقبوحين إلى أذربيجان.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. (١).

يقول ابن الأثير: "... في هذه السنة في جمادى الآخرة، انهزم " إيغان طائسي "، وهو خال غياث الدين بن خوارزم شاه محمد بن تكش، وغياث الدين هذا هو صاحب بلاد الجبل والرى وأصبهان وغير ذلك، وله أيضًا بلاد كرمان.

وكان سبب ذلك أن خاله إيغان طائسى كان معه، وفى خدمته، وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين إلا عن رأيه، والحكم إليه في جميع المملكة، فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك، وحسن له ذلك غيره، وأطمعه فيه، قيل: إن الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سرًّا، وأمره بذلك، فقويت نفسه على الخلاف، فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم.

---

(١) روى مسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ◘ :♂إن الشيطان قد أيس (فَقَد الأمل) أن يعبده المصلون— وزاد في رواية مسلم:♂في جزيرة العرب— ولكن في التحريش بينهم..
مسلم في صحيحه ج ٤/ ص ٢١٦٧ حديث رقم: ٢٨١٢.
تحقيق الألباني.
(حسن) انظر حديث رقم: ١٦٥١ في صحيح الجامع.

فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين، وخرج عن طاعة أوزبك، وصار في البلاد يفسد، ويقطع الطريق، وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها. وانضاف إليه جمع كثير من أهل العنف والفساد، ومعه مملوك آخر اسمه أيبك الشامي، وساروا جميعهم إلى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها، فجمع غياث الدين عسكره والتقوا بنواحي... واقتتلوا، فانهزم خال غياث الدين ومن معه، وقتل من عسكره وأسر كثير، وعاد المنهزمون إلى أذربيجان على أقبح حال، وأقام غياث الدين في بلاده وثبت قدمه... " (١).

وإن كنا نعجب من هذه الصراعات الداخلية في ذلك الزمن الذى يشهد أزمة حقيقية تمر بها الأمة، فإننا نشاهد الآن نفس الصراعات والخلافات بين المسلمين، وذلك مع الأزمات الطاحنة التى تمر بها الأمة، ومع ذلك فالقليل من المسلمين الذى يهتم بهذه الصراعات أو حتى يلحظها.. وإلا فكم من المسلمين يتابع الخلافات بين مصر والسودان على حلايب؟ أو بين ليبيا وتشاد على شريط أوزو؟ أو بين المغرب والجزائر على الصحراء الغربية؟ أو بين السنغال وموريتانيا على نهر السنغال؟ أو بين السعودية واليمن على إقليم عسير؟.. أو بين الإمارات وإيران على جزيرة أبى موسى؟ أو بين سوريا وتركيا حول لواء الإسكندرونة؟... أو غير هذه الاختلافات هنا وهناك.. وبالطبع كلنا يعلم مدى خسارة الأمة في حرب العراق وإيران، ثم في حرب العراق والكويت.. كل هذه الخلافات والأمة منكوبة بأزمات طاحنة في معظم مناطقها تقريبًا.. ويكفى أن تتصفح الجرائد اليومية عشوائيًّا في أى يوم لتسمع عن الكوارث في فلسطين والعراق والشيشان وكشمير والسودان والجزائر ونيجيريا والصومال وغيرها وغيرها.. وكما يقرأ الكثير منا هذه الأخبار بدم بارد، وبلا اكتراث أو ألم، فكذلك كان المسلمون أيام المغول يتلقون أخبار الصراعات الداخلية والخارجية بدم بارد، وبلا اكتراث أو ألم!!.. وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد.. وهذه - والله - كارثة مروعة.. كارثة أن يعيش المسلم لنفسه فقط! كارثة ألا يهتم إلا بحياته وحياة أسرته القريبة فقط! كارثة ألا يتألم لحال مسلم سُفك دمه، أو هُدمت داره، أو جُرفت

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٣٠.

أرضه، أو اغتصبت زوجته.. كارثة بكل المقاييس.. بمقاييس الإسلام، وبمقاييس الأخوة، وحتى بمقاييس الإنسانية.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!!.. (١).

الحادثة الثالثة:

هذه الحادثة ذكرها ابن الأثير في الكامل في التاريخ وقدم لها بعبارة: " حادثة غريبة لم يوجد مثلها!! "..

والحادثة فعلاً غريبة، ومأسوية إلى أبعد درجة..

والحادثة تذكر أن مملكة الكرج النصرانية بعد أن أتمت صلحها مع المسلمين، وصل إلى قمة الحكم فيها امرأة.. فطلب منها الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة أن تتزوج رجلاً يدير عنها شئون البلاد، ويكون في الصورة أمام الأعداء وفي المفاوضات وغير ذلك.. فأرادت أن تتزوج من بيت مُلك وشرف.. ولكنها لم تر في مملكة الكرج من يصلح لهذا الزواج، وسمع بهذا أحد ملوك المسلمين وهو " مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان " (٢) وهو من ملوك السلاجقة، وكان يحكم منطقة

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٦٠.

(٢) مغيث الدين السلجوقي: هو أبو القاسم محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، الملقب مغيث الدين، أحد الملوك السلجوقية المشاهير، تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده، وخطب له بها بمدينة بغداد على عادة الملوك السلجوقية، يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، في خلافة المستظهر بالله، وهو يومئذ في سن الحلم، وكان متوقدًا ذكاء، قوى المعرفة بالعربية، حافظًا للأشعار والأمثال، عارفًا بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وكان حيص بيص الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التى أولها:

ألق الحدائج ترع الضمر القود ::: طال السرى وتشكت وخدك البيد
يا سارى الليل لا جذب ولا فرقف ::: النبت أغيد والسلطان محمود
قيل تألفت الأضداد خيفته ::: فالمورد الضنك فيه الشاء والسيد

وهى طويلة ومن غرر القصائد، وأجازه عليها جائزة سنية.

وكان قد تزوج بنتى عمه السلطان سنجر، واحدة بعد الأخرى، وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها، حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له يومًا بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد، ثم خرج منها، فمرض في الطريق واشتد به المرض، وتوفى يوم الخميس خامس عشر شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر - بيروت، ٥ / ١٨٢.

الأناضول (تركيا الآن)، وكان له ولد كبير، فأرسل إلى الملكة يطلبها للزواج من ابنه، فرفضت الملكة وقالت: لا يمكن أن يملك أمرنا مسلم..

فماذا فعل الملك مغيث الدين بن قلج أرسلان؟

لقد قال لهم: إن ابني يتنصر ويتزوجها!!..

فوافقوا على ذلك، وبالفعل تنصر الولد، وتزوج من ملكة الكرج، وانتقل إلى مملكتهم ليكون حاكمًا عليهم، وبقي على نصرانيته، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!.. (١)

---

(١) لقد وصل المسلمون في هذه الآونة إلى درجة من التردي يستحيل معها النصر، فكيف تأتي فكرة التنصر في ذهن الملك وابنه أصلاً، فضلاً عن تطبيقها، ولو كان سيحكم الأرض كلها بعد التنصر؟!! ثم أيأتي ذلك من ملك عظيم يملك الأناضول؟! لو أتى ذلك من ضعيف مستعبد لقلنا: لعله استُكره على ذلك، أما أن يأتي العرض من الملوك، وهم الذين يُطلبون، فهذا ما لا يتخيله عقل!!..
ولا أدري من الذي أطلق على الملك لقب " مغيث الدين "؟ ولا أدري أي إغاثة قدمها للدين؟ ولا أدري أيضًا أي دين يغيثه؟ أهو يغيث الدين الإسلامي أم يغيث النصرانية؟!.
{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ}[الحج: ٤٦].
ولاستكمال الصورة يجدر بنا أن نذكر مصيره.. لنرى كيف يكون حال من باع دينه بدنياه..
لقد تنصر الأمير المسلم وتزوج الملكة الكرجية، ومرت الأيام، ثم علم الأمير الزوج أن زوجته الملكة تهوى مملوكًا لها، وكان يسمع عنها القبائح الشنيعة ولا يتكلم، فهو وحيد في مملكة واسعة، ثم إنه دخل عليها يومًا فرآها مع مملوكها في فراشه، فأنكر ذلك، وأراد أن يمنعها من استمرار العلاقة، فقالت له الملكة بكل جبروت: " إما أن ترضى بهذا وإلا فلا تبقى ".. فقال: أنا لا أرضى بهذا، فنقلته إلى بلد آخر، ووكلت به من يمنعه من الحركة، وحجرت عليه، ثم تزوجت غيره!!..
نعوذ بالله من الخذلان، ونسأل الله أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم أن نلقاه..
د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٦٥.
روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ■ :♂بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا▬.. مسلم في صحيحه ج ١/ ص ١١٠ حديث رقم: ١١٨، قال الألباني في " السلسلة الصحيحة " ٢ / ٣٩٨: أخرجه مسلم (١ / ٧٦) والترمذي (٣ / ٢٢٠ - ٢٢١ بشرح التحفة) وصححه، وكذا ابن حبان (١٨٦٨) وأحمد (٢ / ٣٠٤ - ٥٢٣) والفريابي في " صفة المنافق (ص ٦٥ من " دفائن الكنوز ") من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا. وله شاهد من حديث أنس بن مالك مرفوعًا به دون المبادرة.
(٨١٠) أخرجه الحاكم (٤ / ٤٣٨ - ٤٣٩) عن سنان بن سعد عنه.
قلت: وإسناده حسن.

يقول ابن الأثير: "... حادثة غريبة لم يوجد مثلها... كان أهل المملكة في الكرج لم يبق منهم غير امرأة، وقد انتهى الملك إليها فوليته، وقامت بالأمر فيهم، وحكمت، فطلبوا لها رجلاً يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها، ويكون من أهل بيت مملكة، فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر.

وكان صاحب أرزن الروم، هذا الوقت، هو مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان بن مسعود قلج أرسلان، وبيته مشهور من أكابر ملوك الإسلام، وهم من الملوك السلجوقية، وله ولد كبير، فأرسل إلى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها، فامتنعوا من إجابته، وقالوا: لا نفعل هذا، لأننا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم. فقال لهم: إن ابني يتنصر ويتزوجها؛ فأجابوه إلى ذلك، فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية، وتزوج الملكة، وانتقل إليها، وأقام عند الكرج حاكمًا في بلادهم، واستمر على النصرانية، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها، وخير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم نلقاه.

ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكًا لها، فكان زوجها يسمع عنها القبائح ولا يمكنه الكلام لعجزه، ثم إنه يومًا دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها في فراش، فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه، فقالت: إن رضيت بهذا، وإلا أنت أخبر. فقال: إنني لا أرضى بهذا، فنقلته إلى بلد آخر، ووكلت به من يمنعه من الحركة، وحجرت عليه، وأرسلت إلى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة، فتزوجت أحدهما، فبقى معها يسيرًا، ثم إنها فارقته، وأحضرت إنسانًا آخر من كنجة، وهو مسلم، فطلبت منه أن يتنصر ليتزوجها، فلم يفعل، فأرادت أن تتزوجه وهو مسلم، فقام عليها جماعة من الأمراء، ومعهم إيواني، وهو مقدم العساكر الكرجية، فقالوا لها: قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدين أن يتزوجك مسلم، وهذا لا نمكن منه أبدًا، والأمر بينهم متردد والرجل الكنجي عندهم لم يجبهم إلى الدخول في النصرانية وهى تهواه " (١).

(١) ابن الأثير، الكامل، ٥ / ٣٢٤.

الحادثة الرابعة:

حدث في هذا العام (٦٢٠ هجرية) أمر قد يعتقد البعض أنه مصادفة، وأن توقيته غريب؛ فالمصائب كانت كثيرة على الأمة في هذه السنين، والحالة الاقتصادية متردية، وكذلك الحالة السياسية والعسكرية والأخلاقية.. وفوق كل المصائب التي ذكرناها فقد هجم الجراد بكميات هائلة على أكثر أقاليم المسلمين، وأهلك الكثير من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر والشام وفارس وغيرها.. (١)

أكان هذا على سبيل المصادفة؟!

أبدًا والله.. إنه لفى كتاب الله عز وجل!!..

" ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون "..

هذه حقائق ثابتة في كتاب الله عز وجل..

إذا ترسخت التقوى في الأمة فتحت عليها البركات من السماء والأرض..

وإذا رفعت التقوى - كما رأينا من حال المسلمين في تلك الحقبة من الزمان - رأينا الأزمات والشدائد والمصائب..

بل إن الله عز وجل ذكر الجراد بالذات كوسيلة من وسائل إثبات قدرته على من لم يتبع نهجه وشرعه.. قال الله عز وجل عن قوم فرعون:

{ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ } [الأعراف: ١٣٣]..

وسبحان الله.. كلنا رأى الجراد الذى هجم على العالم الإسلامى منذ عام أو يزيد.. وأنا أرى أن هذا ليس مصادفة، ولكنه لفت نظر للمسلمين.. وتذكير لهم بالتاريخ.. ودعوة لهم للعودة إلى الله عز وجل.. وإلا فرحلة الجراد القادم لن تكون رحلة عابرة.. بل ستكون إقامة واستيطانًا! ونعوذ بالله من غضبه.. ونسأله أن يبصرنا

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٥٥.

بسننه، وأن يرزقنا التقوى والإخلاص والعمل.. [١].

أحداث سنة ٦٢١ هجرية:

في هذه السنة حاول غياث الدين أن يثبت ملكه في منطقة فارس (جنوب وغرب إيران) ولكن حدثت فتنة بينه وبين أحد الأمراء في هذه المنطقة يدعى " سعد الدين بن دكلا "، ودار بينهما قتال طويل استغرق هذا العام حتى رضى الطرفان أن تقسم عليهما البلاد! ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

وبينما كان غياث الدين مشغولاً في جنوب إيران بالقتال مع سعد الدين هجم المغول بفرقة مغولية صغيرة لا تتجاوز ثلاثة آلاف فارس على مدينة " الرى " [٢] ووضعوا فيهم السيف، وقتلوا كيف شاءوا، ونهبوا البلد وخربوه، ثم ساروا إلى مدينة " ساوة " [٣] ففعلوا بها كذلك، ثم اتجهوا إلى مدينة " قم " [٤] وإلى مدينة " قاشان " [٥] فدمروا المدينتين، وقتلوا أهلهما وخربوا ديارهما، ثم قصدوا " همذان " فأبادوا

---

(١) د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٦٥.

(٢) الري.
مدينة تقع في الطرف الشمالى الشرقى من إقليم الجبال واسمها عند اليونان (راكس raxes) وفى المئة الرابعة للهجرة خرب أكثرها وتحول أهلها إلى طهران القريبة منها ينسب إليها كثير من العلماء منهم الفخر الرازى وسليمان بن مهران الملقب بالأعمش من كبار التابعين وغيرهم.

(٣) ساوه: مدينة حسنة بين الرى وهمذان في وسط بينها وبين كل واحد من همذان والرى ثلاثون فرسخًا وبقربها مدينة يقال لها آوه فساوه سنية شافعية وآوه أهلها شيعة إمامية وبينهما نحو فرسخين ولا يزال يقع بينهما عصبية وما زالتا معمورتين إلى سنة٦١٩ هـ فجاءها التتر الكفار الترك فخبرت أنهم خربوها وقتلوا كل من فيها ولم يتركوا أحدا البتة وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا أعظم منها بلغنى أنهم أحرقوها، وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم منهم أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل بن يوسف الساوى رحل وسمع بدمشق وغيرها سكن مرو وسمع أبا على الحظائرى وإسماعيل بن محمد أبا على الصفار وأبا جعفر محمد بن عمرو بن البحترى وأبا عمرو الزاهد وأبا العباس المحبوبى الرزاز وخيثمة بن سليمان سمع منه الحاكم أبو عبدالله ومات سنة ٤٣٦ وأبو طاهر عبد الرحمن ابن أحمد بن علك الساوى أحد الأئمة الشافعية صحب أبا محمد عبد العزيز بن محمد النخشبى وأخذ عنه علم الحديث وسمع جماعة طاهرة وافرة ببغداد وروى عنه أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل.

(٤) قم:مدينة تقع جنوبى طهران وشمالى قاشان، مشهورة عند الشيعة بمشهدها، وهو مشهد السيدة فاطمة أخت الإمام عليّ الرضا الإمام السادس. (جنوب طهران الآن).

(٥) قاشان: من مدن الجبال في إيران، تقع جنوبى مدينة قم، اشتهرت في ديار الشرق بقرميدها الذى يقال له (القاشاني)، وأصبحت تطلق هذه التسمية على القرميد الأزرق والأخضر، المتخذ في تزويق المساجد حتى يومنا هذا.

أهلها قتلاً وأسرًا ونهبًا، وخربوا البلد كما خربوا غيره، ثم عادوا بعد ذلك سالمين إلى جنكيزخان!!..

ثلاثة آلاف مغولى فقط فعلوا ما ذكرناه منذ قليل!!..

لقد كثر الله عز وجل المغول في عيون المسلمين، وقلل المسلمين في عيون التتار.. وعظمت هيبة التتار وضاعت هيبة المسلمين..

لماذا؟! لأن المسلمين قد انشغلوا بأنفسهم، وما عادوا يدركون مَن العدو ومَن الصّديق، وبينما كان ينبغى للأزمات أن تجمع الصف المسلم إذا بها تفرقه، وما ذلك إلا لقلة الإيمان في القلوب، ولعظم الدنيا في العيون، ولسوء التربية أو انعدامها في فترات طويلة متراكمة..

وكنتيجة طبيعية جدًّا لهذه الأدواء الأخلاقية والأمراض القلبية حدث ما ذكره ابن الأثير في معرض كلامه عن أحداث عام ٦٢١ هجرية.. قال ابن الأثير: "... وفيها قلت الأمطار في البلاد، فقل ما يجيء منها شيء إلى سباط، ثم إنها كانت تجيء في الأوقات المتفرقة مجيئًا قريبًا لا يحصل منه الرى للزرع، فجاءت الغلات قليلة، ثم خرج عليها الجراد، ولم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل به عنها، فأكلها إلا القليل، وكان كثيرًا خارجًا عن الحد، فغلت الأسعار في العراق، والموصل، وسائر ديار الجزيرة، وديار بكر، وغيرها، وقلت الأقوات، إلا أن أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة " [(١)].

ثم حدثت فتنة ومشكلات واختلافات كبيرة بين المسلمين السنة والشيعة، وقعت على إثرها حرب دامية، وتكررت هذه الفتنة أكثر من مرة. يقول ابن الأثير: "... وفيها وقعت فتنة بواسط بين السنة والشيعة على جارى عادتهم " [(٢)].

حقًّا: ما أشبه الليلة بالبارحة!!!!!

ما حدث في هذه الفترة من مصائب عن طريق الجراد والسنين ونقص الثمرات هو أمر طبيعى جدًّا، وهو أمر موافق للسنن الإلهية.. وليس من قبيل المصادفة..

(١) ابن الأثير، الكامل، ٥ / ٣٢٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٥ / ٣٢٧.

وإذا مر على المسلمين زمان شعروا فيه أن الأسعار قد ارتفعت، وأن الغلات قد قلت، وأن الاقتصاد قد تأثر، وأن الحياة قد صعبت، فليراجعوا أنفسهم، وليقفوا مع أنفسهم وقفة للمحاسبة، وليعرضوا أنفسهم على كتاب الله عز وجل..

وحتمًا - إن كانوا صادقين - سيجدون المرض، وسيعرفون العلاج..

{مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨] (١).

أحداث سنة ٦٢٢ هجرية:-

في هاتين السنتين خفت القبضة المغولية على غرب الدولة الخوارزمية (غرب وشمال إيران) واكتفوا ببعض الحملات المتباعدة، واهتموا بتوطيد ملكهم وتثبيت أقدامهم في شرق الدولة الخوارزمية في مناطق نهرى سيحون وجيحون، وفى شمال أفغانستان وشرق إيران..

ولكن حدث أمر جديد في هاتين السنتين، إذ ظهر على مسرح الأحداث فجأة الأمير " جلال الدين بن محمد بن خوارزم "، والذى كان قد فرّ قبل ذلك إلى الهند منذ خمس سنوات (في سنة ٦١٧ هجرية)، وذلك أنه لم يستطع إكمال حياته في الهند، فقد كانت العلاقات أصلاً سيئة مع ملوك الهند، ثم إنه وجد أن التتار قد تركوا منطقة فارس نسبيًّا، وأن جنكيزخان قد عاد إلى بلاده لمعالجة بعض الأمور هناك وترك زعيمًا غيره على جيوش التتار، وأن أخاه غياث الدين قد سيطر على معظم أجزاء فارس بعد أن تقاتل مع سعد الدين بن دكلا، واتفقا في النهاية على تقسيم فارس بينهما، وكان النصيب الأكبر لغياث الدين، وتم ذلك في سنة٦٢١ هجرية كما أشرنا من قبل.. (٢)

وجد جلال الدين أن الظروف الآن مواتية للعودة إلى مملكة خوازرم للبحث عن الملك الضائع، ولكنه للأسف لم يدقق النظرة، ولم يشخص المرض الذى أصاب الأمة الإسلامية في ذلك الوقت.. ولم يدرك أنه الفرقة والتشتت والاستهانة بدماء المخالفين من المسلمين كانت من الأسباب الرئيسية لهذه الحالة المخزية التى وصلت إليها أمة

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٦٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ٥ / ٢٩١، أبو الفدا، المختصر، ١ / ٤٠١.

الإسلام..

لم يدرك جلال الدين هذه الأمور، ومن ثم فإنه بدلاً من أن يبذل مجهودًا لتجميع الأطراف المتناحرة والأقاليم المتصارعة، دخل إلى مملكة خوارزم وهو يجهز نفسه ليكون طرفًا جديدًا في الصراع الإسلامي - الإسلامي!!..

ماذا فعل جلال الدين؟!

لقد عبر نهر السند ودخل إقليم كرمان (جنوب باكستان) ثم تجاوزه إلى جنوب فارس (جنوب إيران) ثم بدأ يجمع حوله الأنصار له، وذهب إلى " سعد الدين بن دكلا " وتحالف معه ضد أخيه غياث الدين!!!!..

وبدأ جلال الدين في غزو إقليم فارس من جنوبه إلى الشمال محاربًا أخاه غياث الدين، حتى وصل إلى غرب إيران، وأصبح قريبًا من الخلافة العباسية، وكانت العلاقات القديمة بين مملكة خوارزم والخلافة العباسية متوترة جدًّا، ووجد جلال الدين في نفسه قوة، ووجد في الخلافة ضعفًا، فأعلن الحرب على الخلافة العباسية.. (هذا وجيوش التتار قابعة في شرق إيران!!!) ولا عجب؛ فقد كان جل الزعماء في تلك الآونة مصابين بداء ضيق الأفق السياسي الذي أشرنا إليه من قبل، ودخل جلال الدين بجيشه إلى البصرة، وحاصرها لمدة شهرين، ثم تركها واتجه شمالاً ليمر قريبًا من بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وخاف الناصر لدين الله الخليفة العباسي على نفسه؛ فحصن المدينة وجهز الجيوش لدفع جلال الدين، ولكن لم يكتف بذلك بل ارتكب فعلاً شنيعًا مقززًا، إذ إنه أرسل إلى المغول يستعين بهم على حرب جلال الدين!!!!..

سبحان الله!!!..

أيأتي بالمغول وهو يعلم تاريخهم وحروبهم مع المسلمين ليحاربوا جلال الدين؟! حتى لو كان الظلم كل الظلم في جانب جلال الدين، والحق كل الحق في جانب الخليفة.. أيأتي بالمغول لنجدته؟! أما علم أن التتار إذا قضوا على جلال الدين فإن الخطوة التالية مباشرة هي القضاء على الخلافة العباسية؟!

ماذا أردت يا خليفة المسلمين؟!

أردت أن تطيل فترة ملكك أعوامًا قليلة؟!

أردت أن تموت عبدًا للمغول بدلاً من أن تكون عبدًا لجلال الدين؟!

ليس هذا - بالطبع - دفاعًا عن جلال الدين.. بل نلومه أشد اللوم على تفريق طاقة المسلمين وجعل بأسهم بينهم.

لقد كان الخليفة العباسى الناصر لدين الله كالمستجير من الرمضاء بالنار... كان كمن بغته لص صغير في بيته، فأسرع بالاستنجاد بأكبر لصوص المنطقة، فجاء اللص الكبير وأزاح اللص الصغير، ثم سرق هو البيت، بل ولم يكتف بذلك بل سرق البيوت المجاورة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!!..

ومع استعانة الخليفة بالتتار، إلا أن التتار كانوا مشغولين ببسط سيطرتهم في المناطق الشاسعة التى احتلوها، فلم يحدث بينهم وبين جلال الدين قتال إلا في أواخر سنة ٦٢٢ هجرية.. واستثمر جلال الدين هذه الفترة في بسط سيطرته على المناطق المحيطة ببغداد، ثم شمال العراق ثم منطقة شمال فارس، وبدأ يدخل في أذربيجان وما حولها من أقاليم إسلامية (انظر الخريطة رقم ٧).

وكانت حروبه هو والخوارزمية الذين معه حروبًا شرسة مفسدة، مع أن البلاد المغنومة كلها بلاد إسلامية..! فكان يفعل بهم الأفاعيل من قتل وسبى ونهب وتخريب.. وكأنه تعلم من حروبه مع التتار كيف يقسو قلبه بدلاً من أن يتعلم كيف يرحم الذين عُذبوا منذ شهور وسنوات على أيدى التتار..

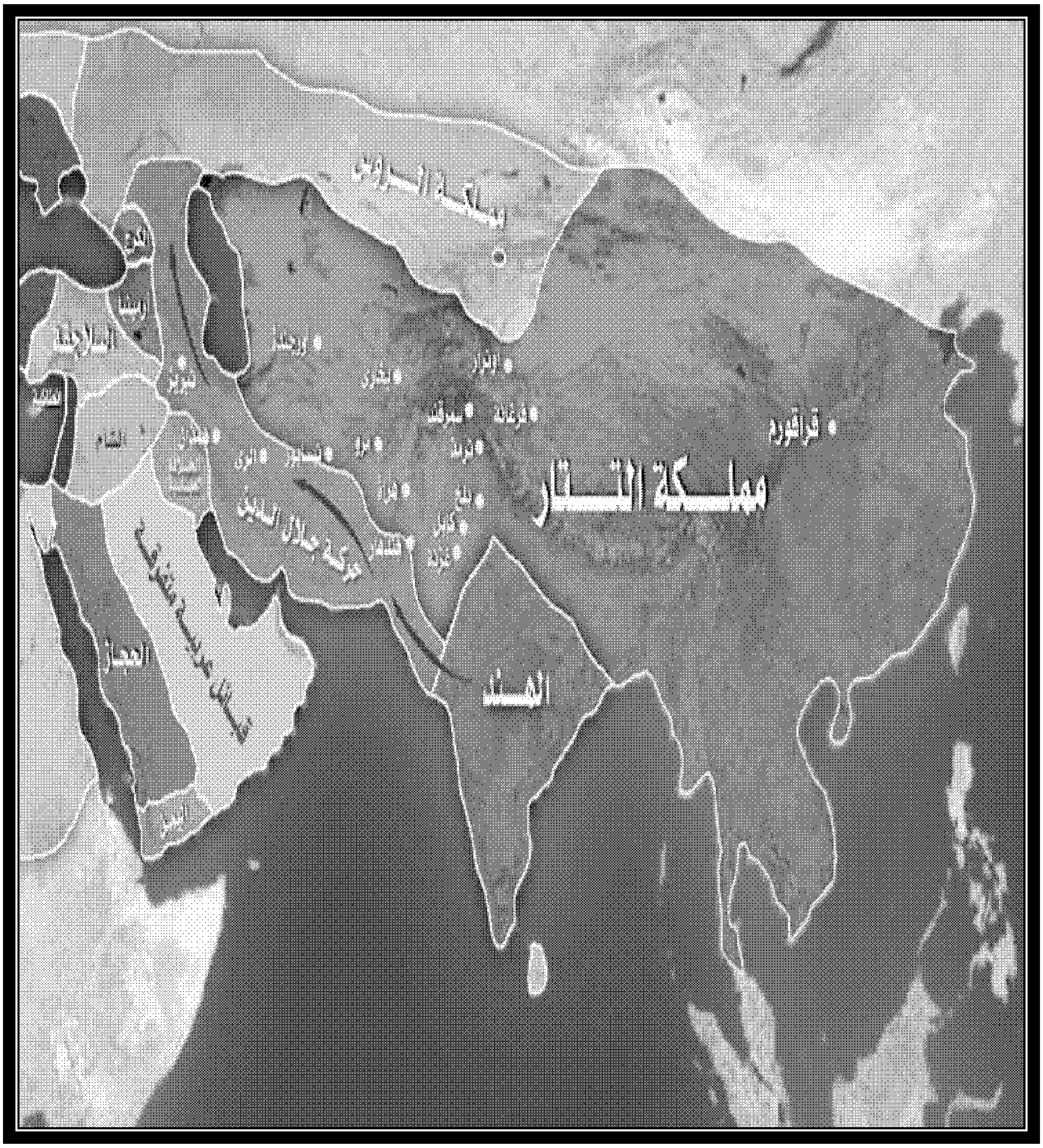
مملكة التتار
الهند
قراقورم
الشام
الحجاز
السلاجقة
أرمينيا
تبريز
بخارى
سمرقند
فرغانة
أترار
نيسابور
الري
مرو
هراة
بلخ
كابل
غزنة
قندهار
مملكة جلال الدين
اليمن

ظهور حركة المقاومة بزعامة جلال الدين منكبرتي:

ثم بسط جلال الدين سيطرته على مملكة الكرج النصرانية بعد أن أوقع بهم هزيمة فادحة، واصطلح مع أخيه غياث الدين صلحًا مؤقتًا، وأدخله في جيشه، ولكن كان كل واحد منهما على حذر من الآخر..

وبذلك بلغ سلطان جلال الدين من جنوب فارس إلى الشمال الغربي لبحر قزوين، وهي وإن كانت منطقة كبيرة إلا أنها مليئة بالقلاقل والاضطرابات، بالإضافة إلى العداءات التي أورثها جلال الدين قلوب كل الأمراء في الأقاليم المحيطة بسلطانه بما فيهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله.. وسياسة العداوات والمكائد والاضطرابات هي السياسة التي ورثها جلال الدين عن أبيه محمد بن خوارزم وتحدثنا عنها من قبل.. ولم تأت إلا بالويلات على الأمة.. وليت المسلمون يفقهون..

يقول أبو الفدا: "... قد تقدم في سنة سبع عشرة وستمائة ذكر هروب جلال الدين من غزنة، لما قصده جنكزخان، وأنه دخل بلاد الهند، فلما كانت هذه السنة، قدم من الهند إلى كرمان ثم إلى أصفهان واستولى عليها وعلى باقي عراق العجم، ثم سار إلى فارس وانتزعها من أخيه غياث الدين تيزشاه بن محمد، وأعادها إلى صاحبها أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس، وصار أتابك سعد المذكور، وغياث الدين تيزشاه أخو جلال الدين، تحت حكم جلال الدين وفي طاعته، ثم استولى جلال الدين على خورستان، وكاتب الخليفة الإمام الناصر.

ثم سار جلال الدين حتى قارب بغداد ووصل إلى يعقوبا، وخاف أهل بغداد منه واستعدوا للحصار، ونهبت الخوارزمية البلاد، وامتلأت أيديهم من الغنائم، وقوى أمر جلال الدين وجميع عسكره الخوارزمية، ثم سار إلى قرب إربل، فصالحه صاحبها مظفر الدين ودخل في طاعته، ثم سار جلال الدين إلى أذربيجان وكرسي مملكتها تبريز، فاستولى على تبريز، وهرب صاحب أذربيجان، وهو مظفر الدين أزبك بن البهلوان بن الدكز، وكان أزبك المذكور قد قوى أمره لما قتل طغريل آخر الملوك السلجوقية ببلاد العجم، فاستقل أزبك المذكور في المملكة، وكان أزبك المذكور لا يزال مشغولاً بشرب الخمر، وليس له التفات إلى تدبير المملكة، فلما استولى جلال

الدين على تبريز، هرب أزبك إلى كنجة، وهى من بلاد آران، قرب بردعة، ومتاخمة لبلاد الكرج، واستقل السلطان جلال الدين بملك أذربيجان، وكثرت عساكره واستفحل أمره، ثم جرى بين جلال الدين وبين الكرج قتال شديد، انهزم فيه الكرج، وتبعهم الخوارزمية يقتلونهم كيف شاؤوا، واتفق أنه ثبت على قاضى تبريز وقوع الطلاق من أزبك بن البهلوان بن الدكز، على زوجته بنت السلطان طغريل آخر الملوك السلجوقية، المقدم ذكره، فتزوج جلال الدين ببنت طغريل المذكور، وأرسل جيشًا إلى مدينة كنجة ففتحوها، فهرب مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان من كنجة إلى قلعة هناك، ثم هلك وتلاشى أمره.. " (١).

وفاة الخليفة الناصر لدين الله ٦٢٢ هـ:

وفى آخر سنة ٦٢٢ هجرية توفي الخليفة الظالم الفاسد الناصر لدين الله، بعد أن حكم البلاد سبعة وأربعين عامًا متتالية، وكان قبيح السيرة في رعيته، فقد خرب العراق، وظلم أهله، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وطفف لهم في المكاييل، وفرض عليهم الرسوم الجائرة، والأحكام الظالمة.. وفوق كل ذلك ارتكب الذنب العظيم الذى تصغر بجواره كل ذنوبه وهو مراسلة التتار، ومحاولة التعاون معهم ضد المسلمين.. يقول ابن الأثير: "... وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالمًا، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة، ثم بطلها، وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة، ثم أعادها. وجعل جل همه في رمى البندق، والطيور المناسيب،... فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعظم الأمور، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحًا من أنه هو الذى أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب... " (٢).

---

(١) أبو الفدا، المختصر، ١ / ٤٠١.

(٢) الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٣٣.

أحداث سنتى ٦٢٣ و٦٢٤ هجرية:-

تولى الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله الخلافة العباسية، وكان على النقيض من أبيه تمامًا؛ فقد كان رجلاً صالحًا تقيًا أظهر من العدل والإحسان ما لم يُسبق إلا عند القليل، لدرجة أن ابن الأثير قال عنه: " فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة وعشرين يومًا، وكان نعم الخليفة، جمع الخشوع مع الخضوع لربه، والعدل والإحسان إلى رعيته، وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية؛ ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية، فرضى الله عنه وأرضاه، وأحسن منقلبه ومثواه، فلقد جدد من العدل ما كان دارسًا، وأذكر من الإحسان ما كان منسيًا.

وكان قبل وفاته أخرج توقيعًا إلى الوزير بخطه ليقرأه على أرباب الدولة، وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم، أو نفذ مناك، ثم لا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال؛ فقرأوه، فإذا في أوله بعد البسملة: اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالاً، ولا إغضاؤنا إغفالاً، ولكن لنبلونكم أيكم أحسن عملاً، وقد عفونا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرعايا، وتقبيح السمعة، وإظهار الباطل الجلى في صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكًا لأغراض انتهزتم فرصتها مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد وأنتم أمناؤه وثقاته، فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمرجون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنًا، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقًا، ورزقكم سلطانًا يقيل العثرة ويقبل المعذرة، ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر؛ يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى، فيخوفكم مكره، ويرجوا الله تعالى، ويرغبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم، والسلام.

ولما توفى وجدوا في بيت، في داره، ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها، فقيل له ليفتحها، فقال: لا حاجة لنا فيها، كلها سعايات.

ولم أزل، علم الله سبحانه، مذ ولى الخلافة، أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان وفساد أهله... ولو قيل: إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقًا "، فرفع الضرائب الباهظة، وأعاد للناس حقوقهم، وأخرج المظلومين من السجون، وتصدق على الفقراء، حتى قيل في حقه: إنه كان غريبًا في هذا الزمان الفاسد... ".

ولقد قال فيه ابن الأثير - وكان معاصرًا له - كلمة عجيبة، لقد قال: "... وأقول لكثير من أصدقائنا: وما أخوفنى أن تقصر مدة خلافته، لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته؛ فكان كذلك [١].

".. إلى هذا الحد كان المجتمع فاسدًا؟؟!

وسبحان الله.. لقد صدق حدس ابن الأثير، وتوفى الخليفة الظاهر بأمر الله سريعًا! ولم يحكم المسلمين إلا تسعة شهور وبضعة أيام فقط، ومع ذلك فكما يذكر الرواة: رخصت الأسعار جدًّا في فترة حكمه، وتحسن الاقتصاد في العراق.. وهى إشارات لا تخفى على عاقل.. والحمد لله الذى وضع في الأرض سننًا لا تتبدل ولا تتغير... فهل من مدّكر؟!! [٢].

وتولى الحكم بعد الظاهر بأمر الله المستنصر بالله، والذى ظل في كرسى الحكم حتى (سنة ٦٤٠ هـ) أى حوالي: سبعة عشر عامًا

وفى هذه الأثناء كان جلال الدين يستمر في حروبه في هذه المنطقة ليس مع التتار، ولكن مع المسلمين!! واستولى على بعض المدن والأقاليم، وكان من أبشع ما فعل هو حصاره لأهل " خلاط " أو " أخلاط " وهى مدينة مسلمة (في شرق تركيا الآن)؛ فقد قتل منهم خلقًا كثيرًا، وامتدت أيدى الجنود الخوارزميين إلى كل شيء في البلد بالسلب والنهب حتى سبوا الحريم المسلمات!!!..

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٥ / ٣٣٩ - ٣٤٠.
(٢) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٦٦.

والحق أنى لا أجد تفسيرًا منطقيًا لهذا التردى في الأخلاق، والتردى في الفهم، والتردى في السياسة، والتردى في الحكمة... ولولا أن هذا مسجل في أكثر من مرجع ما قبله عقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!!.. [١].

عودة جنكيزخان إلى منغوليا وموته:

بعد أن تمكن جنكيزخان إخضاع وإذلال تلك المناطق الشاسعة من الأرض المعمورة، وفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥م عاد إلى موطنه الأصلى في منغوليا، وفى نفس العام قام بحملته الأخيرة على ولاية التانجوت شمالى التبت، لإخضاع ملكها الذى كان قد ثار على الحكم المغولي، فهزمه وانتصر عليه انتصارًا ساحقا، ثم عاد إلى منغوليا ثانية[٢].

وبعيد ذلك بقليل مرض جنكيزخان مرض الموت، ولما شعر بدنو أجله جمع أولاده وقسم بينهم مملكته الواسعة، ثم توفى في النصف الأول من رمضان عام ٦٢٤هـ / أغسطس ١٢٢٧م، ثم حمل جثمانه إلى منغوليا ودفن في المنطقة التى يخرج منها أونون وكرولين [٣].

لقد توفى القائد التترى المجرم السفاح جنكيزخان، عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة ملأها بالقتل والذبح وسفك الدماء والسلب والنهب، وبنى خلال فترة حكمه مملكة واسعة من كوريا في الشرق إلى فارس في الغرب.. بُنيت هذه المملكة على جماجم البشر، وعلى أشلائهم ودمائهم.. (ومعظمهم من المسلمين!) ولكن اللوم كل اللوم على من وصل إلى حالة من الضعف مكنت مثل هذا الفاسد من أن يفعل في بلاد المسلمين ما يشاء..

لقد كان جنكيز خان من هؤلاء الرجال الذين يهبطون على عباد الله الآمنين، يهبطون وكأنهم الإعصار المجنون الذى يقتلع النبت من جذوره، ويهدم البناء من أساسه، ثم يمضى والأرض من خلفه بلقع يباب، لقد كان بمثابة المطرقة التى أبتليت

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٧٢.

(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، ص ٣٨٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٧.

(٣) رشيد الدين جامع التواريخ، ١ / ٣٨٥، عباس العزاوي، تاريخ العراق بين إحتلالين، ص ١٢٨، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٨.

بها البشرية.

وبموت جنكيز خان هدأت الأمور نسبيًّا في هذه المنطقة، واحتفظ التتار بما ملكوه من بلاد المسلمين إلى وسط إيران تقريبًا، بينما كان جلال الدين يبسط سيطرته على المناطق الغربية من إيران والمناطق الغربية من بحر قزوين.. وكأن كل طرف قد رضي بما يملك، وآثر الاحتفاظ بما يعتقد أنه حق له..

وبعد وفاة جنكيزخان، هدأت الأمور نسبيًّا، وبدلاً من أن يستغل فترة وفاة جنكيزخان وانشغال أولاده بتقسيم مملكته نجدهم يظلون على حال يؤسف له.

لقد كانوا على عهدهم من الخلاف والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.. لم يستغل المسلمون مصيبة التتار في زعيمهم الكبير جنكيزخان ليجمعوا صفهم ويحرروا بلادهم، بل شغلوا أنفسهم بحرب بعضهم لبعض، وبظلم بعضهم لبعض...

لقد كان جلال الدين يحارب جميع الطوائف تقريبًا، فقد حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه، وحارب أخاه غياث الدين، وأجبره على الدخول في طاعته، ولكن هذا الأخير رجع وخان أخاه في أحرج الظروف إذ تخلى عنه عندما كان يحارب المغول، وهم أعدى أعدائه، يقول ابن الأثير "... وعاد جلال الدين إلى التتر فلقيهم. فبينما هم مصطفون كل طائفة مقابل الأخرى انعزل غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدين، واعتزلوا، وقصدوا جهة ساروا إليها، فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين، فانهزم التتر لهذا الظن وتبعهم صاحب بلاد فارس.

وأما جلال الدين فإنه لما رأى مفارقة أخيه إياه ومن معه من الأمراء ظن أن التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزمًا، ولم يجسر أن يدخل أصفهان لئلا يحصره التتر، فمضى إلى سميرم.

وأما صاحب فارس فلما أبعد في أثر التتر، ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه، خاف التتر فعاد عنهم.

وأما التتر فلما لم يروا في آثارهم أحدًا يطلبهم وقفوا، ثم عادوا إلى أصفهان، فلم

يجدوا في طريقهم من يمنعهم، فوصلوا إلى أصفهان فحصروها... " [١].

وعلى إثر هذه الخيانة التى حدثت، فقد تجددت الخلافات بين جلال الدين وأخيه غياث الدين وتفاقمت، بسبب تعاون غياث الدين مع أعداء جلال الدين في حروبه.. فبعد تخاذله وتراجعه عن قتال المغول مع أخيه حاول غياث الدين البحث عن حليف آخر يتحالف معه ضد أخيه، يقول ابن الأثير: "... في هذه السنة (٦٢٥ هـ) خاف غياث الدين بن خوارزم شاه، وهو أخو جلال الدين من أبيه، أخاه، وخافه معه جماعة من الأمراء، واستشعروا منه، وأرادوا الخلاص منه، فلم يتمكنوا من ذلك إلى أن خرجت التتر، واشتغل بهم جلال الدين، فهرب غياث الدين ومن معه، وقصدوا خوزستان، وهى من بلاد الخليفة، وأرادوا الدخول في طاعة الخليفة، فلم يمكنهم النائب بها من الدخول إلى البلد، مخافة أن تكون هذه مكيدة، فبقى هناك، فلما طال عليه الأمر فارق خوزستان وقصد بلاد الإسماعيلية، فوصل إليهم، واحتمى بهم واستجار بهم.

وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر وعاد إلى تبريز، فأتاه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة أن أخاه قد قصد أصفها، فألقى الجوكان من يده، وسار مجدًّا، فسمع أن أخاه قد قصد الإسماعيلية ملتجئًا إليهم، ولم يقصد أصفهان، فعاد إلى بلاد الإسماعيلية لينهب بلادهم إن لم يسلموا إليه أخاه، وأرسل يطلبه من مقدم الإسماعيلية، فأعاد الجواب يقول: إن أخاك قد قصدنا، وهو سلطان ابن سلطان، ولا يجوز لنا أن نسلمه، لكن نحن نتركه عندنا ولا نكنه أن يأخذ شيئًا من بلادك، ونسألك أن تشفعنى فيه والضمان علينا بما قلنا، ومتى كان منه ما تكره في بلادك، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار. فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الوفاء بذلك، وعاد عنهم " [٢].

ثم إن جلال الدين واصل تقدمه وسيطرته على كثير من الممالك الإسلامية فاقتحم كرمان وفارس ويزد، وخضع له الأتابكة في تلك الأقاليم، وصاروا يأتمرن بأمره، ثم قصد أصفهان فأسرعت إلى تقديم الخضوع له بعد أن أنقذها من المغول،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٤٦.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٤٥.

وبهذا أصبح يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية.

ولم يقف جلال الدين خوارزم عند هذا الحد، بل عمل أيضًا على بسط نفوذه على الأقاليم المجاورة، فاستطاع أن يخضع الخليفة العباسي، وينتصر على جيوشه، وعلى الرغم من هذا فقد هادنه واصطلح معه، ثم توجه شمالاً فأخضع إقليم أذربيجان، واستولى على عاصمته تبريز، ومكث عدة أيام في هذه المدينة، ثم تركها وتوجه نحو جورجيا وفتحها، وسقطت في يده عاصمتها تفليس سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م، وفى العام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م حارب الإسماعيلية وانتصر عليهم وأجبرهم على أن يلزموا قلاعهم، وفى العام ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م انتزع خلاط من يد صاحبها الأشرف موسى بن المالك العادل أيوب (١).

ولكن توسعات جلال الدين خوارزم شاه قد أزعجت كثيرًا حكام المسلمين الآخرين وشعروا أن أطماح وأطماع جلال الدين لا تتوقف عند حدود فبدأ يتكون بينهم حلف مناهض له، فقد أسرع الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أيوب - الذى انتزع منه جلال الدين خلاط - إلى تكوين حلف مكون من أمراء الموصل وبلاد ما بين النهرين وانضم إليهم علاء الدين كيقباذ السلطان السلجوقي، صاحب بلاد الروم (٢)، وقد نجح هذا الحلف في إيقاع الهزيمة بجيوش جلال الدين بالقرب من خلاط، واستعاد الأشرف تلك المدينة.

ولكن على الرغم من هزيمة جلال الدين، فقد سعى هؤلاء الأمراء وفى مقدمتهم

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٤٤٧، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٦٩.

(٢) صَاحِبُ الرُّوْمِ: عَلاءُ الدِّيْنِ كَيْقُبَادُ بنُ كيخسرو السَّلْجُوْقِيُّ.

السُّلْطَان، عَلاء الدِّيْن كيقُباذ ابْن السُّلْطَان كيخسرو ابْن السُّلْطَان قِلِج أَرْسَلان ابْن السُّلْطَان مَسْعُوْد ابْن السُّلْطَان قِلِج أَرْسَلان ابْن السُّلْطَان سُلَيْمَانَ بن قُتُلمشَ السَّلْجُوْقِيُّ، أَصْحَاب مَمْلَكَة الرُّوْمِ.

كَانَ شُجَاعًا، مَهِيْبًا، وَقُوْرًا، سَعِيْدًا، هَزَمَ خُوَارزْم شَاه، وَاسْتوْلَى عَلَى عِدَّةٍ مَدَائِنَ، وَتَزَوَّجَ بِابْنَةِ العَادل، فَوُلِدَ لَهُ مِنْهَا.

وَكَانَ قَبْلَهُ قَدْ تَمَلَّكَ أَخُوْهُ كَيكَاوس، فَاعْتَقل أَخَاهُ هَذَا مُدَّة، فَلَمَّا نَزل بِهِ المَوْت أَحْضَرَ كيقُباذ وَفَكَّ قَيْدَهُ وَعَهِدَ إِلَيْهِ بِالسَّلْطَنَةِ، وَوصَّاهُ بِأَطْفَالِهِ، فَطَالتْ أَيَّامُهُ، وَكَانَ فِيْهِ عَدْل وَإِنْصَاف فِي الجُمْلَةِ.

مَاتَ: فِي شَوَّالٍ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاثِيْنَ وَسِتِّمائَةٍ.

وَتَمَلَّكَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ غِيَاثُ الدِّيْن كيخسرو، وَكَانَتْ دَوْلَة كيقُباذ تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣ / ٤٣.

الأشرف إلى عقد صلح معه، على أن يقنع كل حاكم بالسيطرة على البلاد التى في حوزته.

ويذكر النسوى أن الأشرف موسى أرسل رسالة إلى شرف الملك وزير جلال الدين خوارزم شاه يقول له فيها: ".. إن سلطانك سلطان الإسلام والمسلمين وسندهم والحجاب دونهم ودون التتار وسدهم، وغير خاف علينا ما تم على حوزة الإسلام وبيضة الدين بموت والده، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الإسلام، وضرره عائد على كافة الأنام، وأنت قد حلبت الدهر وأشطره، وعرفت نفعه من ضرره، وذقت حلوه ومره. فهلا ترغب في جمع الكلمة وما هو أهدى سبيلا وأقوم قيلا؟... ولم لا تدعوه إلى الألفة التى هى أحمد في البدو والعقبي، وأقرب إلى الله زلفي؟!... وها أنا ضامن السلطان من جهة علاء الدين كيقباذ، وأخى الملك الكامل ما يرضيه من الإنجاد والإسعاد... وإصفاء النيات على حالتى القرب والبعاد، والقيام بما يزيل عارض الوحشة، ويمحو سمة الفرقة " (١).

وهكذا أخذت الرسل تتردد بين الطرفين حتى تم الصلح، ولكن مع هذا لم تكن النيات خالصة، إذ إنه على الرغم من أن الحكام المسلمين من أمثال الأشرف وغيرهم كانوا يقدرون خطورة الموقف تمام التقدير، ويرون ضرورة التكاتف والتآزر، إلا أن ذلك كان أمنية فقط، فهم لم يقدموا على الاتحاد قط، ولم يقفوا صفًا واحدًا، ويضعوا أيديهم في يد جلال الدين أو غيره، بل إنهم عندما جَدَّ الجد تركوه وحده أمام عدو جبار بات يهدد كيانه وكيانهم (٢).

ولقد كان لهزيمة جلال الدين تأثير كبير على مجرى الأحداث، إذ استغلت طائفة الإسماعيلية هذه المناسبة أسوأ استغلال، ولم يلبث أن أرسل مقدمهم إلى المغول يطلعهم على ما بلغه جلال الدين من ضعف ويهون عليهم أمره، ويحثهم على غزو بلاد، ويؤكد لهم أن النصر سوف يكون حليفهم (٣).

---

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٣٣٤.
(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٧٠.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٤٩، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٧٠.

وفى الحقيقة أن المغول لم يكونوا في حاجة إلى تذكير طائفة الإسماعيلية الشيعية أو غيرها، إذ إن الأمر لا شك فيه أن المغول قد شغلوا عن جلال الدين فترة بسبب وفاة جنكيزخان وتفرغ أبنائه لاقتسام تركته ومعالجة بعض شئونهم الداخلية، حتى إذا ما انتهوا من تلك المهمة سوف نجدهم يتفرغون للخلاص ليس من جلال الدين خوارزم فقط بل سوف يحاولون تدمير الإسلام والمسلمين عامة (١).

ليس هذا فقط، بل كانت المنطقة بأسرها تموج بالاضطرابات والفتن، ليس في منطقة العراق وفارس فقط، بل في كل ديار المسلمين؛ فالحروب بين أمراء المسلمين في الشام ومصر كانت مستمرة، ولم تتحد كلمتهم أبدًا، مع أن معظمهم من نفس العائلة الأيوبية، بل وأحيانًا من الإخوة الأشقاء، ونتج عن ذلك أمر مريع في سنة ٦٢٦ هجرية، وهو تسليم بيت المقدس (الذى حرره صلاح الدين الأيوبى قبل ذلك) إلى الصليبيين صلحًا!!!.. أى أن المسلمين في الشام اتفقوا على إعطاء بيت المقدس للصليبيين في مقابل أن يترك الصليبيون بعض الإمارات في الشام للمسلمين!!.. (٢)

ونعوذ بالله من الضعف بعد القوة، ومن الذلة بعد العزة، ومن الخذلان بعد النصر..

وعند رؤية مثل هذه الأحداث في كل بلاد المسلمين، ندرك لماذا فعل التتار ذلك بهذه البلاد مع ضخامتها وأعدادها وثرواتها.. ولا جرم أن هذه سنة مطردة في الكون.. فإنه من كانت هذه حاله فلابد أن يُسلط عليه طواغيت الأرض؛ فالله عز وجل لا ينصر إلا من ينصره..

{إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ} [آل عمران: ١٦٠] (٣).

* * *

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٧٠.
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٤٨، واقرأ للمؤلف، تاريخ الدولة الأيوبية، من نشر دار الإيمان للطبع والنشر بالمنصورة.
(٣) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٥٥ - ٧٢.

الفصل الخامس:
خلفاء جنكيز خان

كان لجنكيزخان زوجات كثيرات ومحظيات أكثر، ولكن كانت أقربهن إلى قلبه زوجته المسماة " يسونجين بيكى " وكان يحب ويقدم أبناءه الأربعة الذين أنجبهم منها، وهؤلاء الأربعة هم: جوجي، وجغتاي، وأوكتاي، وتولوي، وكان جنكيز خان يعتمد عليهم اعتمادًا كليًا في إدارة إمبراطوريته المترامية الأطراف، فقد كلف أكبر أبنائه " جوجى " بالإشراف على شئون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها، أما ابنه الثانى " جغتاى " فقد أوكل إليه تنظيم القضاء والعمل على تنفيذ أوامر وقوانين جنكيز خان، وتوقيع الجزاء والعقاب على المخالفين، وجعل ابنه الثالث " أوكتاى " يختص بالشئون المالية والإدارية داخل الدولة، والقيام بتنظيم شئون الملك، وتدبير مصالح الناس، وفوض إلى ابنه " تولوى " شئون ا لدفاع وإعداد الجيوش (١).

ثم إن جنكيزخان قبل وفاته قام بتقسيم إمبراطوريته المترامية الأطراف بين أبنائه الأربعة التالي:

١ - نال جوجى الابن الأكبر منطقة بلاد القبجاق، وتشمل المنطقة الممتدة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، ويطلق عليها اسم مغول القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي، وكان غالب سكان هذه المنطقة من الأتراك التركمان، ولما مات " جوجى " في حياة أبيه قرر جنكيز خان أن تكون هذه المنطقة من نصيب حفيده " باتو " (٢).

٢ - نال جغتاى المنطقة الممتدة إلى الشمال والشمال الشرقى من نهر سيحون، وهى المنطقة الممتدة في آسيا الوسطى بما فيها بلاد خوارزم وبلاد ما وراء النهر

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٦٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.

وتركستان الغربية وبلخ وغزنة [١].

٣ - أما أوكتاى فقد نال مناطق جبال تار باجاي، وأطراف بحيرة الاجول وحوض نهر إيميل، الذى يصب في تلك البحيرة، ويقعر غربى منغوليا [٢].

٤ - ونال تولوى منطقة منغوليا الأصلية والتى تشمل وديان أنهار كرولين وأونن وأرخن، وهى منطقة بلاد الصين والخطا ومنطقة بلاد فارس والجزيرة والعراق وآسيا الصغرى [٣].

وبعد وفاة جنكيز خان ظل العرش خاليًا من ملك مدة عامين حتى أجمع الأمراء المغول الكبار على ضرورة التعجيل باختيار خان جديد، واتفقوا على انعقاد مجلس الشورى " القوريلتاى " وكانت القواعد والقوانين المغولية - التى وضعها جنكيز خان - تنص على أن يتولى العرش الابن الأصغر، وطبقا لذلك كان " تولوى " هو الأحق بالعرش، ولكن أعضاء مجلس الشورى " القوريلتاى " أجمعوا الرأى على اختيار " أوكتاى " لما له من سابق خبرة وتجربة وملازمته لأبيه جنكيز خان والتعرف منه على إدارة سير المعارك وإدارة البلاد، ولم يجد " أوكتاى " بدًّا من الموافقة، حيث تمت المبايعة والتنصيب في حضور إخوته وأعمامه وأبناء عمومته، في ربيع عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م [٤].

وعلى إثر تولية " أوكتاى " عرش المغول بدأ في إكمال سلسلة الاجتياحات التى كان قد بدأها أبوه جنكيز خان، فأعد الجيوش اللازمة لغزو بقية أوربا والصين والمناطق العربية.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.

(١) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.

(٤) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ١٦ - ١٧، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.

حروب المغول في إيران:

وبعد أن تم الأمر للخاقان الجديد بدأ يفكر من جديد في اجتياح العالم الإسلامي، واستكمال الحروب بعد ذلك في منطقة روسيا - التى هُزمت فيها قبل ذلك الجيوش التترية -، ومحاولة استكمال الغزو في داخل أوروبا.. ويبدو أن اجتياح الخلافة العباسية ذاتها وإسقاط بغداد لم يكن من أهداف هذه الحملة؛ لأنها تجاوزتها إلى أوروبا دون الوقوف أمامها كثيرًا، وذلك إما لشدة حصانتها وكثافة سكانها، وإما لتجنب إثارة كل المسلمين في العراق والشام ومصر إذا أسقطت الخلافة العباسية، والتى كانت تمثل رمزًا هامًا للمسلمين على ضعفها.. فأراد التتار أن يجعلوها الخطوة الأخيرة في فتوحاتهم.. وهذا هو عين الذكاء..

كلف الخاقان الكبير " أوكتاى " أحد أبرز قادته بالقيام بمهمة الاجتياح التترى الثاني، وهو القائد " شورماجان " والذى جمع جيشًا هائلاً من التتر

وتقدم صوب العالم الإسلامى من جديد..

وكان العالم الإسلامى يشهد في هذا التوقيت حالة من الفرقة البشعة التى كانت تمزق أوصال الأمة الإسلامية، واهتمام كل زعيم بحدود مملكته وإن صغرت، حتى إن بعض الممالك الإسلامية لم تكن إلا مدينة واحدة وما حولها من القرى، ولم يكتف الزعماء المسلمون بالفرقة بل كانوا يتصارعون فيما بينهم، ويكيد بعضهم لبعض، ولم يكن أحدهم يأمن أخاه مطلقا.. ولم تكن فكرة الوحدة مطروحة أصلاً (١).

ونذكر هنا أن المغول بعد وفاة جنكيز خان كانوا قد انصرفوا وانشغلوا عن كل شيء واهتموا فقط بتدبير شئونهم الداخلية والإعداد لانتخاب خان جديد، ولذلك فقد رأينا القواد والحكام والأمراء الذين كانوا في أماكن بعيدة عن أوطانهم يسارعون بالعودة إلى منغوليا.

وقد استغل جلال الدين خوارزم شاه فرصة انشغال المغول بشئونهم الداخلية وانسحاب قواتهم من المناطق الرئيسية في أقاليم الدولة الخوارزمية،

---

(١) د / راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٧٢.

وسعى لاستعادة ملك آبائه وأجداده، واستطاع بالفعل أن يستعيد الكثير من أجزاء ا لدولة الخوارزمية، ولكنه دخل في منازعات كثيرة مع الحكام والملوك المسلمين مما شتت جهوده وأضاع الكثير من الوقت والجهد في نزاعات تعتبر داخلية لا طائل منها وظل منشغلاً بها حتى فاجأته جحافل المغول من جديد وأجبرته على الفرار أمامها والتنازل لها عما حققه من نجاحات.

فلما جاءت جيوش التتار بقيادة " شورماجان " اجتاحت البلاد الإسلامية اجتياحًا بشعًا، وسارت القوات المغولية إلى إيران، فاستولت على الرى وهمدان، وواصلت زحفها على حدود أذربيجان في أوائل سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م، وفى ذلك الوقت كانت جهود المغول منصرفة إلى تتبع جلال الدين والقضاء عليه، لأن هذا يكفل لهم - في سهولة ويسر - إحكام سيطرتهم من جديد على أقاليم الدولة الخوارزمية، وقد وصل إلى علمها أن جلال الدين قد ضعف جدًّا في هذه السنة لحدوث هزيمتين له من الأشرف بن العادل حاكم ديار الجزيرة في شمال العراق وجنوب تركيا، وكانت طائفة الإسماعيلية - وهى من طوائف الشيعة في غرب إقليم فارس - قد راسلت التتار وأخبرتهم بضعف جلال الدين؛ وذلك لأنه كانت بينهم وبين جلال الدين حروب، فأرادوا الانتقام منه بإخبار التتار بوقت ضعفه..

وجاءت جحافل التتار ودمرت في طريقها كل ما يمكن تدميره، وأكلت الأخضر واليابس، وكان لها هدف رئيسى هو الإمساك بجلال الدين بن خوارزم.. فلما رحل السلطان الخوارزمى إلى تبريز مطمئنًا إلى أن المغول سيقضون الشتاء في إقليم العراق العجمي، إذا بهم يفاجئونه، وهم يجدون في أثره، ويرغمونه على التقهقر إلى سهل موقان المجاور للساحل الغربى لبحر قزوين، قبل أن يتمكن من جمع جيوشه، ولم يكد يستقر في موقان حتى علم بمسير المغول إليه، فاضطر إلى العودة ثانية إلى أذربيجان (١).

---

(١) حافظ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٩٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "،

وبدأ جلال الدين يفكر في الاستنجاد بالحكام المسلمين الذين كان قد عاداهم ودخل مع معظمهم في صراعات دامية حول القليل من المناطق متناسين ذلك العدو المتربص بهم، فبدأ أخيرًا يعرف أهمية الاتحاد والوحدة الإسلامية، فأرسل إلى أمراء وحكام المسلمين يدعوهم إلى التحالف معه للوقوف صفًا واحدًا في وجه المغول، وقال لهم: " إن جيشًا جرارًا من عساكر التتار، كأنه النمل والثعابين من حيث الكثرة والقوة قد تحرك نحونا. فإذا ترك وشأنه، فسوف لا تصمد هذه القلاع والأمصار، وقد تمكن الرعب من قلوب الناس في هذه المنطقة، فإذا هزمت وخلا مكانى من بينكم فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو. وإذن فأنا لكم بمثابة سد الإسكندر، فليسارع كل منكم إلى إمدادنا بفوج من الجنود، حتى إذا ما وصلهم نبأ اتفاقنا واتحادنا فترت قوتهم، وفت في عضدهم، فيتشجع جنودنا وتقوى قلوبهم. " (١).

ولكن قد فات الأوان، فقد اقترب طوفان المغول، ولا مجال إلا للفرار، وذهبت دعوته أدراج الرياح، وترك وحده يلقى مصيره المحتوم، والتقى بهم جلال الدين في موقعة انهزم فيها شر هزيمة، وقتل المغول عددًا كبيرًا من الخوارزميين، وتفرق الباقون، وكان السلطان ممن أسرع بالفرار من أمام التتار وقد تمزق جيشه، وإذا به يلقى نفس المصير الذى لقيه أبوه منذ أحد عشر عامًا.. فهو يفر من قطر إلى قطر، ومن مدينة إلى مدينة، والتتار خلفه يقتلون ويسبون وينهبون، حتى وصل جلال الدين إلى أرض الجزيرة بشمال العراق حيث تفرق عنه جنوده أجمعون، وبقي وحيدًا شريدًا طريدًا كما حدث مع أبيه تمامًا، وأخذ يتنقل بمفرده بين القرى فرارًا من التتار، واختفى ذكره من البلاد شهورًا متصلة؛ فلا يعرف أحد إن كان قُتل أو اختفى أو هرب إلى بلد آخر.. ثم وصل إلى إحدى القرى حيث استقبله فلاح من الأكراد وسأله من أنت؟ وقد تعجب الفلاح من كثرة الجواهر والذهب الذى عليه، فقال له جلال الدين: أنا ملك الخوارزمية..! يقول ذلك ليلقى الرهبة في قلب الفلاح،

ص ١٧١.

(١) الجويني، تاريخ جهانكشاه، ٢ / ١٨٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص١٧٢.

ولكن - سبحان الله - كان ذلك الإعلان ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً؛ فقد كانت جنود الخوارزمية قتلت أخًا لهذا الفلاح!! فلما علم الفلاح بأن هذا هو جلال الدين استقبله وأكرمه وقدم له الطعام، ثم اطمأن له جلال الدين فنام، وهنا قام الفلاح وقتل جلال الدين بالفأس، وأخذ ما عليه من الجواهر وسلمها إلى شهاب الدين غازى صاحب هذه المنطقة، والذى طالما ذاق من ويلات جلال الدين.. وكانت نهاية جلال الدين منكبرتي آخر الملوك الخوارزمية في منتصف شوال سنة ٦٢٨هـ / ١٥ أغسطس سنة ١٢٣١م (١).

يقول ابن الأثير عن الحالة التى تردى إليها المسلمون - قادة وشعوب - في قتال التتر: "... وحكى لى عن رجل منهم أنه قال: اختفيت منهم في بيت فيه تبن، فلم يظفروا بي، وكنت أراهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان، فيقول: لا بالله، فيقتلونه، فلما فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون، ويغنون بلغتهم بقول: لا بالله (٢)... ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل: إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدًا بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس.

ولقد بلغنى أن إنسانًا منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التترى ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح؛ فوضع رأسه على الأرض، ومضى التترى فأحضر سيفًا وقتله به.

وحكى لى رجل قال: كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضًا، فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف.

---

(١) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٣٨٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص١٧٢، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٧٢.

(٢) كان كل مسلم قبل أن يقتل يستحلف التترى بالله ألا يقتله.. يقول له: " لا بالله لا تقتلنى "، فمن كثرة ما سمعها التتار، أخذوا يتغنون بكلمة " لا بالله "..

فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا؛ فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكينًا وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير... فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة التى لم يسمع بمثلها من غيرهم... وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين، ويرحمهم، ويرد هذا العدو عنهم،... وفعل التتر... ما فعلوا، ولم يمنعهم أحد، ولا وقف في وجوههم واقف، وملوك الإسلام منجحرون في الأثقاب... " (١).

هذا الذى كان من المسلمين هو والله نتيجة هزيمة نفسية أصيب بها المسلمون نتيجة لعدة عوامل منها سوء التربية الإسلامية الصحيحة، وغياب الفهم الصحيح للإسلام، والتمسك بالدنيا إلى أقصى درجة، وعدم وضوح الرؤية عند الناس.. فلا يعلمون العدو من الصديق، ونتيجة الحروب التترية السابقة، والتاريخ الأسود في كل مدينة وقرية مر عليها التتار.. نتيجة كل هذه العوامل فقد دبت الهزيمة النفسية الرهيبة في داخل قلوب المسلمين، فما استطاعوا أن يحملوا سيفًا، ولا أن يركبوا خيلاً، بل ذهب عن أذهانهم أصلاً التفكير في المقاومة.. وهذا ولا شك سهّل جدًّا من مهمة التتار الذين وجدوا أبوابًا مفتوحة، ورقابًا قد أينعت وحان قطافها. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

تقدمت الجيوش المغولية بعد القضاء على جلال الدين خوارزم شاه، بعد أن انفسح المجال أمامها، وتم تقسيم قواتهم الرئيسية إلى ثلاثة أقسام: تقدم القسم الأول منها إلى ديار بكر وأرزن وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار، وقد تقدم هذا الجيش ووصل حتى ساحل الفرات، واشتط الجنود المغول في القتل والسلب والنهب، دون أن يجرؤ أحد من سكان هذه المناطق على مقاومتهم، أو على الأقل سماع اسمهم.

---

(١) الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٥٤.

غزو المغول (التتار) لأقاليم باكستان وإيران وأذربيجان سنة ٦٢٩ هـ

أما الجيش الثاني: فقد قصد مدينة بدليس، وبعد أن أحرقها استولى على بعض القلاع المحيطة بخلاط وغيرها.

وسار الجيش الثالث إلى منطقة أذربيجان، وغزاها المدينة تلو الأخرى واستولى على عاصمتها تبريز في أوائل العام ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م، بعد أن سلم لهم الأهالي وأذعنوا لهم بالخضوع، ودفع مقابل مادي وعيني للمغول، واستضافة الحاميات العسكرية المغولية، مقابل عدم التعرض للقتل أو السلب والتدمير، واتخذ المغول منها

قاعدة لحملاته العسكرية وإدارة منطقة أذربيجان وأرمينية [١].

وفى عامى ٦٣٢هـ، ٦٣٣هـ / ١٢٣٤م، ١٢٣٥م، استطاع المغول دخول إقليم إربل، وغزو حاضرته. إلا أن الأهالى في المدينة أسرعوا إلى القلعة، وتحصنوا فيها، فحاصرها المغول أربعين يومًا. إلى أن افتدى الأهالى أنفسهم بمبلغ كبير من المال، ورحل المغول عنها عندما سمعوا أن ا لمدد قد جاء إليهم من بغداد [٢].

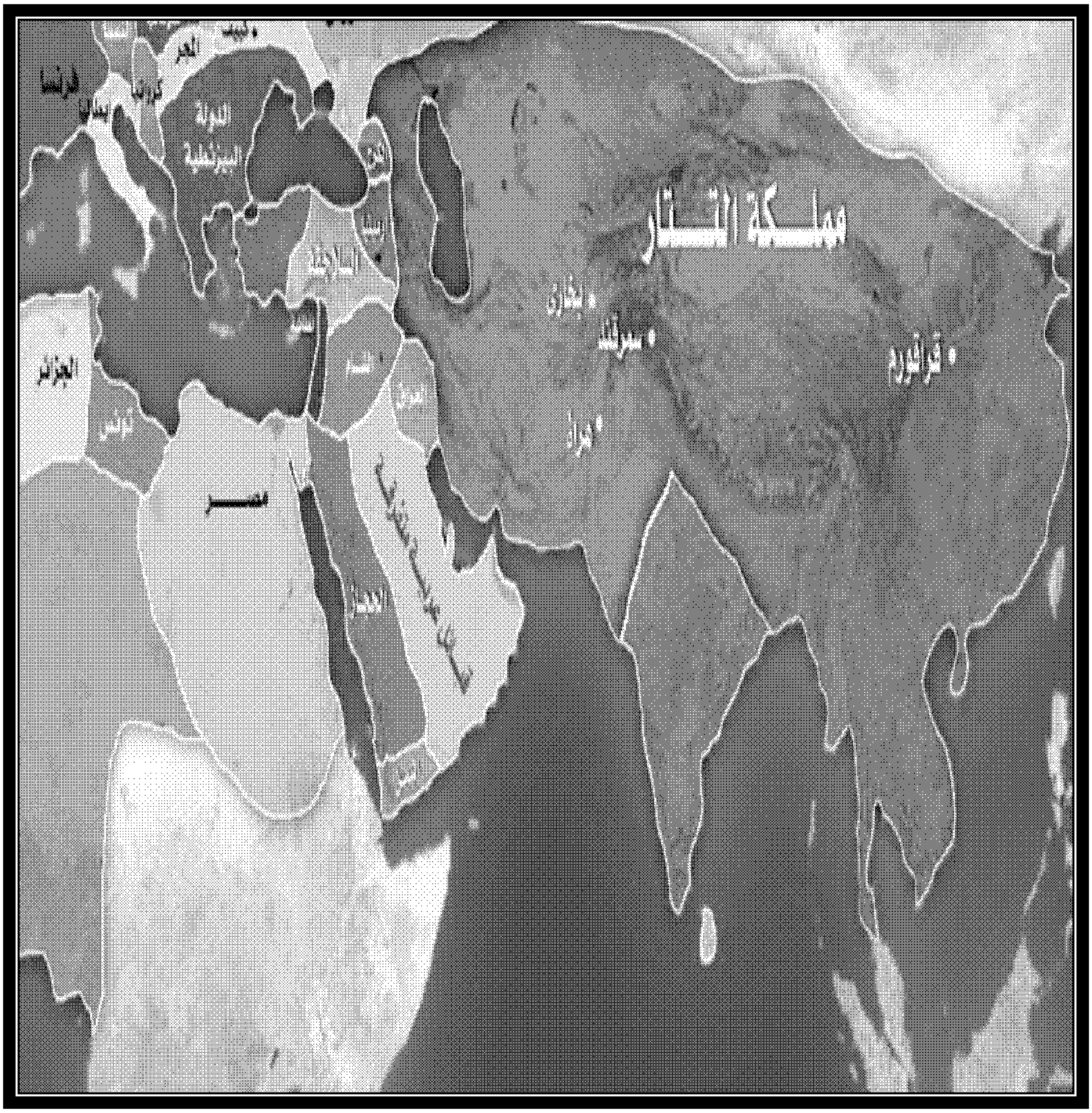

مملكة المغول (التتار) عام ٦٢٩هـ

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٨٠.
(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٨١.

ثم بدا للمغول أن يستقروا في هذه المناطق ولا يكملوا زحفهم إلا بعد ترسيخ أقدامهم، وتثبيت جيشهم، ودراسة المناطق المحيطة... وما إلى ذلك من أمور تدعم السلطان المغولى في هذه المنطقة..

ظل " شورماجان " يرسخ حكم المغول في هذه المناطق لمدة خمس سنوات كاملة.. من سنة ٦٢٩ هجرية إلى سنة ٦٣٤ هجرية، وأثناء هذه السنوات الخمس لم تخرج عليهم ثورة مسلمة!! ولم يتحرك لقتالهم جيش مسلم!! مع أن جيوش المسلمين تملأ المناطق المجاورة لفارس وأذربيجان، وذلك في العراق والموصل ومصر والحجاز وغيرها.. لكن الكل كان يشعر أن هذا أمر يهم أهل فارس وأهل أذربيجان، وليس مصيبة عامة على عموم المسلمين..!! لم يشعر المسلمون في الأقطار التى لم تُصَب بعد بوَيْلات المغول أن عليهم واجبًا تجاه هذه البلاد المنكوبة.. وفى ذات الوقت لم يشعروا أن الدائرة حتمًا ستدور عليهم في يوم من الأيام.. أضف إلى ذلك أن المسلمين في مناطق العراق والشام ومصر والحجاز كان غالبيتهم من العرب، بينما كان غالب المسلمين في إقليم فارس وأذربيجان وشرق الدولة الخوارزمية من غير العرب.. ومع غياب الفهم الإسلامى الصحيح.. وغياب الاستيعاب الكامل للأسس الحقيقية التى يُبنى عليها هذا الدين، ما عاد العربى يشعر بأخيه غير العربي، ولا العكس... كأنهم غرباء بعضهم عن بعض.. بينما هم في الحقيقة.. إخوة!

{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠].

أمر شنيع حقًا ألا يشعر المسلم العربى بأخيه المسلم التركى أو الأفغانى أو الشيشانى أو الهندى أو الفارسي... هذا أمر شنيع.. وقاصمة لظهر الأمة الإسلامية؛ لأن الإسلام دين لا يرتبط بعرق ولا عنصر ولا لون ولا جنس.. إنما الرابط الوحيد هو الإيمان بالله ورسوله وبهذا الدين.. رباط العقيدة.. ولا شيء غير العقيدة..

روى الإمام أحمد بسند مرسل عن أبى نضرة - رحمه الله - قال: قال رسول الله ﷺ : **﴿يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى﴾**(١).

هكذا جاءت القاعدة واضحة.. لا مكان لعرق أو لون في الإسلام.. إنما المكانة والاعتبار للتقوى..

بل إن الرسول ﷺ قسم المسلمين إلى طائفتين رئيسيتين لا ثالث لهما.. واعتمد في تقسيمه هذا على مسألة التقوى.. جاء ذلك في الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : **﴿أما بعد، يأيها الناس، فإن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها، يا أيها الناس، الناس رجلان: مؤمن تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله، ثم تلا: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ} [الحجرات: ١٣]﴾**. (٢) والعيبة هى الكبر والفخر..

فالمسلم الصادق هو الذى يتحمس لمن اشترك معه في عقيدة واحدة ولو اختلف أصله أو لونه أو نسبه..

وهكذا فالاعتبار الوحيد المقبول في الإسلام هو اعتبار العقيدة والتقوى.. (٣).

اجتياح المغول جورجيا وأرمينية:

بعد هذه السنوات الخمس في إقليمى فارس وأذربيجان بدأ " شورماجان " في سنة ٦٣٤ هجرية في الالتفاف حول بحر قزوين من ناحية الغرب لينطلق شمالاً لاستكمال غزوه لبقية أجزاء القارة الأوربية، وبسرعة هاجم جورجيا، استعمل المغول أفظع ما عرف من أساليب البطش والهمجية، ولم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٤٢٠٤) وهو صحيح، أخرجه أيضًا: أحمد (٤١١/٥، رقم ٢٣٥٣٦).
(٢) أخرجه أحمد (٥٢٣/٢، رقم ١٠٧٩١)، وأبو داود (٣٣١/٤، رقم ٥١١٦)، والبيهقى (٢٣٢/١٠، رقم ٢٠٨٥١). وأخرجه أيضًا: الترمذى (٧٣٥/٥، رقم ٣٩٥٦)، والرافعى (٦٢/٢)، والخطيب (١٨٧/٦).
قال الألبانى في " السلسلة الصحيحة " ٦ / ٧١٩:
و هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال مسلم غير مكحول وشيخه محمد.
بن عبد الله بن يزيد وهما ثقتان معروفان. وللحديث طريق أخرى عن ابن دينار.
(٣) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٧٤.

تستطع ملكة البلاد " رو سودان " الصمود أمام قوة وشراسة الهجمات المغولية ولم تجد بُدًّا من الهرب، لتسقط أقاليم البلاد في يد المغول بما فيها عاصمة البلاد " تفليس ".

وبنفس السرعة والشراسة والهمجية تمكن المغول من السيطرة والاستيلاء على إقليم أرمينية، واحتلال مدنه المدينة تلو الأخرى، وسيطروا على عاصمة البلاد " آنى " وانتقموا من أهلها أشد انتقام لمقاومتهم أشد المقاومة، ثم فرضوا عليها الجزية السنوية، وتركوهما - أرمينية وجورجيا - تحت سيطرة حكام محليين يحكمون باسم المغول.

ويذكر هنا أيضًا أنه في نفس الفترة سيطر المغول في نفس السنة سيطرة كاملة على الأقاليم الشرقية من الدولة الخوارزمية، دون أن يجدوا أى مقاومة تذكر، فسلمت لهم سجستان (١) وكابل (٢) وحدود السند (٣).

ثم بدأ جيش آخر من جيوش التتار بزعامة " باتو بن جوجى " في قيادة الحملات المغولية شمال بحر قزوين، وذلك في نفس السنة (٦٣٤ هجرية)، وأخذ في قمع القبائل التركية النازلة في حوض نهر الفولجا، ثم زحف بعد ذلك على البلاد الروسية الواسعة، وذلك في سنة ٦٣٥ هجرية.. (٤).

اجتياح المغول أقاليم الصين الشمالية:

كان المغول في عهد جنكيز خان قد اكتفوا بالسيطرة على بعض المناطق البسيطة من أقاليم الصين الشمالية، ثم استطاعت الأسرة الحاكمة في الصين - وهى

---

(١) سجستان.
هى اليوم المنطقة التى تشمل القسم الغربى من أفغانستان وبعض إيران وكانت ولاية واسعة هامة. من مدنها (بست) و(كركوية) و(زرنج). ينسب إليها كثير من العلماء منهم إمام أهل الحديث أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسماعيل الأزدى السجستانى صاحب كتاب (السنن). وكانت عاصمتها في العصور الوسطى مدينة (زرنج) وقد خربها تيمورلنك وما زالت أطلالها باقية.

(٢) كابول.
المدينة المعروفة في أفغانستان، وكانت قديمًا عاصمة سجستان وطخارستان، وهى اليوم عاصمة أفغانستان.

(٣) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٨١.

(٤) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية، ص ٨٢.

أسرة كين - من استعادة السيطرة على كثير من تلك المناطق بعد وفاة جنكيزخان بعد أن خفت القبضة المغولية على تلك البلاد.

فلما تولى " أوكتاى " حكم المغول، أعد العدة لاجتياح بقية الأقاليم الصينية، وسير إليها الجيوش منذ العام ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م، في نفس الوقت الذى كانت قوات المغول تتعقب جلال الدين منكبرتي، فتقدمت القوات المغولية من الشمال والجنوب، والتقت مع القوات الصينية في أكثر من موقعة خرجت منها جميعًا منتصرة، ودحرت القوات الصينية وأجبرتها على الفرار أمامها، وسيطر المغول بقيادة قائدهم " سبوتاى " على مساحات شاسعة من الأراضى الصينية، وفرض الحصار على العاصمة " كاى فونج "، وضيق عليها الخناق الشديد، حتى اضطرت إلى التسليم في سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م فقتل المغول معظم سكانها ولم ينج منهم إلا القليل.

وقد حاول الصينيون بزعامة الملك الصينى " كاى فونج " الصمود أمام جحافل المغول، ولكن طوفان ا لمغول كان أكبر من أن تقف أمامه القوات الصينية، ولم يجد الملك الصينى بُدًّا من الفرار، ثم قام بقتل أفراد أسرته جميعًا ثم انتحر هو، مفضلا الانتحار على الوقوع في أسر المغول (١).

وفى نفس توقيت الهجمات المغولية على أقاليم الصين الشمالية مرض " تولى خان " - أخو " أوكتاى قا آن " - مرضًا شديدًا، ولم يلبث المرض طويلا، وما لبث أن توفى في سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ (٢).

اجتياح المغول لأوربا:

عندما خلف " أوكتاى " أباه جنكيزخان على عرش إمبراطورية المغول، كان أول شيء فعله هو أن وجه همته إلى استكمال ما بدأه أبوه من غزو واجتياح بقية أجزاء أوربا التى كانت قد توقفت عندها القوات المغولية بسبب وفاة أبيه " جنكيز خان "، فبعد أن عادت قواته المنتصرة من الصين، أعد جيشًا ضخمًا وأسند قيادته العليا إلى باتو بن جوجى والقائد الأعلى " سبوتاى "، فتقدم هذا الجيش واجتاح

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨، رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٢٤ - ٢٦.
(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٢٤.

مناطق جبال الأورال وشبه جزيرة القرم - موطن الباشقرد والبلغار - في روسيا وأوكرانيا.

وبدأ هذا الجيش المغولى الرهيب يقوم بالمذابح الشنيعة في روسيا النصرانية.. فاستولى على العديد من المدن الروسية، وذلك في سنتى ٦٣٥ و٦٣٦ هجرية.. سقطت تحت أقدام هذا الجيش مدن " ريدان "، ثم " كولومونا " بعدها بأيام، ثم سقطت مدينة " فلاديمير " الكبيرة بعد صمود ستة أيام فقط، واقترن سقوطها بمذبحة بشعة، ثم سقطت " سوذال "، ثم توجهت الجيوش التترية إلى أعظم مدن روسيا " موسكو " فتم اجتياحها وتدميرها، ثم سقطت بعد ذلك مدن " يوربيف " و" جاليش " و" بريسلاف " و" روستوف " و" ياروسلاف "، ثم سقطت مدينة " تورزوك " وبذلك احتل المغول دولة روسيا بكاملها(١).

وفى سنة ٦٣٨ هجرية انسابت جيوش المغول غربًا بقيادة " باتو بن جوجى إلى مملكة أوكرانيا، وقلبوا هذه المنطقة رأسا على عقب، وعاثوا فيها فسادًا وتخريبًا واحتلوها بكاملها (ومساحتها ستمائة ألف كيلومتر مربع)، واجتاحوا العاصمة " كييف "، ودمروا كنوزها العظيمة، ولقى أكثر سكانها مصرعهم.. ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية، وقد ظلت تلك المنطقة الشاسعة (روسيا وأوكرانيا) تحت حكم المغول ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان ٦٣٦ - ٨٨٦ هـ.

وبعد أن أتم المغول اجتياح روسيا، انقسمت جيوشهم إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا، وتوجه القسم الثانى إلى المجر، وتقدم القسم الأول باتجاه بولندا في سنة ٦٣٩ هجرية بقيادة " بايدر " إلى الشمال الغربى من دولة أوكرانيا فدخلت مملكة بولندا، ودمرت الكثير من المدن البولندية، فلم يجد الملك البولندى إلا أن يستعين بالفرسان الألمان القريبين منه حيث أن ألمانيا تقع في غرب بولندا مباشرة، فجاء الأمير هنرى دوق " سيليزيا الألمانية " واشترك مع ملك بولندا في تكوين جيش واحد لملاقاة المغول، غير أن هذا الجيش لقى هزيمة ساحقة على أيدى الجيوش التترية بقيادة " بايدر ".. وتقدموا حتى وصلوا مدينة برلين، بعد أن أنزلوا بالسكان الفناء

(١) ومع أن مساحة روسيا سبعة عشر مليون كيلومتر مربع.. إلى جانب أعداد سكانها الهائلة وأحوالها المناخية القاسية إلا أن المغول احتلوها بالكامل في عامين فقط!!).

والهلاك، وبالمدن الخراب والدمار. وفى هذا الإقليم وحده جمعوا أكياسا ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم، فبلغ مجموعها ٢٧٠٠٠٠ أذن، وأخذوها معهم دليلا على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة وبذلك سقطت بولندا أيضًا تحت حكم المغول!! (١).

أما القسم الثانى من القوات المغولية، فقد تقدمت إلى المجر في نفس التوقيت حيث التقوا مع ملك المجر في موقعة رهيبة دمر على أثرها الجيش المجرى بكامله، وبذلك احتُلت المجر أيضًا، ولما كان المجريون والمغول من أصل واحد، ترك المغول هذه البلاد بعد سنة واحدة من احتلالها، واكتفوا بتبعيتها لهم من الناحية الرسمية.

ثم نزل " بايدر " من بولندا في اتجاه الجنوب لمقابلة جيوش التتار بقيادة باتو في المجر، وفى طريقه للنزول اجتاح دولة " سلوفاكيا " وضمها بكاملها إلى دولة التتار..

ثم تدفقت الجيوش التترية إلى دولة " كرواتيا " فاجتاحته.

وقد انزعج الأوربيون كثيرًا من تقدم المغول داخل أوربا وتقدمهم باتجاه أوربا الغربية، وأحس العالم المسيحى بخطر التدمير الذى تعرض له بقية العالم الإسلامي، فبعث البابا جريجورى التاسع كتابًا إلى الأمراء والملوك المسيحيين يحثهم فيه على التكاتف لإعلان حرب صليبية على هؤلاء الغزاة التتر (٢).

وبذلك وصلت الجيوش التترية إلى سواحل البحر الإدرياتى (وهو البحر الفاصل بين كرواتيا وإيطاليا)، وبذلك يكون التتار قد ضموا إلى أملاكهم نصف أوروبا تقريبًا!!..

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨، براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٧٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٨٧، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٨٢.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٥ - ٣٧، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٨٨، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٨٢، براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٧٣.

وفاة الخاقان أوكتاى خان عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م:

وكـان مـن الممكـن أن تسـتمر الفتوحـات التتريـة فـي أوروبـا - وقـد وصـلت حـدود دولـة التتـار إلـى دول ألمانيـا والنمسـا وإيطاليـا - لـولا أن الخاقـان الكبيـر ملـك التتـار " أوكتـاى " مـات فـي هـذا العـام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م فاضـطر الأميـر " بـاتو بـن جـوجى " أن يوقـف الحمـلات، ويسـتخلف أحـد قـواده علـى المنـاطق المفتوحـة، ويعـود إلـى " قراقـورم " عاصـمة التتـار فـي منغوليـا للمشـاركة فـي اختيـار الخاقـان التتـرى الجديـد.. وبـذلك سـلمت أقـاليم أوربـا الغربيـة مـن خطـر محقق كان ينتظرها على أيدى هؤلاء المغول.

غزو المغول (التتار) شرق أوربا

وبذلك تكون حدود دولة المغول في هذه السنة قد وصلت من كوريا شرقًا إلى بولندا غربًا، ومن سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوبًا.. وهو اتساع رهيب في وقت محدود.. وأصبحت قوة التتار في ذلك الوقت هى القوة الأولى في العالم بلا منازع..

وفى نهاية عهد أوكتاى نلاحظ أن:

المغول قد ابتلعوا في فتوحاتهم السابقة النصف الشرقى للأمة الإسلامية، وضموا معظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم، وقضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما قضوا تمامًا على أى نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة، وظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة..

و ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامى - والذى يبدأ من العراق إلى مصر - مفرقًا مشتتًا، لا يكتفى فقط بمشاهدة الجيوش المغولية وهى تسقط معظم ممالك العالم في وقتهم، وإنما انشغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم، وازداد تفككهم بصورة كبيرة..

كذلك كان القسم الغربى من العالم الإسلامى الذى يضم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وغرب إفريقيا.. كان هذا القسم مفككًا تمامًا بعد سقوط دولة الموحدين..

ولقد ذاق الأوربيون النصارى من ويلات المغول كما ذاق المسلمون من قبل، وذبح منهم مئات الآلاف أو الملايين، ودمرت كنائسهم، وأحرقت مدنهم، بل هُددوا تهديدًا حقيقيًّا أن يصل المغول إلى عقر دار الكاثولكية في روما..

ومع أن الأوربيين رأوا أفعال المغول إلا أن ملوك النصارى في أوربا الغربية (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا) كانوا يرون أن هذه مرحلة مؤقتة سوف تقف عند فترة من الفترات، أما حروب الصليبيين ضد المسلمين فهى حروب دائمة لا تنتهي.. ومن ثم فقد كان ملوك الصليبيين على استعداد كامل للتعاون مع المغول رغم كل الأعداد الهائلة التى قتلت منهم بدلاً من التعاون مع المسلمين!!..

أما لماذا يعتقد الصليبيون أن حرب المسلمين دائمة وحرب المغول مؤقتة، فإن ذلك يرجع إلى أن حروب الصليبيين مع المسلمين هى حروب عقيدة، والعداء بين المسلمين والصليبيين يقوم على أساس ديني، والصراع بينهما أبدي.. والنصارى لن ينهوا القتال إلا بدخول إحدى الطائفتين في دين

الأخرى، كما يقول الله عز وجل في كتابه:

{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة: ١٢٠].

أما حروب المغول مع الصليبيين فلم تكن حروب عقيدة؛ فعقيدة المغول كانت عقيدة مشوهة باهتة.. مجموعة من أديان شتى.. لم يسع قائد مغولي واحد لنشر هذه العقيدة في البلاد المغنومة، إنما كان هدف المغول فقط هو الإبادة والتشريد، وجمع المال وسبي النساء والأطفال.. ومن كانت هذه صفته فلا يُتوقع له الاستمرار..

لذلك فإنه على الرغم من الصدمات التي تلقتها أوروبا على يد المغول، إلا أن أوروبا استمرت في تجهيز حملاتها لغزو بلاد المسلمين من ناحية مصر والشام بدلاً من تكثيف الجهود لصد المغول، وفي ذات الوقت فإن حكام أوروبا الغربية الصليبيين ما يئسوا من إمكانية التعاون مع خاقان المغول لسحق الأمة الإسلامية..

كما أخذت عقائد الجيش المغولي في التغيّر بعد الحملات التي وجهوها إلى أوروبا.. فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، وبذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبيًا في البلاط المغولي، وهذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين المغول والصليبيين..

و استمرت الحروب الصليبية الأوروبية على المسلمين في مصر والشام، وكانت مصر والشام في ذلك الوقت تحت حكم الأيوبيين، ولكن كانت هذه هي آخر أيام الأيوبيين، وقد دار الصراع بينهم وبين بعضهم، وأصبح المسلمون بين شقي الرحى: بين المغول من ناحية، والصليبيين من ناحية أخرى..

وفي سنة ٦٤٠ هجرية توفي المستنصر بالله الخليفة العباسي، وتولى الخلافة ابنه " المستعصم بالله "، وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثين عامًا، وهو وإن كان قد اشتهر بكثرة تلاوة القرآن، وبالنظر في التفسير والفقه، وكثرة أعمال الخير، إلا أنه لم يكن يفقه كثيرًا - ولا قليلاً - في السياسة، ولم يكن له علم بالرجال؛ فاتخذ بطانة فاسدة، وازداد ضعف الخلافة عما كانت عليه... وسنأتي إلى ذكره بعد ذلك؛ فهو آخر الخلفاء العباسيين، وهو الذي

ستسقط بغداد في عهده بعد ذلك..

و لـم يبـق فاصـل بـين المغـول والخلافـة العباسـية فـي العـراق إلا شـريط ضـيق فـي غـرب إقلـيم فـارس، (غـرب إيـران الآن).. وهـو علـى قـدر مـن الأهميـة - وإن كـان ضـيقا -؛ إذ كانـت تعـيش فيـه طائفـة الإسـماعيلية الخطـرة، وكـانوا أهـل حـرب وقتـال، ولهـم قـلاع وحصـون، فضـلاً عـن طبيعـة المكـان الجبليـة.. وكـانوا علـى خـلاف دائـم مـع الخلافـة العباسـية.. وكراهيـة شـديدة للمـذهب السـني، وكـانوا يتعـاونون مـع أعـداء الإسـلام كثيـرًا.. فمـرة يراسـلون المغـول، ومـرة يراسـلون الصـليبيين.. وكـان المغـول يـدركون وجـودهم، ومـع ذلـك فهـم لا يطمئنـون لهـم؛ فـالمغول مـا كـانوا يرغبـون فـي بقـاء قـوة ذات قيمـة في أى مكان على ظهر الأرض..

وخلاصـة القـول بعـد هـذا التحليـل فـإن " كيـوك بـن أوكيتـاى " خاقـان المغـول الجديـد اسـتلم مملكـة واسـعة تعـد هـى القـوة الأولـى فـي العـالم، وأن الصـليبيين بـالرغم ممـا ذاقـوه مـن المغـول فـإنهم مـا زالـوا يطمعـون فـي التعـاون معهـم ضـد المسـلمين، أمـا المسـلمون فكـانوا فـي خلافـات مسـتمرة، وتحـت ضـغوط مغوليـة مـن ناحيـة، وصـليبية مـن ناحيـة أخـرى، ولـيس لأى قائـد مسـلم فـي ذلـك الوقـت أى طمـوح - كبيـر أو صـغير - فـي تحريـر الـبلاد واسـتنقاذ العبـاد، إنمـا كانـت رغبـتهم فقـط فـي تثبيـت السـلطان علـى البقعـة التـى يعيشـون عليها مهما صغرت أو ضعفت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. [١].

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٨٤ بتصرف يسير.

مملكة المغول (التتار) سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م

كيوك خان (٦٤٤ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٦ - ١٢٤٩ م):

كان أوكتاى قد عهد بولاية العهد من بعده لابنه الثالث " كوجو " لأنه كان يؤثره بحبه، ولكن هذا الابن قد توفى في حياة أبيه، فاختار أوكتاى حفيده " شيرامون بن كوجو " وليًّا للعهد بدلاً من أبيه، ولكن هذا الاختيار لم يكن على هوى زوجته " توركينا خاتون " التى كانت ترغب في تولية ابنها " كيوك " الذى كان آنذاك مشغولاً مع الجيش باجتياح أوربا الشرقية، فلما توفى " أوكتاي "، تولت " توركينا خاتون " مهام الحكم كوصية على العرش لحين عقد القوريلتاى لانتخاب الخان الجديد، وهنا بدأت تظهر أطماع الطامعين في عرش المغول، وتنافس عليه المتنافسون، ولكن " توركينا خاتون " كانت لديها التصميم على تولية ابنها " كيوك " العرش، فبذلت قصارى جهدها لتحقيق تلك الغاية، وعلى مدى أربع سنوات - هى مدة وصايتها للعرش - عملت على اجتذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا، حتى ضمت الأغلبية إلى صفوفها، وصاروا رهن إشارتها، ومن عارضها، أو كانت له أطماع في العرش عملت على التخلص منه، فعملت على عزل الأمراء وأركان الدولة ممن يتقلدون المناصب الكبرى في عهد " أوكتاي "، وكان من بين هؤلاء " جينقاى " الوزير الأعظم للخان، و" محمود يلواج " صاحب الديوان، وعزل " كوركوز " حاكم إقليم خراسان من قبل ا لمغول، وتم إعدامه، وحل محله حاكم مغولى آخر هو " أرغون " (١).

وعندما تأكدت " توراكينا خاتون " من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة، ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها، أرسلت الرسل إلى كبار الشخصيات المغولية في جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة " القوريلتاى " التى سوف ينصب فيها كيوك رسميًّا خانًا أعظم، كما وجهت الدعوة أيضا إلى السلاطين والأمراء والعظماء في جميع النواحي.

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٩٦.

وقد وصل جميع الشخصيات إلى منغوليا ماعدا " باتو " الذى اعتذر بمرضه وأرسل بدلاً منه إخوته، كما حضر عدد كبير من حكام الأقاليم التابعين لحكم المغول، وكذلك مندوبون عن الدول الأخرى في الشرق والغرب، وكان من بين الحضور أمراء الخطا، والأمير " مسعود بيك " حاكم التركستان وما وراء النهر، وفى رفقته عظماء تلك الديار، والأمير أرغون حاكم خراسان، وفى معيته أمراء وعظماء ذلك الإقليم، والسلطان ركن الدين سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، ومندوبون عن أتابكة كرمان وفارس والموصل، والمطالبان بعرش مملكة الكرج: " داود نارين " و" داود لاج " وأرسل الخليفة العباسى مندوبًا عنه، كما أرسل علاء الدين حاكم الإسماعيلية ممثليه لحضور الاجتماع، وربما كان ذلك بدافع الخوف والفزع، وتفاديًا لنقمة المغول، وتجنبًا لشرهم. كما حضره من المسيحيين اثنان من الكهنة هما: " سمباد " أخو هيثوم ملك قلقيلية، والآخر " يوحنا دى بلاين كارين "، وقدم هؤلاء محملين بالأحمال الكثيرة والهدايا الفاخرة المناسبة لمقام الخان المغولي، وأعد لإقامتهم ما يقرب من ألفى سرادق، ونظرًا لكثرة الناس ضاقت الصحراء الشاسعة ولم يبق هناك موضع للنزول بجوار المعسكر، وارتفعت أسعار المأكولات والمشروبات ارتفاعًا فاحشًا، وندر وجودها (١).

وفى العام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م انعقد القوريلتاى على ضفاف إحدى البحيرات في غرب منغوليا، وتم انتخاب كيوك خانا أعظم للمغول، على أن يكون المنصب وراثيًا في أولاده وأسرته من بعده، وأقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة، وقد ذكر المؤرخون أن الخاقان الجديد " كيوك " عامل رسول الخليفة العباسى معاملة حسنة، ولكنه سلمه رسالة للخليفة كان ملؤها التهديد والوعيد، أما ممثلوا الإسماعيلية، فراح يصب عليهم جام غضبه، وصرفهم أذلاء مهانين، ورد على زعيمهم ردًّا جافًا إلى أقصى حد (٢).

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ١ / ٢١٣، رشيد الدين، جامع التوارخ، ٢ / ٢٤٨، ابن العبري، تاريخ

ولقد جاء انتخاب " كيوك " على غير هوى " باتو بن جوجى " الذى كان يعارض هذا الاختيار، ولم يكن في الأصل يرضى عن سياسة سابقيه من الخاقانات الذين كانوا قد انفتحوا على الديانات الأخرى، وسمحوا للنصرانية أن تنتشر بين صفوف طبقات المغول المختلفة، فباتوا - كجده " جنكيزخان " وعمه " أوكتاى " - لم يكن يميل إلى أية من الديانات المنتشرة في إمبراطورية المغول، إذ كان ملتزمًا التزامًا لا يتزحزح عن عقيدة أجداده الشامانية، التى يتعبدون فيها الإله الواحد، ولكنهم في الوقت نفسه يعتبرون الشمس والقمر والأرض كائنات سامية يتوجهون إليها بالصلوات ويقدمون لها الأضاحي. وكان " باتو " بصفة عامة يتخذ موقفًا عدائيًا من " كيوك خان "، ومن أسرة " أوكتاى " بصفة عامة(١).

وبعد انتخاب " كيوك " خان كان العالم ينتظر صدامًا مسلحًا بينه وبين " باتو"، فقد كان كل منهما يستعد للحرب، وتقدما ليلاقى أحدهما الآخر، ولكن " كيوك خان " مات فجأة في إبريل عام ١٢٤٨م / ربيع الثانى ٦٤٧ هـ، أما والدته " توراكينا خاتون " فقد توفيت قبله بعدة أشهر (٢).

والشيء الملاحظ أنه في عهد " كيوك خان " قد ارتفع شأن المسيحيين، في حين أنه لم يرتفع صوت للمسلمين، وذلك بتأثير من أمه - وكانت تدين بالمسيحية -، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أخذ الأمر منحًى جديدًا تمثل في المحاولات الحثيثة لإحداث التحالف بين الصليبيين والمغول ضد المسلمين من أجل تطويق العالم الإسلامى وجعله بين شقى رحى ليسهل القضاء عليه، وفى هذا الإطار تكررت محاولات التحالف، وإن كانت قد باءت بالفشل فإنما تدل على الحقد الدفين والعداء المرير الذى يضمره هذا التحالف للمسلمين (٣).

* * *

مختصر الدول، ص ٢٥٧، نقلاً عن فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٩٧.

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٨.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٩ - ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٩٨.

(٣) سوف نعرض لأمر محاولات التحالف الصليبى المغولى بالتفصيل في الفصل القادم - إن شاء الله -.

الفصل السادس:
الحرب الأهلية المغولية

تولية " منكو خان " عرش المغول (٦٤٨ - ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠- ١٢٥٧ م):

بعد وفاة " كيوك خان " المفاجئة، تولت أرملته "، " أقول قيمش " الوصاية على العرش، وتولت مهام الحكم لحين انتخاب خان جديد طبقا لرسوم وعادات الحكم المغولية، وكان الاتجاه السائد هو أن يتولى العرش بعد " كيوك خان " أحد من أصلابه أو على الأقل من أسرته ولا يتعداها، وعلى ذلك فكانت " أقول قيمش " ترغب في أن يتولى المنصب " شيرامون " ابن أخى كيوك خان، وذلك تنفيذًا للعهد الذى قطعه الأمراء ورجال الدولة لكيوك خان في حياته على أن يكون الحكم وراثيًا في أسرته من بعده، ولكن هذا الاتجاه وجد معارضة شديدة من كثير من الأمراء المغول، لصغر سن " شيرامون " وقلة خبرته، وذهب الاتجاه إلى تولية أحد الأميرين: " منكو بن تولوي "، أو " باتو بن جوجي "، وكان كلاهما من كبار الأمراء وأعظم الشخصيات المغولية على الساحة السياسية، وسبق أن اشتركا معًا في اجتياح روسيا وشرق أوربا، وكانت بينهما مودة وصداقة كبيرة فضلاً عن العمل العسكرى المشترك (١).

على كل حال بعد وفاة " كيوك خان " أراد أبناء " كيوك خان " أن يولوا " شيرامون " المنصب من بعده ولكن ها الأمر كان يتطلب موافقة " باتو بن جوجي "، كبير الأسرة المغولية الحاكمة سنًا ومقامًا بينهم - الذى كان معارضًا في الأصل لتولية كيوك خان -، فلما تم الدعوة لعقد القوريلتاى وتنصيب الخان الجديد، لم يعقد المجلس في منغوليا كما هو المعتاد منذ أيام " جنكيزخان "، ولكن عقد في بلاد القبجاق، لأن " باتو بن جوجى " - الذى كان يقيم في بلاد القبجاق في آسيا الوسطى -

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٠٧.

اعتذر عن الحضور إلى منغوليا لطول ومشقة السفر، ووجه الدعوة لعقد المجلس في بلاد القبجاق، فوافاه الجميع إلى هناك - رغم المعارضة الشديدة لأبناء أوكتاى وجغتاى اللذين أنابوا عنهم في الحضور - حيث تم انتخاب منكو ليتولى عرش الخان المغولي، لينتقل العرش المغولى إلى أولاد تولوى الذين يمثلون الفرع الثانى من أسرة جنكيزخان.

وقد وجد هذا الاختيار معارضة شديدة من جانب أبناء جغطاى وأوكتاى وكثير من الأمراء المغول، خاصة أولئك الذين كانت لهم أطماع في ولاية العرش المغولي، وأعلنوا بطلان هذا الاختيار؛ لأنه لم يعقد في قراقورم كما تقتضى الرسوم والعادات المغولية التى وضعها جنكيزخان، واحتدم النزاع بين الجانبين وكاد يحدث نزاعًا مسلحًا، لولا أن حزب " باتو بن جوجى " و " منكوخان " نزلوا على رغبة هؤلاء المعارضين وقرروا عقد مجلس القوريلتاى في قراقورم في منغوليا، حيث أعيد انتخاب منكو خان من جديد رغم أنف المعارضين، وأعلن ذلك الاختيار رسميًّا في شهر ذى الحجة ٦٤٨هـ / إبريل ١٢٨٠م.

وبالرغم من ذلك فإن كثير من أمراء المغول لم يرتضوا بهذا الاختيار وسعوا إلى إزاحة منكوخان بالقوة من المنصب، فعملوا على تدبير المؤامرات والدسائس لقلب نظام الحكم، ولكن شاءت الأقدار أن يكتشف منكوخان ما كان يبيت له بليل، وما يحاك له في الظلام، وفى الوقت المناسب ألقى القبض على المتآمرين وزج بهم في غياهب السجون، ثم ما لبث بعد قليل أن أمر بضرب أعناق هؤلاء المتآمرين ليصفوا له الحكم[1].

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٢٩٦ - ٢٩٧، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

التقارب الصليبى المغولى ضد المسلمين:

كانت " توراكينا خاتون " تدين بالمسيحية وقامت بتربية ابنها " كيوك " على المسيحية، فنشأ يدين ويحب المسيحية وصار بلاطه يعج بالمسيحيين من المغول، وقرب إليه كل من يدين بالنصرانية، وصار يعطف عطفًا شديدًا على رعاياه من المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس، وقد شجع ذلك الغرب الأوربى في التقرب من المغول ومحاولة التحالف معهم ضد العالم الإسلامي، وتكوين معه جبهة يطوقون بها العالم الإسلامى ويجعلونه بين شقى رحا، فأرسل البابا " إنوسنت الرابع " سفارة إلى منغوليا في سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥ م، وكان غرض السفارة هو التوحد مع التتار لحرب المسلمين في مصر والشام، (لم يكن همّها - مثلاً - أن ترفع الاحتلال والظلم عن نصارى أوروبا وروسيا)، وكانت هذه الرسالة برئاسة الراهب الفرنسيسكانى " يوحنا دى بلاين كاربين " واستقبل " كيوك " السفارة الصليبية بحفاوة لكثرة النصارى في البلاط المغولي، ولكن عندما قرأ كيوك رسالة البابا وجده - بالإضافة إلى طلبه توحيد العمل العسكرى ضد المسلمين - فإنه يدعوه إلى اعتناق النصرانية، واعتبر خاقان المغول أن هذا تعديًا من البابا؛ إذ كيف يطلب من خاقان المغول أن يغير من ديانته؟! فأعاد الخاقان " كيوك " السفارة الصليبية بعد أن حملها برسالة إلى البابا يطلب منه أن يجمع أمراء الغرب الأوروبى جميعًا ليأتوا إلى منغوليا لتقديم فروض الولاء والطاعة للخاقان التتري، وبعد ذلك يبدأ التعاون.. وبالطبع رفض ملوك أوروبا الغربية هذا الطلب، وبذلك فشلت السفارة الصليبية في تحقيق أهدافها..

لكن البابا الكاثوليكى " إنوسنت الرابع " لم ييئس من فشل هذه السفارة، بل أرسل سفارة صليبية أخرى - بعد فترة قصيرة -، ولكنه هذه المرة أرسلها إلى قائد القواد التترية في مدينة " تبريز " بمنطقة فارس الملاصقة للخلافة الإسلامية، وكان اسمه " بيجو " وذلك في سنة ٦٤٥ هـ / مايو ١٢٤٧ م، وقد لمس فيه البابا حبًّا للعدوان والهجوم، وعلم أنه من أنصار التوسع من جديد في أراضى المسلمين، وقد لاقت السفارة ترحيبًا كبيرًا من " بيجو " الذى توقع أن هجوم الصليبيين على مصر والشام سوف يشغل المسلمين في هذه الأقاليم عن الدفاع عن الخلافة العباسية في العراق،

وبذلك تسهل مهمته في اقتحامها.. ولكن لا يخفى على أحد أن صلاحيات " بيجو " لم تكن تؤهله لاتخاذ مثل هذا القرار الاستراتيجى الخطير بالتعاون مع الصليبيين، وكان " كيوك " ما زال على رأيه في عدم التوسع، وعدم التعاون مع الصليبيين إلا بعد خضوعهم له، ومن ثم فشلت أيضًا هذه السفارة الثانية.. (١).

ولم تلبث تلك الاتصالات التى بدأت بين المغول والبابوية، وفى الوقت الذى كان لويس التاسع يعد العدة لحملته الصليبية ضد المسلمين، أن أدت إلى نوع من المفاوضات بين المغول والصليبيين، بقصد تطويق المسلمين في الشرق الأدني. ذلك أن لويس التاسع لم يكد يصل قبرص في طريقه إلى دمياط حتى وفدت على نيقوسيا في ديسمبر سنة ١٢٤٨ م سفارة تألفت من اثنين من نساطرة الموصل - اسميهما: داود ومرقص - قالا أنهما موفدان من قبل جغطاى خان نائب الخاقان الأعظم في القوقاز وفارس. وكان الغرض من تلك السفارة عقد تحالف عسكرى بين الصليبيين والمغول ضد الأيوبيين في الشام من ناحية والخلافة العباسية في بغداد من ناحية أخري.

وكان المغول عندئذٍ يفكرون في اجتياح العراق وبغداد، وهو الأمر الذى قام به - بعد سنوات هولاكو - فأرادوا أن يحولوا دون أى مساعدة يقدمها الأيوبيون في مصر والشام للخلافة العباسية عن طريق محالفة الصليبيين، وقد رد الملك لويس على المغول بإرسال سفارة من ثلاثة أعضاء من الرهبان الدومنيكان إلى المغول، فغادرت السفارة قبرص في يناير سنة ١٢٤٩م محملة بالهدايا من الملك الفرنسي، وقصدت " جغطاى خان " في أذربيجان، وسلكت تلك السفارة طريق أنطاكية والموصل. على أنه يبدو أن تلك السفارة لم تحقق نتيجة حاسمة سريعة في موضوع التحالف بين لويس والمغول، لأن جغطاى أرسل مبعوثى لويس إلى قراقورم - مقر خاقان المغول الأعظم في جوف آسيا - في الوقت الذى كان الخاقان كيوك قد توفى في أوائل إبريل سنة ١٢٤٨م. ومن الواضح أن منكوخان - خاقان المغول الجديد - وجغطاى خان - نائب الخاقان في فارس - خشيا تحمل مسئولية سياسة جديدة تستهدف التحالف مع لويس التاسع ضد المسلمين، الأمر الذى جعل لويس يوجه نظره إلى كتلة أخرى من

(١) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، الدكتور الباز العريني، ٣ / ٤٤٧.

المغول، وهم مغول وسط روسيا.

وكان ذلك سنة ١٢٥٣م - أى بعد هزيمة المنصورة وإطلاق سراح لويس - عندما أرسل الملك الفرنسى سفارة إلى سرتاق بن باتو - وكان مسيحيًّا لطلب التحالف ضد المسلمين. وكانت سفارة لويس يرأسها أحد الرهبان الفرنسيسكان واسمه: روبروك، وقد وصل روبروك إلى سرتاق، وعندئذٍ أخبره الأخير أنه لا يستطيع أن يقطع في الموضوع برأى حاسم دون إذن من والده باتو خان. وهكذا يممت سفارة لويس وجهها شطر باتو خان الذى حول السفارة بدوره إلى منكو - خاقان المغول العظيم -. وقد قضى روبروك مندوب لويس التاسع خمسة أيام في بلاط الخاقان في قراقورم، التقى فيها بكثير من رسل الملوك والحكام، مثل رسل الإمبراطور البيزنطى والبابوية وبعض ملوك الأيوبيين، فضلاً عن الخليفة العباسي، وغيرهم ممن أرادوا أن يخطبوا ود المغول. ويبدو أن رد منكو على رسالة لويس التاسع جاء غير مقبول، إذ طلب خاقان المغول من ملك فرنسا أن يعلن تبعيته له. وعندما عاد روبروك مبعوث لويس إلى قبرص ومنها إلى عكا سنة ١٢٥٥م، وكان لويس قد غادر الشام منذ أشهر عائدًا إلى فرنسا، فأرسل له روبروك رسالة تتضمن ما قام به في رحلته. وإذا كان روبروك قد ردد بعض الأنباء عن تأهب المغول لغزو العراق والقضاء على الخلافة العباسية والباطنية جميعًا، فإن هذه الأنباء إنما سمعها روبروك في بلاط المغول، وليس فيها - على ما يبدو - ما يفيد تحالف المغول مع الصليبيين لتحقيق تلك المشروعات.

ومع أن رد خاقان المغول على سفارة لويس التاسع كان غير مشجع على استمرار المحادثات بين المغول والصليبيين، فإن الأنباء التى حملها روبروك - رسول لويس - عن استعداد المغول لاجتياح العراق وإسقاط الخلافة العباسية، جاءت مشجعة للصليبيين الذين رأوا في ذلك فرصة للانتقام من المسلمين واسترداد بيت المقدس. حقيقة أن المشروع المغولى ضد المسلمين - هو المشروع الذى سمع به روبروك سنة ١٢٥٢م - لم ينفذ إلا سنة ١٢٥٨م - ١٢٦٠م، لكنه مع ذلك أظهر المغول في صورة الحلفاء الطبيعيين للصليبيين ضد عدو مشترك واحد. ولهذا السبب حرص الصليبيون في هذا الدور على دوام الاتصال بالمغول، فلم يكتف " هيثوم

الأول " ملك أرمينية الصغرى بإرسال أخيه " سمباط " - وهو المؤرخ الشهير صاحب الحولية المعروفة في عصر الحروب الصليبية - إلى بلاط الخاقان في قراقورم سنة ١٢٤٧ - ١٢٤٨ م، إنما أحس " هيثوم " بضرورة ذهابه بنفسه سنة ١٢٥٤م إلى بلاط منكوخان، فوصل إليه في سبتمبر من العام نفسه حيث قدم لخاقان المغول فروض الولاء والخضوع. وفى المحادثات التى دارت بين الطرفين أظهر الخاقان عطفه الشديد على المسيحية والمسيحيين، وأعلن وضع الكنيسة ورعاياها في جميع البلاد التابعة له تحت حمايته ورعايته. وأهم من هذا كله أن منكو خان أعلن رسميًّا في تلك الزيارة أنه كلف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العباسية (العدو اللدود)، واستعادة الأراضى المقدسة للمسيحيين.

وليس من العسير بعد هذا كله أن ندرك قيام نوع من التحالف بين المغول والصليبيين في تلكم الفترة، وإن كانت الوثائق التى بأيدينا ليس فيها ما ينص على عقد ذلك التحالف رسميًّا. وربما كان السبب في ذلك هو أن هيثوم كان لا يملك أن يتكلم باسم نفسه وباسم مملكة أرمينية الصغرى، في حين لم يحاول بقية الأمراء الصليبيين - في قبرص والشام - أن يتصلوا بالمغول اتصالاً مباشرًا، كما فعل لويس التاسع وهيثوم.

ومهما يكن من أمر فالذى يهمنا في هذا الموضوع هو أن لويس التاسع خطا خطوات فعالة في مفاوضة المغول، ومحاولة جرهم إلى حلف ضد المسلمين، مما مكن " هيثوم الأول" ملك أرمينية من تحقيق التحالف فعلا مع المغول، وبذلك أتيح للصليبيين أمل كبير في محو الخلافة العباسية - المركز الروحى للمسلمين في الشرق الأدنى - فضلاً عن إخضاع فارس والعراق والقطاع الذى بيد المسلمين من الشام لحكم المغول، الذين يميلون إلى المذهب النسطوري، مما يجعل الصليبيين يأمنون على أنفسهم في بلاد الشام [١].

وفى تلك الأثناء كان لويس التاسع قد أصر على القيام بحملته الصليبية حتى مع عدم اشتراك التتار، فتوجه فعلا من قبرص إلى مصر، ونزل بدمياط في سنة ٦٤٧

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ / ٨٧٠ - ٨٧٣.

هجرية، واحتل دمياط، ثم تجاوزها إلى داخل مصر - عبر نهر النيل - في اتجاه القاهرة، ولكن الجيش المصرى قابله في المنصورة، وكان معه سلطان مصر " الصالح أيوب " الذى مات بعد ثلاثة أيام من بداية المعركة في المنصورة، وتولت أمر مصر السلطانة " شجرة الدر " زوجة الصالح أيوب التى أخفت خبر وفاة زوجها، وراسلت توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان يحكم إحدى المناطق في تركيا، وقامت شجرة الدر - بالاشتراك مع قواد الجيش " فارس الدين أقطاى " و " ركن الدين بيبرس " - بإدارة موقعة المنصورة المشهورة ضد الصليبيين، وانتصر المسلمون في هذه الموقعة، ثم وصل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى مصر، وتولى حكم البلاد، وانتصر مرة أخرى على الصليبيين في موقعة فارسكور، وأسر لويس التاسع وذلك في سنة ٦٤٨ هـ، ثم حدثت بعض الفتن في مصر، وقتل توران شاه، وتولت شجرة الدر ملك مصر علانية، ولكن الجو العام في مصر لم يكن يقبل بولاية امرأة، فتزوجت من أحد قادة المماليك وهو " عز الدين أيبك "، ثم أصبح سلطانًا على مصر، وبذلك وصل المماليك إلى حكم مصر خلفًا للأيوبيين.

لكن المهم في تلك الأحداث أن نشير إلى ظهور قوة المماليك، وفشل الحملة الصليبية السابعة، وهذا ولا شك قد زاد من حقد الصليبيين، وأكد على ضرورة التعاون مع التتار لحرب المسلمين.. [١].

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٨٥. وللمزيد عن نشأة دولة المماليك انظر: تاريخ دولة المماليك للمؤلف من نشر دار الإيمان للنشر والتوزيع بالمنصورة.

التوسع المغولى في عهد منكو خان:

بعد أن تخلص " منكو خان " من المناوئين له، واطمأن لتثبيت أركان حكمه، بدأ يفكر جديًّا في مواصلة الاجتياحات التى كانت قد بدأت في عهد أسلافه، وتوسيع إمبراطوريته الجديدة، وإضافة بلاد وشعوب أخرى لسيطرته، وبدأ في تجهيز حملتين كبيرتين لهذا الغرض، جعل على الأولى أخاه الأوسط " قوبيلاى " وأوصى أن تكون وجهة هذه الحملة أقاليم الصين الجنوبية، لاستعادة ما كان خرج عن السيطرة المغولية واستكمال ما لم تصل إليه أيديهم، والحملة الثانية جعلها تحت قيادة أخيه الأصغر " هولاكو " وأمر أن تكون وجهتها العالم الإسلامي، وبخاصة منطقة طائفة الإسماعيلية والخلافة العباسية، تلك المناطق التى كانت حتى تلك اللحظة خارج نطاق السيطرة المغولية، في حين بدأ منكوخان يعد حملة جديد يخرج هو على رأسها لاجتياح بعض المناطق القريبة من منغوليا(١).

وفى الوقت الذى بدأت تلك القوات في التحرك باتجاه البلاد التى حددت لها وإنجاز المهمة المنوطة بها، وفى سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م بدأ " قوبيلاى " في السير باتجاه أقاليم الصين الجنوبية الفتى كانت تدعى " منزى " وكانت ما تزال تحت حكم أسرة " سونج " وتمكن من السيطرة على أجزاء كبيرة من تلك البلاد، ولكن جميع تلك المشاريع قد توقفت بسبب نبأ وفاة منكوخان المفاجئة التى كانت في سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م مما عطل جميع المشاريع واضطر قوبيلاى للعودة إلى منغوليا على أمل أن ينال المنصب الذى أصبح شاغرًا بوفاة أخيه (٢).

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢١٦.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢١٦.

الحرب الأهلية المغولية وتولية " قوبيلاى خان " عرش المغول (٦٥٨ - ٦٩٣هـ / ١٢٦٠ - ١٢٩٤م):

بعد وفاة " منكوخان " المفاجئة دارت حرب أهلية شعواء على كرسى العرش المغولي، وتفاصيل ذلك أن " منكو خان " كان له أخ أصغر يدعى " أريق بوكا " وكان يحبه ويقربه إليه، وكان يفوض إليه حكم البلاد في أثناء خروجه في الحملات العسكرية الخارجية، بل إن " منكو خان " كان يرغب في أن يخلفه على عرش المغول، فلما مات " منكو " أعلن أريق بوكا نفسه خانًا أعظم للمغول، ووجد في ذلك المساندة الكبيرة من جانب المحيطين به والمقربين منه ومن أخيه الخان السابق (١).

ولكن هذا الأمر قد أغضب " قوبيلاى " ولم يوافق عليه، ورأى أنه هو الأجدر لتولى هذا المنصب، وكان مستعدًا لخوض حرب ضروس حتى وإن كانت مع أخيه من أجل عرش الخانية المغولية، وعقد مجلسا لكبار رجال الدولة وأمراء الحرب الذين كانوا في جيشه في مدينة " كى مينج فو " إحدى مدن الصين الشمالية، وأعلن بعد هذا الاجتماع خلع أخيه، ونصب نفسه خانًا أعظم على عرش المغول وزاد على ذلك أنه جعل من نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين، وأشهد على ذلك الحاضرين وبعث بذلك إلى الآفاق (٢).

هذه الخطوة من جانب " قوبيلاى " قد أغضبت كثيرًا من الأمراء المغول في منغوليا، واعتبروها خروجًا على العادات والتقاليد المغولية، وتجاوزًا لقوانين جنكيز خان التى وضعها والتزم بها السابقون، وذلك لعدة أمور:

أولاً: لأن الاجتماع الذى عقد لم يكن له صفة الشرعية لعدم حضور أفراد ممثلين عن جميع فروع الأسرة الحاكمة، كما أنه عقد بعيدًا عن المقر الرئيسى لدولة المغول في منغوليا.

وثانيًا: لأن قوبيلاى أعلن عن نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين، ورأوا في

---

(١) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٣ / ٥٣١، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "،
ص ٢١٦.

(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٣٩١.

ذلك خروجًا على قوانين جنكيز خان وعادات الأسرة الحاكمة، وأصبح العداء سافرًا بين الجانبين وإيذانًا بالدخول في حرب عائلية من أجل عرش المغول.

وبعد تزايد شقة الخلاف بين الأخوين، أصبحت الحرب بينهما هى الحل الوحيد لإثبات عرش المغول لأحدهما، وجاءت الخطوة الأولى من جانب " قوبيلاى " الذى تحرك بقواته تجاه منغوليا سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م حيث التقى مع أخيه وأوقع به الهزيمة النكراء ودخل العاصمة قراقورم عنوة، وألقى القبض على أخيه وزج به في غياهب السجن وظل به حتى مات سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٣م، وارتقى قوبيلاى عرش المغول، وقد أيد هولاكو أخاه قوبيلاى في هذه الحرب بدافع من الود الذى كان يربط بينهما، وكان ذلك التأييد من جانب " هولاكو " هو الذى رجح كفة " قوبيلاى " على أخيه الآخر [١].

وكانت الحرب بين " قوبيلاى " وأخيه " أريق بوكا " هى إحدى صور الحرب الأهلية المغولية، فالتحالف بين قوبيلاى وهولاكو قد قابله تحالف آخر بين أريق بوكا وبركة خان الذى خلف أباه باتو في حكم القبيلة الذهبية [٢] سنة ١٢٥٦ م، ولعل الذى دفع بركة خان إلى التعاون مع أخيه " أريق بوكا " هو أنه كان قد اعتنق الإسلام قبل أن يتولى العرش وكان كارهًا لحملة " هولاكو " على العالم الإسلامى وحاول بشتى الطرق إيقافها ولكنه لم يتمكن من هذا، كما أن قوبيلاى كان قد منح أخاه " هولاكو " منطقة القبجاق (القوقاز وجنوب روسيا) وهى المنطقة التى كان يسيطر عليها " بركة خان"، مما أوجب العداء بين الفريقين.

وبعد انتهاء الحرب الداخلية بين " قوبيلاى " و " أريق بوكا " زاد التوتر بين " بركة خان " سلطان القبيلة الذهبية وهولاكو زعيم إمبراطورية الإيلخانات المغولية في فارس والعراق، حيث لم يكن بركة خان مستعدًا للتنازل عن أملاكه في مناطق جبال القبجاق لصالح هولاكو خان نزولاً على رغبة الخان المغول قوبيلاي، فدارت بين هولاكو وبركة خان حرب

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٩ - ٥٠.
(٢) سوف يتم بإذن الله الحديث عن هذه القبيلة وتاريخها بالتفصيل في الفصول اللاحقة.

ضروس، بدأها هولاكو بمهاجمة حدود بلاد القبجاق في سنة ١٢٦٠ م، ولكن قوات بركة خان تصدت لقوات هولاكو وردته على أعقابه، ثم إن بركة خان قد أصدر أوامره لجنوده المشاركين لقوات هولاكو في الهجوم على مصر بالانسحاب من جيش هولاكو والانضمام إلى القوات المصرية والقتال إلى جوارها ضد القوات المغولية، وأعلن بركة خان بهذا التصرف مساندته العلنية لقوات المصريين ضد المغول، وربما كانت هذه المساندة هى السبب المباشر في هزيمة المغول في عين جالوت [١].

وقد استمرت الحرب الأهلية الداخلية المغولية حتى سنة ١٢٦٠ م، وكانت لها نتائجها الخطيرة، فقد انفصلت بلاد ما وراء النهر، نظرًا لأوضاعها عن البلدين المتحالفين معًا، الصين التى كانت تحت حكم قوبيلاى خان والإيلخانات في فارس والتى كانت تحت حكم هولاكو وأسرته من بعده، في حين وجدت القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق نفسها - بسبب العداء من مغول فارس والصين - خارج نطاق اتحاد الممالك المغولية، وهذا ما سيجبرنا على دراسة تاريخ هذه الأسر أو الدول المغولية بصفة منفصلة عن بعضها البعض، إذ لم يعد يجمع بينها سوى الأصل المغولى فقط، أما الصين مركز إمبراطورية الخانات الكبار، فقد عرفت تطورًا سيطرت عليه مع مرور الأيام مصالح الصين، ولا يمكننا إلا اعتباره جزءًا من تاريخ الإمبراطورية الصينية. وعليه فلا يمكن الحديث عن تاريخها؛ لأنها بذلك أصبحت خارج نطاق تاريخ المغول [٢].

وبالعودة إلى بقية أحداث وتاريخ عهد قوبيلاى نجد أنه بعد أن تخلص قوبيلاى من المناوئين لحكمه في منغوليا تفرغ لاستكمال ما كان قد بدأه في الصين، حيث تمكن من السيطرة على جميع أقاليم الصين الشمالية والجنوبية، ووحد الصين لأول مرة في تاريخها، ثم انطلق نحو المناطق الجنوبية من الصين حيث الهند الصينية وجاوة واليابان.

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٢.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٧ - ٥٨.

وقد انتقل قوبيلاى للعيش في الصين واتخذها حاضرة لدولته، وكان ذلك ناتجًا عن التأثر الشديد بالحضارة والثقافة الصينية، ومنذ ذلك الحين دخلت منغوليا كليًّا تحت سلطان الصين، وعلى الرغم من ذلك أنها بقيت مصدر قوة بالنسبة للعائلة المالكة التى تحكم هناك، وأصبح اسمها يوان باللغة الصينية، فإن هذه المنطقة لم تلعب بعد ذلك قط أى دور هام في التاريخ العالمي، شأنها في ذلك شأن الجزيرة العربية (مهد الإسلام) التى أضاعت أهميتها التاريخية منذ قيام الدولة الأموية في دمشق. وأصبح السفراء القادمون من أنحاء آسيا أو الممالك المنغولية الأخرى يتوجهون إلى بكين وليس إلى قراقورم. وأصبحت عادات الخانات الكبار وتصرفات رجال بلاطهم صينية، كما تبدل الأمراء وسلالتهم المالكة من حيث المظهر إلى أمراء صينيين. كما أن قوبيلاى خان صار ينظر إلى حاجات الشعب المغولى من وجهة نظر صينية، ولذلك أصبحت هذه المصالح مرتبطة في أغلب الأحيان بإمبراطورية المركز (الصين). وفى هذه الأثناء اخترعت أبجدية منغولية جديدة على يد راهب من التبت، وخصصت لتحل محل أبجدية الأويغور التى كان المغول قد تبنوها في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، عندما وجدوها في أويغوريا، وكانت من أصل سامي، ومع ذلك فإن الكتابة المنغولية الجديدة لم تنتصر على الرغم من ميزتها الملائمة نسبيًّا، إذ كانت التقاليد القديمة قوية جدًّا، واعتقدوا أن من الأيسر لهم في حال الضرورة أن يكتبوا على الطريقة الصينية من أن يستعملوا الكتابة الجديدة، ففى هذا الحل على الأقل يستطيع السفراء الصينيون أن يقرأوا وثيقة مغولية، ولو بشكل ناقص، حتى ولو لم يفهموا معناها، وهكذا بقيت الكتابة الأويغورية هى الكتابة المميزة للمغول وعاشت إلى اليوم [(١)].

* * *

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٠ - ٥١.

الفصل السابع:
هولاكو وإسقاط الخلافة العباسية

إن غزو المغول (التتار) العالم الإسلامى لم يكن أمرًا مفاجئًا وطفرة بدون مقدمات؛ لأن جيوش المغول كانت قبل ذلك قد اخترقت الآفاق، دوخت الصين الشمالية، وقضت على الدولة الخوارزمية المسلمة، وسيطرت على خراسان ومرو وبخارى وسمرقند، وأذربيجان وروسيا الجنوبية، والقرم والقوقاز، دون أن تنتبه بغداد من نومها. وبعد تولى (أوكتاي) الذى خلف جنكيز خان، انقضت جيوشه على شمال جبال الأورال وبحر الخزر ومدينتى موسكو وبلغار على نهر الفولغا، وهزمت البولنديين ودمرت مدينة براسلاف الألمانية، وهزمت حاكم سيليسيا هنرى الثانى الذى انتحر للهزيمة. ثم حينما اختارت الأمة المغولية (مانكو) خلفًا لأوكتاي، أقام - على وثنيته - نظامًا متسامحًا تعايشت فيه جميع الأديان إسلامًا ومسيحية وبوذية، وشيدت فيه على قدم المساواة المساجد والكنائس والمعابد. ثم بعد ذلك عهد إلى أخيه " هولاكو " بغزو الغرب الأسيوى الذى يضم ديار المسلمين وعاصمتهم بغداد؟؛ كل هذا وقع والخليفة مع قادته العسكريين غارقون في غفلتهم!! (١).

في الحقيقة كان تزايد نفوذ المغول (التتار) يعنى الاصطدام بجيرانهم من الدول، وكان تجاور المغول للدولة الخوارزمية إيذانًا بحدوث التصادم بينهما، وكان الذى حدث أن السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش (السلطان الخوارزمي) قد

---

(١) ثم بعد توقف المد المغولى عند فارس والعراق، وانحساره عن الشام بجهاد المماليك ومقاومتهم، ترك أمة ذاهلة واقتصادًا منهارًا ومجتمعًا بائسًا هزيلاً، منغمسًا في الخرافة والفوضى. ثم لطف الله بهذه الأمة فأسلم حكام إيران من المغول، وعلى رأسهم ملكهم (تيكودار)، وتتابع بعده إقبال المغول على الإسلام، لاسيما في عهد " غازان " الذى اختار مذهب أهل السنة وأحسن إلى أهل الشيعة. ثم خلفت مملكة المغول في إيران الدولة المظفرية في كرمان وفارس، والدولة الجلائرية في منطقة ما بين النهرين. وتتابعت بعد ذلك دويلات ضعيفة منقسمة على نفسها. مثل: الأسرة الخلجية الأفغانية (١٢٩٠ م - ١٣٣٠ م) الأسـرة التغلقيـة (١٣٢٥ م - ١٤١٥ م) أسرة الشاة البيضاء (١٣٧٩ م - ١٥٠٣ م) أسرة الأسياد (١٤١٤ م - ١٤٥١ م) الأسرة اللودية (١٤٥٢ م - ١٥٢٦ م) نجم الدين إبراهيم بن على الحنفى الطَّرَسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق، عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، (ج ١ / ص ١٢).

أمر باعتقال قافلة من التجار قادمة بلاد الخان المغولى بزعم أنهم جواسيس للدولة المغولية، وأمر بقتلهم جميعًا، وكان عددهم أربعمائة وخمسين رجلاً من المسلمين، وبالرغم من أن جنكيزخان قد اتسم رد فعله بالهدوء وضبط النفس؛ وأرسل إلى سلطان الخوارزمية يطلب إليه تسليمه القتلة؛ إلا أن سلطان الخوارزمية قتل بعض الرسل وأهان البعض الآخر، وكان هذا إيذانًا بإعلان الحرب بينهما (١).

وكان أن انطلقت قوات المغول تدمر كل ما ومن قابلها ولم تستطع الدولة الخوارزمية الصمود في وجههم، فتمكنت قوات " جانكيز خان " من السيطرة على مدينة بخارى الحصينة في مدة ثلاثة أيام، وأجبر أهلها على مغادرتها، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم توالى سقوط مدن بلاد ما وراء النهر في أيدى المغول، ثم كانت نهاية الجيش الخوارزمى بالتدمير كليًّا وهروب سلطانهم واختفائه عن أعين المغول في جزيرة نائية مؤثرًا السلامة(٢).

وبعد توارى السلطان علاء الدين محمد عن الأحداث والأعين، فإن ابنه جلال الدين خوارزم شاه استطاع أن يقوم بدور فعال في مواجهة المغول حيث تمكن من استعادة بعض المناطق التى كان المغول قد استولوا عليها من أبيه بل إنه وقف لهم ندًّا في كثير من الأحيان وتمكن من إيقاع الهزائم بهم، وظلت الحرب بينه وبين جنكيزخان سجالاً حتى توفى جنكيزخان في عام ١٢٢٧ م تاركًا لخلفائه إمبراطورية مترامية الأطراف (٣).

ولم تلبث الأمور طويلاً أن تبدلت إذ لم يستطع جلال الدين خوارزم شاه أن يقاوم ضغط المغول القوي، لا سيما بعد الخلاف الذى وقع بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه والخليفة العباسى الناصر لدين الله، بعد مهاجمته لأراضى الدولة العباسية، مما اضطر الخليفة العباسى للاستعانة بالمغول على السلطان جلال الدين خوارزم شاه، ولم يكن المغول في حاجة لدعوة لكى يقضوا على الخوارزمية، إذ إنه وبعد مرور ثلاث سنوات على وفاة جنكيزخان تمكن خليفته من القضاء على مملكة

(١) بارتولد، تركستان، ص ٥٦٤ - ٥٧٠.
(٢) بارتولد، تركستان، ص ٥٦٤ - ٥٧٠، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٥٥.
(٣) بار تولد، تركستان، ص ٥٦٤ - ٥٧٠، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٥٦.

الخوارزمية قضاء مبرمًا، وهرب جلال الدين من أمامهم (١).

كان سقوط هذه المملكة نذير شؤم بالنسبة للخلافة العباسية، وأرسل الخليفة العباسى المستنصر بالله يستنجد بملوك الأيوبيين في مصر والشام، كما بعث يطلب النجدة من القبائل العربية، بيد أن الظروف التاريخية السائدة في المنطقة العربية كانت تبدو مواتية تمامًا للطموح المغولي؛ فالخلافة العباسية أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف الرافدين، كما أن سلاجقة فارس والعراق قد صاروا أثرًا بعد عين، ولم يعد لهم وجود حقيقي، أما دولة سلاجقة الروم فكانت متاعبها الداخلية أكبر من قدراتها، كذلك فإن الأيوبيين الصغار في بلاد الشام كانوا على حالة من التشرذم والأنانية السياسية تمنعهم من أى جهد حقيقي، وتبقى دولة سلاطين المماليك التى كانت تعانى من مشكلات الشرعية السياسية، وتداول السلطة، وترتيب الأوضاع في الداخل، واتقاء خطر القادم من الخارج، وكانت المواجهة مع المغول بمثابة الاختبار الحاسم لقدرات هذه الدولة الوليدة(٢).

وعلى مايبدو أن المغول أرادوا استغلال حالة الضعف والوهن الذى كانت تعيشه المنطقة العربية الإسلامية، وهاجموا بغداد قبل سقوطها في أيديهم، وكانت المرة الأولى في عام ٦٣٥ هـ وفشلت هذه المحاولة وحاقت بهم الهزيمة، وعلى ما يبدو أن هذا الفشل جعل المغول أكثر تصميمًا من ذى قبل على الاستيلاء على بغداد وإسقاط الخلافة العباسية، ففى العام ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م اجتمع مجلس رؤساء التتر (القوربلاي) في عاصمتهم (قراقورم) وأجمعوا أمرهم على اختيار منكوخان بن نولاى بن جنكيزخان ليكون خانهم الأعظم، ولم يمض وقت طويل على تولية الخان الجديد، إذ إنه في العام التالى مباشرة أرسل حملتين: الأولى توجهت إلى الصين، والأخرى توجهت إلى غربا باتجاه الأراضى الإسلامية، وهذه الحملة كان غرضها الأساسى هو القضاء على معاقل طائفة الشيعة الإسماعيلية وتدمير الخلافة العباسية والاستيلاء على حاضرتها بغداد.

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤ /٣١٤ - ٣٢٩، بارتولد، تركستان، ص ٥٦٤ - ٥٧٠، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٥٥.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٥٦.

حملة هولاكو على طائفة الإسماعيلية:

بعد قضاء المغول على الدولة الخوارزمية وقتل آخر ملوكها جلال الدين منكبرتي، توقع بعض حكام المسلمين أن الدور سيكون عليهم، فيقول أبو المحاسن بن تغربردي: "... ولما قتل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، دخل جماعة على الملك الأشرف موسى فهنؤوه بموته، فقال: تهنونى به وتفرحون! سوف ترون غبة! والله لتكونن هذه الكسرة سببًا لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمى إلا مثل السد الذى بيننا وبين يأجوج ومأجوج؛ فكان كما قال الأشرف. كان الخوارزمى يقاتل التتار عشرة أيام بلياليها بعساكره، يترجلون عن خيولهم ويلتقون بالسيوف، ويبقى الرجل منهم يأكل ويبول وهو يقاتل...) [1].

وبعد سقوط الدولة الخوارزمية على يد المغول لم يعد هناك قوة إسلامية يعتد بها من الممكن أن تقف في وجه هؤلاء الغزاة كما يقول ابن الأثير: "... نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصرًا من عنده، فإن الناصر، والمعين، والذاب عن الإسلام معدوم، {وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ} [الرعد: ١١]، فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمدًا كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم، ولا من يحميها{لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا} [الأنفال: ٤٢] [2].

وكان " منكو خان " قد جهز حملة عسكرية كبيرة وضعها تحت تصرف أخيه هولاكو وطلب منه التوجه إلى العالم الإسلامى وأوصاه بالمحافظة على تقاليد جنكيز خان (الياسا)[3] التى كان قد وضعها لتسير عليها إمبراطورية المغول من بعده، وأوصاه بأن يبدأ أولا بالقضاء على طائفة الإسماعيلية التى كانت تسيطر على الشريط الحدودى الضيق الذى يفصل أملاك المغول في فارس عن دولة الخلافة

(١) النجوم الزاهرة، ٢ / ٢٠٨.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥ / ٣٠٥.
(٣) المقريزي، الخطط، ١ / ٢١٩ - ٢٢٠.

العباسية في العراق [١].

ومن العجيب حقًا أن الإسماعيلية [٢] التى كانوا على اتصال دائم مع المغول لمدة

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ١ / ٢٤٦.

(٢) الإسماعيلية فرقة باطنية، انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام، تشعبت فرقها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر، وحقيقتها تخالف العقائد الإسلامية الصحيحة، وقد مالت إلى الغلوّ الشديد لدرجة أن الشيعة الاثنى عشرية يكفّرون أعضاءَهَا.

التأسيس وأبرز الشخصيات: أولاً: الإسماعيلية القرامطية: كان ظهورهم في البحرين والشام بعد أن شقُّوا عصا الطاعة على الإمام الإسماعيلى نفسه ونهبوا أمواله ومتاعه فهرب من سلمية في سوريا إلى بلاد ما وراء النهر خوفًا من بطشهم. ومن شخصياتهم:

- عبد الله بن ميمون القداح: ظهر في جنوبى فارس سنة ٢٦٠هـ.
- الفرج بن عثمان القاشانى (ذكرويه): ظهر في العراق وأخذ يدعو للإمام المستور.
- حمدان قرمط بن الأشعث (٢٧٨هـ(: جهر بالدعوة قرب الكوفة.
- أحمد بن القاسم: الذى بطش بقوافل التجار والحجاج.
- الحسن بن بهرام (أبو سعيد الجنابي): ظهر في البحرين ويعتبر مؤسس دولة القرامطة.
- ابنه سليمان بن الحسن بن بهرام (أبو طاهر): حكم ثلاثين سنة، وفى عهده حدث التوسع والسيطرة وقد هاجم الكعبة المشرفة سنة ٣١٩هـ وسرق الحجر الأسود وأبقاه عنده لأكثر من عشرين سنة.
- الحسن الأعصم بن سليمان: استولى على دمشق سنة ٣٦٠هـ.

ثانيًا: الإسماعيلية الفاطمية:

* وهى الحركة الإسماعيلية الأصلية وقد مرت بعدة أدوار:

- دور الستر: من موت إسماعيل سنة ١٤٣هـ إلى ظهور عبيد الله المهدي. وقد اختلف في أسماء أئمة هذه الفترة بسبب السرية التى انتهجوها.
- بداية الظهور: بدأ الظهور بالحسن بن حوشب الذى أسس دولة الإسماعيلية في اليمن سنة ٢٦٦هـ وامتد نشاطه إلى شمال أفريقيا واكتسب شيوخ كتامة. يلى ذلك ظهور رفيقه على بن فضل الذى ادعى النبوة وأعفى أنصاره من الصوم والصلاة.
- دور الظهور: يبدأ بظهور عبيد الله المهدى الذى كان مقيمًا في سلمية بسوريا ثم هرب إلى شمال إفريقيا واعتمد على أنصاره هناك من الكتاميين.

* قتل عبيد الله داعيته أبا عبد الله الشيعى الصنعانى وأخاه أبا العباس لشكهما في شخصيته وأنه غير الذى رأياه في سلمية.

* أسس عبيد الله أول دولة إسماعيلية فاطمية في المهدية بإفريقية (تونس) واستولى على رقادة سنة ٢٩٧هـ وتتابع بعده الفاطميون وهم:

- المنصور بالله (أبو طاهر إسماعيل) ٣٣٤ - ٣٤١هـ.
- المعز لدين الله (أبو تميم معد): وفى عهده دخلوا مصر سنة ٣٦١هـ وانتقل إليها المعز في رمضان سنة ٣٦٢هـ.
- العزيز بالله (أبو منصور نزار) - ٣٦٥ - ٣٨٦هـ.

- الحاكم بأمر الله (أبو على المنصور) - ٣٨٦ - ٤١١هـ.
- الظاهر (أبو الحسن على) - ٤١١ - ٤٢٧هـ.
- المستنصر بالله (أبو تميم) وتوفى سنة ٤٨٧هـ.
* وبوفاته انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى نزارية شرقية ومستعلية غربية والسبب في هذا الانقسام أن الإمام المستنصر قد نص على أن يليه ابنه نزار لأنه الابن الأكبر. لكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى نحَّى نزارًا وأعلن إمامة المستعلى وهو الابن الأصغر كما أنه في نفس الوقت ابن أخت الوزير. وقام بإلقاء القبض على نزار ووضعه في سجن وسدَّ عليه الجدران حتى مات.
* استمرت الإسماعيلية الفاطميَّة المستعلية تحكم مصر والحجاز واليمن بمساعدة الصليحيين والأئمة هم:
- المستعلى (أبو القاسم أحمد) - ٤٨٧ - ٤٩٥هـ.
- الآمر (أبو على المنصور) - ٤٩٥ - ٥٢٥هـ.
- الظافر (أبو المنصور إسماعيل) - ٥٤٤ - ٥٤٩هـ.
- الفائز (أبو القاسم عيسى) - ٥٤٩ - ٥٥٥هـ.
- العاضد (أبو محمد عبد الله) - من ٥٥٥هـ حتى زوال دولتهم على يدى صلاح الدين الأيوبي.

ثالثًا: الإسماعيلية الحشاشون:

* وهم إسماعيلية نزارية انتشروا بالشام، وبلاد فارس والشرق، ومن أبرز شخصياتهم:
* الحسن بن الصباح: وهو فارسى الأصل وكان يدين بالولاء للإمام المستنصر قام بالدعوة في بلاد فارس للإمام المستور ثم استولى على قلعة آلموت وأسس الدولة الإسماعيلية النزارية الشرقية - وهم الذين عرفوا بالحشاشين لإفراطهم في تدخين الحشيش، وقد أرسل بعض رجاله إلى مصر لقتل الإمام الآمر بن المستعلى فقتلوه مع ولديه عام ٥٢٥هـ. توفى الحسن بن الصباح عام ١١٢٤م.
* كيابزرك أميد توفى سنة ١١٣٥م.
* محمد بن كيابزرك آميد توفى سنة ١١٦٢م.
* الحسن الثانى بن محمد توفى سنة ١١٦٦م.
* محمد الثانى بن الحسن توفى سنة ١٢١٠م.
* الحسن الثالث بن محمد الثانى توفى سنة ١٢٢١م.
* محمد الثالث بن الحسن الثالث توفى سنة ١٢٥٥م.
* ركن الدين خورشاه: من سنة ١٢٥٥هـ إلى أن انتهت دولتهم وسقطت قلاعهم أمام جيش هولاكو المغولى الذى قتل ركن الدين فتفرقوا في البلاد وما يزال لهم أتباع إلى الآن.

رابعًا: إسماعيلية الشام:

* وهم إسماعيلية نزارية، لقد أبقوا خلال هذه الفترات الطويلة على عقيدتهم يجاهرون بها في قلاعهم وحصونهم غير أنهم ظلوا طائفة دينية ليست لهم دولة بالرغم من الدور الخطير الذى قاموا به ولا يزالون إلى الآن في منطقة سلمية بالذات وفى مناطق القدموس ومصياف وبانياس والخوابى والكهف.
- ومن شخصياتهم (راشد الدين سنان) الملقب بشيخ الجبل، وهو يشبه في تصرفاته الحسن بن الصباح، ولقد كون مذهب السنانية الذى يعتقد أتباعه بالتناسخ فضلاً عن عقائد الإسماعيلية الأخرى.

خامسًا: الإسماعيلية البهرة:

* وهم إسماعيلية مستعلية، يعترفون بالإمام المستعلى ومن بعده الآمر ثم ابنه الطيب ولذا يسمون بالطيبية، وهم إسماعيلية الهند واليمن، تركوا السياسة وعملوا بالتجارة فوصلوا إلى الهند واختلط بهم

الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة، والبهرة لفظ هندى قديم بمعنى التاجر.
- الإمام الطيب دخل الستر سنة ٥٢٥هـ والأئمة المستورون من نسله إلى الآن لا يعرف عنهم شيئًا، حتى إن أسماءهم غير معروفة، وعلماء البهرة أنفسهم لا يعرفونهم.
* انقسمت البهرة إلى فرقتين:
- البهرة الداوودية: نسبة إلى قطب شاه داوود: وينتشرون في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجرى وداعيتهم يقيم في بومباي.
- البهرة السليمانية: نسبة إلى سليمان بن حسن وهؤلاء مركزهم في اليمن حتى اليوم.
سادسًا: الإسماعيلية الأغاخانية:
* ظهرت هذه الفرقة في إيران في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وترجع عقيدتهم إلى الإسماعيلية النزارية، ومن شخصياتهم:
- حسن على شاه: وهو الأغاخان الأول: الذى استعمله الإنجليز لقيادة ثورة تكون ذريعة لتدخلهم فدعا إلى الإسماعيلية النزارية، ونفى إلى أفغانستان منها إلى بومباى وقد خلع عليه الإنجليز لقب آغاخان، مات سنة١٨٨١م.
- أغا على شاه وهو الأغاخان الثاني:١٨٨١م - ١٨٨٥م.
- يليه ابنه محمد الحسيني: وهو الآغاخان الثالث:١٨٨٥م - ١٩٥٧م، وكان يفضل الإقامة في أوروبا وقد رتع في ملاذ الدنيا وحينما مات أوصى بالخلافة من بعده لحفيده كريم مخالفًا بذلك القاعدة الإسماعيلية في تولية الابن الأكبر.
- كريم: وهو الآغاخان الرابع: من ١٩٥٧م، وقد درس في إحدى الجامعات الأمريكية.
سابعًا: الإسماعيلية الواقفة:
* وهى فرقة إسماعيلية وقفت عند إمامة محمد بن إسماعيل وهو أول الأئمة المستورين وقالت برجعته بعد غيبته.
الأفكار والمعتقدات:
* ضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل على أن يكون الابن الأكبر وقد حدث خروج على هذه القاعدة عدة مرات.
* العصمة لديهم ليست في عدم ارتكاب المعاصى والأخطاء بل إنهم يؤولون المعاصى والأخطاء بما يناسب معتقداتهم.
* من مات ولم يعرف إمام زمانه ولم يكن في عنقه بيعة له مات ميتة جاهلية.
* يضفون على الإمام صفات ترفعه إلى ما يشبه الإله، ويخصونه بعلم الباطن ويدفعون له خُمس ما يكسبون.
* يؤمنون بالتقية والسرية ويطبقونها في الفترات التى تشتد عليهم فيها الأحداث.
* الإمام هو محور الدعوة الإسماعيلية، ومحور العقيدة يدور حول شخصيته.
* الأرض لا تخلو من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور فإن كان الإمام ظاهرًا جاز أن يكون حجته مستورًا، وإن كان الإمام مستورًا فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين.
* يقولون بالتناسخ، والإمام عندهم وارث الأنبياء جميعًا ووارث كل من سبقه من الأئمة.
* ينكرون صفات الله أو يكادون لأن الله - في نظرهم - فوق متناول العقل، فهو لا موجود ولا غير موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، ولا يقولون بالإثبات المطلق ولا بالنفى المطلق فهو

إله المتقابلين وخالق المتخاصمين والحاكم بين المتضادين، ليس بالقديم وليس بالمحدث فالقديم أمره وكلمته والحديث خلقه وفطرته.

من عقائد البهرة:

* لا يقيمون الصلاة في مساجد المسلمين.

* ظاهرهم في العقيدة يشبه عقائد سائر الفرق الإسلامية المعتدلة.

* باطنهم شيء آخر فهم يصلون ولكن صلاتهم للإمام الإسماعيلى المستور من نسل الطيب بن الآمر.

* يذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين لكنهم يقولون: إن الكعبة هى رمز على الإمام.

* كان شعار الحشاشين (لا حقيقة في الوجود وكل أمر مباح) ووسيلتهم الاغتيال المنظم والامتناع بسلسلة من القلاع الحصينة.

* يقول أبو حامد الغزالى عنهم: (المنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها، وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم).

* يعتقدون أن الله لم يخلق العالم خلقًا مباشرًا بل كان ذلك عن طريق العقل الكلى الذى هو محل لجميع الصفات الإلهية ويسمونه الحجاب، وقد حل العقل الكلى في إنسان هو النبى وفى الأئمة المستورين الذين يخلفونه فمحمد هو الناطق وعلىّ هو الأساس الذى يفسر.

الجذور الفكرية والعقائدية:

* لقد نشأ مذهبهم في العراق، ثم فروا إلى فارس وخراسان وما وراء النهر كالهند والتركستان فخالط مذهبهم آراء من عقائد الفرس القديمة والأفكار الهندية، وقام فيهم ذوو أهواء في انحرافهم بما انتحلوا من نحل.

* اتصلوا ببراهمة الهند والفلاسفة الإشراقيين والبوذيين وبقايا ما كان عند الكلدانيين والفرس من عقائد وأفكار حول الروحانيات والكواكب والنجوم واختلفوا في مقدار الأخذ من هذه الخرافات وقد ساعدتهم سريتهم على مزيد من الانحراف.

* بعضهم اعتنق مذهب مزدك وزرادشت في الإباحية والشيوعية (القرامطة مثلاً).

* ليست عقائدهم مستمدة من الكتاب والسنة فقد داخلتهم فلسفات وعقائد كثيرة أثرت فيهم وجعلتهم خارجين عن الإسلام.

الانتشار ومواقع النفوذ:

* لقد اختلفت الأرض التى سيطر عليها الإسماعيليون مدًّا وجزرًا بحسب تقلبات الظروف والأحوال خلال فترة طويلة من الزمن، وقد غطى نفوذهم العالم الإسلامى ولكن بتشكيلات متنوعة تختلف باختلاف الأزمان والأوقات:

- فالقرامطة سيطروا على الجزيرة وبلاد الشام والعراق وما وراء النهر.

- والعبيديون أسسوا دولة امتدت من المحيط الأطلسى وشمالى أفريقيا، وامتلكوا مصر والشام، وقد اعتنق مذهبهم أهل العراق وخُطب لهم على منابر بغداد سنة ٥٤٠هـ ولكن دولتهم زالت على يد صلاح الدين الأيوبى رحمه الله.

- والآغاخانية يسكنون نيروبى ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكنغو البلجيكى والهند وباكستان وسوريا ومركز القيادة لهم في مدينة كراتشى بباكستان.

- والبهرة استوطنوا اليمن والهند والسواحل القريبة المجاورة لهذين البلدين.

- وإسماعيلية الشام: امتلكوا قلاعًا وحصونًا في طول البلاد وعرضها وما تزال لهم بقايا في مناطق

طويلة،وكان جلال الدين حسن بن محمد زعيم الإسماعيلية قد أرسل إلى جنكيز خان مبعوثًا ليقدم له فروض الولاء والطاعة، عندما اقترب من بلاد ماوراء النهر بقواته، وكان الإسماعيلية هم الذين استحثوا المغول أكثر من مرة على مهاجمة جلال الدين منكبرتي، واستحثوهم على سرعة القضاء على الدولة الخوارزمية وكلما اعتلى العرش المغولى خان جديد كان الإسماعيلية هم أول المهنئين، وفى حالة الوفاة كانوا أول المعزين.

وبالرغم من ذلك فقد وجد هولاكو أن طائفة الإسماعيلية الشيعية التى تتمركز في الجبال في غرب فارس وشرق العراق سوف تمثل خطورة على الجيش المغولي... فطائفة الإسماعيلية مشهورة بقوة القتال، وبالحصون المنيعة، وهى طائفة لا عهد لها ولا أمان.. ومع أن المغول يعلمون أن الإسماعيلية كانوا على خلاف شديد مع الخلافة العباسية، ومع أنهم راسلوا قبل ذلك المغول ليدلوهم على ضعف جلال الدين بن خوارزم قبل مقتله في سنة ٦٢٩ هجرية، ومع أنهم من المنافقين الذين يتزلفون لأصحاب القوة.. مع كل هذه الاعتبارات إلا أن المغول لم يكونوا يأمنون أن تتحرك الجيوش المغولية إلى العراق، ويتركون في ظهرهم قوات عسكرية للإسماعيلية.. هذا بالإضافة إلى ثأر قديم كان بين المغول والإسماعيلية، فقد قتلت الإسماعيلية ابنًا من أبناء جنكيزخان اسمه " جغتاى "، وذلك أيام حملة جنكيزخان على فارس، منذ أكثر من ثلاثين سنة..! ولم ينس المغول هذا الثأر؛ لأنه يخص ابن الزعيم الأكبر لهم،

سلمية والخوابى والقدموس ومصياف وبانياس والكهف.

- والحشاشون: انتشروا في إيران واستولوا على قلعة آلموت جنوب بحر قزوين واتسع سلطانهم واستقلوا بإقليم كبير وسط الدولة العباسية السُنية، كما امتلكوا القلاع والحصون ووصلوا بانياس وحلب والموصل، وولى أحدهم قضاء دمشق أيام الصليبين وقد اندحروا أمام هولاكو المغولي.

- المكارمة: وقد استقروا في نجران.

ويتضح مما سبق:

أن الإسماعيلية في بدايتها كانت إحدى الفرق الشيعية ولكنها غلت في أئمتها أشد من غلو الرافضة، وتأثرت بمؤثرات كثيرة حتى وصل الأمر إلى أن اعتبرتها معظم الفرق الإسلامية كافرة وخارجة من الإسلام، لما أسبغوه على إمامهم من صفات تصل به إلى ما يشبه مقام الألوهية، ولقولهم بالتناسخ وإنكارهم صفات الله سبحانه وتعالى، ولعدم استمدادهم عقيدتهم من خالص الكتاب والسُّنة. وللمزيد من المعلومات، انظر: د / رجب محمود إبراهيم بخيت، الشيعة التاريخ الكامل، ص ١٧٧ - ٢٠٥ باختصار.

والذى جعل منهم مملكة لها شأن في الدنيا، كما أن حكام المغول من نفس عائلة " جنكيزخان" ، ويعتبرون الثأر من الإسماعيلية مسألة شخصية بحتة، حتى إن الجيوش المغولية كانوا يصحبون معهم في حربهم ابنة " جغتاى " القتيل القديم، وذلك لزيادة حماستهم في القتال، ولكى تقوم بنفسها بالثأر لأبيها..

كل هذا دفع المغول إلى العزم على التخلص من الإسماعيلية نهائيًّا.. وصدرت الأوامر من قراقورم بمنغوليا بإبادة هذه الطائفة من على الوجود..

والحقيقة التى أغفلها الإسماعيلية والشيعة عامة هى أن المغول لم تكن عهودًا ولا وعودًا، ولا تقف أطماعهم عند حد معين، وهذه الحقيقة أغفلها الإسماعيلية وظنوا أن كرههم للمسلمين سوف يجمعهم مع المغول وسيكون حصنًا يحتمون فيه من أخطار المغول، ولكن حينما أدرك الإسماعيلية أنهم الفريسة القادمة للمغول - وقد أثارهم مصير جيرانهم المسلمين - وأدركوا أنهم أحد الأهداف القادمة للمغول فتحركوا في اتجاهين، الاتجاه الأول حاولوا فيه أن يؤلفوا من الشعوب التى تعرضت لخطر المغول حلفًا لمواجهة هذا الخطر بما في ذلك من كانوا أعداء الإسماعيلية، وفى نفس الوقت أرسلوا إلى أوربا سنة ١٢٣٨م رسلاً إلى ملوك إنجلترا وفرنسا يعلمونهما بهذا الخطر، ويطلبون في نفس الوقت المساعدة شارحين لهما ما اشتهر به المغول من قسوة وميل لإثارة الرعب والخوف، وما قاموا به في البلاد التى غزوها من تدمير وتخريب وقتل بطريقة غاية في الوحشية، وتحمس الإسماعيلية لإثارة ملوك أوربا ضد المغول، خاصة بعد أن هرع الحكام المجاورين والقائمين بالحكم في آسيا الصغرى وما حولها على تقديم فروض الطاعة والولاء للمغول (١).

ولكن لم تكن المواقف في أوربا على مستوى الحدث، ولم يحصل سفراء الإسماعيلية إلا على وعود جوفاء وإجابات لا تشفى الغليل، بل ظل الأوربيون مشغولون بمشاكلهم الداخلية وبما كان يحدث من صراع بين البابا والإمبراطور فردريك الثانى (٢).

---

(١) محمد مرسى الشيخ، أوربا والتتار، ص ٢٦٥.
(٢) محمد مرسى الشيخ، أوربا والتتار، ص ٢٦٦.

ولما استيقظ الإسماعيلية من غفوتهم وأدركوا أن المغول في الطريق إليهم، حاولوا بالطرق السلمية دفع هذا الخطر فأرسل خورشاه زعيمهم إلى هولاكو الخواجة نصير الدين الطوسي (١) مع طائفة من الوزراء والأعيان والأئمة يحملون الهدايا والتحف والطرائف الكثيرة، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا، حيث تقدم هولاكو صوب قلاع الإسماعيلية واستولى عليها الواحدة تلو الأخري، حتى وصل إلى قلعة آلموت (٢)وشدد الحصار عليها حتى اضطر

---

(١) هو أبو جعفر أبو عبد الله محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي ويعرف بالمحقق، وبالخواجة، ولد بطوس (قرب نيسابور) سنة ٥٩٧هـ، وتوفى ببغداد سن ٦٦٢هـ، وكان مهتمًا بمؤلفات ابن سيناء، وهو أحد المعاول التى مكن للتتار من تدمير بغداد، وقتل المسلمين، فتعامله مع التتار لا ينكره أحد من علماء الشيعة بل يذكرون كونه سببًا في جريان دماء المسلمين كالأنهار في نكبة التتار الشذرات ٥/٣٣٩، البداية والنهاية ١٣/٢٦٧، الأعلام ٧/٣٠. وقال فيه ابن القيم: " ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر وزير الملاحدة النصير الطوسى وزير هولاكو شفى نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة واستشفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين واستبقى الفلاسفة والمنجمين الطبائعيين والسحرة.. إلى أن قال: وبالجملة فكان هذا الملحد هو واتباعه من الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر " والعجيب أن الخميني الشيعي يبارك نشاط الطوسى لدوره في هدم الخلافة الإسلامية وتفويض أركانها أنظر عن ذلك، الخميني، الحكومة الإسلامية ص ١٢٨.

(٢) قلعة آلموت: بالقرب من مدينة قزوين بإيران. استولى عليها الحسن الصباح الملقب بشيخ الجبل، ولبثت مائة وإحدى وسبعين سنة أمنع حصون الإسماعيلية، ثم استولى عليها هولاكو وأمر بتجريدها من آلاتها الحربية سنة ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦م.

وظلت صورة الحياة داخل قلعة (ألموت) أشبه بالأساطير، حتى قدم الرحالة الشهير ماركو بولو، وصفًا دقيقًا لهذه القلعة فيما يلي: " هى أكبر وأجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عين، وتقع في واد بين جبلين، وملأها شيخ الجبل بكل أنواع الفاكهة، وأقام فيها قصورًا ومقصورات من أروع ما يمكن تخيله، وجميعها مغطاة برسوم فاتنة، ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وأقام على خدمة الحديقة فاتنات من أجمل نساء العالم، يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية، ويغنين بأصوات رخيمة، ويؤدين رقصات تخلب الألباب، ذلك لأن شيخ الجبل كان يريد أن يوحى لشعبه بأن هذه هى الجنة الحقيقية، ولذا فقد نظمها بالوصف الذى جاء به محمد للفردوس، كحديقة جميلة، تفيض بأنهار من الخمر واللبن والعسل والماء، ومليئة بالحور العين، ومن المؤكد أن المسلمين في هذه الجهات يعتقدون أنها الجنة حقًا.

ويستطرد الرحالة ماركو بولو في وصفه للقلعة: والآن لا يسمح لأحد بدخول هذه الحديقة إلا لهؤلاء الذين يراد لهم أن يكونوا حشاشين (Ashashin)، وتوجد قلعة عند مدخل الحديقة، تبلغ من القوة والمناعة أنها تستطيع مقاومة كل العالم، وليس هناك طريق آخر للدخول، وهو يحتفظ في بلاطه بشبان من أبناء المنطقة المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، وهى السن الملائمة للجندية، وتعود أن يقص عليهم قصصًا عن الجنة كما كان يفعل محمد، وهم يعتقدون فيه كما يعتقد المسلمون في النبي، ثم

ركن الدين خورشاه إلى الذهاب إلى خيمة هولاكو وأعلن الخضوع والاستسلام، وأرسله هولاكو إلى الخان الأعظم مونكو خان ليرى فيه ما يراه، ولكنه رفض مقابلته، فعاد ركن الدين، ولكنه لقى مصرعه أثناء عودته، وتمكن هولاكو من الاستيلاء على قلعة الموت وغيرها من القلاع وقتل الألوف من أتباع هذه الطائفة سنة ١٢٥٧م.

وبعد قتل ركن الدين خورشاه قام " هولاكو " بخدعة خبيثة قذرة في مناطق الإسماعيلية، فقد أظهر لهم أنه على استعداد للاتفاق معهم، والتعاون سويًّا لدخول بغداد، وطلب من قواد الإسماعيلية أن يقوموا باستدعاء الإسماعيلية من كل مكان حتى يقوم المغول بعملية إحصاء لأعداد الإسماعيلية، وعلى ضوء هذا الإحصاء سيكون الاتفاق، فإن هولاكو - كما يزعم - يخشى أن يضخم الإسماعيلية أنفسهم للحصول على مكاسب أكبر، وبهذه الحيلة بدأ الإسماعيلية في جمع كل أعوانهم حتى جاء رجال من العراق ومن الشام، وعندما اجتمع هذا العدد الكبير قام هولاكو بمذبحة بشعة فيهم، وقتل كل من أمسكه في يده، ولم ينس أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى " سالقان خاتون " ابنة " جغتاى " وحفيدة جنكيزخان لتقتلهم بيدها لتأخذ بثأر أبيها " جغتاى " المقتول على يد الإسماعيلية قبل ذلك..

وهكذا تم في خلال سنة ٦٥٥ هجرية استئصال شأفة الإسماعيلية في هذه المنطقة كلها تقريبًا، ولم ينج منهم إلا الشريد الذى كان يعيش في الشام أو العراق، ولم يأت في عملية الإحصاء المزعومة.. (١).

يدخلهم حديقته في مجموعات من أربعة أو ستة أو عشرة أفراد كل مرة، بعد أن يجعلهم يشربون مخدرًا معينًا يسلمهم إلى نعاس عميق، ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك، وهكذا، فإنهم عندما يستيقظون يحسبون أنفسهم في الفردوس حقًا. وتغازلهم الفتيات بما يملأ قلوبهم حبورًا، حتى يشبعن كل رغبات هؤلاء الشبان إلى درجة أنهم يتمنون ألا يغادروا هذا المكان أبدًا. وعندما يريد شيخ الجبل اغتيال أحد الأمراء فإنه يستدعى أحد الشبان بعد تخديره، ويقول اذهب واقتل فلانًا، وعندما تعود سوف أدخلك إلى الفردوس، وإذا مت فسوف أبعث ملائكتى لتحملك إلى هناك، ولذا يسارعون إلى تلبية كل أوامره مهما كانت عسيرة أو قاتلة رغبة منهم في العودة إلى الفردوس، وهكذا بث شيخ الجبل الرعب في قلوب جميع الأمراء، وجعلهم يدفعون له الجزية مقابل أن يمنحهم السلام والمودة.

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١١١.

ومن طريف ما يروى حول سقوط قلعة الموت أنه كان بها مكتبة ضخمة تحتوى على العديد من الكتب النفيسة، وقد طلب " هولاكو " من حاجبه المسلم عطا الملك الجوينى أن يفحص المكتبة، فأخرج المصاحف والكتب التاريخية والعلمية وأحرق الباقي، ولكن صاعقة نزلت على المكان فأحرقت ما تبقى من كتب ولم ينقذ إلا القليل (١).

وبذلك أصبح الطريق آمنًا مفتوحًا إلى بغداد.. وبدأت الجيوش المغولية الرابضة في فارس تزحف ببطء - ولكن بنظام - في اتجاه عاصمة الخلافة، ووضح للجميع أن اللحظات المتبقية في عمر العاصمة الإسلامية أصبحت قليلة.. بل قليلة جدًّا!!..

هولاكو وإسقاط الخلافة العباسية:

وبعد أن انتهى هولاكو من تدمير قلاع الحشيشية في بلاد فارس، تحركت القوات المغولية لتنفيذ الهدف الثانى من أهداف الحملة وهو مهاجمة بغداد، وإسقاط الخلافة العباسية، وكان على رأس الخلافة العباسية في تلك الفترة الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) (٢) الذى أصبح آخر الخلفاء العباسيين في

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ص ٢٥٣ - ٣٥٤، الجويني، تاريخ جهانكشاي، ٣ / ٢٧٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) عبد الله المستعصم بالله. أبو أحمد، أمير المؤمنين، الشهيد، ابن المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد الهاشمى العباسي، البغدادي، رحمه الله تعالى. آخر الخلفاء العراقيين. وكان ملكهم من سنة اثنتين وثلاثين ومائة إلى هذا الوقت. وُلِد أبو أحمد سنة تسع وستمائة، وبويع بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين، والأصح أنه بويع بعد موت والده في شهر جمادى الآخرة. وكان مليح الخط، قرأ القرآن على الشيخ على ابن النيار الشافعي، وكان كريما حليما، سليم الباطن، حسن الديانة. كان متدينًا متمسكًا بالسنة كأبيه وجده، ولكنه لم يكن على ما كان عليه أبوه وجده الناصر من التيقظ والحزم وعلو الهمة. فإن المستنصر بالله كان ذا همة عالية، وشجاعة وافرة، ونفس أبية، وعنده إقدام عظيم. استخدم من الجيوش ما يزيد على مائة ألف. وكان له أخ يعرف بالخفاجى يزيد عليه في الشهامة والشجاعة، وكان يقول: إن ملكنى الله لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وانتزع البلاد من التتار واستأصلهم. فلما تُوُفِّى المستنصر لم ير الدويدار والشرابى والكبار تقليد الخفاجى الأمر، وخافوا منه، وآثروا المستعصم لما يعلمون من لينه وانقياده وضعْف رأيه، ليكون الأمر إليهم. فأقاموا المستعصم، ثم ركن إلى وزيره ابن العلقمي، فأهلك الحرث والنسل، وحسن له جمع الأموال، والاقتصار على بعض العساكر، وقطع الأكثر. فوافقه على ذلك. وكان فيه شح، وقلة معرفة،

بغداد، وكان يأمل أن يعيد مجد الخلافة مرة أخرى، ولكنه كان رجلاً ضعيف الشخصية، وجعل كل اهتمامه إشباع غرائزه، يضاف إلى ذلك الصراع المذهبى الذى دار داخل البلاط بين وزيره الشيعى مؤيد الدين بن العلقمى (١)، وبين كاتب الخليفة

وعدم تدبير، وحب للمال، وإهمال للأمور. وكان يتكل على غيره، ويقدم على ما لا يليق وعلى ما يستقبح. ولو لم يكن إلا ما فعله مع الناصر داود في أمر الوديعة.

قال الذهبي: وكان يلعب بالحمام، ويهمل أمر الإسلام، وابن العلقمي يلعب به كيف أراد، ولا يطلعه على الأخبار. وإذا جاءته نصيحة في السر أطلع عليها ابن العلقمي ليقضى الله أمرًا كان مفعولا. ثم إن ابن العلقمي عمل على أن لا يخطب بالجوامع، ولا يصلى الجماعة، وأن يبنى مدرسة على مذهب الشيعة ولم يحصل أمله، وفتحت الجوامع، وأقيمت الجماعات. قال الذهبي: تُوُفّى الخليفة في أواخر المحرم أو في صفر، وما أظنه دفن، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان الأمر أعظم من أن يوجد مؤرخ لموته، أو موار لجسده. وقيل: جُعِل في غرارة ورُفس إلى أن مات. ثم دفن وعُفِي أثره. وقد بلغ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي، سير أعلام النبلاء، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ٢٣ / ١٨٠، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٤٨ / ٢٥٨.

(١) أبو طالب الوزير المدبر مؤيد الدين ابن العلقمي البغدادى الرافضى وزير المستعصم، ولى الوزارة أربع عشرة سنة فأظهر الرفض قليلاً وكان وزيرًا كافيًا خبيرًا بتدبير الملك وكان عنده من الضغن ما أوجب له أنه سعى في دمار الإسلام وخراب بغداد على ما هو مشهور لأنه كان شيعى رافضى عمل على ترك الجمعات، وأن يبنى مدرسة على مذهب الرافضة، فما بلغ أمله، وأقيمت الجمعات. وأفشى الرفض فعارضه السنة، وأكبت، فتنمر، ورأى أن هولاكو على قصد العراق فكاتبه وجسره وقوى عزمه على قصد العراق، ليتخذ عنده يدًا، وليتمكن من أغراضه، وحفر للأمة قليبًا، فأوقع فيه قريبًا، وذاق الهوان، وبقى يركب كديشًا وحده، بعد أن كانت ركبته تضاهى موكب سلطان، فمات غبنًا وغمًّا، وفى الآخرة أشد خزيًا وأشد تنكيلاً، أخذ يكاتب التتار إلى أن جرّ هولاكو وجرّأه على أخذ بغداد وقررّ مع هولاكو أمورًا انعكست عليه وندم حيث لا ينفعه الندم وكان كثيرًا ما يقول عند ذلك.

وجرى القضاء بعكس ما أمّلته.

لأنه عومل بأنواع الهوان من أراذل التتار والمرتدة حكى أنه كان في الديوان جالسًا فدخل مع طبه بما أراد وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس ضد التتار ممن لا وجاهة له راكبًا فرسه فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير و " خا " وأنه بلغ مراده، وقال له بعض أهل بغداد من الشيعة الرافضة: يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه وحميت الشيعة حمية لهم وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلق لا يحصون وارتكب من الفواحش من نسائهم وافتضت بناتهم الأبكار مما لا يعلمه إلا الله تعالى فقال: بعد أن قتل من السنة وزعمائهم فلا مبالاة بذلك؟ ولم تطل مدته حتى مات غمًّا وغبنًا في أوائل سنة سبع وخمسين وست مائة، وكان مولده في شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وخمس مائة، وحكى أنه لما كان يكاتب التتار تحيل مرة إلى أن أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقًا بليغًا وكتب ما أراد عليه بوخز الأبر كما يفعل بالوشم ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال إذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه

السنى أيبك الدوادار[(١)] مما جعل الخلافة العباسية تعيش أسوأ فترات حياتها أشبه بالرجل المريض الذى ينتظر أجله المحتوم [(٢)].

وواقع الحال أن جيش الخلافة العباسية أصبح ضعيفًا بعد أن خفض الخلفاء أعداده حتى وصلت إلى عشرين ألفًا بدلاً من مائة ألف فارس لعدم الوثوق في قادته، وظل الاعتماد محصورًا في حصانة مدينة بغداد، وعلى ما يمكن أن يأتى من مساعدة من البيت الأيوبى في مصر والشام، وهذا أمر مشكوك فيه لانشغال القوات الأيوبية في الصراع مع الصليبيين، وعلى إمكانية التفاوض مع المغول ودفع الأموال لتجنب مهاجمة بغداد.

وتقدم هولاكو بقواته صوب العراق لإسقاط الخلافة العباسية، وحاول الكاتب أيبك أن يتصدى للقوات المغولية القادمة من الموصل، ولكن القوات المغولية أوقعته وقواته في كمين لاذ على إثرها بالفرار في الطريق إلى بغداد، وكان ابن العلقمى في ذلك الوقت قد خرج إلى هولاكو فأخذ الأمان لنفسه، ولكن مالبث أن عاد ومعه شروط

وكان في آخر الكلام قطعوا الورقة فضربت رقبته وهذا غاية في المكر والخزى والله أعلم. الصفدي، الوافى بالوفيات - (ج ١ / ص ٨٣)، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٣/ ٢٦٣.

(١) الدويدار، مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير.

الملك، مقدم جيش العراق، مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير.

أحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين الذى كان يقول: لو مكننى أمير المؤمنين المستعصم، لقهرت التتار، ولشغلت هولاكو بنفسه.

وكان مغرى بالكيمياء، له بيت كبير في داره فيها عدة من الصناع والفضلاء لعمل الكيمياء، ولا تصح؛ فحكى شيخنا محيى الدين ابن النحاس، قال:

مضيت رسولاً، فأرانى الدويدار دار الكيمياء، وحدثني، قال:

عارضنى فقير، وقال: يا ملك، خذ هذا المثقال، وألقه على عشرة آلاف مثقال يصير الكل ذهبًا.

ففعلت، فصح قوله، ثم لقيته بعد مدة، فقلت: علمنى الصنعة.

قال: لا أعرفها، لكن رجل صالح أعطانى خمسة مثاقيل، فأعطيتك مثقالاً، ولملك الهند مثقالاً، ولآخرين مثقالين، وبقى لى مثقال أنفق منه.

ثم أرانى الدويدار قطعة فولاذ قد أحميت، وألقى عليها مغربى شيئاً، فصار ما حمى منها ذهبًا وباقيها فولاذ.

قال الكازرونى فيما أنبأني: إن الخليفة قتل معه عدة من أعمامه وأولاده وابن الجوزى ومجاهد الدين الدويدار الذى تزوج ببنت بدر الدين صاحب الموصل، وحمل رأسه ورأس الملك سليمان شاه وأمير الحج فلك الدين، فنصبوا بالموصل. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٧٢/٢٣.

(٢) محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٥٩.

هولاكو بالاستسلام، واستيقظ الخليفة من غفلته على واقع مرير يقول العصامى - واصفًا ما حدث لبغداد والخليفة -: وكان التتار جائلين في الأرض يقتلون ويأسرون ويخربون الديار، ونارهم في غاية الاشتعال والاستعار، والمستعصم ومن معه في غفلة عنهم؛ لإخفاء ابن العلقمى عنه سائر الأخبار، إلى أن وصل هولاكو خان إلى بلاد العراق، واستأصل من بها قتلاً وأسرًا.

وتوجه إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة يطلبه، فاستيقظ من نوم الغرور، وندم على غفلته حيث لا ينفع الندم، وجمع من قدر عليه وبرز إلى قتاله، وجمع من أهل بغداد خاصته، ومن عبيده وخدامه ما يقارب أربعين ألف مقاتل، لكنهم مرفهون بلين المهاد، وساكنون على شط بغداد، في ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب، ما كابدوا حربًا، ولا ذاقوا طعنًا ولا ضربًا، وعساكر المغول ينوفون على مائة ألف مقاتل، فوقع التصاف، والتحم القتال، وزحف الخميس إلى الخميس، يوم الخميس عاشر محرم سنة ست وخمسين وستمائة، وصبر أهل بغداد على حر السيوف، صبروا مضطرين على طعم الحتوف، وأعطوا الدار حقها، واستقبلوا غمام السهام وبلها وودقها، واستمروا كذلك من إقبال الفجر إلى إدبار النهار، فعجزوا عن الاصطبار، وانكسروا أشد انكسار، وولوا الأدبار، وغرق كثير منهم في دجلة، وقتل أكثرهم شر قتلة، ووضعت التتار فيهم السيف والنار، فقتلوا في ثلاثة أيام ما ينوف على ثلاثمائة ألف وسبعين ألفًا، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الخزائن والأموال، وأخذ " هولاكو " جميع النقود، وأمر بحرق الباقي، ورمى كتب مدارس بغداد في دجلة، وكانت لكثرتها جسرًا يمرون عليها ركبانًا ومشاة، وتغير لون الماء بحبرها إلى السواد، فأشار الوزير على الخليفة بمصانعتهم وقال: أنا في تقرير الصلح، فخرج، ووثق لنفسه بينهم، ورجع إلى الخليفة وقال: إن الملك هولاكو قد ركب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يؤثر أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع سلاطين الديلم والسلجوقية، وينصرف عنك بجنوده، فيجيب مولانا إلى هذا، فإن فيه حقنًا لدماء من بقى من المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، فالرأى أن تخرج إليهم.

فخرج الخليفة في أعيان دولته فأنزل في خيمة، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء

والأماثل ليحضروا العقد، فخرجوا من بغداد، فضربت أعناقهم، وكذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم، حتى قتل جميع من فيها من العلماء والأمراء والحجاب والكتاب، واستبقى هولاكو المستعصم أيامًا إلى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره، ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه، وأمر أن يوضع الخليفة في غرارة، ويرفس بالأرجل حتى يموت؛ ففعل به ذلك.

وفى رواية: أن خروج الخليفة المستعصم إليه كان قبل وقوع شيء من القتال، ثم لما خرج وفعل به ومن معه ما فعل - بذل السيف في بغداد، واستمر السيف نحو أربعين يومًا، فبلغت القتلى أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة(١).

إنهم لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة، كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد..{كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة: ٨].

عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التى سجلتها الروايات التاريخية والتى نكتفى فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ « البداية والنهاية » لابن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ هـ:... ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان. ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار. إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم. فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجرى الميازيب من الدماء في الأزقة - فإنا لله وإنا إليه راجعون - كذلك في المساجد والجوامع والربط. ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا أمانًا بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة..

---

(١) سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي، ٢/٢٠٥.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل: ثمانمائة ألف. وقيل: ألف ألف. وقيل: بلغت القتلى ألفى ألف نفس - فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم - وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم. وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا.. وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر، وعفى قبره، وكان عمره يومئذ ستًا وأربعين سنة وأربعة أشهر. ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام. وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة. ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم..

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج ابن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد. منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد.. وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علىّ ابن النيار. وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن. وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات عدة شهور ببغداد!؟..

ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يومًا، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون (١).

---

(١) راجع ابن كثير، البداية والنهاية أحداث عام ٦٥٦ هـ.

كان وزير الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين بن العلقمى ببغداد، وكان رافضيًّا خبيثًا حريصًا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين، يدبر ذلك في (١)

(١) سميت الرافضة من الشيعة: رافضة، لرفضهم زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وتركهم الخروج معه، حين سألوه البراءة من أبى بكر وعمر، فلم يجبهم على ذلك.
وروى عوانة بن الحكم قال: لما استتب الأمر لزيد بن علىّ عليه السلام جمع أصحابه فخطبهم وأمرهم بسيرة علىّ بن أبى طالب في الحرب.
فقالوا: قد سمعنا مقالتك، فما تقول في أبى بكر وعمر؟ فقال: وما عسيت أن أقول فيهما؟ صحبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأحسن الصحبة، وهاجرا معه، وجاهدا في الله حق جهاده، ما سمعت أحدًا من أهل بيتى تبرأ منهما، ولا يقول فيهما إلا خيرًا.
قالوا: فلم تطلب بدم أهل بيتك، ورد مظالمهم إذًا، وليس قد وثبا على سلطانهم، فنزعاه من أيديكم، وحملا الناس على أكتافكم، يقتلونكم إلى يومكم هذا؟ فقال لهم زيد: إنما وليا علينا وعلى الناس، فلم يألوا العمل بكتاب الله وسنة رسوله.
قالوا: فلم يظلمك بنو أمية إذًا، إن كان أبو بكر وعمر لم يظلماك!؟ فلم تدعونا إلى قتال بنى أمية، وهم ليسوا لكم ظالمين، لأن هؤلاء إنما تبعوا في ذلك سنة أبى بكر وعمر؟.
فقال لهم زيد: إن أبا بكر وعمر ليسا كهؤلاء، هؤلاء ظالمون لكم ولأنفسهم، ولأهل بيت نبيهم، وإنما أدعوكم إلى كتاب الله ليعمل به، وإلى السنة أن يعمل بها، وإلى البدع أن تطفأ، وإلى الظلمة من بنى أمية أن تخلع وتنفى، فإن أجبتم سعدتم، وإن أبيتم خسرتم، ولست عليكم بوكيل.. نشوان الحميري، الحور العين، ٥٣/١.
يقو ابن تيمية عن الروافض.
وَمَذْهَبُ الرَّافِضَةِ شَرٌّ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ؛ فَإِنَّ الْخَوَارِجَ غَايَتُهُمْ تَكْفِيرُ عُثْمَانَ وعلى وَشِيعَتِهِمَا. وَالرَّافِضَةَ تَكْفِيرُ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَجُمْهُورِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ وَتَجْحَدُ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْظَمَ مِمَّا جَحَدَ بِهِ الْخَوَارِجُ وَفِيهِمْ مِنْ الْكَذِبِ وَالافْتِرَاءِ وَالْغُلُوِّ وَالإِلْحَادِ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ وَفِيهِمْ مِنْ مُعَاوَنَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا لَيْسَ فِي الْخَوَارِجِ. وَالرَّافِضَةُ تُحِبُّ التَّتَارَ وَدَوْلَتَهُمْ؛ لأَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ بِهَا مِنْ الْعِزِّ مَا لا يَحْصُلُ بِدَوْلَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَالرَّافِضَةُ هُمْ مُعَاوِنُونَ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ فِي دُخُولِ التَّتَارِ قَبْلَ إسْلامِهِمْ إلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَكَانُوا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ مُعَاوَنَةً لَهُمْ عَلَى أَخْذِهِمْ لِبِلادِ الإِسْلامِ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْى حَرِيمِهِمْ. وَقَضِيَّةُ ابْنِ العلقمى وَأَمْثَالِهِ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَقَضِيَّتِهِمْ فِي حَلَبَ مَعَ صَاحِبِ حَلَبَ: مَشْهُورَةٌ يَعْرِفُهَا عُمُومُ النَّاسِ. وَكَذَلِكَ فِي الْحُرُوبِ الَّتِى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ النَّصَارَى بِسَوَاحِلِ الشَّامِ: قَدْ عَرَفَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ أَنَّ الرَّافِضَةَ تَكُونُ مَعَ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ عَاوَنُوهُمْ عَلَى أَخْذِ الْبِلادِ لَمَّا جَاءَ التَّتَارُ وَعَزَّ عَلَى الرَّافِضَةِ فَتْحُ عكَّةَ وَغَيْرِهَا مِنْ السَّوَاحِلِ وَإِذَا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ النَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ ذَلِكَ غُصَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ وَإِذَا غَلَبَ الْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى الْمُسْلِمِينَ كَانَ ذَلِكَ عِيدًا وَمَسَرَّةً عِنْدَ الرَّافِضَةِ. وَدَخَلَ فِي الرَّافِضَةِ أَهْلُ الزَّنْدَقَةِ وَالإِلْحَادِ مِنْ " النصيرية " و" الإِسْمَاعِيلِيَّةِ " وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمَلاحِدَةِ " الْقَرَامِطَةِ " وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانَ بِخُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالرَّافِضَةُ جهمية قدرِيَّةٌ وَفِيهِمْ مِن الْكَذِبِ وَالْبِدَعِ وَالافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْخَوَارِجِ الْمَارِقِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ على وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَلْ فِيهِمْ مِنَ الرِّدَّةِ عَنْ شَرَائِعِ الدِّينِ أَعْظَمُ مِمَّا فِي مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالصَّحَابَةُ.

الباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك.

كان مؤيد الدين رجلاً فاسدًا خبيثًا رافضيًّا (يرفض خلافة أبى بكر الصديق وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما)، وكان شديد التشيع، كارهًا للسنة ولأهل السنة، ومن العجب أنه يصل إلى هذا المنصب المرموق وهو على هذه الصفة، وفى دولة سنية تحمل اسم الخلافة، ولا شك أن هذا كان قلة رأي، وضحالة فكر، وسوء تخطيط من الخليفة المستعصم بالله الذى ترك هذا الوزير المفسد في هذا المكان الخطير..

وهذا الوزير هو ممن ينطبق عليهم وصف " بطانة السوء ".. ولا يخفى على عاقل كيف يكون دور بطانة السوء في فساد البلاد، وهلاك العباد..

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّ بِهِ النَّبِى ﷺ الْخَوَارِجَ قوْلُهُ فِيهِمْ:﴿يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ﴾ كمَا أَخْرَجَا في الصَّحِيحَيْنِ؛ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قالَ: بَعَثَ على إِلى النَّبِى ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فَقسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةٍ - يَعْنِى مِنْ أُمَرَاءِ نَجْدٍ - فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ. قالُوا: يُعْطِى صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا. قالَ: إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ. فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاتِئُ الْجَبِينِ كثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ فقالَ: يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ. فقالَ: مَنْ يُطِعْ اللَّهَ إِذَا عَصَيْته أَيَأْمَنُنِى اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلا تَأْمَنُونِي؟ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قتلَهُ فَمَنَعَهُ. فلمَّا وَلَّى قالَ:﴿إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا – أَوْ في عَقِبِ هَذَا – قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ؛ لَئِنْ أَدْرَكْتهم لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ﴾وَفِى لَفْظٍ في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قسَمًا - أَتَاهُ ذُو الخويصرة - وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ - فقالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ. فقالَ:﴿وَيْلك فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلُ قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ﴾ فقالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذَنُ لِى فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟ فقالَ:﴿دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ. يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ يَنْظُرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ. آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْىِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ. يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ﴾ قالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّى سَمِعْت هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَشْهَدُ أَنَّ على بْنَ أَبِى طَالِبٍ قاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ. فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِى بِهِ حَتَّى نَظَرْت إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِى نَعَتَهُ. فَهَؤُلاءِ الْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ مِنْ أَعْظَمِ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ النَّبِى ﷺ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ وَذَكَرَ: أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ وَالْخَوَارِجُ مَعَ هَذَا لَمْ يَكُونُوا يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَالرَّافِضَةِ يُعَاوِنُونَ الْكُفَّارَ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّهُمْ لا يُقَاتِلُونَ الْكُفَّارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْكُفَّارِ فَكَانُوا أَعْظَمَ مُرُوقًا عَنْ الدِّينِ مِنْ أُولَئِكَ الْمَارِقِينَ بِكَثِيرٍ كَثِيرٍ. وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى وُجُوبِ قِتَالِ الْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ وَنَحْوِهِمْ إِذَا فَارَقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَاتَلَهُمْ على رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ. ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤٢٦/٦، وانظر أيضًا للمؤلف، تاريخ التطرف الشيعي، من إصدارات دار الإيمان بالمنصورة والقاهرة.

روى البخاري عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿**ما استخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله**﴾.. (١).

والأسوأ من ذلك أن هذا الوزير لم يبق في مكانه شهرًا أو شهرين أو عامًا أو عامين، وإنما بقى في مكانه أربعة عشر سنة كاملة، من سنة ٦٤٢ هجرية إلى سنة ٦٥٦ هجرية عندما سقطت بغداد.. وإذا مرت كل هذه الفترة دون أن يدرك الخليفة خطورته، فلاشك أن هذا دليل واضح على خفة عقل الخليفة..

لقد اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمى الشيعي، مستغلاً فساده وتشيعه وكراهيته للسنة، واتفق معه على تسهيل دخول الجيوش التترية إلى بغداد، والمساعدة بالآراء الفاسدة، والاقتراحات المضللة التى يقدمها للخليفة العباسى المستعصم بالله، وذلك في مقابل أن يكون له شأن في " مجلس الحكم " الذى سيدير بغداد بعد سقوط الخلافة، والتخلص من الخليفة.. وقد قام الوزير الفاسد بدوره على أكمل ما يكون.. وكان له أثر بارز على قرارات الخليفة، وعلى الأحداث التى مرت بالمنطقة في تلك الأوقات..

ومن عجائب ومفارقات حرب المغول على الخلافة العباسية في العراق هو أن الناصر يوسف أمير دمشق أرسل ابنه العزيز ليكون في جيش هولاكو..

كما أرسل أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فرقة مساعدة لجيش التتار.. وهاتان الفرقتان وإن كانتا هزيلتين إلا إنهما كانتا تحملان معانى كثيرة.. فهناك في جيش التتار مسلمون يشتركون مع التتار في حرب المسلمين!! بل قد يشارك في عملية " تحرير العراق " عراقيون متحالفون مع التتار!!.. عراقيون باعوا كل شيء في مقابل كرسى صغير أو إمارة تافهة أو دراهم معدودات.. أو مجرد حياة.. أى حياة..

---

(١) البخارى كتاب: القدر. باب: ٨، فتح البارى (٥٠١/١١)، ورواه النسائى في كتاب: البيعة (٣٨)، وأحمد في مسنده (٢٨٩/٢)، (٣٩/٣).

وإذا كان المغول قد أبرموا اتفاقيات ومعاهدات مع قوى كثيرة فكل هذه المفاوضات والمعاهدات في كفة، فالمفاوضات التى سأذكرها الآن في كفة أخرى.. ليس لأهميتها فقط ولكن لغرابتها.. أو قل: لبشاعتها!!..

فقد عقد المغول المعاهدات مع بعض " أمراء المسلمين " لتسهيل ضرب " بلاد المسلمين "..!!

ولم يعقد " منكوخان " هذه المعاهدات بنفسه؛ لأنه استهان جدًّا بهؤلاء الأمراء؛ فقد كان كل واحد منهم لا يملك سوى بضعة كيلومترات، ومع ذلك يسمى نفسه أميرًا، بل ويلقب نفسه بالألقاب الفاخرة مثل المعظم والأشرف والعزيز والسعيد وغير ذلك..

وكل " منكوخان " أخاه هولاكو في عقد هذه الاتفاقيات المخزية.. فجاء أمراء المسلمين الضعفاء يسارعون في المغول الأقوياء..

{ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ } [المائدة: ٥٢].

- فجاء إلى هولاكو " بدر الدين لؤلؤ " أمير الموصل ليتحالف معه..

- وجاء سلطانا السلاجقة وهما " كيكاوس الثانى "، و" قلج أرسلان الرابع " ليتحالفا أيضًا مع هولاكو، وكانا في مكان حساس جدًّا، فهما في شمال العراق (تركيا الآن)، وتحالفهما يؤدى إلى حصار العراق من الشمال، وقد كان أسلوب كيكاوس الثانى في التزلف إلى المغول مخزيًا جدًّا إلى الدرجة التى صدمت التتار أنفسهم!..

- ورضخ أيضًا " الناصر يوسف " أمير حلب ودمشق، ومع كونه حفيد " الناصر صلاح الدين الأيوبى " رحمه الله، بل شبيهه في الاسم واللقب.. إلا أنه لم يكن يشبهه في شيء من الأخلاق أوالروح، بل كان مهينًا إلى الدرجة التى أرسل ابنه " العزيز " لا ليقدم إلى هولاكو فروض الطاعة فقط، بل ليبقى معه في جيشه كأحد أمرائه!!..

- وكذلك جاء " الأشرف الأيوبى " أمير حمص ليقدم ولاءه لزعيم المغول [١].

لقد كانت هذه التحالفات في منتهى الخطورة.. فهى - بالإضافة إلى مهانتها وحقارتها - قد زادت جدًّا من قوة المغول الذين أصبحوا يحاصرون العراق من كل مكان، ويعرفون أخبار البلاد من داخلها، وفوق ذلك فإن هذه التحالفات أدت إلى إحباط شديد عند الشعوب التى رأت حكامها على هذه الصورة المخزية؛ فضعفت الهمم، وفترت العزائم، وانعدمت الثقة في القادة، ومن ثم لم يعد لهم طاقة بالوقوف في وجه المغول..

لقد كانت هذه الاتفاقيات جريمة بكل المقاييس!!.. [٢].

بقى: أن نقول إنه لم يكن سقوط بغداد (٦٥٦ هـ) ممكنًا لولا خيانة الوزير ابن العلقمي؛ لأن القوى الخارجية تبقى محدودة التأثير ما لم تتعاون معها قوى عميلة من الداخل.

ولم تكن مأساة سقوط بغداد هى الوحيدة التى أبتلى بها المسلمون فقد تكررت مآسى المسلمين بعد سقوط بغداد فتساقطت مدن الأندلس واحدة تلو الأخرى وتتابعت المآسي، فضاعت فلسطين وبضياعها ضاعت حقوق أهلها، وها نحن الآن نعاصر ضياع البوسنة والهرسك وأفغانستان والعراق والصومال - وما خفى كان أعظم - والأعداء هم الأعداء، وطريقة الضياع هى نفسها لم تتغير، والعالم الإسلامى يقف متفرجًا كأنما أصيب بالشلل التام.

إنه أمر عجيب تحار فيه العقول!!

ما الذى دهى المسلمين حتى ضاعوا وأضاعوا حقوقهم وبلادهم. إننا لا نطلب من العلماء والمفكرين وصف الداء بل وصف الأدواء علنّا نجد مخرجًا من هذا المأزق، كما نطلب أن يتحملوا المسؤولية كاملة قولاً وعملاً، قيامًا بما يمليه عليهم الواجب في هذه الأيام العصيبة التى كرست اليأس الذى يكاد أن يحيط بالمسلمين.

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.
(٢) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١٠٧.

وصدق حكم التاريخ... لقد كان هولاكو هو الزعيم التترى السفاح.. الذى لا يمتلك أية نزعة إنسانية.. الرجل الذى كان لا يرتوى إلا بدماء البشر.. تمامًا كسلفه جنكيزخان، لعنهما الله..

هولاكو.. شخصية من أبشع الشخصيات في تاريخ الأرض!!..

ولأنه كان موكلا بقيادة إقليم فارس، فإن مجال عمله الرئيسى كان البلاد الإسلامية.. وكانت معظم الدماء التى أراقها دماءً إسلامية.. ومعظم الآلام التى زرعها في قلوب البشر كانت في قلوب المسلمين.. وسبحان الله!.. كأن الحقد الذى كان في قلب هولاكو لم يكن كافيًا لتدمير الأرض، فقد تزوج امرأة لا تقل عنه حقدًا وبطشًا وظلمًا.. لقد تزوج من الأميرة المغولية " طقزخاتون "، وكانت امرأة قوية ذات نفوذ في البلاط المغولي، وكانت فوق ذلك قد انتقلت إلى النصرانية، وكانت شديدة التعصب لديانتها، وشديدة الكراهية للإسلام..

وهكذا اجتمع هولاكو مع زوجته " طقزخاتون " ليصبا جام غضبهما على الأمة الإسلامية.. وكان الهدف واضحًا في ذهن هولاكو.. إنه كان يريد بوضوح أن يُسقط " بغداد " عاصمة الخلافة العباسية، ثم يتجاوزها إلى ما بعدها..

كان هذا العرض - سقوط بغداد - بلغة المؤرخ...

ولكن إذا عرضنا سقوط بغداد بلغة المفكر الأديب... كما يقول الدكتور راغب السرجاني:

كانت بغداد في ذلك الوقت من أشد مدن الأرض حصانة.. وكانت أسوارها من أقوى الأسوار.. فهى عاصمة الخلافة الإسلامية لأكثر من خمسة قرون، وأنفق على تحصينها مبالغ طائلة وجهود هائلة.. لكن وا أسفاه على المدينة الحصينة!!..

لقد كانت الحصون تحتاج إلى رجال.. ولكن ندر الرجال في ذلك الزمن!..

من على رأس الدولة في الخلافة العباسية؟

إنه الخليفة السابع والثلاثون والأخير من خلفاء بنى العباس في بغداد..

إنه " المستعصم بالله "..

اسم كبير " المستعصم بالله ".. ولقب كبير أيضًا: " خليفة المسلمين "..

ولكن أين مقومات الخلافة في " المستعصم بالله "؟..

عندما تقرأ عن صفات الخليفة الذاتية في كتب السير مثل تاريخ الخلفاء للسيوطي، أو البداية والنهاية لابن كثير أو غيرها من الكتب تجد أمرًا عجبًا..

تجد أنهم يصفون رجلاً فاضلاً في حياته الشخصية وفى معاملاته مع الناس.. (رجل يتميز بالطيبة.. مثلما يقولون)..

يقول ابن كثير مثلاً:

(كان حسن الصورة جيد السريرة، صحيح العقيدة، مقتديًا بأبيه " المستنصر بالله " في العدل، وكثرة الصدقات، وإكرام العلماء والعباد.. وكان سنيًّا على مذهب السلف..)

ولا أدرى في الحقيقة ماذا يقصد بأنه كان على مذهب السلف؟!

ألم يكن في مذهب السلف جهاد؟!

ألم يكن في مذهب السلف إعداد للقتال؟!

ألم يكن في مذهب السلف دراسة لأحوال الأرض ولموازين القوى؟!

ألم يكن في مذهب السلف حمية ونخوة لدماء المسلمين التى سالت على مقربة من العراق في فارس وأذربيجان وغيرها؟!

ألم يكن في مذهب السلف وحدة وألفة وترابط؟!

لقد كان الخليفة المستعصم صالحًا في ذاته.. كان رجلاً طيبًا.. لكنه افتقر إلى أمور لا يصح أن يفتقر إليها حاكم مسلم..

- لقد افتقر إلى القدرة على إدارة الأمور والأزمات..

- افتقر إلى كفاءة القيادة..

- افتقر إلى علو الهمة، والأمل في سيادة الأرض والنصر على الأعداء، ونشر دين الله..

- افتقر إلى الشجاعة التى تمكنه من أخذ قرار الحرب في الوقت المناسب..

- افتقر إلى القدرة على تجميع الصفوف، وتوحيد القلوب، ونبذ الفرقة، ورفع راية الوحدة الإسلامية..

- افتقر إلى حسن اختيار أعوانه، فتجمعت من حوله بطانة السوء.. الوزراء يسرقون، والشرطة يظلمون، وقواد الجيش متخاذلون..!!

- افتقر إلى محاربة الفساد، فعم الفساد وطغى.. وكثرت الاختلاسات من أموال الدولة، وعمت الرشاوى، وطغت الوساطة.. وانتشرت أماكن اللهو والفساد والإباحية والمجون.. بل وأعلن عنها صراحة!! ودعى إليها على رءوس الأشهاد!! الراقصات الخليعات ما كنّ يختفين في هذا البلد الإسلامى بل يعلنَّ عن أنفسهن صراحة!!..

نعم كان الخليفة محسنًا في أداء شعائر الدين من صلاة وصيام وزكاة.. نعم كان لسانه نظيفًا.. وكان محبًّا للفقراء والعلماء.. وكل ذلك جميل في مسؤوليته أمام نفسه، لكن أين مسؤوليته أمام مجتمعه وأمته؟

لقد ضعف الخليفة تمامًا عن حمل مسؤولية الشعب..

لقد كان باستطاعة الخليفة أن يدبر من داخل العراق مائة وعشرين ألف فارس فضلاً عن المشاة والمتطوعين.. وكان الجيش التترى المحاصر لبغداد مائتى ألف مقاتل، وكان هناك أمل كبير في رد الغزاة، لكن الخليفة كان مهزومًا من داخله.. وكان فاقدًا للروح التى تمكنه من المقاومة، كما أنه لم يربّ شعبه على الجهاد، ولم يعلمهم فنون القتال..

وإلا.. فأين معسكرات التدريب التى تعد شباب الأمة ليوم كيوم التتار؟!

أين الاهتمام بالسباحة والرماية وركوب الخيل؟!

أين التجهيز المعنوى للأمة لتعيش حياة الجد والنضال؟!

أنا لست متحاملاً على الخليفة!!..

لقد حكم هذا الخليفة بلاده ما يقرب من ستة عشر عامًا..

إنه لم يفاجأ بالحكم.. ولم يأته الأمر على عجل..

لقد رُبّى ليكون خليفة، وتولى الحكم وهو في سن الحادية والثلاثين.. وكان شابًّا ناضجًا واعيًا.. وأعطى الفرصة كاملة لإدارة البلاد.. وظل في كرسى حكمه ستة عشر عامًا كاملة.. فإن كان كفئًا فكان عليه أن يعد العدة، ويقوى من شأن البلاد، ويرفع من هيبتها، ويعلى من شأنها، ويجهز جيشها، ويعز رأيها.. وإن كان غير ذلك فكان عليه - إن كان صادقًا - أن يتنحى عن الحكم.. ويترك الأمر لمن يستطيع.. فهذه ليست مسؤولية أسرة أو قبيلة.. إنما هى مسؤولية أمة.. وأمة عظيمة كبيرة جليلة.. أمة هى خير أمة أخرجت للناس..

لكن الخليفة لم يفعل أيًّا من الأمرين.. لا هو قام بالإعداد، ولا هو قام بالتنحي.. فكان لابد أن يدفع الثمن، وكان لابد لشعبه الذى رضى به أن يدفع الثمن معه..

وعلى قدر عظم الأمانة التى ضاعت، سيكون الثمن الذى يدفعه الخليفة ومعه الشعب.. وسترون كيف كان ثمنًا باهظًا!!..

والبلاد لم يكن ينقصها المال اللازم لشراء السلاح أو تصنيعه، بل كانت خزائن الدولة ملأى بالسلاح، لكنه إما سلاح قديم بالٍ أكل عليه الدهر وشرب، وإما سلاح جديد عظيم لم يستخدم من قبل.. ولكن - للأسف الشديد - لم يتدرب عليه أحد..

والنتيجة: جيش الخلافة العباسية جيش هزيل ضعيف، لا يصلح أن يكون جيشًا لإمارة صغيرة، فضلاً عن خلافة عظيمة..

كان هذا شأن الخليفة في بغداد!!

أما حكومة بغداد.. فكيف كان حالها؟!... لقد كانت البطانة كالحاكم، وكان الحاكم كالبطانة.. كانت الحكومة - كالجيش - هزيلة ضعيفة مريضة.. مكونة من " أشباح " وزراء! ليس من همهم إلا جمع المال والثروات، وتوسيع نطاق السلطة، والتحكم في رقاب العباد، والتنافس الشريف وغير الشريف فيما بينهم، والتصارع المرير من أجل دار أو منصب أو حتى جارية...! وكان على رأس هذه الوزارة الساقطة رئيس وزراء خائن باع البلاد والعباد، ووالى أعداء الأمة، وعادى أبناءها!!.. لقد كانت تلك

الوزارة سيفًا مسلطًا على رقاب وأموال المسلمين.. ولم تكن علاقاتهم بالمسلمين الذين يحمونهم علاقة الإخوة بإخوانهم.. وإنما كانت علاقة السادة بعبيدهم..

وماذا عن الشعب في بغداد؟

كيف كانت طبيعته؟ وكيف كانت طموحاته؟!

لا تتوقعوا أنه شعب قد ظُلم بخليفة ضعيف أو هزيل.. فالحكام إفراز طبيعى جدًّا جدًّا للشعوب..

" كما تكونوا يُوَلَّ عليكم "..

الشعب في بغداد آنذاك كان شعبًا كبيرًا ضخمًا.. كان يبلغ ثلاثة ملايين نسمة على الأقل، وبذلك تعد بغداد أكثر مدن العالم ازدحامًا في ذلك الوقت، هذا إلى جانب السكان في المدن والقرى المحيطة.. فلم تكن تنقصهم الطاقة البشرية، ولكنهم كانوا شعبًا مترفًا.. أَلِف حياة الدعة والهدوء والراحة.. الملتزم فيهم بدينه اكتفى بتحصيل العلم النظري، وحضور الصلوات في المساجد، وقراءة القرآن، ونسى الفريضة التى جعلها رسول الله صلى الله عليه سلم ذروة سنام الإسلام وهى فريضة الجهاد، وغير الملتزم منهم بدينه - وهم كثير - عاشوا لشهواتهم وملذاتهم، وتنافسوا في ألوان الطعام والثياب، وفى أعداد الجوارى والغلمان، وفى أنواع الديار والحدائق والبساتين والدواب، ومنهم من التهى بسماع الأغانى والألحان عن سماع القرآن والحديث، ومنهم من شرب الخمر، ومنهم من سرق المال، ومنهم من ظلم العباد.. وفوق ذلك فإنهم ظلوا قرابة الأربعين سنة يسمعون عن المذابح البشعة التى تتم في إخوانهم المسلمين في أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وفارس وأذربيجان والشيشان.. سمعوا عن كل هذه المذابح ولم يتحركوا.. وسمعوا عن سبى النساء المسلمات ولم يتحركوا.. وسمعوا عن خطف الأطفال المسلمين ولم يتحركوا.. وسمعوا عن اغتصاب بنات المسلمين ولم يتحركوا.. وسمعوا عن سرقة الأموال، وتدمير الديار، وحرق المساجد، ولم يتحركوا.. بل سمعوا أن خليفتهم " الناصر لدين الله " جد "

المستعصم بالله " كان يساعد التتار ضد المسلمين الخوارزمية ولم يتحركوا!!..

سمعوا بكل ذلك وأضعافه ولم يتحركوا..

فلابد أن يكون الجزاء من جنس العمل!!..

" كما تدين تدان "

سيأتى يوم يذوق فيه هذا الشعب كل ما كان يُفعل في الشعوب المسلمة الأخرى، ولن يتحرك له أحد من المسلمين، بل سيساعدون التتار عليهم كما ساعدوهم على إخوانهم من قبل.. وهكذا تدور الدوائر..

ولا يقولن قائل: إن الشعب مغلوب على أمره.. فالشعوب التى تقبل بكل هذا الانحراف عن نهج الشريعة شعوب لا تستحق الحياة.. الشعوب التى لا تثور إلا من أجل لقمة عيشها شعوب ليس لها أن ترفع رأسها..

ثم أين العلماء؟ وأين الرجال؟ وأين الشباب؟ وأين المجاهدون؟

أين الآمرون بالمعروف؟ وأين الناهون عن المنكر؟

أين الحركات الإصلاحية في هذا المجتمع الفاسد؟

أين الفهم الصحيح لمقاصد الشريعة، ولأصول الدين؟

أليس في بغداد رجل رشيد؟!

لقد كان هذا هو الوضع في بغداد..

أما خارج بغداد فالوضع كما تعلمون.. فهناك جيوش التتار تتحرق شوقا لتعذيب المسلمين، والمسلمون في استكانة ينتظرون التعذيب!..

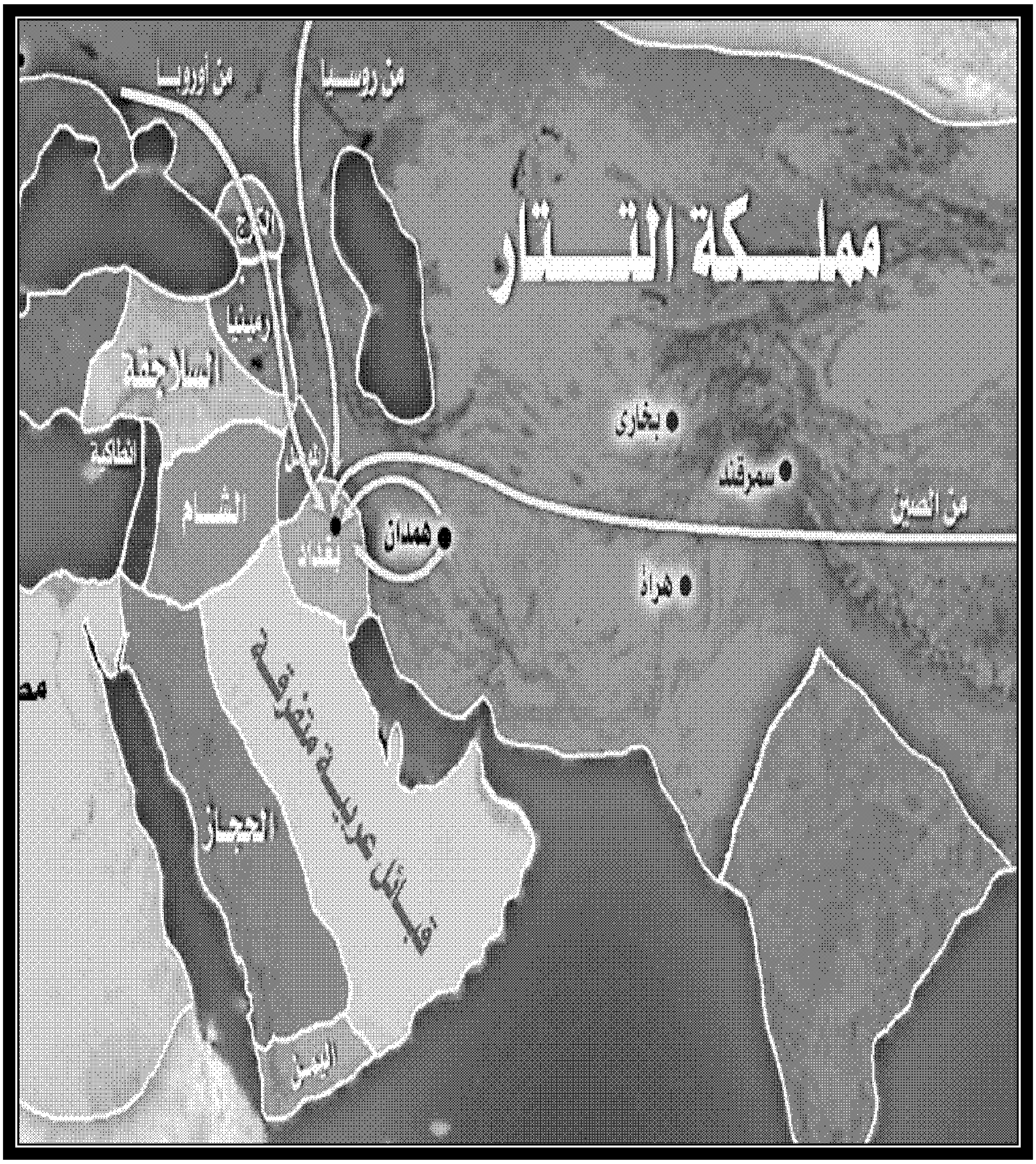

القوات المغولية (التترية) المحاصرة لبغداد

وبدأ الحصار!!

وبينما المسلمون على هذه الحالة إذ ظهر فجأة جيش هولاكو قبالة الأسوار الشرقية للمدينة العظيمة " بغداد "، وكان ذلك في يوم ١٢ محرم من سنة ٦٥٦ هجرية.. وبدأ هولاكو في نصب معدات الحصار الثقيلة حول المدينة، وجاء كذلك " كتبغا " بالجناح الأيسر من الجيش ليحيط بالمدينة من الناحية الجنوبية الشرقية..

وارتاع خليفة المسلمين.. وعقد اجتماعًا عاجلاً طارئًا، جمع فيه كبار مستشاريه، وعلى رأسهم بالطبع الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمي!..

ماذا نفعل في هذه المصيبة؟ كيف النجاة؟ أين المهرب؟

{فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [ص: ٣].

وبطبيعة الحال فإن مؤيد الدين العلقمي وبطانته كانوا يؤيدون مهادنة التتار وإقامة " مباحثات سلام " معهم، ولا مانع من بعض التنازلات، أو كثير من التنازلات، وكان مؤيد الدين يوسع الفجوة جدًّا بين إمكانيات التتار وإمكانيات المسلمين، كى لا يبقى هناك أمل في المقاومة.

كان هذا هو الرأى السائد في الاجتماع.. السلام غير المشروط!

لكن الخير لا ينعدم في هذه الأمة..

لقد قام رجلان من الوزراء وأشارا على الخليفة بحتمية الجهاد.. والجهاد كلمة جديدة على هذا الجيل من أجيال الدولة العباسية.. لكن لا مانع من طرح كل الأفكار وإن كانت " غريبة "!.. قام " مجاهد الدين أيبك " و" سليمان شاه " يحضان على المقاومة.. نعم جاءت الإشارة متأخرة.. بل متأخرة جدًّا.. لأن زمن الإعداد انتهى منذ فترة، وحان وقت الاختبار، ولكن لعلهما كانا يشيران منذ زمن بأمر الجهاد ولا يسمع لهما أحد.. ومع العلم أن العلاقات كانت متوترة جدًّا بين مؤيد الدين العلقمى ومجاهد الدين أيبك، وذلك منذ زمن طويل.. ولابد للعلاقات بين رجل خائن ورجل أمين أن تتوتر.. لكن - للأسف - لطالما استمع الخليفة لكلام الخائنين!..

واحتار الخليفة!!..

هواه مع كلام مؤيد الدين العلقمي.. فقلبه لا يقوى على الحروب..

وعقله مع كلام مجاهد الدين أيبك؛ لأن تاريخ التتار لا يشير بأى فرصة للسلام، كما أنه كان يسمع أن الحقوق لا " توهب " وإنما " تؤخذ "..

احتار الخليفة، ثم استقر أخيرًا..

لقد استمع - والحمد لله - لكلام العقل.. لقد قرر أن يجاهد.. لكنه متردد.. ضعيف.. لين.. هين..

والجهاد لا ينفع مع هذه الصفات..

الجهاد ليس قرارًا عشوائيًا..

لا يوجد مجاهد " بالصدفة "!!..

الجهاد إعداد.. وتربية.. وتضحية... ومشوار طويل في طريق الإيمان..

الجهاد ارتقاء إلى أعلى.. إلى أعلى.. إلى أعلى.. إلى أن تصل إلى ذروة سنام الإسلام.. ولكن على كل حال " فلنجاهد.. " (على سبيل التجربة..!) وسمح الخليفة - للمرة الأولى تقريبًا في حياته - باستخدام الجيش!..

وخرجت فرقة هزيلة من الجيش العباسي يقودها " مجاهد الدين أيبك " لتلاقي جيش هولاكو المهول.. وبمجرد خروج الجيش العباسي واستعداده لملاقاة هولاكو جاءت الأخبار إلى " مجاهد الدين أيبك " أن هناك جيشًا تتريًا آخر يأتي من جهة الشمال، وهو جيش " بيجو " القادم من أوروبا عبر أراضي تركيا وشمال العراق، وكان ذلك الجيش قد عبر الأراضي العراقية شرق نهر دجلة، حتى إذا وصل إلى الموصل عبر نهر دجلة إلى الناحية الغربية منه، وسار في الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات حتى اقترب من بغداد، وأصبح على بعد خمسين كيلومترًا فقط منها، وعند هذه المنطقة في شمال بغداد وصلت الأخبار إلى " مجاهد الدين أيبك "..

أدرك " مجاهد الدين أيبك " أن هذا الجيش لو وصل إلى بغداد فسوف يطوقها من الناحية الشمالية والغربية، وبذلك سيطبق الحصار تمامًا على العاصمة الإسلامية، ومن هنا فكر " مجاهد الدين أيبك " بسرعة أن يتجه بجيشه شمالاً بين نهري دجلة والفرات لمقابلة جيش " بيجو "، والتقى فعلا بجيش التتار عند منطقة " الأنبار "، وهي المنطقة التي شهدت انتصارًا خالدًا قبل ذلك بأكثر من ستمائة سنة على يد البطل الخالد " خالد بن الوليد " رضي الله عنه، ولكن في هذه المرة - للأسف - لم يكن الانتصار حليف المسلمين.. لقد بدا " بيجو " وكأنه أعرف بالمنطقة من أهلها،

فبدأ يُظهر الانسحاب، ويستدرج خلفه جيش المسلمين، حتى أتى به إلى منطقة مستنقعات قريبة من نهر الفرات، ثم أرسل المهندسين التتر لقطع السدود المقامة على نهر الفرات في هذه المنطقة، وذلك ليقطع خط الهروب على الجيش العباسي، ثم حاصر " بيجو " الجيش العراقي، وبدأ في عملية إبادة واسعة النطاق، واستطاع " مجاهد الدين أيبك " بفرقة صغيرة جدًا من الجيش العباسى أن ينسحب بحذاء النهر جنوبًا حتى عاد إلى بغداد، ولكن - للأسف - هلك معظم الجيش العباسى في منطقة الأنبار!..

تمت هذه الموقعة الأليمة غير المتكافئة في التاسع عشر من المحرم، أى بعد أسبوع من ظهور هولاكو أمام الأسوار الشرقية لبغداد، وتقدم " بيجو " مباشرة ولم يضيع وقتًا حتى وصل إلى بغداد من ناحيتها الشمالية في اليوم التالى مباشرة، ثم التف حول بغداد ليضرب عليها الحصار من جهتها الغربية، وبذلك وضعت بغداد بين فكى كماشة: " هولاكو " من الشرق، و" بيجو " من الغرب.. وازدادت حراجة الموقف جدًّا، واستحكم الحصار حول عاصمة الخلافة!..

والخليفة - ابن الخلفاء والسلاطين - ما تخيل أنه يحصر هذا الحصار أبدًا.. وشل عقله تمامًا عن التفكير!!..

وجاء مؤيد الدين العلقمى ليستغل الفرصة..

أيها الخليفة.. لابد أن نجلس مع التتار على " طاولة المفاوضات "..

ولكن الخليفة يدرك أنه إذا جلس قوى شديد القوة مع ضعيف شديد الضعف فإن هذا لا يعنى " مفاوضات " أبدًا، وإنما يعنى " استسلامًا ".. وفى الاستسلام عادة يقبل المهزوم بشروط المنتصر دون تعديل أو اعتراض..

ومع ذلك وافق الخليفة المسكين - وهو مطأطئ الرأس - على الاستسلام.. أقصد على " المفاوضات! "..

وقرر أن يرسل رجلين ليقوما عنه بالمفاوضات.. فمن أرسل؟!

لقد أرسل " مؤيد الدين العلقمى الشيعى " والذى يُكن في قلبه كل الحقد للخلافة العباسية!!..

وأرسل معه " ماكيكا.. " البطريرك النصرانى في بغداد!!!!..

وهكذا، فالوفد الرسمى الممثل للخلافة " الإسلامية " العباسية العريقة في المفاوضات مع التتار لا يضم إلا رجلين فقط:

أحدهما شيعى والآخر نصراني!!!..

ولا تعليق!!..

ودارت المفاوضات السرية جدًا بين هولاكو وبين ممثلى الخلافة العباسية..

وأعطيت الوعود الفخمة من هولاكو لكليهما إن ساعداه على إسقاط بغداد، وأهم هذه الوعود أنهما سيكونان أعضاء في " مجلس الحكم " الجديد، والذى سيحكم العراق بعد احتلالها من التتار.. أقصد بعد " تحريرها " من الخليفة!!!

وبالطبع كان رد فعل ممثلى الخلافة العباسية معروفًا..

إن كليهما يتحرق شوقًا لإسقاط الخلافة العباسية الإسلامية ولو بدون ثمن، فما بالك لو كانت هناك وعود فخمة بمناصب وسيطرة وأموال.. ومن الذى يعد؟ إنه " هولاكو " سيد الموقف في كل المنطقة..

وعاد المبعوثان الساميان من عند هولاكو إلى الخليفة يحملان له طلبًا عجيبًا من الزعيم التتري.. لقد سمع هولاكو بأمر المسلمين المتشددين " المتطرفين " في داخل بغداد، والذين ينادون بشيء خطير.. ينادون " بالجهاد ".. هذه الدعوة إلى الجهاد ستنسف كل مباحثات " السلام ".. فعلى خليفة المسلمين أن يسلم إلى هولاكو رؤوس الحركة الإسلامية في بغداد.. وعليه أن يسلم - على وجه التحديد - " مجاهد الدين أيبك " و" سليمان شاه " اللذين كانا يتزعمان فكرة الجهاد والمقاومة..

وهنا تتضارب الروايات.. ولا ندرى إن كان سلمهما فعلاً أم لم يسلمهما.. لكن وضح للجميع الغرض التتري.. ووضحت رغبة أعداء الإسلام دائمًا في قمع أى دعوة للمقاومة باسم الدين..

الموقف يزداد صعوبة.. والأزمة تزداد شدة..

والرسل لا تنقطع بين هولاكو والخليفة..

والرسل طبعًا هم أهل الثقة عند الخليفة: " مؤيد الدين العلقمى الشيعى "، والبطريرك النصرانى " ماكيكا "..!!!

وجاءت نتائج المفاوضات " مرضية جدًّا " كما صور ابن العلقمى للخليفة.. فلقد جاء ابن العلقمى ببعض الوعود من هولاكو، واعتبر هذه الوعود نصرًا سياسيًّا كبيرًا، وفى نفس الوقت كانت هناك بعض الشروط " البسيطة " التى على الخليفة أن ينفذها..

أما الوعود فكانت:

١- إنهاء حالة الحرب بين الدولتين وإقامة علاقة سلام دائم..

٢- يتم الزواج بين ابنة هولاكو الزعيم التترى الذى سفك دماء مئات الآلاف من المسلمين بابن الخليفة المسلم " المستعصم بالله "..

٣- يبقى " المستعصم بالله " على كرسى الحكم..

٤- يعطى الأمان لأهل بغداد جميعًا..

هذه هى الوعود، على أن تكون هذه الوعود في مقابل الشروط الآتية:

١- تدمير الحصون العراقية..

٢- ردم الخنادق..

٣- تسليم الأسلحة..

٤- الموافقة على أن يكون حكم بغداد تحت رعاية أو مراقبة تترية..

وختم هولاكو مباحثاته مع المبعوثين الساميين بأنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا لإرساء قواعد العدل والحرية والأمان.. وبمجرد أن تستقر هذه الأمور - وفق الرؤية التترية - فإنه سيعود إلى بلاده، ويترك العراقيين يضعون دستورهم، ويديرون شئون بلادهم بأنفسهم!..

وتجددت الآمال في نفس الخليفة!!..

هل يصدق هولاكو في وعوده؟!

إن هناك شكًّا كبيرًا في قلبه..

ثم إن الشروط قاسية جدًّا، فهو سيتخلص تقريبًا من كل إمكانية للمقاومة.. ولكنه - على الجانب الآخر - قد يظل حاكمًا للبلاد.. نعم تحت رعاية تترية.. أو تحت قهر تتري.. لكنه - في النهاية - سيظل جالسًا على كرسي الحكم، هذا طبعًا إن صدق هولاكو السفاح!..

ولكن هذا احتلال!.. أيقبل به؟

ولماذا لا يقبل به؟! إن مقربيه يقولون له: إن هذا في السياسة يسمونه: " واقعية "..!! وهو لو رفض التسليم، وفتحت أبواب بغداد بالقوة فإنه حتمًا سيموت.. أما إذا سلم نفسه إلى هولاكو السفاح فهناك احتمال - ولو بسيط - للنجاة بالروح!!..

نعم سيعيش ذليلاً.. ولكنه في النهاية قد يعيش..

نعم سيعيش وضيعًا.. لكنه في النهاية قد يعيش..

نعم سيبيع كل شيء بثمن بخس.. لكنه في النهاية قد يعيش..

الخليفة ما زال مترددًا..

والشعب الضخم من ورائه يعيش نفس التردد..

نداء الجهاد لا ينبعث إلا من بعض الأفواه القليلة جدًّا.. أما عامة الناس فقد انخلعت قلوبهم لحصار التتار..

لقد عظمت الدنيا جدًّا في عيونهم فاستحال في تقديرهم أن يضحوا بها..

لقد كثر الخبث فعلاً في بغداد.. وإذا كثر الخبث فالهلكة قريبة جدًّا!!..

واحتاج الخليفة لبعض الوقت للتفكير.. فالقرار صعب جدًّا.. ويحتاج إلى الاستشارة وقد يستخير!! لكن - على الناحية الأخرى - فإن هولاكو ليس عنده وقت يضيعه.. لأن الجيوش التترية الرابضة حول بغداد تتكلف كل يوم آلاف الدنانير..

والحصار في شهر محرم سنة ٦٥٦ هجرية، وهذا يوافق شهر يناير من سنة ١٢٥٨ ميلادية.. والجو شديد البرودة.. هذا فوق أنه يتشوق لرؤية بغداد الجميلة من الداخل!..

مصرع عرفة!!

لم ينتظر هولاكو وقتًا طويلاً.. ولم يعط " لصديقه " الخليفة ما يريده من الوقت للتفكير المتعمق، ولكنه قرر أن يجبره على سرعة التفكير، وذلك عن طريق بدأ إطلاق القذائف النارية والحجرية على بغداد، مستخدمًا في ذلك أحدث التقنيات العسكرية في ذلك الزمان.. وبدأ القصف التترى المروع لأسوار وحصون وقصور وديار بغداد، وبدأت المدينة الآمنة تُروع للمرة الأولى تقريبًا في تاريخها..

بدأ القصف التترى في الأول من صفر سنة ٦٥٦ هجرية، واستمر أربعة أيام متصلة.. ولم تكن هناك مقاومة تذكر..

ويذكر ابن كثير - رحمه الله - في البداية والنهاية موقفًا " بسيطًا " لا يعلق عليه، ولكنه حمل بالنسبة لى معانى كثيرة..

يقول ابن كثير:

" وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب، حتى أصيبت جارية كانت " تلعب " بين يدى الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت تسمى " عرفة "، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدى الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك، وفزع فزعًا شديدًا، وأحضر السهم الذى أصابها بين يديه، فإذا عليه مكتوب: " إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوى العقول عقولهم "، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة!! ".."

وعجيب أن يذكر ابن كثير هذا الخبر دون تعليق!!..

والحدث - وإن كان ظاهره بسيطًا عابرًا - إلا أنه يحمل معانٍ هائلة..

لقد تمكنت الدنيا تمامًا من قلوب الناس في بغداد، وأولهم الخليفة.. فها هو الخليفة الموكل إليه حماية هذه الأمة في هذا الموقف الخطير يسهر هذه السهرة اللاهية.. نعم قد تكون الجارية ملك يمينه.. وقد تكون حلالاً له.. وإذا لم يكن هناك من يشاهدها غيره فلا حرج من أن يشاهدها الخليفة وهى ترقص.. لكن أين العقل في رأس الخليفة؟! العاصمة الإسلامية للخلافة محاصرة، والموت على بعد خطوات، والمدفعية المغولية تقصف، والسهام النارية تحرق، والناس في ضنك شديد، والخليفة يستمتع برقص الجواري!!..

أين العقل؟ وأين الحكمة؟!

لقد أصبح رقص الجوارى في الدماء، فصار كالطعام والشراب.. لابد منه حتى في وقت الحروب.. ولا أدرى حقيقة كيف كانت نفسه تقبل أن ينشغل بمثل هذه الأمور، والبلاد والشعب وهو شخصيًا في مثل هذه الضائقة..

وما أبلغ العبارة التى كتبها التتار على السهم الذى أطلق على دار الخلافة وقتل الراقصة المسكينة إذ قالوا: " إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهب من ذوى العقول عقولهم "، فالله عز وجل قد قضى على بغداد بالهلكة في ذلك الوقت، وأذهب فعلاً عقول الخليفة وأعوانه وشعبه، ولا شك أن هذه العبارات المنتقاة بدقة كانت نوعًا من الحرب النفسية المدروسة التى كان يمارسها التتار بمهارة على أهل بغداد..

ويكفى كدليل على قلة عقل الخليفة أنه بعد هذه " الكارثة " (كارثة قتل الراقصة) لم يأمر الشعب بالتجهز للقتال، فقد وصل الخطر إلى داخل دار الخلافة، وإنما أمر فقط بزيادة الاحتراز، ولذلك كثرت الستائر حول دار الخلافة لحجب الرؤية ولزيادة الوقاية وستر الراقصات!..

ولا حول ولا قوة إلا بالله..

وظل التتار على قصفهم مدة أربعة أيام من أول صفر إلى الرابع منه سنة ٦٥٦ هجرية، وفى يوم الرابع من صفر بدأت الأسوار الشرقية تنهار.. ومع انهيار الأسوار الشرقية انهار الخليفة تمامًا..

لقد بقيت لحظات قليلة جدًّا في العمر..

هنا لجأ الخليفة إلى صديقه الخائن مؤيد الدين العلقمي، وسأله ماذا يفعل؟ وأشار عليه الوزير أن يخرج لمقابلة هولاكو بنفسه لكى يجرى معه المفاوضات..

وذهبت الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو أن يأتى الخليفة، ولكن ليس وحده، بل عليه أن يأتى معه بكبار رجال دولته، ووزرائه، وفقهاء المدينة، وعلماء الإسلام، وأمراء الناس والأعيان، حتى يحضروا جميعًا المفاوضات، وبذلك تصبح المفاوضات - كما يزعم هولاكو - ملزمة للجميع..

ولم يكن أمام الخليفة الضعيف أى رأى آخر..

وجمع الخليفة كبار قومه، وخرج بنفسه في وفد مهيب إلى خيمة هولاكو خارج الأسوار الشرقية لبغداد.. خرج وقد تحجرت الدموع في عينيه، وتجمدت الدماء في عروقه، وتسارعت ضربات قلبه، وتلاحقت أنفاسه..

لقد خرج الخليفة ذليلاً مهينًا، وهو الذى كان يستقبل في قصره وفود الأمراء والملوك، وكان أجداده الأقدمون يقودون الدنيا من تلك الدار التى خرج منها الخليفة الآن..

وكان الوفد كبيرًا يضم سبعمائة من أكابر بغداد، وكان فيه بالطبع وزيره مؤيد الدين بن العلقمي، واقترب الوفد من خيمة هولاكو، ولكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكى التتري، ولم يسمحوا لكل الوفد بالدخول على هولاكو، بل قالوا: إن الخليفة سيدخل ومعه سبعة عشر رجلاً فقط، أما الباقون فسيخضعون - كما يقول الحرس - للتفتيش الدقيق.. ودخل الخليفة ومعه رجاله، وحجب عنه بقية الوفد.. ولكنهم لم يخضعوا لتفتيش أو غيره.. بل أخذوا جميعًا... للقتل!!!..

قُتل الوفد بكامله إلا الخليفة والذين كانوا معه.. قُتل كبراء القوم، ووزراء الخلافة، وأعيان البلد، وأصحاب الرأي، وفقهاء وعلماء الخلافة العباسية..

ولم يُقتل الخليفة؛ لأن هولاكو كان يريد استخدامه في أشياء أخرى..

وبدأ هولاكو يصدر الأوامر في عنف وتكبر..

واكتشف الخليفة أن وفده قد قتل بكامله..

اكتشف الخليفة ما كان واضحًا لكل الخلق.. ولكنه لم يره إلا الآن.. لقد اكتشف أن التتار وأمثالهم لا عهد لهم ولا أمان:{ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً } [التوبة: ١٠].

واكتشف أيضًا أن الحق لابد له من قوة تحميه.. فإن تركت حقك دون حماية فلا تلومن إلا نفسك.. لكن - وللأسف - جاء هذا الاكتشاف متأخرًا جدًّا..

وبدأت الأوامر الصارمة تخرج من السفاح هولاكو:

١- على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح، والامتناع عن أي مقاومة.. وقد كان ذلك أمرًا سهلاً؛ لأن معظم سكان المدينة لا يستطيعون حمل السلاح، ولا يرغبون في ذلك أصلاً..

٢- يقيد الخليفة المسلم، ويساق إلى المدينة يرسف في أغلاله، وذلك لكي يدل التتار على كنوز العباسيين، وعلى أماكن الذهب والفضة والتحف الثمينة، وكل ما له قيمة نفيسة في قصور الخلافة وفي بيت المال..

٣- يتم قتل ولدي الخليفة أمام عينه!! فقتل الولد الأكبر " أحمد أبو العباس "، وكذلك قُتل الولد الأوسط " عبد الرحمن أبو الفضائل ".. ويتم أسر الثالث مبارك أبو المناقب، كما يتم أسر أخوات الخليفة الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم..

٤- أن يستدعي من بغداد بعض الرجال بعينهم، وهؤلاء هم الرجال الذين ذكر ابن العلقمي أسماءهم لهولاكو، وكانوا من علماء السنة، وكان ابن العلقمي يكن لهم كراهية شديدة، وبالفعل تم استدعاؤهم جميعًا، فكان الرجل منهم يخرج من بيته ومعه أولاده ونساؤه فيذهب إلى مكان خارج بغداد عينه التتار بجوار المقابر، فيذبح العالم كما تذبح الشياه، وتؤخذ نساؤه وأولاده إما للسبي أو للقتل.!!. لقد كان الأمر مأساة بكل المقاييس!!

دُبح على هذه الصورة أستاذ دار الخلافة الشيخ محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى (العالم الإسلامى المعروف)، وذبح أولاده الثلاثة عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم، ودُبح المجاهد مجاهد الدين أيبك وزميله سليمان شاه، واللذان قادا الدعوة إلى الجهاد في بغداد، ودُبح شيخ الشيوخ ومؤدب الخليفة ومربيه " صدر الدين على بن النيار "، ثم دُبح بعد هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن!!..

كل هذا والخليفة حى يشاهد، وأنا لا أتخيل كمّ الألم والندم والخزى والرعب الذى كان يشعر به الخليفة، ولا شك أن أداء الخليفة في إدارته للبلاد كان سيختلف جذريًّا لو أنه تخيل - ولو للحظات - أن العاقبة ستكون بهذه الصورة، ولكن ليس من سنة الله عز وجل أن تعود الأيام، ثم إن الخليفة رأى أن هولاكو يتعامل تعاملاً وديًّا مع ابن العلقمى الوزير الخائن، وأدرك بوضوح العلاقة بينهما، وانكشفت أمامه الحقائق بكاملها، وعلم النتائج المترتبة على توسيد الأمر لغير أهله، ولكن كل هذه الاكتشافات كانت متأخرة جدًّا..

استباحة بغداد!

وبعد أن ألقى أهل المدينة السلاح، وبعد أن قتلت هذه الصفوة، وبعد أن انساب جند هولاكو إلى شوارع بغداد ومحاورها المختلفة.. أصدر السفاح هولاكو أمره الشنيع " باستباحة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ".. والأمر بالاستباحة يعنى أن الجيش التترى يفعل فيها ما يشاء.. يقتل.. يأسر.. يسبي.. يرتكب الفواحش.. يسرق.. يدمر.. يحرق.. كل ما بدا لهؤلاء الهمج أن يفعلوه فليفعلوه!!..

وانطلقت وحوش التتار الهمجية تنهش في أجساد المسلمين..

واستبيحت مدينة بغداد العظيمة..

اللهم لا حول ولا قوة إلا بك..

كم من الجيوش خرجت لتجاهد في سبيل الله من هذه المدينة!!..

كم من العلماء جلسوا يفقهون الناس في دينهم في هذه المدينة!!..

كم من طلاب العلم شدوا الرحال إلى هذه المدينة!!..

أواه يا بغداد!.. لم يبق لك أحد!..

أين خالد بن الوليد؟

أين المثنى بن حارثة؟

أين القعقاع بن عمرو؟

أين النعمان بن مقرن؟

أين سعد بن أبى وقاص؟

أين الحمية في صدور الرجال؟!

أين النخوة في أبناء المسلمين؟!

أين العزة والكرامة؟!

أين الذين يطلبون الجنة؟

أين الذين يقاتلون في سبيل الله؟

بل أين الذين يدافعون عن أعراضهم ونسائهم وأولادهم وديارهم وأموالهم؟

أين؟!!!

لا أحد!!..

لقد فتحت بغداد أبوابها على مصاريعها..

لا مقاومة.. لا حراك..

لم يبق في بغداد رجال.. ولكن فقط أشباه رجال!!..

استبيحت المدينة العظيمة بغداد..

استبيحت مدينة الإمام أبى حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل..

استبيحت مدينة الرشيد.. الذى كان يحج عامًا ويجاهد عامًا..

استبيحت مدينة المعتصم.. فاتح عمورية ببلاد الروم..

استبيحت عاصمة الإسلام على مدار أكثر من خمسة قرون!!..

وفعل التتار في المدينة ما لا يتخيله عقل!!..

لقد بدأ التتار يتعقبون المسلمين في كل شارع أو ميدان.. في كل بيت أو حديقة.. في كل مسجد أو مكتبة.. واستحر القتل في المسلمين.. والمسلمون لا حول لهم ولا قوة، فكان المسلمون يهربون ويغلقون على أنفسهم الأبواب، فيحرق التتار الأبوب أو يقتلعونها، ويدخلون عليهم، فيهرب المسلمون إلى أسطح الديار، فيصعد وراءهم التتار، ثم يقتلونهم على الأسطح، حتى سالت الدماء بكثرة من ميازيب المدينة (والميازيب هى قنوات تجعل في سقف المنازل لينزل منها ماء المطر، ولا يتجمع فوق الأسطح)..

ولم يقتصر التتار على قتل الرجال الأقوياء فقط.. إنما كانوا يقتلون الكهول والشيوخ، وكانوا يقتلون النساء إلا من استحسنوه منهن؛ فإنهم كانوا يأخذونها سبيًا.. بل وكانوا يقتلون الأطفال.. بل كانوا يقتلون الرضع!!..

وجد جندى من التتار أربعين طفلاً حديثى الولادة في شارع جانبي، وقد قُتلت أمهاتهم، فقتلهم جميعًا!!.

قلوب كالحجارة.. أو أشد قسوة!!..

وتزايد عدد القتلى في المدينة بشكل بشع..

ومر اليوم الأول والثانى والثالث والعاشر.. والقتل لا يتوقف.. والإبادة لا تنتهي..

ولا دفاع.. ولا مقاومة.. فقد دخل في روع الناس أن التتار لا يهزمون.. ولا يجرحون.. بل إنهم لا يموتون!!..

كل هذا والخليفة حى يشاهد.. وهذا هو العذاب بعينه..

هل تتخيلون الخليفة وهو يشاهد هذه الأحداث؟!

هل تتخيلون الخليفة ابن الخلفاء.. العظيم ابن العظماء.. وهو يقف مقيدًا يشاهد كل هذه المآسي؟!

- قتل ولدان من أولاده..

- أسر ابنه الثالث..

- أسرت أخواته الثلاث..

- قتل معظم وزرائه..

- قتل كل علماء بلده وخطباء مساجده وحملة القرآن في مدينته..

- اكتشف خيانة أقرب المقربين إليه " مؤيد الدين العلقمى الشيعي.. "

- دمر جيشه بكامله..

- نهبت أمواله وثرواته وكنوزه ومدخراته..

- استبيحت مدينته وقتل من شعبه مئات الآلاف أمام عينيه..

- أحرقت العاصمة العظيمة لدولته، ودمرت مبانيها الجميلة..

- انتشر التتار بوجوههم القبيحة الكافرة الكالحة في كل بقعة من بقاع بغداد.. فكانوا كالجراد الذى غطى الأرض الخضراء، فتركها قاعًا صفصفًا..

- وضعت الأغلال في عنقه وفى يده وفى قدمه.. وسيق كما يساق البعير..

لقد شاهد الخليفة كل ذلك بعينيه..

وتخيل مدى الحسرة والألم في قلبه..

لا شك أنه قال مرارًا: {يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا } [مريم: ٢٣].

لا شك أنه نادم ".. ما أغنى عني ماليه.. هلك عنى سلطانيه "..

ومر على ذهنه شريط حياته في لحظات..

ولا شك أنه أخذ يراجع نفسه ولسان حاله يقول: {رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ } [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

يا ليتنى جهزت الجيوش وأعددتها وقويتها!!..

يا ليتنى حفزت الأمة على الجهاد في وقت أحيطت فيه بأعداء الدين من كل مكان..

يا ليتنى رفعت قيمة الإسلام في عيون الناس وفى قلوبهم، حتى يصبح الإسلام عندهم أغلى من أموالهم وحياتهم..

يا ليتنى تركت اللهو واللعب والحفلات والتفاهات..

ليتنى ما عشت لجمع المال..

ليتنى ما استكثرت من الجواري.. وليتنى ما سمعت المعازف..

ليتنى اخترت بطانة الخير..

ليتنى عظمت من العلماء وتركت الأدعياء..

ليتني.. ليتني.. ليتني...

لكن القيود الثقيلة المسلسلة في عنقه ويديه وساقيه ردته إلى أرض الواقع.. ليعلم أن الزمان لا يعود أبدًا إلى الوراء..

روى أبو داود وأحمد - رحمهما الله تعالى - عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:﴿**إذا تبايعتم بالعينة (نوع من الربا)، وأخذتم أذناب البقر (العمل في رعى المواشي)، ورضيتم بالزرع، (أى رضيتم بالاشتغال بالزراعة، والمقصود عملتم في أعمال الدنيا أيًا كانت في وقت الجهاد المتعين)، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا يترعه حتى ترجعوا إلى دينكم**﴾.

لقد عمل أهل بغداد في الزراعة والتجارة والكتابة والصناعة.. بل وفى العلم والتعلم.. وتركوا الجهاد في سبيل الله.. فكانت النتيجة هذا الذل الذى رأيناه..

وهذه دروس قيمة جدًا إلى كل مسلم.. حاكم أو محكوم.. عالم أو متعلم.. كبير أو صغير.. رجل أو امرأة...

- لابد للحق من قوة تحميه..

- الحقوق لا تُستجدى ولكن تؤخذ.. ويُبذل في سبيلها الغالى والثمين..

- ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا..

- أعداء الأمة لا عهد لهم..

الموت رفسًا!!..

وسيق الخليفة " المستعصم بالله " إلى خاتمته الشنيعة.. بعد أن رأى كل ذلك في عاصمته، وفى عقر دار خلافته، بل وفى عقر بيته..

أصدر السفاح " هولاكو " الأمر بالإجهاز على الخليفة المسكين.. ولكن أشار على هولاكو بعض أعوانه بشيء عجيب..! لقد قالوا: لو سالت دماء الخليفة المسلم على الأرض، فإن المسلمين سيطلبون ثأره بعد ذلك، ولو تقادم الزمان، ولذلك يجب قتل الخليفة بوسيلة لا تسيل فيها الدماء.. ولا داعى لاستعمال السيف..

وهذا بالطبع نوع من الدجل.. لأنه من المفترض أن يطلب المسلمون دم خليفتهم، بل ودماء المسلمين جميعًا الذين قتلهم هولاكو وجنوده بصرف النظر عن طريقة قتلهم..

لكن هولاكو استمع لهم.. وسبحان الله!!.. كأن الله عز وجل قد أراد ذلك، حتى يموت الخليفة بصورة مخزية ما حدثت مع خليفة قبله، وما سمعنا بها مع أى من ملوك أو أمراء الأرض.. مسلمين كانوا أو غير مسلمين..

لقد أمر هولاكو أن يقتل الخليفة " رفسًا بالأقدام "!!!..

وبالفعل وضع الخليفة العباسى على الأرض، وبدأ التتار يرفسونه بأقدامهم..

وتخيل الرفس والركل بالأقدام إلى الموت!!..

أى ألم.. وأى إهانة.. وأى ذل!!..

لقد ظلوا يرفسونه إلى أن فارقت روحه الجسد..

وإنا لله.. وإنا إليه راجعون..

إن بغداد لم تسقط فقط!!

إنما سقط أخر خلفاء بنى العباس في بغداد..

وسقط معه شعبه بكامله!..

وكان ذلك في اليوم العاشر من فتح بغداد لأبوابها.. في يوم ١٤ صفر سنة ٦٥٦

هجرية..

ولم تنته المأساة بقتل الخليفة.. وإنما أمر هولاكو - لعنه الله - باستمرار عملية القتل في بغداد.. فهذه أضخم مدينة على وجه الأرض في ذلك الزمان.. ولابد أن يجعلها التتار عبرة لمن بعدها..

واستمر القتل في المدينة أربعين يومًا كاملة منذ سقوطها..

وتخيلوا كم قتل في بغداد من المسلمين؟!

لقد قتل هناك ألف ألف مسلم (مليون مسلم..!!) ما بين رجال ونساء وأطفال!!!..

ألف ألف مسلم قتلوا في أربعين يومًا فقط!!..

وتخيل أمة فقدت من أهلها مليونًا في غضون أربعين يومًا فقط..

كارثة رهيبة!..

نذكر ذلك لنعلم أن المصائب التي يلقاها المسلمون الآن - مهما اشتدت - فهي أهون من مصائب رهيبة سابقة.. وسنرى أن المسلمين سيقومون بفضل الله من هذه المصيبة.. لنعلم أننا - بإذن الله - على القيام من مصائبنا أقدر..

وللعلم فإنه لم ينج من القتل في بغداد إلا الجالية النصرانية فقط!..!

وبينما كان فريق من التتار يعمل على قتل المسلمين وسفك الدماء اتجه فريق آخر من التتار لعمل إجرامي آخر.. عمل ليس له مبرر إلا أن التتار قد أكل الحقد قلوبهم على كل ما هو حضاري في بلاد المسلمين.. لقد شعر التتار بالفجوة الحضارية الهائلة بينهم وبين المسلمين؛ فالمسلمون لهم تاريخ طويل في العلوم والدراسة والأخلاق.. عشرات الآلاف من العلماء الأجلاء في كافة فروع العلم.. الديني منها والدنيوي.. لقد أثرى هؤلاء العلماء الحضارة الإسلامية بملايين المصنفات.. بينما التتار لا حضارة لهم.. ولا أصل لهم.. إنهم أمة لقيطة.. نشأت في صحراء شمال الصين، واعتمدت على شريعة الغاب في نشأتها.. لقد قاتلت هذه الأمة كما تقاتل الحيوانات.. بل عاشت كما تعيش الحيوانات.. ولم ترغب مطلقًا في إعمار الأرض أو إصلاح الدنيا.. لقد عاشوا حياتهم فقط للتخريب والتدمير والإبادة.. شتان

بين هذه الأمة وبين أمة الإسلام، بل شتان بين أى أمة من أمم الأرض وأمة الإسلام.. وهذا الانهيار الذى رأيناه في تاريخ بغداد من المستحيل أن يمحو التاريخ العظيم لهذه الأمة العظيمة..

ماذا فعل مجرمو التتار؟!

لقد اتجه فريق من أشقياء التتار لعمل إجرامى بشع، وهو تدمير مكتبة بغداد العظيمة.. وهى أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن.. وهى الدار التى كانت تحوى عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام.. جمعت فيها كل العلوم والآداب والفنون.. من علوم شرعية كتفسير القرآن والحديث والفقه والعقيدة والأخلاق، ومن علوم حياتية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء والفيزياء والجغرافيا وعلوم الأرض، ومن علوم إنسانية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والتاريخ والفلسفة وغير ذلك.. هذا كله بالإضافة إلى ملايين الأبيات من الشعر، وعشرات الآلاف من القصص والنثر.. فإن أضفت إلى كل ما سبق الترجمات المختلفة لكل العلوم، الأجنبية سواء اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو غير ذلك علمت أنك تتحدث عن معجزة حقيقية من معجزات ذلك الزمان..

لقد كانت مكتبة بغداد مكتبة عظيمة بكل المقاييس.. ولم يقترب منها في العظمة إلا مكتبة قرطبة الإسلامية في الأندلس.. وسبحان الله!!.. لقد مرت مكتبة قرطبة بنفس التجربة التى مرت بها مكتبة بغداد!!!..

عندما سقطت قرطبة في يد نصارى الأندلس سنة ٦٣٦ هجرية (قبل سقوط بغداد بعشرين سنة فقط!!) قاموا بحرق مكتبة قرطبة تمامًا.. وقام بذلك أحد قساوسة النصارى بنفسه.. وكان اسمه " كمبيس "، وحرق كل ما وقعت عليه يده من كتب بذلت فيها آلاف الأعمار وآلاف الأوقات، وأنفق في سبيل كتابتها الكثير من المال والعرق والجهد..

لكن هذه سنتهم!..

حروبهم هى حروب على الحضارة.. وحروب على المدنية.. وحروب على الإسلام.. بل هى حروب على الإنسانية كلها..؟؟

وبعد أن فرغ التتار من تدمير مكتبة بغداد انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المبانى الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق.. وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، أما ما عجزوا عن حمله من المسروقات فقد أحرقوه!!.. وظلوا كذلك حتى تحولت معظم ديار المدينة إلى ركام، وإلى خراب تتصاعد منه ألسنة النار والدخان..

واستمر هذا الوضع الأليم أربعين يومًا كاملة.. وامتلأت شوارع بغداد بتلال الجثث المتعفنة، واكتست الشوارع باللون الأحمر، وعم السكون البلدة، فلا يسمع أحد إلا أصوات ضحكات التتار الماجنة.. أو أصوات بكاء النساء والأطفال بعد أن فقدوا كل شيء..

وهنا - وبعد الأربعين يومًا - خاف هولاكو على جيشه من انتشار الأوبئة نتيجة الجثث المتعفنة (مليون جثة لم تدفن بعد)، فأصدر هولاكو بعض الأوامر الجديدة:

١- يخرج الجيش التترى بكامله من بغداد، وينتقل إلى بلد آخر في شمال العراق، لكى لا يصاب الجيش بالأمراض والأوبئة، وتترك حامية تترية صغيرة حول بغداد، فلم يعد هناك ما يخشى منه في هذه المنطقة..

٢- يعلن في بغداد أمان حقيقي، فلا يقتل مسلم بصورة عشوائية بعد هذه الأربعين يومًا.. وقد سمح التتار بهذا الأمان حتى يخرج المسلمون من مخابئهم ليقوموا بدفن موتاهم.. وهذا عمل شاق جدًّا يحتاج إلى فترات طويلة (مليون قتيل)، وإذا لم يتم هذا العمل فقد يتغير الجو - ليس في بغداد فقط - ولكن في كل بلاد العراق والشام، وستنتشر الأمراض القاتلة في كل مكان، ولن تفرق بين مسلم وتتري، ولذلك أراد هولاكو أن يتخلص من هذه الجثث بواسطة المسلمين..

وفعلاً خرج المسلمون الذين كانوا يختفون في الخنادق أو في المقابر أو في الآبار المهجورة.. خرجوا وقد تغيرت هيئتهم، ونحلت أجسادهم، وتبدلت ألوانهم، حتى أنكر بعضهم بعضًا!!..

لقد خرج كل واحد منهم ليفتش في الجثث، وليستخرج من بين التلال المتعفنة ابنًا له أو أخًا أو أبًا أو أمًّا!!..

مصيبة كبيرة فعلاً..

وبدأ المسلمون في دفن موتاهم.. ولكن كما توقع هولاكو انتشرت الأوبئة في بغداد بشكل مريع، حتى مات من المسلمين عدد هائل من الأمراض القاتلة!.. وكما يقول ابن كثير رحمه الله: " ومن نجا من الطعن، لم ينج من الطاعون!! "..

فكانت كارثة جديدة في بغداد.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

٣- كما أصدر هولاكو قرارًا بأن يعين مؤيد الدين العلقمى الشيعى رئيسًا على مجلس الحكم المعين من قبل التتار على بغداد، على أن توضع عليه بالطبع وصاية تترية.

ولم يكن مؤيد الدين إلا صورة للحاكم فقط، وكانت القيادة الفعلية للتتار بكل تأكيد، بل إن الأمر تزايد بعد ذلك، ووصل إلى الإهانة المباشرة للرئيس الجديد مؤيد الدين العلقمي، ولم تكن الإهانة تأتى من قبل هولاكو، بل كانت تأتى من صغار الجند في جيش التتار، وذلك لتحطيم نفسيته، ولا يشعر بقوته، ويظل تابعًا للتتر!..

وقد رأته امرأة مسلمة وهو يركب على دابته، والجنود التتر ينتهرونه ليسرع بدابته، ويضربون دابته بالعصا.. وهذا بالطبع وضع مهين جدًّا لحاكم بغداد الجديد.. فقالت له المرأة المسلمة الذكية: " أهكذا كان بنو العباس يعاملونك؟!

لقد لفتت المرأة المسلمة نظر الوزير الخائن إلى ما فعله في نفسه، وفى شعبه.. لقد كان الوزير معظمًا في حكومة بنى العباس.. وكان مقدمًا على غيره.. وكان مسموع الكلمة عند كل إنسان في بغداد، حتى عند الخليفة نفسه..

أما الآن، فما أفدح المأساة!.. إنه يهان من جندى تترى بسيط لا يعرف أحد اسمه.. بل لعل هولاكو نفسه لا يعرفه..! وهكذا - يا إخوانى - من باع دينه ووطنه ونفسه، فإنه يصبح بلا ثمن حتى عند الأعداء، فالعميل عند الأعداء لا يساوى عندهم أى قيمة إلا وقت الاحتياج، فإن تم لهم ما يريدون زالت قيمته بالكلية..

وقد وقعت كلمات المرأة المسلمة الفطنة في نفس مؤيد الدين العلقمي، فانطلق إلى بيته مهمومًا مفضوحًا، واعتكف فيه، وركبه الهم والغم والضيق.. لقد كان هو من أوائل الذين خسروا بدخول التتار.. نعم هو الآن حاكم بغداد.. لكنه حاكم بلا سلطة.. إنه حاكم على مدينة مدمرة.. إنه حاكم على الأموات والمرضى!!..

ولم يستطع الوزير الخائن أن يتحمل الوضع الجديد.. فبعد أيام من الضيق والكمد.. مات ابن العلقمى في بيته!!..

مات بعد شهور قليلة جدًا من نفس السنة التى دخل فيها التتار بغداد.. سنة ٦٥٦ هجرية.. ولم يستمتع بحكم ولا ملك ولا خيانة!.. وليكون عبرة بعد ذلك لكل خائن..

{وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢].

وولى التتار ابن مؤيد الدين العلقمى على بغداد، فالابن قد ورث الخيانة من أبيه.. لكن - سبحان الله - وكأن هذا المنصب أصبح شؤمًا على من يتولاه.. فقد مات الابن الخائن هو الآخر بعد ذلك بقليل.. مات في نفس السنة التى سقطت فيها بغداد سنة ٦٥٦ هجرية!!..

ولا عجب!!

فإنه ما تمسك أحد بالدنيا إلا وأهلكته..

تمسك بها الخليفة فهلك..

وتمسك بها الوزير الخائن فهلك..

وتمسك بها ابن الوزير فهلك..

وتمسك بها شعب بغداد فهلك..

وصدق رسولنا الكريم ﷺ الذى قال فيما رواه الترمذى - وقال صحيح - عن عمرو بن عوف رضي الله عنه: «.. فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

ووصلت أخبار سقوط بغداد إلى العالم بأسره..

أما العالم الإسلامى فكان سقوط بغداد بالنسبة له صدمة رهيبة لا يمكن استيعابها مطلقًا.. فبغداد لم تكن مدينة عادية.. ففوق أنها أكبر مدينة على وجه الأرض في ذلك الحين، وفوق أن بها أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، وفوق أنها من أعظم دور العلم والحضارة والمدنية في الأرض، وفوق أنها من ثغور الإسلام القديمة.. فوق كل ذلك فهى عاصمة الخلافة الإسلامية!!..

ماذا يعنى سقوط بغداد؟!

تساءل الناس هذا السؤال الخطير؟!

ماذا يعنى سقوط بغداد؟!

وماذا يعنى قتل الخليفة، وعدم تعيين خليفة آخر؟

سؤال آخر خطير..

الدنيا لم تكن تعنى للمسلمين شيئًا بدون خلافة وخليفة.. حتى مع مظاهر الضعف الواضحة في سنوات الخلافة العباسية الأخيرة، وحتى مع كونها لم تكن تسيطر حقيقة إلا على بغداد وأجزاء بسيطة من العراق فإن الخلافة كانت تعتبر رمزًا هامًّا للمسلمين..

إذا كانت هناك خلافة - ولو ضعيفة - فقد يأتى زمان تتقوى فيه، أو يجتمع المسلمون تحت رايتها.. أما إذا غابت الخلافة.. فالتجمع صعب.. بل صعب جدًّا..

مصيبة هائلة أن تختفى الخلافة.. مصيبة هائلة أن يختفى الخليفة..

" الدنيا " بلا خليفة!!..

نسأل الله عز وجل أن يجمع المسلمين تحت خلافة واحدة على منهاج النبوة..

وظهر عند المسلمين بعد سقوط بغداد اعتقاد غريب، سيطر على كثير منهم حتى ما عادوا يتكلمون إلا فيه، وانتشر بين الناس بسرعة عجيبة، والناس من عادتها أنها تحب دائمًا أن تستمع إلى الغريب..

لقد ظهر اعتقاد أن خروج التتار وهزيمة المسلمين وسقوط بغداد ما هى إلا علامات للساعة، وأن " المهدى " سيخرج قريبًا جدًّا ليقود جيوش المسلمين للانتصار

على التتار!!..

وأنا أقول: نعم سيظهر المهدى في يوم ما، ونعم سينزل المسيح عليه السلام، ونعم ستكون الساعة.. نعم كل هذه أمور نعلم أنها ستحدث.. يقينًا ستحدث.. ولكن متى بالضبط؟ لا يدرى أحد!!..

{يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا }

[الأحزاب: ٦٣].

فلماذا تظهر مثل هذه الدعوات في أوقات الهزائم والانتكاسات؟..

إن هذا ليس له إلا مبرر واحد، وهو أن الناس قد أحبطوا تمامًا فأصبحوا يشكون في إمكانية النصر على أعداء الله عز وجل بمفردهم.. لقد أيقن الناس أنهم لا طاقة لهم بهولاكو وجنوده، ولذلك بحثوا عن حل آخر أسهل.. وليكن هذا الحل هو: " المهدى "، فلننتظر إلى أن يخرج المهدي، وعندها نقاتل معه.. أما قبل ذلك فلا نستطيع!..

دعنا نراقب الموقف عن بعد!!..

دعنا ننتظر معجزة!!

إحباط.. ويأس.. وقنوط..

وهذه كلها ليست من صفات المؤمنين..

" إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون "..

ثم ما أدراك أنك ستعيش إلى زمان خروج المهدي، بل عليك أن تعلم أنك لو مت قبل ظهوره فسوف يحاسبك الله عز وجل على عملك لا على حياتك في زمانه، ثم ما أدراك أنه إذا خرج المهدى فإنك ستكون من جنوده.. إن جنوده سوف يختارهم الله عز وجل.. ولن يكون الاختيار عشوائيًّا.. حاشا لله.. إنما سيكون بحسب الإيمان والعمل..

ونسأل الله أن يستعملنا لدينه..

كان هذا هو الوضع الإسلامى بعد سقوط بغداد..

فكيف كان الوضع في العالم النصراني؟

لقد عمت البهجة والفرح أطراف العالم النصرانى كله.. وهذا شيء متوقع جدًّا.. فكما ذكرت في أول الكتاب فإن قوى العالم الرئيسية في هذا القرن السابع الهجرى كانت ثلاثة: العالم الإسلامي، والعالم النصراني، والتتار.. والحروب بين المسلمين والنصارى كانت على أشدها، وكانت هذه الضربة التترية ضربة موجعة جدًّا للعالم الإسلامي.. وتجددت - ولا شك - الأطماع الصليبية في مصر والشام..

وقد زاد من فرح النصارى أنهم كانوا يتعاونون مع التتار في هذه الحملة الأخيرة.. ودخل ملك أرمينيا وملك الكرج وأمير أنطاكية في حزب التتار.. وزاد من فرحتهم أن التتار - وللمرة الأولى في حياتهم - صدقوا في عهودهم.. فإنهم قد وعدوا النصارى أن لا يمسوهم بسوء في بغداد، وتم لهم ذلك، بل إن هولاكو أغدق بالهدايا الثمينة على " ماكيكا " البطريرك النصراني، وأعطاه قصرًا عظيمًا من قصور الخلافة العباسية على نهر دجلة، وجعله من مستشاريه، ومن أعضاء مجلس الحكم الجديد، ومن أصحاب الرأى المقربين في بغداد..

كل هذا دعا النصارى إلى أن يقولوا: إن التتار هم أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح عليه السلام، وهم بالطبع يقصدون المسلمين، مع أن التتار كانوا منذ سنوات قليلة يقتلون النصارى أنفسهم في أوروبا.. ولكن يبدو أن ذاكرة النصارى لا تتسع للكثير.. لقد تناسى الصليبيون ما فعله التتار معهم ما دام التتار يقتلون المسلمين، تمامًا كما يتناسى النصارى اليوم ما فعله اليهود معهم ما دام اليهود يقتلون المسلمين.. والتاريخ يعيد نفسه دائمًا..

وهذه الكلمات التى قالها النصارى عن التتار، وهذه الشماتة الواضحة في المسلمين، كانت هى نفس الكلمات ونفس الشماتة التى حدثت بعد سقوط غرناطة في الأندلس، وسبحان الله!!.. فالذى يراجع سقوط غرناطة يجد تشابهًا عجيبًا بين سقوطها وسقوط بغداد.. مما يعطى أهمية قصوى لدراسة التاريخ؛ لأنه يتكرر بصورة قد لا يتخيلها البشر!!.. (١).

---

(١) قصة التتار، ص ١١٧ - ١٣٠ بتصرف.

نتائج سقوط بغداد:

بعد سقوط بغداد وانقراض الخلافة العباسية - التى استمرت قائمة لأكثر من خمسة قرون - من أكبر الوقائع التى حدثت في التاريخ، ولقد كان لهذا الحدث الأسوأ الأثر في نفوس المسلمين جميعًا، واعتبرت هذه المأساة لطمة قاسية وبلاء شديد سلط على رؤوسهم، إذ انتهكت حرمتهم على يد المغول أهل الكفر والشرك، الذين صوبوا طعنة نجلاء إلى مقام الخلافة المقدس، وإلى خلفاء الرسول محمد ﷺ فلا غرو أن كان لهذا الحدث نتائج خطيرة نلخصها فيما يأتي:

فقد نتج عن سقوط بغداد في أيدى التتار آثار ونتائج عديدة في الحياة الإسلامية، فالوحدة السياسية للمسلمين أصبحت من الأمور التى يستحيل تحقيقها، أضف إلى ذلك أن الثقافة الإسلامية منيت على أيدى التتار بخسارة كبيرة حين أتلف المغول آلافًا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة، وقتلوا كثيرًا من العلماء والأدباء، وشتتوا شمل من بقى منهم في مختلف البقاع الإسلامية. وجذبت مصر عددًا كبيرًا من هؤلاء العلماء، مما أدى إلى انتقال مركز الزعامة الفكرية إلى القاهرة التى أضحت بحكم وضعها الجغرافى أقرب من بغداد إلى أوروبا، مما ساعد على اقتراب العالم الغربى من الحضارة الشرقية. وما يقال بصدد هجرة العلماء والأدباء يقال كذلك على أهل الحرف والصناعات وغيرهم من أهالى بلاد المشرق الإسلامي، مثال ذلك أن مصر استقبلت أبان الغزو المغولى عددًا كبيرًا من المشارقة الذين بنوا لأنفسهم بيوتًا على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل، وقد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية، وتأثر المعمار المصرى نتيجة ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية، ومن المحتمل جدا أن تكون خطة بناء مسجد الظاهر بيبرس مأخوذة من رسم مسجد ميافارقين الذى أنشئ في سنة ١٢٢٣ م. وعلى الرغم من أن هذه الأساليب والمؤثرات الفنية، قد وجدت بالفعل في مصر قبل القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أن تلك الهجرات الأخيرة كانت مدعاة لظهورها وإحيائها من جديد. والواقع أن سقوط بغداد وقيام دولة إيلخانات فارس على عهد هولاكو، قد فصل أراضى شرق دجلة عن غربه، ففى الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية، وفى الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية، بعد أن كانت حضارة العالم الوسيط من

سمرقند إلى أشبيلية قائمة على التعاون الفكرى والتبادل العلمى والأدبى بين الفرس والعرب في ظل الخلافة العباسية. حقيقة أن الفرقة بين اللغتين العربية والفارسية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة لنهوض القومى الفارسي، إلا أنه منذ سقوط بغداد قلت أهمية اللغة العربية، بين الفرس وأصبحت قاصرة البحوث الدينية والفلسفية. وترتب على سقوط بغداد أيضًا الاتجاه في إعادة ترتيب البيت السياسى مثل وجوب تعيين حدود جديدة وعقد محالفات مختلفة، كما ترتب عليه تغيير سلاطين المماليك في مصر سياستهم نحو الخلافة، إذ جعلهم يفكرون في إحيائها من جديد، وفى الوقت نفسه أعطاهم فرصة قصيرة من الزمن يستعدون فيها لصد هذا السيل المغولى الجارف المندفع نحوهم، ومع أن سقوط بغداد أوضح للمسلمين ضرورة توحيد الجهود إزاء ذلك الخطر العام، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائمًا مستمرًا، فاستغل المغول ما هنالك من تنافس لصالحهم، وزحفوا نحو الغرب يعيثون فسادا وتخريبا يساعدهم في ذلك انقسام كلمة المسلمين، وأيد هولاكو حزب الشيعة واتخذ الاحتياطيات التى تكفل سلامة قبر الإمام على بالنجف من التدمير (١).

ثم عمل الشعراء والعلماء قصائد في مراثى بغداد وأهلها، وعمل الشيخ تقى الدين إسماعيل بن إبراهيم، بن أبى اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي، قصيدته المشهورة، وهي:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار	:::	فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا	:::	فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذى شرفت به	:::	المعالم قد عفاه إقفار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر	:::	وللدموع على الآثار آثار
يا نار قلبى من نار لحرب وغى	:::	شبت عليه ووافى الربع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها	:::	وقام بالأمر من يحويه زنار

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١، العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

ومنها:

وكم بدور على البدرية انخسفت ::: ولم يعد لبدور منه إبدار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة ::: من النهاب وقد حازته كفار
وكم حدود أقيمت من سيوفهم ::: على الرقاب وحطت فيه أوزار
ناديت والسبى مهتوك يجرهم ::: إلى السفاح من الأعداء دعار

ومنها:

وهم يساقون للموت الذى شهدوا ::: النار يا رب من هذا ولا العار
يا للرجال بأحداث تحدثنا ::: بما غدا فيه إعذار وإنذار
من بعد أسر بنى العباس كلهم ::: فلا أنار لوجه الصبح إسفار
ما راق لى قط شيء بعد بينهم ::: إلا أحاديث أرويها وآثار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا ::: سوق لمجد وقد بانوا وقد باروا
إن القيامة في بغداد قد وجدت ::: وحدها حين للإقبال إدبار
آل النبى وأهل العلم قد سبيوا ::: فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا ::: لكن أبي دون ما أختار أقدار [1]

ومن الزيادات التى أوردها السيوطي:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ::: فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ::: فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذى شرفت ::: به المعالم قد عفاه إقفار
أضحى لعصف البلى في ربعه أثر ::: و للدموع على الآثار آثار
يا نار قلبى من نار لحرب وغى ::: شبت عليه ووافى الربع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها ::: و قام بالأمر من يحويه زنار
و كم حريم سبته الترك غاصبة؟ ::: و كان من دون ذاك الستر أستار
و كم بدور على البدرية انخسفت؟ ::: و لم يعد لبدور منه إبدار
و كم دخائر أضحت وهى شائعة؟ ::: من النهاب وقد حازته كفار
و كم حدود أقيمت من سيوفهم؟ ::: على الرقاب وحطت فيه أوزار
ناديت والسبى مهتوك تجر بهم ::: إلى السفاح من الأعداء دعار

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٢ / ٢٦١.

و من مراثي بغداد وأهلها قول سبط التعاويذي:

بـــادت وأهلوهـــا معًـــا فبيـــوتهم ::: ببقـــاء مولانـــا الـــوزير خـــراب

وقال بعضهم:

يا عصبة الإسلام نـــوحي وانـــدبي ::: حزنًـــا علـــى مـــا تم للمستعصـــم
دست الوزارة كـــان قبـــل زمانـــه ::: لابن الفرات فصار لابن العلقمي [(١)]

وقال الشيخ شمس الدين الكوفى الواعظ يذكر خراب بغداد وقتل الخليفة:

عنـــدى لأجـــل فـــراقكم آلام ::: فـــإلام أعـــذل فـــيكم فـــإلام
من كان مثلـــى للحبيـــب مفارقًـــا ::: لا تعـــذلوه فـــالكلام كـــلام
نعم المساعد دمعى الجارى علـــى ::: خـــدى إلا أنـــه نمـــام
ويذيب روحى نـــوح كـــل حمامـــة ::: فكأنمـــا نـــوح الحمـــام حمـــام
إن كنـــت مثلـــى للأحبـــة فاقـــدًا ::: أو في فـــؤادك لوعـــة وغـــرام
قف في ديـــار الظـــاعنين ونادهـــا ::: يا دار مـــا صـــنعت بـــك الأيـــام
أعرضت عنك لأنهم مـــذ أعرضـــوا ::: لم يبـــق فيـــك بشاشـــة تســـتام
يـــا دار أيـــن الســـاكنون وأيـــن ::: اك البـــهاء وذلـــك الإعظـــام
يا دار أين زمـــان ربعـــك مونقًـــا ::: وشـــعارك الإجـــلال والإكـــرام
يا دار مذ أفلـــت نجومـــك عمنـــا ::: والله مـــن بعـــد الضـــياء ظـــلام
فلبعدهم قرب الـــردى ولفقـــدهم ::: فقـــد الهـــدى وتزلـــزل الإســـلام
فمتى قبلت مـــن الأعـــادى ســـاكنًا ::: بعـــد الأحبـــة لا ســـقاك غمـــام
يـــا ســـادتى أمـــا الفـــؤاد فشـــيق ::: قلـــق وأمـــا أدمعـــى فســـجام
والدار مذ عدمت جمال وجـــوهكم ::: لم يبـــق في ذاك المقـــام مقـــام
لا حظ فيها للعيون ولـــيس للـــ ::: أقـــدام في عرصـــاتها إقـــدام
وحياتكم إنى علـــى عهـــد الهـــوى ::: بـــاقٍ ولم يخفـــر لـــدى ذمـــام

(١) عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ١ / ٤٠٣.

فــدمى حــلال إن أردت ســواكم ::: والعــيش بعــدكم علــيّ حــرام
يــا غــائبين وفى الفــؤاد لبعــدهم ::: نــار لهــا بــين الضــلوع ضــرام
لا كتــبكم تــأتى ولا أخبــاركم ::: تــروى ولا تــدنيكم الأحــلام
نغصــتم الــدنيا علــيّ وكلمــا ::: جــد النــوى لعبــت بى الأســقام
ولقيت من صرف الزمــان وجــوره ::: مــا لم تخيلــه لى الأوهــام
يا ليت شعرى كيف حــال أحــبتي ::: وبــأى أرض خيمــوا وأقــاموا
مــالى أنــيس غــير بيــت قالــه ::: صب رمتــه مــن الفــراق سـهام
والله مــا اختــرت الفــراق وإنمــا ::: حكمــت علــيّ بــذلك الأيــام

وقال الشيخ شمس الدين الكوفى الواعظ المقدم ذكره يذكر واقعة بغداد ويرثى أهلها ويذكر خرابها:

إن لم تقــرح أدمعــى أجفــاني ::: من بعــد بعــدكم فمــا أجفــاني
إنسان عينى مــذ تنــاءت داركــم ::: مــا راقــه نظــر إلى إنســان
يا ليتنى قِــد مــتُّ قبــل فــراقكم ::: ولســاعة التوديــع لا أحيــاني
مــا لى وللأيــام شــتت صــرفها ::: حــالى وخــلانى بــلا خــلان
ما للمنــازل أصــبحت لا أهلــها ::: أهلــى ولا جيرانهــا جــيراني
وحياتكم ما حلــها مــن بعــدكم ::: غــير البلــى والهــدم والــنيران
ولقد قصدت الدار بعــد رحــيلكم ::: ووقفــت فيهــا وقفــة الحــيران
وســألتها لكــن بغــير تكلــمٍ ::: فتكلمــت لكــن بغــير لســان
ناديتها يــا دار مــا صــنع الأولى ::: كانوا هــم الأوطــار في الأوطــان
أيــن الــذين عهــدتهم ولعــزهم ::: ذلا تخــر معاقــد التيجــان
كانوا نجوم مــن اقتــدى فعلــيهم ::: يبكــى الهــدى وشــعائر الإيمــان
قالــت غــدوا لمــا تبــدد شملــهم ::: وتبــدلوا مــن عــزهم بهــوان
كدم الفصاد يــراق أرذل موضــعٍ ::: أبــدًا ويخــرج مــن أعــز مكــان
أفنتــهم غــير الحــوادث مثلمــا ::: أفنــت قــديمًا صــاحب الإيــوان
لما رأيــت الــدار بعــد فــراقهم ::: أضــحت معطلــةً مــن الســكان

ما زلت أبكيهم وألثم وحشةً ::: لجمالهم مستهدم الأركان
حتى رثى لى كل من لا وجده ::: وجدى ولا أشجانه أشجاني
أترى تعود الدار تجمعنا كما ::: كنا بكل مسرة وتهاني
إذ نحن نغتنم الزمان ونجتني ::: بيد الأمان قطوف كل أماني
والدهر تخدمنا جميع صروفه ::: والوقت يعدينا على العدوان
والعيش غض والدنو ممزق ::: بيد الوصال ملابس الهجران
هيهات قد عز اللقاء وسددت ::: طرق المزار طوارق الحدثان
مالى أردد ناظرى ولا أرى الـ ::: أحباب بين جماعة الإخوان
وا لهفى وا وحدتى وا حيرتي ::: وا وحشتى وا حر قلبى العاني
سرتم فلا سرت النسيم ولا زها ::: زهر ولا ماست غصون البان
مالى أنيس بعدكم إلا البكا ::: والنوح والحسرات والأحزان
يا ليت شعرى أين سارت عيسكم ::: أم أين موطنكم من البلدان (١)

بغداد بين سقوطين!

ما أشبه الليلة بالبارحة!!

ما أشبه سقوط بغداد تحت أقدام الأمريكان بسقوط بغداد تحت أقدام التتار!!..

ما أشبه مسلمى اليوم بالمسلمين أيام التتار..

وما أشبه حكام المسلمين اليوم بحكام المسلمين أيام التتار..

وما أشبه الأمريكان بالتتار..

وما أشبه حلفاء الأمريكان بحلفاء التتار..

صورة متكررة في التاريخ بشكل عجيب..

---

(١) محمد بن شاكر الكتبى فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: ١١٩٧٣ - ١٩٧٤، ٢ / ٢٣٥ وقال في نهاية أبيات الشعر: ومن الاتفاقات العجيبة: أن أول الخلفاء من آل أبى سفيان معاوية وآخرهم اسمه معاوية، وأول الخلفاء من آل الحكم بن العاص اسمه مروان وآخرهم اسمه مروان، وأول الخلفاء الفاطميين بالمغرب والديار المصرية اسمه عبد الله وآخرهم اسمه عبد الله، وأول الخلفاء من بنى العباس عبد الله السفاح وآخرهم عبد الله المستعصم، وعددهم سبعة وثلاثون خليفة، ومدة ملكهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة، فسبحان من لا يزول ملكه.

لقد ظهر الأمريكان فجأة على مسرح الأحداث كما ظهر التتار تمامًا.. أمة بلا تاريخ.. قامت على السلب والنهب.. قتل الأمريكان عشرات.. بل مئات الألوف من الهنود الحمر لكي يقيموا لهم دولة.. نهبوا ثروات غيرهم وأقاموا ما يسمونه " حضارتهم " على أشلاء وجماجم سكان البلاد الأصليين..

ومرت الأيام وصاروا " قطبًا أوحد " في الأرض تمامًا كما كان التتار.. ولم يقبلوا الآخر أبدًا.. ورسخوا الظلم والبطش والقهر في الأرض مع ادعائهم المستمر أنهم ما جاءوا إلا لنشر العدل والحرية والأمان للشعوب..

ما أشبه طاولة مفاوضات الأمريكان بطاولة مفاوضات التتار! عهود ولا ضمير.. مواثيق ولا أمان.. كلمات جوفاء تطلق في الهواء لتسكين الشعوب إلى أجل.. ولخداع البشر إلى حين.. والعزم مبيت على نقض العهود.. والنية معقودة على الطعن من الظهر..

لقد دخل الأمريكان بلاد المسلمين بحجج واهية تمامًا كما دخل التتار بحجج واهية..

ما احتاجوا إلى دليل دامغ أو إلى حجة ساطعة.. بل هى أوهام في أوهام.. وادعاءات في ادعاءات.. فتارة هم يحاربون الإرهاب.. وتارة يرسخون الديموقراطية.. وتارة يحررون الشعوب.. وتارة يبحثون عن أسلحة الدمار الشامل!!..

ليس المهم أى سبب سيدخلون من وراءه، ولكن المهم أنهم حتمًا سيدخلون..

لقد حارب الأمريكان في بلاد المسلمين حروبًا كحروب التتار.. حروبًا بلا قلب.. لا تفرق بين مدنى ومحارب.. ولا بين رجل وامرأة.. ولا بين طفل أو شاب أو شيخ كبير.. واستولى الأمريكان على ثروات المسلمين تمامًا كما فعل التتار.. وإلا فما الفارق بين البترول وبين الذهب والفضة؟! وما الفارق بين تغير المناهج وتبديلها وتزييفها وبين إغراق مكتبة بغداد؟!!..

طمس لكل ما هو إسلامي.. وروح همجية لا تقبل الحضارة..

وسبحان الله.. كأن الله عز وجل أراد أن يطابق الأمريكان أفعال التتار فجعل خطواتهم في إسقاط بغداد شديدة الشبه بخطوات التتار..

فكما تمركز التتار في أفغانستان أولاً قبل إسقاط بغداد.. تمركز الأمريكان كذلك في أفغانستان عن طريق الاحتلال وإسقاط نظام طالبان قبل إسقاط بغداد!! وسعوا إلى إقامة قواعد لهم في أوزبكستان وباكستان.. كما فعل التتار ذلك تمامًا قبل عدّة قرون!!! " أتواصوا به؟! بل هم قوم طاغون ".

وكما كان إعداد التتار العسكرى مبهرًا وقويًّا كذلك كان إعداد الأمريكان.. فهم لم يبخلوا على حربهم بالمال ولا بالسلاح ولا بالفكر.. أساطيل مهولة.. وأسلحة حديثة.. واستعدادات وتدريبات وحصار وخطط..

وكما عقد التتار أحلافهم عقد الأمريكان أحلافهم كذلك..

وإذا كان منكوخان خاقان التتار أيام سقوط بغداد يقسّم العالم إلى دول " مارقة " أي: معادية.. ودول " صديقة " أي: تابعة، فكذلك فعل خاقان أمريكا " جورج بوش!! ".. بمنطق السيد الذى يسوس عبيده لا الحليف الذى يعاهد ويفاوض..

وكما تحالف التتار مع الصليبيين على حرب المسلمين مع اختلاف أيديولوجياتهم وسياساتهم وتوجهاتهم واستراتيجياتهم.. كذلك تحالف الأمريكان مع اليهود مع شدة العداء بين النصارى واليهود.. وتعاون الأمريكان مع الروس برغم التاريخ الأسود الذى يجمع بين البلدين.. وجلس الأمريكان على طاولة المفاوضات مع الصين مع توجس كل طرف من الآخر..

وكما كون التتار قوات التحالف وتحالفوا مع دول نصرانية ضعيفة - مقارنة بهم - كأرمينية والكرج.. فعل ذلك الأمريكان وتحالفوا مع إنجلترا وأسبانيا وغيرهما مع ضعف هذه الدول بالنسبة لأمريكا! واستفادوا من هذه الدول كما استفاد التتار من أرمينية: فإنجلترا - مثلا - صاحبة خبرة بعيدة في بلاد المسلمين، ولها معهم تاريخ طويل، كما أنها ستتولى السيطرة على مناطق قد يكون بها خطورة شديدة على الأمريكان فلا مانع من دفع الإنجليز إلى هذه المناطق في مقابل الفتات، وفى مقابل السماح لهم بالعيش إلى جوار الأمريكان..

وكما تعاهد التتار مع بعض أمراء المسلمين.. فعل الأمريكان نفس الشيء.. وتحالفوا مع بعض الأمراء المسلمين.. أو مع كثير من الأمراء المسلمين.. وكما تحالف بدر الدين لؤلؤ زعيم الأكراد في شمال العراق مع التتار كذلك تحالف أكراد الشمال العراقى مع الأمريكان، وكما فتح كيكاوس الثانى وقلج أرسلان الرابع المجال الأرض التركى لقوات التتار فعل كذلك الأتراك الآن.. وكما اخترقت الجيوش التترية أراضى المسلمين دون مقاومة لتصل إلى العراق كذلك اخترقت جيوش الأمريكان أراضى المسلمين الآن ليس فقط بدون مقاومة ولكن بترحيب عال، وباستقبال حافل..

حقًا.. ما أشبه الليلة بالبارحة!!

فكما فكر التتار في التعاون في الشيعة في العراق فكر الأمريكان كذلك..

وكما استغل التتار بعض المنافقين من المسلمين لبث الحرب الإعلامية التى تحط من نفسيات المسلمين، وتلقى الرعب في قلوبهم قام الأمريكان بنفس الشيء حتى رأينا الصحف القومية في البلاد الإسلامية تتحدث عن تدريبات الأمريكان وتسليحاتهم وإمكانياتهم، وتوسع الفجوة جدًّا بين أمريكا والمسلمين، وتحبط المسلمين من أى إمكانية للمقاومة..

وكما عمد هولاكو إلى توصية مؤيد الدين العلقمى الشيعى أن يقوم بإنقاص أعداد الجيوش الإسلامية كذلك فعل الأمريكان مع كثير من بلاد المسلمين فوضعوا عليها قيودًا في التسليح وفى أعداد الجنود وفى التدريبات..

وكما حوصرت بغداد من التتار حوصرت من الأمريكان، وكما قُصفت بغداد من التتار قُصفت من الأمريكان كذلك، وكما انهارت أسوارها تحت قذائف التتار انهارت كذلك تحت قذائف الأمريكان..

وكما طلب التتار تسليم المجاهدين فعل ذلك الأمريكان..

وكما طلب التتار تدمير الأسلحة فعل ذلك الأمريكان..

وكما هرب المستعصم بالله من الموقف ورضي بالهوان كذلك فعل صدام حسين..

وكما قُتل ولدا المستعصم قبل أن يُقبض عليه قُتل ولدا صدام قبل أن يُقبض عليه!!!..

وكما خالف التتار عهودهم بالأمان قبل دخول بغداد كذلك خالف الأمريكان..

وكما دخل التتار البلاد لكى لا يخرجوا منها.. دخل كذلك الأمريكان العراق لكى لا يخرجوا منها..

تطابق مذهل بين التاريخ والواقع!!!..

لكن كل هذا الشبه بين التتار والأمريكان لا يخيفنى ولا يرهبني.. فملة الكفر واحدة.. وحال الكفار يتشابه في كل الأزمان، إن ما يخيفنى ويرهبنى حقًا هو تشابه واقع المسلمين اليوم مع واقعهم أيام التتار.. فنحن لا نهزم أبدًا لقوة الكفار سواء كانوا من التتار أو الفرس أو الروم أو الروس أو الأمريكان أو غيرهم.. إنما نهزم لضعفنا نحن.. لقد افتقر المسلمون أيام التتار لكل مقومات النصر فكان لابد من الهزيمة والذل والهوان.. وكذلك افتقر المسلمون في زماننا إلى نفس مقومات النصر فكانت النتيجة هى العربدة الأمريكية والروسية والهندوسية واليهودية والصربية في أراضى المسلمين..

الأمراض الأخلاقية التى تفشت في الأمة الإسلامية وكانت سببًا في هذا الانهيار أيام التتار هى نفس الأمراض الأخلاقية التى تتفشى في أمتنا اليوم..

لابد أن يقف المسلمون وقفة صادقة مع أنفسهم يفتشون عن أدوائهم الخطيرة.. لماذا يفعل أهل الأرض بنا ما يشاءون ونحن نزيد على المليار؟.. لماذا لا يأبه بنا أهل الشرق أو أهل الغرب؟ لماذا نزع الله عز وجل المهابة منا من قلوب أعدائنا، ولماذا ألقى في قلوبنا الوهن والضعف والخور؟؟

فلنراجع التاريخ يا إخوانى ولنراجع الواقع..

أمراض الأمة:

إنها بإيجاز شديد:

- المرض الأول: عدم وضوح الهوية الإسلامية:

والقاعدة الإسلامية الأصيلة هى:{إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ} [محمد: ٧].. ونصر الله عز وجل يكون بتطبيق شرعه والالتفاف حول راية إسلامية واحدة.. لا عنصرية.. ولا قبلية.. ولا قومية..

أما البعد عن منهج الله عز وجل وقبول الحلول الشرقية والغربية والإعراض عن كتاب الله عز وجل، وعن سنة رسوله ﷺ فهذا أصل البلاء وموطن الداء.. ولم يغير المسلمون من واقع التتار إلا عندما ظهر من يرفع النداء الجميل: "واإسلاماه".. لقد وفق الله عز وجل قطز رحمه الله إلى هذه الكلمة ليوجز بها كل حياته، وليوجه أنظار جنده الأبرار ومن تبعهم بإحسان إلى الراية الوحيدة التى ما وقفت تحتها الأمة إلا انتصرت.

لكن مهما حاول أى قائد أن يحفز شعبه بغير الإسلام فلن نفلح أبدًا.. أبى الله عز وجل أن ينصرنا إلا إذا ارتبطنا به في الظاهر والباطن.. ظاهرنا مسلم وباطننا مسلم.. سياستنا مسلمة.. اقتصادنا مسلم.. إعلامنا مسلم.. قضاؤنا مسلم.. جيشنا مسلم.. هكذا بوضوح.. دون تستر ولا مواربة ولا خوف ولا وجل. ليس هناك ما نستحيى منه.. بل الذى يتبرأ من الدين هو الذى يجب أن يستحيي..

سبحان الله!! انظر إلى واقعنا.. الذى يتكلم في الدين عليه أن يكون حريصًا جدًّا وكل كلمة محسوبة عليه، وعليه أن ينتقى ألفاظه بدقة.. ويجب أن لا يكون للكلمات مرامٍ أخرى.. أما الذين يتكلمون في الفجور والإباحية فكما يريدون لا ضابط ولا رابط.. الفيديو كليب، والبرامج الماجنة، والإعلانات القذرة.. ودون رقيب أو محاسب! كيف تنصر أمة فقدت هويتها إلى هذه الدرجة؟!..

كيف تنصر أمة يستحى فيها العالم أن يقول كلمة الحق ولا يستحى فيها الفاجر أن يجاهر بفسوقه ومجونه؟

لابد من وقفة أيها المسلمون.. ضياع الهوية الإسلامية هو المرض الرئيسى الذى أدى لتمكين أعداء الأمة من بلادنا..

- **المرض الثاني: الفرقة بين المسلمين:**

فكما كان الصراع يشتعل بين كل الأقاليم الإسلامية أيام التتار، وكما كان جلال الدين يعيث فسادًا في بلاد المسلمين وجيوش التتار قابعة على بعد خطوات.. كذلك نرى الخلاف والشقاق يدب بين كل بلاد المسلمين الآن تقريبًا.. قلما تجد قُطرين إسلاميين متجاورين إلا وجدت بينهما صراعًا على حدود أو اختلافًا على قضية.. انشغل المسلمون بأنفسهم، وتركوا الجيوش المحتلة تعربد في ربوع العالم الإسلامي، وجعلوا همهم التراشق بالألفاظ والخطب - وأحيانًا بالحجارة والسلاح - مع إخوانهم المسلمين.. ولا شك أن التنازع بين المسلمين قرين الفشل.. يقول تعالى:{وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ } [الأنفال: ٤٦].

- **المرض الثالث: الترف والركون إلى الدنيا:**

لقد كبرت الدنيا جدًّا في أعين المسلمين أيام التتار.. وكذلك في أيامنا.. أجيال كاملة لا تعيش إلا لدنياها وإن كانت الدنيا حقيرة ذليلة.. عاش كل فرد ليجمع المال ويجمّل ويحسّن في معيشته.. ولينعم بأنواع الطعام والشراب والدواب والمساكن.. وليستمتع بأنواع الغناء المختلفة وأساليب الموسيقى المتجددة.. وهكذا غرق المسلمون في دنياهم.. كثير من الشباب يحفظ الأغانى الماجنة أكثر من القرآن.. كثير من الشباب يعلم بالتفصيل تاريخ حياة الفنانين والفنانات، ويعلم على وجه اليقين سيرة لاعب في بلادنا أو في بلاد غيرنا ولا يعلم شيئًا عن تاريخ وسيرة أبطال وعلماء وقواد المسلمين.. بل لا يعلم شيئًا عن أصحاب الرسول ﷺ.. بل قد لا يعلم شيئًا عن الرسول ﷺ نفسه!!

أليس هذا مرضًا يحتاج إلى علاج..

الترف من أسباب الهلكة الواضحة.. يقول الله تعالى في كتابه:{ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾} [الإسراء: ١٦].

لقد وصل الترف اليوم إلى عموم المسلمين حتى وصل إلى فقرائهم!!.. فالرجل قد لا يجد قوت يومه ثم هو لا يستغنى عن السيجارة!!.. ويكاد لا يجد ما يستر به نفسه وأولاده ثم هو يجلس بالساعات في المقاهى والكافيتريات، وقد لا يستطيع أن يعلم أولاده ولكنه حريص كل الحرص على اقتناء فيديو أو طبق فضائي!!

ركون إلى الدنيا وانغماس في شهواتها.. ولا يستقيم لأمة تريد القيام أن تكون بهذه الهيئة..

- المرض الرابع: ترك الجهاد:

وكنتيجة طبيعية للانغماس في الدنيا، والترف الزائد عن الحد ترك المسلمون الجهاد.. ورضوا بالسير في ذيل الأمم.. وقبل المسلمون ما سماه عدوُّهم: " السلام "، بينما هو بوضوح: " استسلام "..

لم يفقه المسلمون أيام التتار - كما لم يفقه كثير من المسلمين في زماننا الآن - أن السبيل الأساسى لاستعادة حقوق المسلمين المنهوبة هو الجهاد، وأن السلام لو صح أن يكون اختيارًا في بعض الظروف إلا أنه لا يمكن أن يكون الخيار المطروح إذا انتُهِبَتْ حقوق المسلمين، أو سُفكت دماؤهم، أو شُرّدوا في الأرض، أو استُهْزِئ بدينهم وآرائهم ومكانتهم..

لم يفقه المسلمون أن السلام لا يكون إلا باستعادة كامل الحقوق، ولا يكون وإلا نحن أعزة، ولا يكون وإلا ونحن نمتلك قوة الردع الكافية للرد على العدو إذا خالف معاهدة السلام، أما بدون ذلك فالسلام لا يكون سلامًا بل يكون استسلامًا، وهو ما لا يُقبل في الشرع..

يجب أن يفقه المسلمون أن كلمة الجهاد ليست عيبًا يجب أن نستحيى منه أو نخفيه.. ليست كلمة قبيحة يجب أن تنزع من مناهج التعليم ومن وسائل الإعلام ومن صفحات الجرائد والكتب. أبدًا.. إن الجهاد ذروة سنام الإسلام!.. الجهاد أعلى ما في الإسلام.. شاء ذلك أم أبى أعداء الأمة سواء من خارجها أو من أبنائها..

كلمة الجهاد بمشتقاتها وردت في كتاب الله عز وجل أكثر من ثلاثين مرة..

كذلك كلمة القتال بمعنى قتال أعداء الأمة وردت.

أين نذهب بهذه الآيات؟

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ } [الأنفال: ٦٥].

أين نذهب بقول الله تعالى:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة: ١٢٣].

أين نذهب بقول الله تعالى:

{وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً} [التوبة: ٣٦].

يا إخواني ويا أخواتي..

أنى لأمة تريد أن تحمى نفسها وتدافع عن عرضها وشرفها أن تترك الجهاد والقتال؟؟!..

في أى عرف أو قانون أو ملة تُدعى الأمة التى تُحتل في المشرق والمغرب على عدم الحديث عن الجهاد والقتال والحرب والإعداد..

أنا أعتقد أن هذا المرض.. مرض ترك الجهاد وترك الحديث عنه والإعداد له من أعظم أمراض الأمة.. وليس في تاريخها أبدًا قيام إلا به.. ولنا في التاريخ عبرة..

- **المرض الخامس: إهمال الإعداد المادى للحروب:**

لقد اجتهد التتار في إعداد كل ما يمكنُهم من النصر سواء في ذلك الجنود أو السلاح أو تجهيز الطرق أو وضع الخطة أو الاهتمام بالأحلاف أوالحرب النفسية والخطط البديلة..

لقد كان إعدادًا متميزًا حقًا..

كل ذلك بينما كان المسلمون يعيشون في واد آخر!!..

أهمِلت الجيوش الإسلامية وانحدر مستواها، ولم يهتم حاكم بتحديث سلاحه أو تدريب جنده.. لم توضع الخطة المناسبة، ولم توجد المخابرات الدقيقة.. لقد تهاون المسلمون جدًّا في إعدادهم.. ورُتِّبَتْ أولوياتهم بصورة مخزية.. فبينما كانت الملايين

تُنفق على القصور وعلى الرخام وعلى الحدائق.. لم يُنفَق شيء على الإعداد العسكرى والعلمى والاقتصادى للبلاد.. وبينما قل ظهور النماذج المتفوقة في المجالات العلمية والقيادية والإدارية كثر ظهور المطربين والمطربات، والراقصين والراقصات، واللاعبين واللاعبات، واللاهين واللاهيات!!

و لابد أن تُهزَم أمة كان إعدادها بهذه الصورة.. فأمة الإسلام بغير إعداد لا تقوم.. وليس معنى أن يرتبط الناس بربهم ويعتمدوا عليه أن يُهملوا المقومات المادية، والتجهيز البشري.. ولابد أن يفقه المسلمون هذا الدرس جيدًا..

- **المرض السادس: افتقار المسلمين إلى القدوة:**

تربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات.. الجنود يشعرون بالغربة الشديدة وبفقدان الحماسة تمامًا إذا افتقدوا القدوة..

ألف خطاب للتحميس على الجهاد لا تفعل شيئًا إذا وجد الجنود قائدهم أول المختبئين عند الكوارث!!

ألف خطاب عن تحمل الظروف الصعبة والرضا بالقليل والزهد في الدنيا وتحمل المصائب الاقتصادية لا تغنى شيئًا إن وجد الشعب زعيمه يتنعم في القصور وينفق الملايين على راحته وسعادته ورفاهيته وحفلاته الصاخبة..

ألف خطاب عن الأخلاق الحميدة لا تقدم شيئًا للأمة إن كان الذى يقتدى به لا يُصلِّى ولا يصوم ولا يتَّسِم بنظافة اليد واللسان، وبطهارة الضمير والوجدان..

كيف يلتزم الشعب بدينه وشرع ربه وقلما يستمع إلى لفظ الجلالة: " الله " من زعيمه أو أستاذه أو مربيه؟!

كيف للشباب أن ينصلح حالهم وهم يرون أن القدوات التى تبرز لهم قدوات منحلة بعيدة كل البعد عن طريق الصلاح؟!

القائد الذى لا يكون قدوة حية لشعبه في الجهاد والخلق والصبر والزهد والعدل لا يجب أن يتوقع من شعبه أن يحميه وقت الشدائد ولا يقف معه في زمان المصائب..

وفى التاريخ عبرة!!

- **المرض السابع: موالاة أعداء الأمة:**

لقد سقط الكثير من زعماء المسلمين أيام التتار في مستنقع الموالاة لأعداء الأمة، وكان منطقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساسًا ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك ويلات الحروب.. فارتكبوا خطأ شرعيًّا وعقليًّا شنيعًا.. بل ارتكبوا أخطاءً مركبة.. فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ، وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر، وموالاة العدو واعتباره صديقا والثقة في كلامه وفى عهوده خطأ ثالث..

وربنا سبحانه وتعالى يقول في كتابه بوضوح:{۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١} [المائدة: ٥١].. وهذا تحذير خطير من رب العالمين.. وكم هو أحمق - أو ضعيف الإيمان - من يستمع إلى هذا التحذير ثم لا يلتفت إليه..

- **المرض الثامن: الإحباط:**

الأمة المحبطة من المستحيل أن تنتصر، والإحباط والقنوط واليأس ليست من صفات المؤمنين..

{إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ} [يوسف: ٨٧].

لقد عمل التتار كما عمل الأمريكان - كما عمل أتباع التتار والأمريكان - على خفض الروح المعنوية للشعوب المسلمة إلى أدنى درجة ممكنة.. لقد عظموا كل ما هو تترى أو أمريكى وخفضوا كل ما هو مسلم.. ووسعوا الفجوة جدًّا بين إمكانيات العدو وإمكانيات الأمة، وصوروا لهم أنه لا سبيل للنجاة إلا بالخنوع والخضوع والتسليم..

وقد رأينا التاريخ.. ورأينا مصيبة التتار قد اتبعت بنصر مجيد على يد قطز رحمه الله.. وكان من أهم الأسباب للنصر أنه رحمه الله رفع الروح المعنوية لجيشه، وعلمهم أن التتار خلق من خلق الله لا يعجزونه، وأن المسلمين إذا ارتبطوا بالله عز وجل فلا سبيل لأحد عليهم.. لا التتار ولا اليهود ولا الأمريكان ولا غيرهم.. وأن الجولة الأخيرة حتمًا ستكون للمسلمين..

وبغير هذا الإعداد النفسى وبث روح الأمل في الأمة فالنصر بعيد ولا شك..

- **المرض التاسع: توسيد الأمر لغير أهله:**

لقد رأينا في قصة سقوط الأول لبغداد كيف أن الأمر قد وُسِّد لغير أهله، وضيعت الأمانة وتولى المناصب العليا في البلد أناس افتقروا إلى الكفاءة وافتقروا إلى التقوى.. فلا قوة ولا أمانة.. وهذه والله الطامة الكبرى!!..

إذا لم يصل إلى مراكز القيادة إلا أصحاب الوساطة أو القرابة أو الرشوة فهذا أمر خطير.. بل شديد الخطورة..

إذا رأيتم أن القريب يوظف قريبه، وأن المراكز تباع وتشترى وتهدى، وأن أصحاب الكفاءات لا تقدر كفاءتهم، ولا يُرفع من قدرهم، فاعلم أن النصر مستحيل..

إذا كنا نجد أننا الآن في ذيل الأمم كما كان الوضع أيام التتار فلننظر إلى مراكز القيادة ومن جلس فيها.. ولننظر كيف وصلوا إلى هذه المراكز.. فإنك ولا شك ستجد الغالب الأعم قد وصل إليها بأسلوب لا يرضى عنه الله عز وجل..

ولا سبيل للنصر إلا بتوسيد الأمر إلى أهله.. وإلا بجعل الأمور في يد الذى جمع بين عمق العلم وصلاح العمل ونقاء الضمير وحسن السيرة..

- **المرض العاشر: غياب الشورى:**

الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام، والذى لا يأخذ بها يضحى بملايين الطاقات في شعبه ويفترض في نفسه الكمال، ويخالف طريق الأنبياء، ويورث الضغينة في قلوب أتباعه، ويقع في الخطأ تلو الخطأ، وفوق ذلك كله يخالف أمر الله عز وجل الذى جاء بلفظ صريح في كتابه العزيز: {وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩]..

وما نقصده هنا هو الشورى الحقيقية.. لا الشورى الوهمية التى ليس لها من هَمٍّ إلا جمع الآراء المؤيدة لرأى الزعيم.. ولا الشورى التى تغلف آراء الديكتاتور بغلاف برّاق جميل اسمه الديموقراطية.. غلاف ليس له قيمة، ولا يلبث أن يُلقى في سلة المهملات ويبقى رأى الدكتاتور!!..

كان هذا هو المرض العاشر من الأمراض التى أدت إلى انهيار المسلمين تحت أقدام التتار، فتلك عشرة كاملة، وهى نفس أسباب الهزيمة والهوان في أى عصر من العصور.. وتذكروا أننا لا نهزم لقوة أعدائنا، ولكن لضعفنا وسوء إعدادنا..

الطريق إلى النصر:

إدراك النصر طريق له خطوات واضحة.. لا لبس فيها ولا غموض!!..

النصر هو أن تعالج هذه الأمراض العشرة التى ذكرناها.. أن تعالجها علاجًا حقيقيًّا صادقًا.. لابد أن نعترف بوجود هذه الأدواء، ونسعى جاهدين صادقين لعلاجها، والرقى بهذه الأمة، وتوظيف كل الطاقات لتمكين هذه الأمة الإسلامية في الأرض..

النصر ببساطة يكون في هذه الأمور العشرة (التى هى علاج الأمراض السابقة):

١- العودة الكاملة غير المشروطة لله عز وجل ولشرعه الحكيم.

٢- الوحدة بين المسلمين جميعًا على أساس الدين.

٣- الإيمان بالجنة والزهد في الدنيا والبعد عن الترف.

٤- تعظيم الجهاد والحث عليه وتربية النشء والشباب على حب الموت في سبيل الله.

٥- الاهتمام بالإعداد المادى من سلاح وعلم وخطط واقتصاد وتقنيات وسياسات.

٦- إظهار القدوات الجليلة وإبراز الرموز الإسلامية الأصيلة وتعظيمها عند المسلمين.

٧- عدم موالاة أعداء الأمة والفقه الحقيقى للفرق بين العدو والصديق.

٨- بث روح الأمل في الأمة الإسلامية ورفع الهمة والروح المعنوية.

٩- توسيد الأمر لأهله.. وأهله هم أصحاب الكفاءة والأمانة.

١٠- الشورى الحقيقية التى تهدف فعلاً إلى الخروج بأفضل الآراء.

ومع كل التطابقات السابقة بين السقوطين القديم والحديث إلا أن هناك

فارقًا هامًّا جدًّا بين القصتين، وهذا الفارق يبعث الأمل الكبير في النفوس، وينفي عنها الإحباط المقيت.. وهذا الفارق هو ببساطة: المقاومة!!.. لقد شاهدنا مقاومة ضارية من الشعب العراقى بعد انهيار الجيش، وخاصة في المثلث السني، وشاهدنا ضحايا من المغتصب الأمريكي، وشاهدنا فشلا أمريكيًّا في اختراق صفوف المقاومة، وشاهدنا تعاطفًا من العالم الإسلامى مع المجاهدين العراقيين، وشاهدنا قلقًا أمريكيًّا واضحًا سواء في القيادة أو في المعارضة أو في الشعب أو في الجنود، حتى وصل إلى الانتحار في صفوف المقاتلين الأمريكان!!

كل هذه المشاهدات لم نرها في القصة القديمة، مما يعطى انطباعًا أن وضعنا الآن أفضل، وأن حالتنا لم تصل إلى الحال المتردية التى كانت عليها الأمة أيام التتار، وكل هذا يبعث الأمل في النفوس، ويقوى العزيمة على القيام من جديد، ونصر الله لهذه الأمة آت لا محالة مهما طال الزمان، ومهما تعقدت الظروف، وإذا كانت الأمة قد استطاعت الخروج من أزمتها الطاحنة أيام التتار فنحن - إن شاء الله - على الخروج من أزمتنا أقدر، والله الذى أخرج قطز من بين صفوف المؤمنين قادر على إخراج أمثاله من بين صفوفنا، " ولتعلمن نبأه بعد حين "!..

ونسأل الله أن يجعل حياتنا كلها في سبيله.. وأن يجعل كلامنا وواقعنا ككلام أصحاب رسول الله ﷺ وكواقعهم عندما أجابوا الرسول ﷺ وقالوا:

نحن الذين بايعوا محمدًا ::: على الجهاد ما بقينا أبدًا..

وأسأل الله أن يجعل لنا في التاريخ عبرة!!

{ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾} [غافر: ٤٤][1].

* * *

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٣٣٧ - ٣٥١.

الفصل الثامن:
حملة هولاكو على الشام وموقعة عين جالوت

انتهت قصة بغداد، وخرج المغول منها بعد أربعين يومًا من القتل والتدمير، وبدأ الجميع: المغول والمسلمون والنصارى يرتبون أوراقهم من جديد على ضوء النتائج التى تمت في بغداد..

أما هولاكو فقد انسحب من بغداد إلى مراغة حيث وضع في هذه القلعة الكنوز الهائلة التى نهبها من قصور العباسيين، ومن بيت مال المسلمين، ومن بيوت التجار وأصحاب رءوس الأموال...

وبالطبع ترك هولاكو حامية مغولية حول بغداد، وبدأ يفكر بجدية في الخطوة التالية.. والخطوة التالية بعد العراق - لا شك - أنها ستكون مصر وبلاد الشام فبدأ هولاكو في دراسة الموقف في هذه المنطقة..

ثم بدأ هولاكو يستقبل وفود وسفراء الدول إما للتهنئة والتأييد أو الاعتذار.. وبدأت الوفود الإسلامية الرسمية تتوالى على زعيم المغول تطلب عقد الأحلاف والمعاهدات مع " الصديق " الجديد، رجل الحرب والسلام: هولاكو!!..

ومع أن دماء المليون مسلم الذين قتلوا في بغداد لم تجف بعد، إلا أن هؤلاء الأمراء لم يجدوا أى غضاضة في أن يتحالفوا مع هولاكو؛ فالفجوة - كما يقولون - هائلة بينهم وبين هولاكو، والأفضل - في اعتباراتهم - أن يفوزوا بأى شيء أفضل من لا شيء، أو على الأقل يحيدون جانبه، ويأمنون شره..

{وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)}

[النساء: ٧٢].

لا شك أن هؤلاء الأمراء كانوا سعداء جدًّا بأنهم لم يشتركوا مع العباسيين في الدفاع عن بغداد، ولا شك أنهم كانوا يظهرون أمام شعوبهم بمظهر الحكماء الذين جنبوا شعوبهم ويلات الحروب.. ولا شك أن خطبهم كانت قوية ونارية وحماسية!!..

{وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ} [المنافقون: ٤].

ولا شك أنه كان هناك أيضًا من العلماء الوصوليين من يؤيدون خطواتهم، ويباركون تحركاتهم، ويحضون شعوبهم على اتباعهم، والرضى بأفعالهم..

ولا شك أن هؤلاء العلماء كانوا يضربون لهم الأمثال من السنة النبوية المطهرة.. فيقولون لهم مثلاً: لقد عاهد الرسول ﷺ المشركين في صلح الحديبية، فلماذا لا نعاهد نحن التتار الآن؟!! ولقد عاهد الرسول ﷺ اليهود في المدينة المنورة، فلماذا لا نعاهد نحن التتار في بغداد؟!!.. وهكذا!!..

{يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ} [آل عمران: ٧٨].

جاء هؤلاء الأمراء وقلوبهم تدق، وأنفاسهم تتسارع..

هل سيقبل سيدهم هولاكو أن يتحالف معهم؟!

وجاء الزعماء الأشاوس يجددون العهد مع " الصديق " هولاكو..

- الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل..

- الأمير كيكاوس الثانى والأمير قلج أرسلان الرابع من منطقة الأناضول (وسط وغرب تركيا)..

- الأمير الأشرف الأيوبى أمير حمص..

- الأمير الناصر يوسف (حفيد صلاح الدين الأيوبي) أمير حلب ودمشق..

وهؤلاء الأمراء يمثلون معظم شمال العراق وأرض الشام وتركيا.. إذن لقد حلت المشاكل أمام هولاكو.. لقد فتحت بلاد المسلمين أبوابها له دون أن يتكلف قتالاً.. [(١)].

وكان إقليم الشام في ذلك الوقت تتقاسمه سلطات ثلاث: هى سلطة الفرنج، وسلطة الأرمن المسيحيين، وسلطة الحكام المسلمين المتمثلين في الأمراء الأيوبيين. وكان هؤلاء الأمراء يحكمون مدن ميافارقين وحصن كيفا والكرك وحلب ودمشق

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١٥٣.

وحماة وحمص، وهم ينتسبون للأسرة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين الأيوبى في مصر والشام.

ولكن مما يؤسف له حقًّا أن كل واحد من هؤلاء الأمراء كان يعتبر نفسه مستقلاً، فلا وفاق بينهم، ولا سلطان لأمير منهم على الآخر، وكانوا في نزاع دائم وخلاف مستمر، حتى في الوقت الذى بدا فيه شبح المغول يظهر مخيفًا مرعبًا، وأصبح هذا الخطر ماثلاً أمام الأعين على إثر فتح بغداد، ولو قدر لهؤلاء الأمراء فاتحدوا وتكتلوا لاستطاعوا أن يكونوا سدًا منيعًا، يدرأون به خطر المغول عن تلك البلاد (١).

كان من الطبيعى بعد سقوط بغداد في يد التتار أن يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام، وكان صاحب الشام - حلب ودمشق في ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف (٦٤٠ - ٦٥٩ هـ) (٢) وكان معاديًا للمماليك في مصر فلم يجد بدًّا من الاستعانة بالتتار ضد سلاطين المماليك في مصر، فأرسل الناصر صلاح الدين يوسف ولده الملك العزيز إلى هولاكو وبصحبته بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا من " هولاكو " مساعدة الملك الناصر ضد المماليك في مصر، الذين انتزعوا السلطنة من الأيوبيين (٣) وكان حريًّا بهولاكو أن يقبل ذلك الطلب لو أن أمير دمشق أحاطه بشيء من العناية وذهب بنفسه في طلب حلف الإيلخان المغولى ويعرض عليه ولاءه وتبعيته، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو أن يرتبط بعهد وثيق، ففضل البقاء بعيدًا عن حضرة هولاكو، حتى إذا أصيبت القوى المغولية بالهزيمة أمام المسلمين استطاع أن يجد لنفسه بعض المعاذير (٤) وربما خاف أن يلقى نفس مصير الخليفة العباسى فأراد أن يبقى على نفسه إلى حين.

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٧٩.

(٢) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، صاحب حلب ودمشق - وهو آخر ملوك بنى أيوب، وكان قد ورث الحكم في حلب عن أبيه عام ١٢٣٦م وكان عمره ست سنوات إذ ذاك وأخذ دمشق عام ١٢٥٠ م. المقريزي، السلوك، ٣٦٦/١.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٠.

(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٥١.

وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى - والمماليك البحرية الفارين من مصر - قد أرسل إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف يلتمس منه الأمان، ثم جاء معه عدد من الأمراء حيث أكرمه الناصر وأعطاه إمرة مائة فارس، وأقطعه نصف نابلس وجينين، وعبثًا حاول بيبرس إقناع الناصر بالصمود أمام خطر التتار، ولما أصر الناصر يوسف على موقفه غضب منه المماليك البحرية ورحلوا إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك، وعرضوا عليه الاستيلاء على مصر فاستجاب المغيث لطلبهم، ولكن انتهى الأمر بعودة المماليك البحرية إلى مصر وخاصة الظاهر بيبرس ودخلوا في طاعة السلطان المظفر قطز(١).

والحقيقة أن الملك الناصر قد جانبه الصواب حينما أقدم على هذه الخطوة التى أضرت بمصالحه قبل أن تضر بمصالح المسلمين، فكان الواجب عليه أن يقف إلى جوار المماليك فلا يعاديهم - على الأقل في هذه المحنة التترية - لأن عدوهم أصبح واحد، كما أنه - بفعلته هذه - وجد نفسه بين قوتين تبادلانه العداء، المماليك والمغول، وكان الأقرب والأفضل له أن يوحد جهود المسلمين ويتعاون مع المماليك ضد المغول.

ولم ينل الناصر يوسف مراده وأتت الرياح بما لا تشتهى السفن وبدلاً من أن يكسب ود ومساعدة هولاكو كسب عداوته، إذ إن هولاكو غضب من الرسالة والوفد الذى بعث به الناصر يوسف ورأى أنه لم يناسب مقامه، فأرسل إلى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط هذا نصها:

" الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالي، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } [النمل: ٣٤]. واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نمى ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٩ - ٤٢٠.

إذا تم أمــــر دنـــــا نقصـــــه ::: تـــــوق زوالاً إذا قيـــــل تم
إذا كنـــت في نعمـــة فارعهـــا ::: فـــإن المعاصـــى تزيـــل الـــنعم
وكم مـــن فـــتى بـــات في نعمـــة ::: فلم يـــدر بـــالموت حـــتى هجـــم

إذا وقفت على كتابى هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين (أى ملك الملوك على وجه الأرض) تأمن شره، وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:{ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾} [النجم: ٣٩ - ٤١]، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى كروان سراى (الاسم التترى لمصر) فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها.

أيـــن النجـــاة ولا منـــاص لهـــارب ::: ولى البســـيطان الثـــرى والمـــاء
ذلت لهيبتنـــا الأســـود وأصـــبحت ::: في قبضـــتى الأمـــراء والـــوزراء[1]

وعندما أدرك الناصر أنه خسر احترام المسلمين ونصرة المغول في آن واحد، بعث برسالة عنيفة ملؤها السباب واللعن إلى هولاكو، الأمر الذى جعله يدفع ثمن السباب غاليًا عندما اقتحم أملاكه [2].

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٠ - ٤١٧، وكانت أفاعيل ووحشية التتار قد أقلقت الكثير من سكان الشام وأجبرت الكثير منهم إلى الفرار صوب مصر، وكان الوقت شتاء فمات منهم عدد كبير، ونهب البدو أمتعة كثيرين. انظر: المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٦.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٥١، قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٥٩.

التحالف المغولى الصليبى لاجتياح الشام:

وهناك عامل آخر شجع المغول على اجتياح الشام ومصر وهو التحالف الذى تم بين الحكام المسيحيين في غرب آسيا من جهة وبين المغول من جهة أخري، فقد رأى " هيثوم " ملك أرمينية أن الفرصة سانحة للانضمام للمغول واقتناص الشام من أيدى أمراء المسلمين ثم السيطرة على بيت المقدس بعد ذلك، ولما كان " بوهيمند السادس " ملك أنطاكية الصليبى حليفًا وفيًّا لجاره " هيثوم "، وكان قد تزوج من ابنته، دخل هو الآخر في الحلف المغولى الصليبي، ومما هو جدير بالذكر أنه كان لزوجة هولاكو المسيحية " دوقوز خاتون " - والتى كان يؤثرها باحترامه وحبه - أكبر الأثر في توطيد أواصر الصداقة بين الأمراء المسيحيين وهولاكو، وذكر المؤرخون أن خطة الحملة على بلاد الشام قد تقررت بعد لقاء تم بين هولاكو وتابعه الأرمنى " هيثوم "، وكان الخان المغولى قد طلب إليه أن يسير بجيشه الأرمنى إلى الرها بحجة أنه ذاهب لكى يخلص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، ويردها إلى المسيحيين، ففرح هيثوم بهذا الخبر، وجمع جيشًا كبيرًا وانضم إلى هولاكو، وقدم البطريق الأرمنى ليمنح البركة للخان المغولي، وهكذا أخذت حملة حفيد " جنكيزخان " المغولية ألأرمينية سمات الحرب الصليبية، ذلك لأن ملك الأرمن هيثوم كان في علاقته بالمغول لا يتحدث عن نفسه فقط، وإنما كان يتحدث كذلك عن صهره الفرنجى " بوهيمند " (١).

حصار ميافارقين:

إذا كان أمراء مسلمين قد عاهدوا وعاونوا المغول ضد إخوانهم المسلمين - وما أكثر هؤلاء في ذلك الزمان - فقد كان من بين الحكام من كان عنده شيء من إيمان وشيء من نخوة وكرامه... إنه أحد الأمراء الأيوبيين الذى رفض أن يرضخ له، ورفض أن يعقد معاهدات سلام مع المغول، وقرر أن يجاهد المغول إلى النهاية، هذا الأمير المسلم الذى ظل محتفظًا بمروءته وكرامته ودينه هو الأمير " الكامل محمد

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

الأيوبى (١٢٤٤ - ١٢٦٠ م) أمير منطقة " ميافارقين ".. [(١)].

وكانت جيوش الكامل محمد - رحمه الله - تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وهى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من جهة الشمال، أى أنه يسيطر على الشمال الغربى من العراق، وعلى الشمال الشرقى من سوريا..

فإذا وضعنا في حساباتنا أن هولاكو يريد أن يحتل سوريا، فإنه ليس أمامه إلا أن يجتاز منطقة الجزيرة الواقعة تحت سيطرة الكامل محمد رحمه الله، وعلى ذلك فرغم خنوع وخضوع معظم أمراء المنطقة، إلا أن إخضاع إمارة ميافارقين بالقوة أصبح لازمًا..

لقد بدأ هولاكو بالطرق السهلة وغير المكلفة، وحاول إرهاب " الكامل " وإقناعه بالتخلى عن فكرة الجهاد فأرسل إليه رسولاً يدعوه فيه إلى التسليم غير المشروط، وإلى الدخول في زمرة غيره من الأمراء المسلمين.. وكان هولاكو ذكيًا جدًا في اختيار الرسول، فهو لم يرسل رسولاً تتريًا، إنما أرسل رسولاً عربيًّا نصرانيًّا اسمه " قسيس يعقوبى "؛ فهذا الرسول من ناحية يستطيع التفاهم مع الكامل محمد بلغته، وينقل له أخبار " هولاكو " وقوته وبأسه، وهو من ناحية أخرى نصراني، وذلك حتى يلفت نظر الكامل محمد إلى أن النصارى يتعاونون مع التتار، وهذا له بعد استراتيجى هام؛ لأنك لو نظرت إلى الموقع الجغرافى لإمارة ميافارقين في شرق تركيا لرأيت أن حدودها الشرقية تكون مع مملكة أرمينيا النصرانية والمتحالفة مع التتار، وحدودها الشمالية الشرقية مع مملكة الكرج (جورجيا) النصرانية والمتحالفة أيضًا مع التتار.. [(٢)].

---

(١) ميافارقين.
مدينة آرامية كانت تدعى (ميفاركات MAYPHARKATH)، من أهم مدن الجزيرة، تقع في الحوض الأعلى لنهر دجلة قرب آمد، وكانت أشهر مدن ديار بكر قبل الإسلام وبعده، واستمرت من أهم المراكز الحصينة حتى ما بعد القرن السابع الهجري. ينسب إليها نفر من العلماء منهم الشيخ أبو النصر الحسن الفارقى الكاتب والشاعر الأديب. و" ميافارقين " مدينة تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة " وان "..

(٢) وهكذا أصبح الكامل محمد الأيوبى كالجزيرة الصغيرة المؤمنة في وسط خضم هائل من المنافقين والمشركين والعملاء:

ماذا فعل الكامل محمد - رحمه الله - مع الرسول النصرانى من قبل هولاكو؟

لقد أمسك به، وقتله!..

ومع أن الأعراف تقتضى أن لا يقتل الرسل إلا أن الكامل قام بذلك ليكون بمثابة الإعلان الرسمى للحرب على هولاكو، وكنوع من شفاء الصدور للمسلمين انتقامًا من ذبح مليون مسلم في بغداد؛ ولأن التتار ما احترموا أعرافًا في حياتهم..

وكان قتل " قسيس يعقوبى " رسول التتار رسالة واضحة من الكامل محمد إلى هولاكو، وأدرك هولاكو أنه لن يدخل الشام إلا بعد القضاء على الكامل محمد..

واهتم هولاكو بالموضوع جدًّا؛ فهذه أول صحوة في المنطقة، ولم يضيع هولاكو وقتًا، بل جهز بسرعة جيشًا كبيرًا، ووضع على رأسه ابنه " أشموط بن هولاكو "، وتوجه الجيش إلى ميافارقين مباشرة بعد أن فتح له أمير الموصل أرضه للمرور..

وتوجه " أشموط بن هولاكو " بجيشه الجرار إلى أهم معاقل إمارة ميافارقين، وهو الحصن المنيع الواقع في مدينة ميافارقين نفسها وبه " الكامل محمد " نفسه، وكان الكامل محمد - رحمه الله - قد جمع جيشه كله في هذه القلعة؛ وذلك لأنه لو فرقه في أرض الجزيرة (بين دجلة والفرات) فإنه لن تكون له طاقة بجيوش المغول الهائلة..

وجاء جيش المغول، وحاصر ميافارقين حصارًا شديدًا، وكما هو متوقع جاءت جيوش مملكتى أرمينيا والكرج لتحاصر ميافارقين من الناحية الشرقية، وكان هذا الحصار الشرس في شهر رجب سنة ٦٥٦ هجرية - بعد الانتهاء من تدمير بغداد بحوالى أربعة شهور وصمدت المدينة الباسلة، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات والجهاد.

- من الشرق أرمينيا النصرانية..
- من الشمال الشرقى الكرج النصرانية..
- من الجنوب الشرقى إمارة الموصل المتحالفة مع المغول.
- من الغرب إمارات السلاجقة المتحالفة مع المغول.
- من الجنوب الغربى إمارة حلب.

وأصبح الموقف في غاية الخطورة!..

حصار ميافارقين

كان من المفروض في هذا الحصار البشع الذى ضرب على ميافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها.. لكن هذا لم يحدث.. لم تتسرب إليها أى أسلحة ولا أطعمة ولا أدوية.. لقد احترم الأمراء المسلمون النظام الدولى الجديد الذى فرضته القوة الأولى في العالم - التتار - على إخوانهم وأخواتهم وأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم المسلمين..

لقد طلب الأمير الكامل محمد - رحمه الله - النجدة من الناصر يوسف الأيوبي، فرفض رفضًا قاطعًا.. لم يتردد.. ولم يفكر.. إنه قد باع كل شيء، واشترى ود التتار.. وما علم عندما فعل ذلك أن التتار لا عهد لهم ولا أمان.. وحتى لو صدق التتار في عهودهم أيبيع المسلمين للتتار ولو بكنوز الدنيا؟!

ثم إن الناصر يوسف لم يكتف بمنع المساعدة عن الكامل محمد، ولم يكتف بالمشاركة في حصار ميافارقين، بل أرسل رسالة إلى هولاكو مع ابنه العزيز، يطلب منه أن يساعده في الهجوم على " مصر "، والاستيلاء عليها من المماليك!!!..

يقول ابن العبرى "... وفيها توجه الأشرف بن الملك الغازى بن الملك العادل صاحب ميافارقين إلى الملك الناصر صاحب حلب يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول إلى الشام. فاستخف برأيه ولم يسمع مشورته بل سوفه بكلام وسرحه من عنده بالأمان. ولما وصل إلى ميافارقين مدينته طرد شحانى المغول منها وصلب رجلاً قسيسًا كان قد وصل إليه من خدمة خاقان باليراليغ (هولاكو). وبينما هو كذلك أدركته عساكر المغول وأحاطت بمدينته وفى رأس العسكر يشموت بن هولاكو. وفى يوم وليلة بنى المغول حول مدينته سورًا وحفروا خندقًا عميقًا ثم نصبوا عليها المنجنيقات وابتدأوا بالقتال وقاتلوا قتالاً شديدا من الجانبين. ولما راى المغول أن المدينة لم يمكنهم أخذها بالقتال أبطلوا القتال وحاصروها ومنعوا الناس من الدخول إليها والخروج عنها (١).

وشدد المغول الحصار على ميافارقين، وقدم لهم الكرج والأرمن المساعدة في تضييق الخناق على المدينة، واستمر الحصار مدة عامين أظهر خلالها المدافعون عن المدينة ضروبًا من الشجاعة المنقطعة النظير، ولكن مع طول الحصار المشدد الذى ضربه المغول على المدينة نفذت الأقوات وقلت الأسلحة والمؤن العسكرية، وعم القحط وانتشر الوباء، وهلك معظم السكان، وسقطت المدينة في أوائل العام ١٢٦٠ م ودارت مذبحة في المدينة، قتل فيها كل المسلمين، أما المسيحيون فقد تم الإبقاء على حياتهم، وتم القبض على الكامل الثانى وعذب حتى الموت، وقد حملت رأسه على

(١) تاريخ مختصر الدول - ١ / ١٧٣.

رمح وطيف بها في البلاد مثل حلب وحماه ودمشق، ولعل هذا التصرف أثار الرعب في نفوس أهل الشام، مما كان له أبلغ الأثر على الحالة النفسية للأهالى والقوات الإسلامية [(١)].

وكانت المرحلة الثانية من العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام هى مدن ماردين وكانت في قبضة الملك السعيد الذى أبى إلا أن يقاوم المغول، فضرب المغول الحصار على المدينة مدة ثمانية أشهر دون أن ينجحوا في دخولها، ولم يتمكنوا من ذلك إلا بعد أن حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يثنى أباه عن عزمه وحاول إقناعه بالتسليم للمغول، ولما لم يستجب الملك السعيد ولم يرى إلا المقاومة قتله ابنه، وسلم القلعة للمغول فعينه على ماردين بدلاً من أبيه، ثم تقدمت القوات المغولية باتجاه مدن نصيبين وحران والرها والأراضى الواقعة في تلك النواحى مثل البيرة وسروج، واستولت عليها في سهولة ويسر وبدون مقاومة، ثم تقدمت القوات المغولية بقيادة هولاكو إلى مدينة حلب التى كانت تحت حكم الملك المعظم تورانشاه نيابة عن الناصر يوسف الذى هرب إلى دمشق وترك حلب، حيث تم فرض الحصار عليها بعد أن رفضت الاستسلام، وقد قاومت المدينة ستة أيام حتى انهارت أسوارها أمام ضربات المغول، فدخلتها القوات المغولية وحل بها ما حل بالمدن الأخرى من ذبح المسلمين والإبقاء على المسيحيين، وقد استغل " هيثوم ملك أرمينية " تلك الفرصة فأحرق الجامع الكبير، في الوقت الذى احترقت فيه الكنيسة اليعقوبية، ومع ذلك كله فقد ظلت قلعة المدينة تقاوم لمدة شهر كامل حتى سقطت، وقد احترم هولاكو - على غير عادته - الأمير الأيوبى تورانشاه بن صلاح الدين لكبر سنه وبسالته، وقد استولى هولاكو على ثروة المدينة وعين عليها الأمير الأيوبى الأشرف حاكم حمص (١٢٤٦ - ١٢٦٢م) [(٢)].

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ص ٢١٩ - ٢٢٠، ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ٢ / ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٦٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩٤.

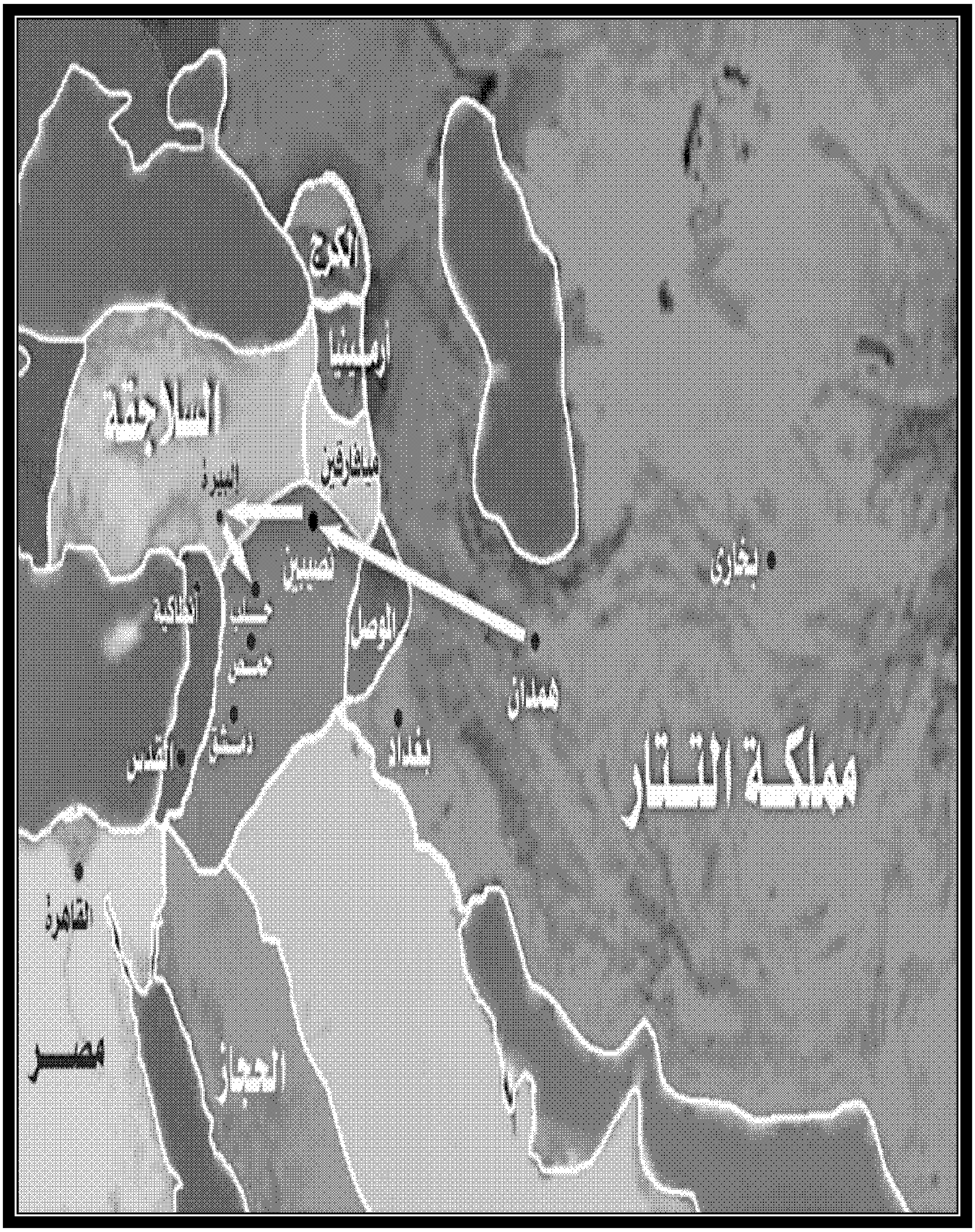

غزو المغول (التتار) بلاد الشام

يقول المقريزي: "... في المحرم: نزل هولاكو على مدينة حلب وراسل متوليها الملك المعظم تورانشاه بن الملك الناصر يوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه إلى طلبه وأبى إلا محاربته. فحصرها التتار سبعة أيام وأخذوها بالسيف، وقتلوا خلقًا كثيرًا وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام،

استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى. وصارت عساكر التتر تمشي على جيف من قتل، فيقال: إنه أسر منها زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان. وامتنعت قلعة حلب، فنازلها هولاكو حتى أخذها في عاشر صفر، وخربها وخرب جميع سور البلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها، حتى عادت موحشة. وخرج إليه الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فلم يعترضه بسوء لكبر سنه، فمات بعد أيام. ووجد هولاكو من المماليك البحرية تسعة أنفس في حبس الملك الناصر، فأطلقهم وأكرمهم... [(١)].

ثم اتجه هولاكو غربًا بعد إسقاط حلب، إلى حصن " حارم " المسلم [(٢)]، وكانت به حامية مسلمة رفضت التسليم لهولاكو، فاقتحم عليها الحصن بعد عدة أيام من المقاومة، وذبح كل من فيها.. كذلك سقطت في أيدى المغول مدن حماه التى جاء إلى هولاكو وفد من أعيانها وكبرائها يقدمون له مفاتيح المدينة، ويسلمونها له دون قتال.. وذلك برغبتهم وإرادتهم الذاتية، ودون طلب من هولاكو!!.. وقبل منهم هولاكو المفاتيح، وأعطاهم الأمان، ولكنه كان في هذه المرة أمانًا حقيقيًّا، وذلك ليشجع غيرهم على أن يحذوا حذوهم.. واستولى كذلك على المعرة وحمص (بلد " صديقه " الأشرف الأيوبي)[(٣)].

ونتيجة لهذه الانتصارات السريعة الحاسمة، وما صاحبها من قتل وتشريد وتخريب وتدمير، عم الرعب كل البلاد الشامية، فسارع الأمراء الآخرون إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للمغول، فكان ممن جاء إلى هولاكو وهو عند أسوار حلب: الأيوبى الملك الأشرف موسي، سليل أسد الدين شيركوه وملك حمص السابق، وكان في ذلك الوقت يمتلك فقط قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها، فكافأه هولاكو على ولائه للمغول بأن رد إليه حمص التى كان الناصر قد انتزعها منه في سنة ٦٤٦هـ

(١) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١ / ١٣٩.
(٢) حارم.
بليدة تقع غربى حلب (على بعد حوالى خمسين كيلو مترًا من حلب(، على طريق أنطاكية، فيها آثار لحصون منيعة.
(٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٩.

كما اختاره نائبًا عنه ببلاد الشام!!!. [(١)].

ثم أمر هولاكو بأن يكافأ ملك أرمينيا هيثوم بمكافأة كبيرة من غنائم حلب، وذلك تقديرًا لمساعدات الجيش الأرمنى في إسقاط بغداد ثم ميافارقين ثم حلب..!!

ثم أجبر سلطانَى السلاجقة: كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع على أن يعيدا بعض المدن والقلاع التى كان المسلمون قد فتحوها قبل ذلك إلى ملك أرمينيا، وذلك لتوسيع ملك الزعيم الأرمني، وتثبيت أقدامه في المنطقة كحليف استراتيجى أساسى لهولاكو.. ولم تكن - بالطبع - فرصة الاعتراض واردة عند السلطانين المسلمين!!

ثم أمر هولاكو بأن يكافأ " بوهمند " أمير أنطاكية على تأييده لهولاكو، وذلك بإعطاء مدينة اللاذقية المسلمة له، ليضمها بذلك إلى أملاك إمارة أنطاكية، وكانت اللاذقية قد حررت من الصليبيين أيام صلاح الدين الأيوبى رحمه الله، ثم ظلت مسلمة إلى هذه اللحظة، ولكنها أهديت بكلمة واحدة إلى النصارى!!.. والقرار الثانى والثالث هما تطبيق للقاعدة الاستعمارية المجحفة وهى أن المحتل يعطى ما لا يملك لمن لا يستحق!![(٢)]. وكانت وجهة المغول بعد ذلك مدينة دمشق، وكان الناصر صلاح الدين يوسف - سلطان حلب ودمشق - لما علم بما فعله المغول في حلب، رحل عن دمشق بما بقى معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية، ولم يحاول الدفاع عن المدينة، وأقام لبعض الوقت في مدينة نابلس، ثم اتجه إلى غزة، وبلغه أن المغول هاجموا نابلس، فرحل إلى العريش وأرسل إلى سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠ م) يطلب منه المساعدة، أما دمشق فقد دخلها المغول بقيادة " كتبغا " بالأمان، ولم يتعرضوا للأهالى بالقتل أو النهب. ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم وقاومت لمدة عدة أسابيع فأقام عليها المغول المجانيق ثم تسلموها بالأمان في جمادى الأولى عام ٦٥٨هـ / إبريل ١٢٦٠ م، رغم ذلك نهب المغول جميع ما فيها وهدموا القلعة وأسوارها وما بها من أدوات للقتال [(٣)].

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٢٣ / ٤٣٣، مختار العبادي، قيام دولة المماليك، ص ١٥٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩٥.

(٢) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ١٧٣.

(٣) الذهبي، دول الإسلام، ٢ / ١٢٥، المقريزي، السلوك، ١ / ٤٢٥، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم

موقعة عين جالوت

الوضع السياسى في مصر قبيل عين جالوت:

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامى الشرقية، كان نجم سيف الدين قطز(1) يزداد سطوعًا وتزداد قامته السياسية طولاً، فقد كانت مصر أنذاك تحت حكم الملك المنصور على بن أيبك التركماني، وكان صغير السن ضعيف الشخصية، وكان قطز نائبه هو المشار إليه بديار مصر وله مكانة كبرى وبلغ شأوا عظيمًا، وصار الشخصية البارزة في البلاد، نتيجة لصغر سن السلطان الملك المنصور على

الزاهرة، ٧ / ٨٠، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٦٤.

(١) المظفر سيف الدين قطز المعزى واسمه الحقيقى محمود بن ممدود، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأبوه وابن عمه، أسر عند غلبة التتار، فبيع بدمشق، ثم انتقل بالبيع إلى مصر، كان من أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار.
حكى شمس الدين الجزرى في " تاريخه " عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، وحدث أن ضربه أستاذه فبكى قطز بكاء بكاءً ولم يأكل يومه شيئًا، ثم ركب أستاذه وأمر الفراش - أحد أتباعه - أن يترضاه ويطعمه، قال الحاج على الفراش: جئته فقلت له: ما هذا البكاء من ضربة؟ فقال: إنما بكائى من لعنته أبى وجدى وهما خير منه، فقلت: ومن أبوك؟ واحد كافر، فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن مودود ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك؛ فترضيته. ولما تملك أحسن إلى الفراش وأعطاه خمسمائة دينار وعمل له راتبًا.
وحكى الجزرى أيضًا في تاريخه قال: حدثنى أبو بكر بن الدريهم الإسعردى والزكى إبراهيم الجبيلى أستاذ الفارس أقطاى قال: كنا عند قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك، وعنده منجم مغربي، فصرف أكثر مماليكه، فأردنا القيام فأمرنا بالقعود، ثم أمر المنجم فضرب الرمل وقال: اضرب لمن يملك بعد أستاذى ومن يكسر التتار؛ فضرب وبقى زمانًا يحسب وقال: يا خوند يطلع معى خمس حروف بلا نقط، فقال: لم لا تقول محمود بن مودود؟ فقال؟ يا خوند لا يقع إلى هذا الاسم، فقال: " أنا " هو، وأنا أكسرهم وآخذ بثأر خالى خوارزم شاه، فقلنا: يا خوند إن شاء الله تعالى، فقال: اكتموا هذا، وأعطى المنجم ثلاثمائة درهم. وكان مدبر دولة ابن أستاذه المنصور على بن المعز أيبك، فلما دهم التتار الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب، فعزل الصبى وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سنة سبع وخمسين، فلم يبلغ ريقه ولا تهنا بالسلطنة حتى امتلأ الشام تتار، فتجهز للجهاد وأخذ أهبة الغزو، والتف إليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أوائل رمضان وعمل المصاف مع التتار على عين جالوت، وعليهم كتبغا، فنصره الله عليهم وقتل مقدمهم. وكان قطز شابًّا أشقر كبير اللحية. المؤلف: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر - بيروت، (ج ١ / ص ١٥٣)، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٨٥/٧ - ٨٦.

من ناحية، ولكثرة أنصار وأتباع قطز من ناحية أخري.

وفى تلك الأثناء حدثت مأساة اجتياح المغول للعراق وسقوط بغداد في أيديهم سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م، ثم الإنذار المرسل من هولاكو إلى الملك الناصر صلاح يوسف، وأخبار عبور التتار نهر الفرات لغزو بلاد الشام، كما أن الملك الناصر يوسف قد أفاق من غفوته وأرسل المؤرخ والفقيه المعروف كمال الدين بن العديم يستنجد بمصر وبعساكرها (١).

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبى الملك المنصور نور الدين على، وحضره كبار أهل الرأى من الفقهاء والقضاة مثل قاضى القضاة بدر الدين حسن السنجارى (٢)، والشيخ عز الدين بن عبد السلام (١)، وكان

---

(١) المقريزي، السلوك، ٤١٩/١.

(٢) بدر الدين حسن السنجارى قاضى القضاة أبو المحاسن يوسف بن الحسن الزرادي، كان صدرًا معظمًا جوادًا ممدحًا، ولى قضاء بعلبك وغيرها، ثم ولاه الملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، والوجه القبلي، ثم ولى قضاء القضاة بعد شرف الدين ابن عين الدولة، وباشر الوزارة، وكان له من الخيل والمماليك ما ليس لوزير مثله، ولم يزل في الارتفاع إلى أوائل الدولة الظاهرية، فعزل ولزم بيته. اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ٢٠٢/٢.

يقول النويرى عنه: مولده بسواد إربل في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وكان قاضيًا بسنجار، وكان له على السلطان الملك الصالح من الخدمة بسنجار، فلما ملك الملك الصالح دمشق ولاه قضاء بعلبك وأعمالها وقرر له معلومًا كثيرًا، وكان قد وصل في صحبته، ولما ملك الديار المصرية حضر إليه فأكرمه، وفوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلي، ثم بالقاهرة والوجه البحري.

وولى الوزارة في أيام الملك المنصور نور الدين بن الملك المعز، وكان، رحمه الله تعالى، مكينًا عند السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ يكرهه، فكتب إلى السلطان الملك الصالح يذكر عنه أنه يأخذ من نوابه الأموال، ومن يعدله من الشهود، وأشباه ذلك، فأجابه السلطان في طرة كتابه: " يا أخى فخر الدين: للقاضى بدر الدين على حقوق عظيمة لا أقوم بشكرها، والذى وليناه قليل في حقه، وما قمت له بما يجب على من مكافئته "، فلم يعاوده الأمير فخر الدين في أمره، وبقيت هذه الورقة عنده في جملة أوراقه، فلما قتل وخلف بنت صغيرة، احتاط ديوان الأيتام على موجوده فوجدوا هذه الورقة فحملوها إلى القاضى بدر الدين، فأوقف الناس عليها، وكان رحمه الله تعالى، كريمًا كثير الاحتمال كثير المروءة، حسن العشرة، يقبل الاعتذار، ولا يكافئ على السيئة بمثلها، بل يحسن لمن ظهرت اساءته، ويبره بماله ويستميله بإحسانه، إلا أنه شهر عنه في ولاية القضاء قبول هدايا النواب، حتى قيل إنه ربما كان قرر على كل منهم ما لا يحمله في كل مدة في مقابلة ولايته على قدر الولاية، وكذلك أيضًا من يقصد إنشاء عدالته حتى كثر المعدلون في أيامه، ووصل إلى العدالة من ليس من أهلها، ولما ولى قاضى القضاة تاج الدين أسقط كثيرًا من عدوله، ولقد جاء بعد ذلك زماننا وأدركت بقايا عدوله فكانوا أميز العدول وأجل الناس، ومنهم من ولى قضاء القضاة وبلغ، رحمه الله

تعالى، خمسة وثمانين سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى. نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ /٢٠٧.

(١) عز الدين بن عبد السلام:عبد العزيز بن عبيد السلام بن أبى القاسم بن الحسن، شيخ الإسلام وبقية الأعلام، الشيخ عز الدين أبو محمد السلمى الدمشقى الشافعي. ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة وتوفى سنة ستين وستمائة. روى عنه الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، والدمياطي، وأبو الحسين اليونينى وغيرهم، وتفقه على الإمام فخر الدين ابن عساكر، وقرأ الأصول والعربية ودرس وأفتى وصنف، وبرع في المذهب وبلغ رتبة الاجتهاد، وقصده الطلبة من البلاد، وتخرج به أئمة، وله الفتاوى السديدة. قال الذهبى في العبر: انتهت إليه معرفة المذهب، مع الزهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ ناشرًا العلم، آمرا بالمعروف، ناهيًا للمنكر، يغلظ على الملوك فمن دونهم. ولما دخل مصر بالغ الشيخ زكى الدين المنذرى في الأدب معه، وامتنع من الإفتاء لأجله، وقال: كنا نفتى قبل حضوره، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه.

كان ناسكًا ورعًا أمارًا بالمعروف نهاء عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، ولى خطابة دمشق بعد الدولعي، فلما تملك الصالح إسماعيل دمشق وأعطى الفرنج صفد والشقيف، نال ابن عبد السلام منه على المنبر وترك الدعاء له، فعزله وحبسه ثم أطلقه، فنزح إلى مصر، فلما قدمها تلقاه الصالح نجم الدين أيوب وبالغ في احترامه، واتفق موت قاضى القضاة شرف الدين ابن عين الدولة فولى بدر الدين السنجارى قضاء القاهرة. وولى عز الدين قضاء مصر والوجه القبلى مع خطابة جامع مصر. ثم إن بعض غلمان وزير الصالح، وهو معين الدين ابن الشيخ، بنى بنيانًا على سطح مسجد بمصر وجعل فيه طبلخاناه معين الدين، فأنكر عز الدين ذلك ومضى بجماعته وهدم البنيان، وعلم أن السلطان والوزير يغضبان، فأشهد عليه بإسقاط عدالة الوزير، وعزل نفسه عن القضاء، فعظم ذلك على السلطان، وقيل له: اعزله عن الخطابة وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل في دمشق، فعزله. وأرسل إليه السلطان لما مرض وقال: عين مناصبك لمن تريد من أولادك؟ فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضى تاج الدين ففوضت إليه بعده. ولما مت شهد الملك الظاهر جنازته والخلائق.

واختصر نهاية المطلب، وله القواعد الكبرى، والقواعد الصغرى، ومقاصد الرعاية، والناس يقولون في المثل: " ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام ". ويقال إنه لما حضر بيعة الملك الظاهر قال له: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقدار، فما بايعه حتى جاء من شهد له بالخروج عن رقه إلى الصلاح وعتقه رحمه الله تعالى ورضى عنه. ولماكان بدمشق سمع من الحنابلة أذى كثيرًا، وكان الشيخ عز الدين يكتب خطًا حسنًا قويًّا، وفيه يقول الشيخ جمال الدين أبو الحسين الجزار: الخفيف.

سار عبد العزيز في الحكم سيرًالم يسره سوى ابن عبد العزيز.

عمنا حكمه بعدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز.

ولما وقع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق من الخلاف ما وقع، وعزله وألزمه داره - كما تقدم - فارق دمشق، وقصد البيت المقدس.

فوافاه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالغور، فأكرمه ونقله إلى الكرك. وقال له: تقيم عندى بهذا الحصن وأنا لا أخرج عن أمرك. فأقام عنده مدة يسيرة. ثم استأذنه في الخروج، فسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه. فقيل إنه قال له: هذا بلدٌ صغير، وأنا أحب الانتقال إلى بلدٍ أنشر به ما عندى من العلم.

فأذن له، وتوجه الشيخ إلى القدس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى القدس - وصحبته الفرنج - فأرسل إلى الشيخ بعض خواصه بمنديله، وقال له: ادفع إليه منديلى وتلطف به

سيف الدين قطز من بين الحاضرين، وسألهما الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء أو أنفقتم الحوائض الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم، وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلاً إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال: لابد من سلطان ماهر قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبر المملكة. وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور على بن المعز أيبك، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير سيف الدين قطز في أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعزية لرمى البندق - وكان يوم السبت رابع عشر ذى القعدة - قبض قطز على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم في برج بقلعة الجبل. فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام. جلس على سرير السلطنة بقلعة الجبل يوم السبت، الرابع

واستنزله، وعده بعوده إلى مناصبه. فإن أجاب، فائتنى به. وإن خاشنك فاعتقله في خيمةٍ إلى جانبى خيمتي.

فأتاه الرسول ولاطفه، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وتعود إلى ما كنت عليه وزيادة، أن تقبل يد السلطان. فقال له: والله ما أراضه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده! فقال: إنه قد رسم أن أعتقلك إذا لم توافق. فقال افعلوا ما بدالكم! فاعتقله في خيمةٍ إلى جانب خيمة السلطان.

وكان يقرأ القرآن والسلطان يسمعه. فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الذى يقرأ؟ قالوا نعم: قال هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمى لكم حصون المسلمين، وعزلته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته عن دمشق فجاء إلى القدس. وقد جددت اعتقاله لأجلكم. فقالوا له: لو كان هذا قسيسنا، لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها! ثم فارق الصالح القدس.

وقدم الشيخ إلى الديار المصرية. فأقبل عليه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأكرمه، وفوض إليه الخطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص بمصر، في يوم الجمعة العاشر من شهر ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وستمائة، عوضًا عن أبى المجد الإخميمي، من مصنفاته: تفسير القرآن، القواعد الكبرى والصغرى توفى بمصر سنة ٦٦٠ هـ.

الصفدي، الوافى بالوفيات، ١٨٦/١، السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ١٠١/١، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٨ /١١٨.

والعشرين من ذى القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة [١].

موقعة عين جالوت:

وشرع قطز في ممارسة مهام عمله وكان عليه سرعة مجابهة الخطر المغولي، وكان أول خطوة في هذا الاتجاه أنه أجاب الملك الناصر يوسف صاحب الشام أنه سيقدم له العون والنجدة ولا يقعد عن مساعدته، حيث عاد ابن العديم يحمل الرسالة بذلك المعنى، وبصحبته برهان الدين الخضر حاملاً جواب الملك المظفر قطز إلى الملك الناصر، إذ أخبره فيها بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر أيضًا - بصفته سليل صلاح الدين - ملكًا على جميع الممالك التى خضعت لسلطان الأيوبيين ومنها مصر، ثم يضيف بأنه - أى قطز - ليس إلا أحد قادته على ضفاف النيل، وأنه يتعهد أن يعطيه السلطنة العليا إذا أراد القدوم إلى القاهرة، كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه إلى القاهرة، إذا كان يرتاب في صدق نواياه[٢].

ثم إن المظفر قطز قد أقال عثرة المماليك البحرية الذين كانوا قد فروا الشام ودخلوا في خدمة الملك الناصر صاحب الشام ثم انفضوا من حوله بعد محاولته التحالف مع التتار ضد المسلمين، حيث توجه الظاهر بيبرس إلى غزة، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من سيف الدين قطز، الذى حلف له... ووعده الوعود الجميلة،... ووصل مصر فعلاً، فأنزله الملك المظفر سيف الدين قطز بدار الوزارة وأحسن معاملته، ثم أقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها [٣].

وفى وقت كان العالم الإسلامى في حاجة لتضافر الجهود لمواجهة الخطر المغولى نجد أن بعض الأمراء الأيوبيين في الشام يسارعون في الدخول تحت لواء التتار إما حرصًا على كيانهم، أو خوفًا على أنفسهم، ومن هؤلاء، الملك الأشرف موسى سليل أسد الدين شيركوه الذى لم يكن يملك في ذلك الوقت إلا قرية " تل باشر " الصغيرة قرب " الرها "، وكافأه هولاكو على ذلك بأن رد إليه إمارة حمص التى

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٤١٧، ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٧/ ٥٥.
(٢) المقريزي، السلوك، ٤١٨/١، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٢٠٨/٣.
(٣) المقريزي، السلوك، ٤١٩/١ - ٤٢٠.

كان الناصر يوسف قد أخذها منه قبل ذلك باثنى عشر عامًا (٦٤٦ هـ)، وجعله قائده العام في الشام (١).

أما الناصر يوسف فإنه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية، وعدة من المماليك البحرية، وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقدارى وخيم عند برزة - إلى الشمال قليلاً من دمشق - غير أن تعدد عناصر جيشه - الذى كان يضم جنود من العرب والعجم والتركمان غير أعداد كبيرة من المتطوعين - وقديم التنافر بين هذه العناصر فضلاً عن اختلاف قلوب أمرائه وتآمر مماليكه الناصرية على قتله، وخوف الأمراء من هولاكو وجنوده، فقد أخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو ويشير بألا يقاتل ويدارى بالدخول في طاعته. فصاح به بيبرس وسبه وضربه وقال: أنت سبب هلاك المسلمين، وسرعان ما جعل ذلك الجيش ينفض من حول الملك الناصر (٢) الذى لم يجد بُدًّا من ترك دمشق لتعانى مصيرها السيِّئ وتواجه المغول بمفردها - إذ لم يستطع وزيره زين الدين مصطفى من الحفاظ عليها وسرعان ما سلمها للمغول في مارس سنة ١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ، في حين لم تستطع حاميتها الصمود طويلا أمام ضربات المغول وسلمت لهم في الثالث من يونيو ١٢٦٠ م (٣) - وتوجه بقواته إلى غزة حيث يكون قريبًا من النجدة التى وعده بها المظفر قطز سلطان مصر (٤).

وفى خضم هذه الأحداث توفى " منكوخان " كبير المغول، فأسرع هولاكو بالعودة إلى بلاده للمشاركة في اختيار الخان الأعظم الجديد وكان هولاكو يأمل في تعيينه خاقانا للمغول نظرًا لإنجازاته وفتوحاته المهمة، وفى الطريق وبينما هو في تبريز (٥) علم باختيار أخيه " قوبيلاى " (١٢٦٠ - ١٢٩٤ م) خاقانا جديدًا وأن

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٣٢، ٤٢٥، ٤٣٨.

(٢) ابن واصل مفرج الكروب، ٢ / ٣٩٤.

(٣) وإن كانت دمشق قد نجت من التخريب والتدمير بفضل وساطة أعيانها مما جعل المؤرخ أبو شامة - وكان حاضرًا احتلال المغول لدمشق - يقول في نهاية وصفه لهذا الغزو في كتابه " الذيل على الروضتين ": الحمد لله الذى عافانا مما ابتلى به غيرنا. انظر: أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٤.

(٤) المقريزي، السلوك، ١ /٤١٩ - ٤٢٠، أبو الفداء، المختصر، ٣ / ٢١٠ - ٢١١.

(٥) حلت تبريز منذئذ محل بغداد في الجاه والثراء، وأصبحت هى قاعدة الحكم للعراق والشام. انظر،

الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بوساطة أمراء مغول الشرق الأقصى، الذين أرادوا إجراء الانتخابات قبل مجيء أمراء الغرب، وكان ذلك منافيًا لقواعد الحكم التى قررها جنكيزخان، ومع ذلك تقبل " هولاكو " الأمر ببساطة واحترم سلطة أخيه قوبيلاي، ولكنه لم يرجع إلى قيادة الجيش الذى تركه ببلاد الشام تحت إمرة قائد تترى مسيحي، على المذهب النسطوري، هو كتبغا نوين [١].

أما الناصر يوسف فإنه لما رأى تخاذل جيشه وخوفه من مواجهة المغول وتفرقهم من حوله سار نحو الديار المصرية ونزل العريش ومنها الى قطيا - قرية بين القنطرة والعريش في صحراء سيناء - لعله يجد فيها مأوى أو منجاة من المغول من ناحية، ومن المماليك من ناحية أخري، وذلك بعد أن تفرق عنه جنده وسبقوه إلى مصر ومعهم الأثقال، إلا أن الملك الناصرلما وصل قطيا تراجع وعاد خوفا من الملك المظفر قطز صاحب مصر [٢]، ونزل بوادى موسى - واد في جنوب بيت المقدس - ثم نزل مكان يسمى بركة زيزاء فأدركه التتار بها وهو في نفر قليل من أصحابه ومماليكه مما اضطره إلى الاستسلام لهم، وحمل إلى هولاكو ولقيه لقاءً طيبًا ووعده برده إلى مملكته الأيوبية الممتدة من أطراف الشام إلى النوبة ومن برقة إلى الفرات، كما وعده بأنه سوف يجعل له السيادة الفعلية على كل هذه البلاد بشرط الاعتراف بسلطان المغول وسيادة الخان الأكبر، وأقام الناصر وولده العزيز عند التتار على أمل أن يعيدهم هولاكو إلى ملكهم مرة أخرى، إلا أن هزيمة التتار وانكسارهم وقتل كتبغا في موقعة عين جالوت تلك الهزيمة التى قضت على كل أحلام هولاكو دفعته إلى قتل الناصر وأخيه ومن معه ولم ينج من ذلك إلا ابنه وذلك في ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م [٣].

العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ١٥٥.

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٥٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٦٠.

(٢) هناك رأى يقول أن قطز لم يكن يخشى شيئًا خشيته من وصول أمير أيوبى على رأس قوة حربية إلى حدود مصر، ولذلك أغرى الكثير من أتباع وجنود ومماليك الملك الناصر وجذبهم إليه، مما جعل الملك الناصر يجد نفسه وحيدًا فريدًا توشك أن تتخطفه أيدى التتار.

(٣) العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص ١٥٦، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٦٠.

في تلك الأثناء كان السلطان سيف الدين قطز قد رجع إلى قلعة الجبل ليواصل التصفيات ضد خصومه السياسيين فقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور واعتقله بقلعة الجبل، كما أنه صادر ممتلكات كل من وفد على القاهرة من حاشية الملك الناصر يوسف، وألزم زوجة الملك الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر، فأخذ منها جوهرًا كثيرًا (١).

وتتابعت الأحداث حيث بدأ " هولاكو " يعد العدة للهجوم على بيت المقدس وغزو البلاد المصرية، ولم يعد قانعًا بما استولى عليه في الشام، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل والثبور وعظائم الأمور لسلطان مصر المملوكي إن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول، جاء فيها:... باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأى أرض تأويكم، وأى طريق تنجيكم، وأى بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق أو قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، {فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠]،{وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٧]، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٢٢٧، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ٦٠.

بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمى نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقى لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدي، وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هلاوون [1] قد أتى ::: بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ::: ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر [2]

أخذ السلطان يجمع الرجال والأموال والسلاح ويستعد لصد المغول وأدرك أن مهمته على جانب كبير من الخطورة فالشعب الذى سيواجه به المغول قد استولت عليه الرهبة واستبد به الخوف من هول ما سمعه عن فظائع المغول ووحشيتهم وسفكهم للدماء وتخريبهم للديار فضعفت روحه المعنوية عن الجراة على الوقوف في مهب هذا الإعصار المهلك.

ولم يوهن من عزم قطز أو يضعف من تصميمه على الخروج لمنازلة المغول ما سمعه من أقوال المرجفين ولم يأبه بما احتج به الداعون إلى الانتظار داخل الحدود المصرية حتى يدخل إليها المغول ونادى بالنفير العام للجهاد في سبيل الله ودرب المتطوعين على فنون القتال في وقت قصير جدًا ولم يكد ينتهى من مهمته حتى اقترب المغول بقيادة كتبوغا من حدود مصر، فلما تسلم السلطان المظفر قطز الرسالة (الإنذار) جمع الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض على الرسل واعتقلوا وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة في لقاء التتر.

---

(١) صيغة لاسم هولاكو ترد كثيرًا في كتب المؤرخين المعاصرين.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٤٢٧ - ٤٢٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ٨ /٦٣ - ٦٤.

يقول المقريزي:

فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان: خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر قطز رسل التتر، وكانوا أربعة، فوسط واحدًا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رءوسهم على باب زويلة، وهذه الرءوس أول رءوس علقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبي من الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

ونودى في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ.

وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع. وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع.

فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: أنا ألقى التتار بنفسي، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يومًا، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه

منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد. فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بقطعة من العسكر، فسار حتى لقى طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها (١).

اتجه السلطان قطز على رأس جيش كثير العدد إلى بلاد الشام في أوائل رمضان سنة ٦٥٨هـ وكانت الخطة التى رسمها هى أن يقابل المغول في أرض الشام وألا ينتظر قدومهم إلى مصر **وكان يهدف من وراء ذلك إلى أمرين:**

الأول: انتهاز فرصة البدء بالقتال التى كان المغول يحرصون على انتهازها أولاً ليضعفوا الروح المعنوية في نفوس أعدائهم.

الثاني: لقاء المغول خارج أرض مصر حتى لا تكون ميدانًا للحروب وعرضة للتدمير والتخريب.

وقد أرسل السلطان أمام قواته طليعة من الفرسان بقيادة ركن الدين بيبرس وعند بلدة الصالحية (٢) انضمت الكتائب الشامية التى كانت قد جاءت إلى مصر فارة من وجه المغول إلى الجيوش المصرية.

وصلت طلائع الجيوش المصرية إلى غزة وأرغمت المغول على التخلى عنها ودخلها الأمير بيبرس على رأس فرسانه، ولم يكن المغول يتوقعون أن يصل

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٧.

(٢) الصالحية: إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية بالوجه البحرى بمصر أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٤هـ.

المصريون إليهم بهذه السرعة فلما رأوا الجحافل الإسلامية قد ملأت السهول والأودية اضطروا إلى إخلاء جنوب الشام وأشار بعض ضباطهم على قائدهم كتبغا نوين بطلب النجدة من السلطان هولاكو ولكنه اغتر بقوته وخدع بانتصاراته السابقة ولم يعمل بمشورتهم.

سارت الجيوش الإسلامية من غزة متجهة إلى الشمال ومحاذية ساحل البحر الأبيض ومرت بيافا وقيسارية إلى جبل الكرمل جنوب حيفا وعند قرية♂عين جالوت— الواقعة بين بيسان ونابلس دارت المعركة الفاصلة بين الجيش الإسلامى وجيش المغول في ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨هـ.

بدأت المعركة بهجوم عنيف من المغول فتراجعت ميْسَرَة الجيش الإسلامى وإذا بنداء يدوّى في ساحة المعركة♂وا إسلاماه وا إسلاماه وا إسلاماه— فاتجهت الأنظار إلى مصدر الصوت فإذا المنادى هو السلطان نفسه فالتهب حماس الجيش وعادت الميسرة إلى مكانها الأول وحمل الجيش الإسلامى حملة صادقة على جيش المغول حتى هزمهم هزيمة ساحقة ومزقهم شرّ ممزق وخرّ قائدهم كتبغا نوين صريعًا في الميدان واعتصمت طائفة منهم بالتل المجاور لمكان الموقعة فأحدقت بهم العساكر المسلمة وصابروهم على القتال حتى قتلوا معظمهم وفرّ الباقون لا يلوون على شيء وقتل الأهالى الموتورون من المغول من وقع في أيديهم من هؤلاء الفارين (١).

وبعد انتهاء الموقعة اتجه السلطان قطز إلى دمشق فقوبل بحفاوة بالغة من أهلها؛ لأنه صدّ هذه الموجة العاتية التى اجتاحت بلادهم وأنزلت بهم صنوف البلايا وقد أمر السلطان بشنق الذين تعاونوا مع المغول وعيّن حاكما على دمشق من قبله (٢) يقول العيني:

ولما فرغ السلطان، وصفا باله، واستقام حاله، عاد إلى دمشق، والأسرى تساق قدامه في الكبول، وقد حمل ما نهب لهم من القسى والسناجق والطبول، وكان دخوله دمشق يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخلها ونزل في القلعة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٧ ص٧٩، ٨٠.
(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٢٠٦ - ٢٠٧.

مؤيدا، منصورًا، وكان أعظم الأيام قدرًا، وأطرها عند الأنام نشرًا، وأظهرها في وجه الزمان بشرا، بهذه النصرة العظيمة، والنظرة الوسيمة، والكسرة التى لم يرى مثلها في الأزمان القديمة، فإن جيش التتار لم يجز هذه الديار بمثل هذا الإكثار، ولا قصدها قبل هذه المدة في بعض هذه العدّة [١].

قال القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر، كاتب السرّ المنصور، وناظر ديوان الإنشاء المعمور يذكر الواقعة بقصيدة جامعة لأحوالها، وهي:

الله أعطاك لا زيد ولا عمرو	:::	هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به	:::	لم يبق والله لا شام ولا مصر
من ذا الذى يلقى ذا العدوّ وكذا	:::	أو يدرع لامة ما لامها الصبر
يا أيها الملك المنصور قد كسرت	:::	جنودك المغل كسرا ماله جبر
وأستأصلوا شأفة الأعداء وأن	:::	تصروا لما ثبتّ وزال الخوف والذعر
يا عزمةً ما رأى الراؤون مشبهها	:::	ووقفةً سار في الدنيا لها ذكر
لما بغى جيش أبغا في تجاسره	:::	ولن يمدّ له إلا القنا جسر
واستجمع المغل والتكفور واتفقوا	:::	مع الفرنج ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم	:::	لأرض حمص فكان البعث والنشر
وافى الخميسان في يوم الخميس ضحى	:::	وامتدّت الحرب حتى أذن العصر
والسيف يركع والأعلام رافعة	:::	والروس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تغتدى إلا على جثث	:::	والسهل من أرؤس القتلى به وعر
والبيض تغمد في الأجفان من مهج	:::	والسمر ناهيك ياما تفعل السمر
فجاء في رجب عيدان من عجب	:::	للسيف والرمح وهذا الفطر والنحر
فكان أسلمهم من أسلموه لأن	:::	يقوده القيد أو يسري به الأسر
وراج فارسهم تراوح راجلهم	:::	تنتابه الوحش أو ينبو به القفر
فما وعى منهم واع رعيته	:::	ولا ارعوى لهم من روعة فكر
وكان يوم الخميس النصف من رجب	:::	عام الثمانين هذا الفتح والنصر
وعاد سلطاننا المنصور منتصرًا	:::	فالحمد لله تم الحمد والشكر

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١٨٢/١.

وقال القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر، والده، من أبيات يصف فيها السلطان وحسن بلائه، وجميل أثره، وجزيل غنائه:

لله في حمص مقام قامه ::: والنار من بين الأسنّة توهج
والناس قد فرّوا فلا متريّث ::: والخلق قدهر بوا فليس معرّج
وهناك من تجد الملائك عصبة ::: جاءته للنصر المبين تروّج
وهناك خالد قد أجار نزيله ::: ونزيل خالد ليس ممن يزعج
فثنى العنان وما انثنى حتى بدا ::: للدين من أمر الأعادى مخرج
ملك به ردّ العدى لو أنهم ::: مما سبى أولادهم لم ينتجوا
البحر لولا أنه من كفه ::: ما كان منه جوهر يستخرج
والصبح لولا أنه من شهبه ::: ما فات ركض البرق منه يهملج
والليل لولا أنه من دهمه ::: ما كان بالشهب الثواقب يسرج
والنصر لولا أنه من سيفه ::: ما كان كرب في الوجود يفرّج
والروض لولا أنه في كتبه ::: ما هبّ في الآفاق منه تأرّج
والسحب لولا أنها من جوده ::: ما كان منها كل صدر يثلج
والنار لولا أنها من سخطه ::: ما أحرق الأعداء منه تأجّج
فلمدحه ما حاكه ذو فكرة ::: ولرمحه من نثره ما ينسج
يرضيك من فوق السوانح أروع ::: منه ومن تحت التريكة أبلج

وقال ناصر الدين حسن بن النقيب أحمد الكنانية، وكان مفاقًا في فنون الأدبية والشعرية بذكر هذه النصرة المنصورية:

هى النعمة الكبرى هى النصرة العظمى ::: هى اللفظ والمعنى هى البشر والبشرى
هى المطلب الأسنى هى المنحة التي ::: لقد شرفت قدرا وقد عظمت ذكرا
هى الوقعة الصماء والحطمة التي ::: بها انكسر الفكر الذى لم يجد جبرا
هى الفنك بالأعداء والظفر الذي ::: هى النعمة الكبرى هى النصرة العظمى
وأمكن من صمغار حد سيوفا ::: فخر إلى الأذقان لا ساجدًا شكرا
ونكس أعلامًا وفلّ كنانيا ::: لمنكوتمر كالأسد في الحرب بل أضرا
فلما رأوه قد تقطر قاتلوا ::: عليه قتالاً قطّع البيض والسمرا
فلما نجا منها وركب طرفه ::: تولى وخلّى الابن والأب والصهرا
وراح ثخينا بالجراح مصبرّا ::: يئن ويشكو من هضاضاتها ضرّا

فلله منا الحمـــد والشـــكر دائمًـــا	:::	فقد أصل الإسلام واستأصل الكفرا
فقـــل لـــرؤس المغـــل إن قلاونـــا	:::	هو السيف ضرابًا لأعنـــاقكم قهـــرا
هو الملـــك المنصـــور والله خـــاذلٌ	:::	لأعدائه خـــذلانا وناصـــره نصـــرا
هو المقدم الكرار في حومة الـــوغى	:::	إذا أحجم الأبطال وامتلأوا ذعـــرا
هو الأسد العادى على أنفس العدى	:::	هو القمر الهادى إذا أظلـــم المســـرا
هو القائد الجيش العرمـــرم خلفـــه	:::	إلى الفان في موغان يطلبـــه جهـــرا
عساكر ملء الأرض من كل جهـــةٍ	:::	تجمعن حتى فات العـــدّ والحصـــرا
تخيـــل رائيهـــا القيامـــة مثلـــت	:::	لعينيه في دنياه والعـــرض والحشـــرا
فلم ينج منها الوحش عنـــد إثـــارة	:::	ولا الطير في جو الســـماء إذا مـــرا
فقـــل للتتـــار العـــادمين عقـــولهم	:::	نسيتم سيوف الترك تضربكم هـــبرا
وكم كسر وكم مـــرةً بعـــد مـــرة	:::	فما حصروا القتلى ولا استرعبوا الأسرا
وقد زاركم أبغاء من بعـــد قـــتلكم	:::	فأجرى عليكم من مدامعـــه جمـــرا
وأكـــبر مـــرأى هالـــه بســـماعه	:::	ففـــر إلى تـــوريز يجعلـــها ظهـــرا
ولو حلّ في غمدان يبغـــي تحصـــنا	:::	لما استطاع أن يقـــيم فيـــه ولا فـــرّا
وأنتم بسيف الدين أخبر في الوغـــا	:::	فذلك همام قد أحطـــتم بـــه خـــبرا
ولم يخفكـــم حملاتـــه ولطالمـــا	:::	أذاقكم المـــران مـــن طعنـــه المـــرا
أأنسيتم في عين جالوت مـــا جـــرى	:::	وفى العين قد أجرى دمـــاءكم همـــرا
أما كان في يـــوم الفـــرات إلـــيكم	:::	مقدمة الجيش الذى عـــبر البحـــرا
أما كـــان في يـــوم البلســـتين أولا	:::	أعيـــنكم ترنـــو إلى نحـــوه شـــزرا
فما أطرفت أجفانكم أوقضى الردى	:::	عليكم وأمضى حدّه فـــيكم الأمـــرا
وفى الملتقى ما بـــين حمـــص وحمـــاة	:::	تلقاكم السيف الذى يقطع العمـــرا
فداســـكم مـــن خيلـــه بحـــوافر	:::	حفرن لكم في كل جلمـــوده قـــبرًا
وكم لكم في الذئب والنسر مـــدفن	:::	فنوحوا إذا أبصرتم الذئب والنســـرا
أغركم من صاحب الســـيس قولـــه	:::	فكم غرّ بالقول المحال وكـــم أغـــرا
وقد وعدنـــه التـــرك أن ســـتزوره	:::	ولو أن أرض السيس مفروشة جمـــرا
وأنتم فـــأدرى الوعـــود بصـــدقهم	:::	فما أخلفوا قولا ولا اختلقوا غدرا (١)

وفى هذه النصرة، وقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١٨٣/١.

هلــك الكفــر في الشــام جميعــا ::: واستجد الإســلام بعــد دحوضــه
بالملــــك المظفـــر البطــــل الأر ::: وع سيف الإســلام عنــد نهوضــه
ملـــك جاءنـــا بعـــزم وحـــزم ::: فاعتززنـــا بســـمره وبيضـــه
أوجـــب الله شـــكر ذاك علينـــا ::: دائمًـــا مثـــل واجبـــات فروضـــه

وقال جمال الدين بن مصعب:

إن يــوم الحمــراء يــوم عجيــب ::: بين مصــر تركــى يجــود بنفســه
بالشــام بــددهم وفــرق شملــهم ::: ولكل شــيء آفــة مــن جنســه
دار كـــأس المنـــون لمـــا مزجنـــا ::: عـــين جـــالوت بالـــدما للســـقاة
يا لهـــا جمعـــة غـــدا الكفـــر فيهـــا ::: مســـجدا للســـيوف لا للصـــلاة

وقال شهاب الدين أبو شامة:

غلب التتار على الــبلاد فجــاءهم ::: فيـــه ولى جـــيش الطغـــاة البغـــاة
دار كـــاس المنـــون لمـــا مزجنـــا ::: عـــين جـــالوت بالـــدما للســـقاة

ثم أعطى الملك المظفر قطز دستورًا للملك المنصور صاحب حماة، فقدم الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة، ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتار فاعتقلهم.

وهنأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ الملك المنصور بهذا النصر العظيم وبعود المعرة بقصيدة منها قوله:

رعت العدى فضمنت ثل عروشــها ::: ولقيتـــها فأخـــذت ثـــل جيوشـــها
نازلـــت أمـــلاك التتـــار فأنزلـــت ::: عن فحلها قسرًا وعـــن اكديشـــها
فغدا لســـيفك في رقـــاب كماتهـــا ::: حصدُ المناجل في يبـــيس حشيشـــها
فقْتَ الملوك ببـــذل مـــا تحويـــه إذ ::: ختمت خزائنـــها علـــى منقوشـــها

ومنها:

وطويت عن مصر فســيح مراحــل ::: ما بـــين بركتـــها وبـــين عريشـــها
حتى حفظت على العبـــاد بلادهـــا ::: من رومها الأقصـــى إلى أحبوشـــها
فرشت حماة لوطيء نعلـــك خـــدَّها ::: فوطيتُ عين الشمس من مفروشـــها
وضربت ســـكتها الـــتى أخلصـــتها ::: عما يشوب النقد مـــن مغشوشـــها

وكذا المعــرة إذ ملكــت قيادهــا ::: دهشت سرورًا ســار في مدهوشــها
لا زالت تــنعش بــالنوال فقيرهــا ::: وتنال أقصى الأجر مــن منعوشــها
طربــت برجعتــها إليــك كأنمــا ::: سكرت بخمرة جاشها أوجَيشــها (١)

وأمر السلطان المظفر قطز بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام: وهى قلعة دمشق، وقلعة الصلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد، وقلعة بصرى وقلعة شيزر، وقلعة الصبيبة، وقلعة شميميش وقلعة حمص. فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد، وخزنت بها الغلات والأزواد وحملت كثيرة إلى دمشق، وفرقت في البلاد لتصير تقاوى الفلاحين. ورتب السلطان بدمشق بعدل، وبنى مشهدًا في عين جالوت عرف بمشهد النصر.

ورتب السلطان البريد في سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام ويعود في مثلها. فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرتين، ويتحكم في سائر المماليك من العزل وهو مقيم بقلعة الجبل، وأنفق في ذلك مالاً عظيمًا حتى تم ترتيبه. ونظر في أمر الشوانى الحربية، وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله واستعملوهم في الحراريق وغيرها، فأعادهم إلى ما كانوا عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأنشأ عدة شوانى بثغرى دمياط والإسكندرية، ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه، وتكامل عنده ببر مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها (٢).

أما بيبرس فإنه تعقب المنهزمين من المغول حتى كاد أن يلحق بهم على مقربة من مدينة حلب ولكنهم أطلقوا من كان في أيديهم من الأسرى وتركوا أولادهم وأسرعوا خفافًا حتى لا يلحق بهم فتخطف الناس أولادهم ودانت حلب بالطاعة لسلطان مصر.

---

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ٦٢/١.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ /٤٢٧.

بقى أن نقول:

إن التاريخ الإسلامى يُذكرنا أنه حين انعقدت آصرة العقيدة في نفوس المسلمين تحطمت الهجمات الصليبية عليهم، فالقادة الذين نسوا الانتماءات العرقية ووشائج الدم والأرض والقوم قادوا المسلمين إلى النصر، ومن أولئك صلاح الدين الأيوبى الكردى وتوران شاه، وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس، وغيرهم كثير إن هذه القيادات نسيت القوم والأرض وتمسكت بالعقيدة فانتصرت تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولآصرة التجمع الأساسية في المجتمع الإسلامى حكمة ربانية بالغة ومن ثم فهى عقلية وعلمية يقول الأستاذ/سيد قطب: (حين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع ما هى العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة فإنه يكون ذلك ممثلاً لأعلى ما في إنسانية الإنسان من خصائص، أما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع ما هى الجنس واللون والقوم والأرض وما إلى ذلك من روابط فإنها كلها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان.

والخلاصة أن المجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتى الموافق لما شرعه مولاهم المتحضر والمجتمع الذى يجتمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو المجتمع المتخلف وفى المصطلح الإسلامى يطلق عليه المجتمع الجاهلي).

لقد مرت على المسلمين فترات مظلمة - كهذه الفترة أو أشد - مستهم فيها البأساء والضراء وزلزلوا، فحينما اجتاح التتار العالم الإسلامي، ضج السهل والجبل من كثرة ما أريق من دماء المسلمين، وأشفق المؤرخون من هول ذكره، وبلغ الذل بالناس إلى الحد الذى جعل الجندى الأعزل، من المغول، يأمر الرجل، فيضع خده وعنقه على الأرض، ثم يأمره أن يظل على هذه الحال، بلا حراك، ومن غير ما حارس يحرسه، حتى يذهب هذا ويحضر سلاحًا يحتز به رقبته!!.

وفى كل مرة زحف - ويزحف - فيها التتار والمغول وأشباههم؛ يعملون على قذف الرعب، واستلال روح المقاومة من النفوس، ولم يوقف زحف المغول الأصفر

إلا هتاف: " وا إسلاماه "، الذى تردد مرة في بطاح عين جالوت.

ولن يوقف المغول والتتار والصليبيين الجدد واليهود، ومن في حكمهم، إلا مثل هذا الهتاف: " واإسلاماه ".

لو قدر للمغول أن ينتصروا في موقعة﴿عين جالوت﴾ لانسابوا في مصر كالسيل الجارف ولامتدت موجتهم إلى السودان وبلاد المغرب وعبرت إلى الأندلس واجتاحت أوربا وقضت على الحضارة الإسلامية والمسيحية على السواء لذلك تعتبر هذه الموقعة من أهم المواقع الفاصلة في التاريخ؛ لأنها أنقذت العالم الإسلامى من شر مستطير وأطفأت هذه الصاعقة المهلكة التى كادت أن تقضى على حضارة العالم ومدنيته.

آثار " عين جالوت "..

وسبحان الله.. مع أن موقعة عين جالوت هذه كانت موقعة واحدة، وتمت في يوم واحد إلا أن آثارها كانت من القوة بحيث لا تتخيل، وكانت من الكثرة بحيث لا تحصى.. آثار عين جالوت كانت في غاية الأهمية، ولا نستطيع في هذه العجالة أن نمرّ عليها كلها، ولكن سنمرّ على طرفٍ منها.. وعلى الدارسين والمحللين أن يبحثوا في هذه الآثار بمزيد من التفصيل والدراسة..

الأثر الأول: عاد المسلمون إلى الله عز وجل أثناء التحضير وأثناء الإعداد لهذا اللقاء، وأثناء المعركة ذاتها، وبعد المعركة، ولمدة طويلة من الزمان.. لقد وضحت المعادلة جدًّا في أذهان الناس؛ فالمسلمون عندما ابتعدوا عن الله عز وجل تمكن المغول من رقابهم، ولما عادوا إلى الله حدث النصر الذى اعتبره كثير من المحللين معجزة.. وواقع الأمر أنه ليس بمستغرب، فالنتيجة الطبيعية لعودة المسلمين إلى الله عز وجل أن يتم نصرُهم على أعدائهم..

وتبين المسلمون أيضًا بوضوح أن الحرب دينية في المقام الأول؛ فقد تحالف كثير من النصارى مع المغول، مع أن مصالحهم على المستوى البعيد كانت مع المسلمين وليست مع المغول؛ فالمغول لا عهد لهم بينما يحترم المسلمون العهود جدًّا.. هذا في أصل دينهم، وهذا هو واقعهم في معظم فترات التاريخ، والمخالفات

الإسلامية من ناحية إخلاف الوعود والعهود قليلة جدًّا، ويكون لها عادة مبررات قوية.. ولذلك فقد استقرّ في نفس المسلمين بعد انتصار عين جالوت أن الحروب التى دارت بينهم وبين المغول والنصارى لم تكن حروب مصالح فقط كما يحب كثير من الغربيين والعلمانيين أن يصوروا، وكما يحب الماديون أن يصوروا؛ فيجعلون الاقتصاد هو المحرك الرئيسى للحروب.. أو يجعلون الأغراض العسكرية والاستراتيجية هى الهدف الأساسي.. بينما رأينا في هذه القصة التى مرت بنا أن الدين كان له أثر كبير في تحريك النصارى، وكان له أثر أكبر في تحريك المسلمين.. والله عز وجل نبهنا إلى ذلك في كتابه حيث قال مثلاً:{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة: ١٢٠]... فجعل الرضا عندهم مقرونًا باتباع ملتهم وليس ببقاء مصالحهم..

وكذلك قال:{وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟} [البقرة: ٢١٧].

فوضح أن القتال سيستمر حتمًا إلى أن يترك المسلمون دينهم، أما قبل ذلك فالحرب لن تتوقف، ولن تكفى سيطرة اليهود والنصارى والمغول والمشركين والهندوس على الأرض والديار والأموال والبترول والناس وغير ذلك.. لن يكفى كلُّ ذلك.. بل سيظل الهدف الأسمى لهؤلاء هو السيطرة على الدين الإسلامى.. أو قل " محو الدين الإسلامى "، وما نراه من متابعة لكل الحركات الإسلامية والتوجهات الدينية، وما نراه من محاولات تغيير لمناهج المسلمين الدراسية، وما نراه من حرب في وسائل الإعلام المختلفة.. كل هذا ما هو إلا صور للتعبير عن شدة الكراهية " لوجود " الدين وليس لوجود القوة أو الحدود..

أى أن المعركة في أصلها هي معركة " وجود " أساسًا، هم لا يقبلون " بوجود " الدين الإسلامى على وجه الأرض.. لذلك فالحرب لن تنتهى أبدًا.. لأن دين الإسلام لن ينتهى أبدًا بإذن الله.. وهكذا لا يصلح أن يكون السلام اختيارًا استراتيجيًّا مهما تغيرت الظروف.. فأنت إن تنازلت عن كل شيء في مقابل السلام فهم لن يقبلوا.. إلا أن تتنازل عن " الدين "..

لقد فقه المسلمون بعد موقعة " عين جالوت " أن الصراع دينى في المقام الأول، ومن ثمَّ إذا أردت أن تنتصر في هذا الصراع الديني، فلابد أن تكون دينيًا.. بمعنى أن تكون متمسكًا تمامًا بهذا الدين..

كان هذا هو الأثر الأول لموقعة عين جالوت الخالدة..

الأثر الثاني: قتل المسلمون في عين جالوت الهزيمة النفسية البشعة التى كانوا يعانون منها.. والتى فصلنا في ذكرها في أول هذا الكتاب..

خرج المسلمون من حالة الإحباط الشديد التى كانت تسيطر عليهم، وعلموا أن الأمل في الله عز وجل لا ينقطع أبدًا، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين فإنها ولا شك إلـــى زوال..{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾} [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

ظهر للمسلمين بوضوح بعد عين جالوت أن الله عز وجل قادر على كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهم وإن كانوا يعلمون ذلك علمًا نظريًا قبل عين جالوت، فإن موقعة عين جالوت جاءت كالدرس العملى التطبيقى الذى لا يُبقى شكًا في قلب أحد..

{وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾} [يونس: ١٠٧].

الأثر الثالث: عادت الهيبة للأمة الإسلامية بعد غياب دام أكثر من ستين سنة، فبعد أن كانت الأمة الإسلامية في أواخر القرن السادس الهجرى في درجة عظيمة جدًا من درجات النصر والفخر والسيادة، وذلك بعد انتصارَى حطين في المشرق (في فلسطين)، والأرك في المغرب)في الأندلس(حدث انكسار شديد في حالة الأمة الإسلامية، ضاعت هيبتها، حتى بدأت الكلاب تنهش جسدها، والأفاعى تجول بأرضها..

لكن عين جالوت ألقت الجلال والمهابة على الأمة الإسلامية، حتى إن هولاكو الذى كان يستقر في تبريز في فارس، ومعه عدد ضخم من القوات المغولية لم يفكر في إعادة احتلال بلاد الشام مرة ثانية، وأقصى ما استطاع فعله هو إرسال حملة

انتقامية أغارت على حلب، وسفكت دماء بعض أهلها كنوع من إثبات الوجود، لكن هيبة الأمة الإسلامية وقرت في صدره، فلم يشأ أن يلقى بجيشه في مهلكة جديدة..

وهيبة الأمة لا تعود إلا بأيام كعين جالوت..

" إن الله ليزع بالسلطان، ما لا يزع بالقرآن ".

الأثر الرابع: فنيت قوة المغول العسكرية في منطقة الشام وتركيا وفلسطين.. لم يُسمع عن المغول في هذه المنطقة لعشرات السنين بعد ذلك، اختفى القهر والظلم، واختفى البطش والتشريد، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم.. ولم يروع الناسَ أحدٌ في هذه المناطق إلا بعد عين جالوت بأكثر من مائةٍ وأربعين عامًا، عندما دخل المغولى السفاح " تيمورلنك " بلاد الشام، فاجتاح حلب ودمشق سنة ٨٠٤ هجرية بعد أن اجتاح بلاد العالم الإسلامى الشرقية..

أحداث " تيمورلنك " سنتعرض لها إن شاء الله عند الحديث عن دولة المماليك، وأيضًا سنتناولها عند الحديث عن الخلافة العثمانية.. لكن ما يهمنا في هذا المجال هو أن هذه الموقعة " عين جالوت " قد أمَّنت المسلمين مائة وست وأربعين سنة كاملة..

الأثر الخامس: تعتبر موقعة " عين جالوت " شهادة الميلاد الحقيقية لدولة المماليك العظيمة، التى حملت راية الإسلام لمدة تقترب من ثلاثة قرون) مائتين وسبعين سنة..). نعم، كانت بداية حكم المماليك منذ سنة ٦٤٨ هجرية عند ولاية شجرة الدرّ ثم زوجها الملك المعز عزّ الدين أيبك المملوكي، لكن " عين جالوت " هى التى أعطت الشرعية أمام جميع المسلمين لدولة المماليك.. فقد حقق المماليك في غضون عشر سنوات انتصارين هائلين على أعداء الإسلام.. أما الانتصار الأول فكان في المنصورة وفارسكور على جيوش فرنسا بقيادة الملك لويس التاسع، والانتصار الثاني هو عين جالوت، ولئن كانت القيادة العامة لجيش المسلمين في موقعة المنصورة ثم فارسكور قيادة أيوبية فإن الجيش كان معتمدًا في الأساس على المماليك، أما في عين جالوت فالانتصار كان مملوكيًا خالصًا، وبذلك شعر الجميع أن هؤلاء المماليك هم أقدر الناس على قيادة الأمة..

وهكذا نشأت الدولة المملوكية التى حملت على عاتقها صدّ هجمات أعداء الله عز وجل من مغول أو صليبيين، وكانت دولة جهادية في معظم فتراتها..

ومع أن دولة المماليك حاولت أن تضفى شرعية على وجودها بصورة أكبر حيث استضافت أبناء خلفاء بنى العباس في القاهرة ابتداءً من سنة ٦٥٩ هجرية بعد عين جالوت مباشرة وفى عهد الظاهر بيبرس، إلا أن دولة المماليك لم تكن تمثل الخلافة الحقيقية للمسلمين؛ لأنها لم تكن في أقصى اتساعها تسيطر إلا على أجزاء محدودة من العالم الإسلامي، فكانت تسيطر على مصر والشام والحجاز واليمن وأجزاء من العراق وأجزاء من ليبيا، أما بقية العالم الإسلامى فكان موزعًا بين طوائف شتى، ولم يجد المسلمون معنى الخلافة الحقيقية الجامعة لكل المسلمين تقريبًا إلا بعد قيام الخلافة العثمانية العظيمة التي أعادت جمع المسلمين بعد سنوات من التفرق.

لكن على العموم.. كانت دولة المماليك أقوى دول المسلمين في فترة وجودها، وأكثرها جدية، وأعظمها هيبة، ولذلك يطلق المؤرخون كثيرًا على العهد الذى عاش فيه المماليك " العهد المملوكى " متجاهلين بذلك كثيرًا من الدول الصغيرة التى عاشت في تلك الفترة..

الأثر السادس: عادت الوحدة العظيمة بين مصر والشام، وكونا معًا التحالف الإستراتيجى الصُلب الذى يمثل حاجز صدّ رائع ضد الهجمات الأجنبية.. فمصر والشام - بما فيها فلسطين - يمثلان قلب العالم الإسلامى إستراتيجيًّا وسياسيًّا وجغرافيًّا وثقافيًّا وتاريخيًّا.. واتحاد مصر مع الشام يمثل عامل أمان كبير لكل المنطقة، كما أنه يقلل كثيرًا من أطماع الطامعين في العالم الإسلامي، وخاصة أن معظم أعداء الإسلام كثيرًا ما يركزون تفكيرهم على منطقة مصر والشام، وذلك لأسباب دينية واقتصادية وعسكرية.. وبذلك يتضح أنه لا نجاة لهذه المنطقة إلا بوحدة شاملة بين كل الشام بما فيها سوريا وفلسطين والأردن ولبنان.. وبين مصر.. وهذا ما فعلته دولة المماليك الناشئة..

الأثر السابع: اختفى من على الساحة الإسلامية كل الأمراء الأيوبيين الذين كانوا أقزامًا في ذلك الزمن الذى لا يعيش فيه إلا العمالقة.. لقد فرّط معظم هؤلاء الأمراء في الأمانة الثقيلة التى خلّفها لهم جدُّهم العظيم صلاح الدين الأيوبى رحمه الله، وما

كان لهم من همٍّ إلا الصراع على السلطة، وجمع المال، وتوريث الأبناء.. عاشوا حياتهم في مؤامرات ومكائد، وداسوا على كل الفضائل والمكارم في صراعاتهم، حتى انتشرت بينهم موالاة النصارى والاستعانة بهم في حرب إخوانهم من المسلمين، وأحيانًا في حرب إخوانهم الأشقاء!!.. وظلّ هؤلاء الأقزام يُذيقون شعوبهم الألم والظلم والقهر والخيانة، وظلوا يقاومون أى مشروع للوحدة تحت راية واحدة، لأنهم يختلفون فيمن يصعد إلى كرسى الحكم إذا حدثت الوحدة، وظلوا يقاومون الحكم المملوكى في مصر، ويتعاونون مع الصليبيين لإسقاطه إلى أن حدثت موقعة عين جالوت الخالدة.. فكان من آثارها المباشرة سقوط هذه الزعامات الوهمية، وعرف كل منهم قدره، ورضى بما يناسب حجمه، وبذلك وَقَتْ موقعة عين جالوت الأمة شر أبنائها.. كما وَقَتْهَا شر أعدائها..

الأثر الثامن: نتيجة الوحدة بين مصر والشام، ونتيجة اختفاء الأمراء الأقزام من على الساحة، ونتيجة ظهور دولة المماليك، ونتيجة الطبيعة الجهادية لدولة المماليك، ونتيجة النشأة الإسلامية والحميّة الدينية والفقه العالى الرفيع لهذه الدولة.. نتيجة لكل هذا حدث أمر هائل عظيم..

لقد أخذ المماليك على عاتقهم مهمة تحرير بلاد الشام وفلسطين من الإمارات الصليبية التى ظلّت تحكم هذه البلاد منذ سنة ٤٩١ هجرية.. أى منذ أكثر من مائة وستين عامًا قبل عين جالوت.. ومع أن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى رحمهم الله جميعًا قد بذلوا جهودًا مضنية لتحرير هذه المناطق إلا أنهم لم يفلحوا في تحرير كثير منها، إلى جانب تفريط أبنائهم في بعض الولايات المُحرَّرة حين تنازلوا عنها من جديد للصليبيين، ولذلك فبعد " عين جالوت "، وبعد استقرار المماليك في الحكم بدءوا يوجهون جيوشهم الواحد تلو الآخر لتحرير هذه البلاد الإسلامية العظيمة فلسطين وسوريا والأردن ولبنان وتركيا.. نسأل الله لها جميعًا دوام التحرر..

فبدأ الظاهر بيبرس حملاته على هذه الإمارات ابتداءً من سنة ٦٥٩ هجرية بعد عين جالوت بشهور قليلة، وبعد جهاد مُضْنٍ بدأت الإمارات الصليبية في التساقط في أيدى المسلمين المجاهدين، فحرّر المسلمون في سنة ٦٦٤ هجرية قيسارية وحيفا

وحصن أرسوف جنوب قيسارية، وكل هذه المدن في فلسطين، ثم في سنة ٦٦٥ هجرية حررت صفد في الشمال الشرقى لفلسطين، وبينما كان بيبرس يحرر هذه البلاد في فلسطين كان قائده سيف الدين قلاوون يحرر قليقية في تركيا وانتصر هناك على قوات الأرمن النصرانية بقيادة الملك هيثوم، وجمع غنائم لا تحصى، وأسر من الصليبيين ونصارى الأرمن أربعين ألفًا، وفى سنة ٦٦٦ هجرية حرّر الظاهر بيبرس يافا، وفى سنة ٦٦٧ هجرية حُررت أنطاكية إمارة الأمير بوهمند الذى كان متحالفًا مع المغول، وهى أول مملكة صليبية في بلاد المسلمين حيث احتلت في سنة ٤٩١ هجرية، وكانت أغنى الإمارات حتى إن غنائمها من الذهب والفضة كانت توزع على الفاتحين بالمكيال وليس بالعدد!!..

ولم يبق عند وفاة الظاهر بيبرس رحمه الله من المدن الإسلامية المحتلة إلا عكا وكانت أقوى المدن المحتلة، إلى جانب " صور " و " صيدا " و " طرابلس " و " بيروت " وهى جميعًا في لبنان، وأيضًا طرطوس واللاذقية وهما من المدن السورية..

وقد حُرّرت طرابلس في سنة ٦٨٤ هجرية بعد عين جالوت بستة وعشرين عامًا على يد السلطان المملوكى المنصور قلاوون، ثم خلفه بعد ذلك ابنه السلطان العظيم الأشرف خليل بن قلاوون الذى أخذ على عاتقه تحرير كل المدن الإسلامية المحتلة من الصليبيين، فحُررت عكا الحصينة في سنة ٦٩٠ هجرية بعد قرابة قرنين من الاحتلال الصليبي، وبعد فشل كل أمراء المسلمين السابقين على مدى قرنين كاملين في فتحها، وبفتح عكا سقطت أعظم معاقل الصليبيين في الشام، وبعدها بقليل حررت " صيدا " و " صور " و " بيروت " و " جبيل " و " طرطوس " و " اللاذقية "، وبذلك انتهى الوجود الصليبى تمامًا من الشام وذلك بعد اثنتين وثلاثين سنة فقط من عين جالوت، مما يجعل هذا التحرير من النتائج المباشرة لهذه الموقعة العملاقة..

هناك بالطبع تفاصيل في غاية الأهمية والروعة في تحرير كل هذه المدن والإمارات، ولكننا نرجئ ذكرها إلى حين الحديث عن الحروب الصليبية إن شاء الله..

الأثر التاسع: ارتفعت قيمة مدينة القاهرة المصرية ارتفاعًا بالغًا، بعد انتصار " عين جالوت " وقيام دولة المماليك، وخاصة بعد التدمير الذى لحق ببغداد سنة ٦٥٦هجرية على أيدى المغول، وبعد سقوط قرطبة سنة٦٣٦ هجرية في أيدى الصليبيين الأسبان..

أصبحت القاهرة قبلة العلماء والأدباء، ونشطت الحركة العلمية جدًّا، وعظم دور الأزهر، وأصبح - ولا يزال - من أعظم جامعات العالم الإسلامي، وحمل لواء الدفاع عن الدين، ونشر الدعوة، والجهر بالحق عند السلاطين، والمطالبة بالحقوق، وتزعم الحركات الجهادية ضد أعداء الأمة..

وبذلك توارثت الأجيال في هذه المدينة العريقة " القاهرة " الدعوة إلى الله، والصحوة الإسلامية، وحمل هَمّ المسلمين، ليس في مصر وحدها بل في العالم أجمع..

الأثر العاشر: وهو من أعجب الآثار، وأعظم الآثار!!

فقد رأى كثير من المغول دين الإسلام عن قرب، وقرءوا عن أصوله وقواعده وقوانينه، وعلموا آدابه وفضائله، ورأوا أخلاقه ومبادئه.. فأعجبوا به إعجابًا شديدًا، وخاصة أنهم - كعامة البشر - يعانون من فراغ دينى هائل.. فليس هناك تشريع يقترب أو يحاول الاقتراب من دين الإسلام.. ومن اقترب منه وبحث فيه لابد أن يرتبط به، إن كان صادقا في بحثه، وطالبًا للحقيقة فعلاً..

لقد بدأ بعض المغول يؤمنون بدين الإسلام.. ثم شاء الله عز وجل أن يدخل الإيمان في قلب أحد زعماء القبيلة الذهبية - أحد الفروع الكبيرة جدًّا في قبائل المغول -، وهذا الزعيم هو ابن عم هولاكو مباشرة، وهو أخو " باتو " القائد التترى المشهور، وتلقب هذا الزعيم باسم " بركة "، وكان إسلامه في سنة٦٥٠ هجرية، ثم تولى " بركة " زعامة القبيلة الذهبية سنة ٦٥٢ هجرية، وأصبح اسمه " بركة خان "، وكانت هذه القبيلة شبه مستقلة عن دولة المغول، وتحكم المنطقة التى تقع شمال بحر قزوين، والمعروفة في الكتب الإسلامية القديمة باسم " بلاد القبجاق " وهى تقع الآن في روسيا، وبإسلام هذا الزعيم دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام، وهذا أمر

عجيب حقًّا، لأن دخول كل هؤلاء في الإسلام كان قبل عين جالوت، وكان المغول يتحكمون في رقاب المسلمين، والمسلمون مهزومون في كل مواقعهم، وهى من المرات القليلة جدًّا في التاريخ التى يدخل فيها الغازى في دين من يغزو بلادهم، ويدخل القوى في دين الضعيف، ولكنه دين الإسلام الذى يخاطب الفطرة البشرية، وهذا يضع مسئولية كبيرة على عاتق الدعاة المسلمين، في أن يصلوا بهذا الدين إلى أهل الأرض جميعًا، فإن من وصل إليه الدين صحيحًا نقيًّا فإنه يُرجى إسلامه مهما كان معاديًا للإسلام في بَدء حياته..

ومن آثار موقعة " عين جالوت " العظيمة أن تزايد عدد المسلمين جدًّا في القبيلة الذهبية حتى أصبح كل أهلها تقريبًا من المسلمين، وتحالفوا مع الظاهر بيبرس ضد " هولاكو "، ولهم مع " هولاكو " حروب متكررة نعرض إليها إن شاء الله عند الحديث عن تاريخ دولة المماليك..

والجدير بالذكر أن بقايا القبيلة الذهبية ما زالت موجودة، ومكونة لبعض الإمارات الإسلامية مثل إمارة " قازان " وإمارة " القرم " وإمارة " استراخان " وإمارة " النوغاى " وإمارة " خوارزم " وغيرها، وكل هذه الإمارات ما زال محتلاً إلى يومنا هذا من روسيا، وما استطاعت أن تتحرر بعد حتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، ونسأل الله لها ولسائر بلاد المسلمين التحرر الكامل والسيادة المطلقة على أراضيها..

كان هذا هو الأثر العاشر لموقعة عين جالوت..

فتلك عشرة كاملة..

ولا شك أن هناك آثارًا أخرى كثيرة لهذه الموقعة الخالدة.. والأمر بين يدى الباحثين والدارسين..

أسباب النصر في عين جالوت:

إذا كان لموقعة عين جالوت كلُّ تلك الآثار التى عرفناها، فلا يفوتنا هنا أن نتدبر في أسباب هذا النصر العظيم..

لقد شرحنا بالتفصيل خطوات قطز - رحمه الله - في إعداد الأمة والجيش لهذا النصر.. وهنا - في إيجاز شديد - نعرض لبعض الأسباب التى أخذ بها قطز رحمه الله ومن معه من أبطال ومن علماء الإسلام وأدت في النهاية إلى هذا الانتصار المبهر..

- **السبب الأول** (**وهو أعظم الأسباب**):

الإيمان بالله، والاعتقاد الجازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى.. ولذلك اهتم قطز - رحمه الله - بالناحية الإيمانية عند الجيش وعند الأمة، وعظّم دور العلماء، وحفز شعبه لحرب المغول من منطلق إسلامى وليس من منطلق قومى أو عنصري، ولخص ذلك في " عين جالوت " بكلمته الموفقة " وإسلاماه "، ولم يقل: وامصراه.. وامُلْكاه.. واعروبتاه!!.. لقد كانت الغاية واضحة جدًّا عند قطز رحمه الله، وكانت هويتُه إسلامية تمامًا.. ووضوح الرؤية ونقاء الهوية كان سببًا مباشرًا من أسباب النصر، بل هو أعظمها على الإطلاق..

وقد ظهر رسوخ هذا الأمر في نفس قطز رحمه الله عندما لجأ إلى الله بوضوح عند الأزمة الخطيرة في عين جالوت، حيث وقف متضرعًا يناجى ربه ويقول: " يا الله.. انصر عبدك قطز على المغول ".. فالدعاء هو العبادة.. الدعاء اعتراف من العبد بعبوديته لله عز وجل.. الدعاء إعلان صريح من العبد أنه فقير لرب العالمين..

لقد كان قطز - رحمه الله - يدرك في كل خطوة من خطوات إعداده أنه لن يفلح إلا إذا أراد الله عز وجل، ولذلك لابد أن يطلب منه باستمرار وبإلحاح وبخشوع وبتضرع.. ولم ينسب النصر إلى نفسه أبدًا.. بل كان دائمًا ينسبه إلى الله عز وجل؛ لأنه يعلم أنه كثيرًا ما طلب من الله عز وجل، وأن الله عز وجل قد تفضّل وتكرّم عليه بالنصر والتوفيق.. فلله تعالى المنّة والفضل..

- **السبب الثاني: الوحدة بين المسلمين**

فالأمة المتفرقة لا تُنصر، وقد حرص قطز رحمه الله منذ اليوم الأول لارتقائه عرش مصر أن يوحّد المسلمين قدر ما يستطيع؛ فعفا عن المماليك البحرية، وجمعهم مع المماليك المعزّية، وراسل ملوك الشام الأيوبيين، وتقرب منهم، وضم إلى قواته الشاميين والخوارزمية والمتطوعين بصرف النظر عن أصولهم وأعراقهم... وبذلك نجح في تحقيق ما كان يعتقد الكثيرون أنه مستحيل.

- **السبب الثالث: إذكاء روح الجهاد في الأمة..**

فقد تيقن قطز رحمه الله أن السبيل الأساسي لاستعادة حقوق المسلمين هو الجهاد، وأن السلام إذا صلح أن يكون اختيارًا في بعض الظروف، إلا أنه لا يمكن أن يُختار إذا انتُهبت حقوق المسلمين، وإذا سُفكت دماؤهم، وإذا شُرّدوا في الأرض.. السلام لا يكون إلا باستعادة كامل الحقوق، ولا يكون إلا ونحن أعزّاء، ولا يكون إلا ونحن نمتلك قوة الردع الكافية لدحر العدو إذا خالف معاهدة السلام.. أما بدون ذلك فالسلام لا يكون سلامًا بل يكون استسلامًا، وهو ما لا يُقبل في نظر الشرع..

والحق أن شعب مصر كان مؤهلاً للجهاد، ومعظمًا له من جرّاء الحروب الصليبية المتتالية، ولذلك كان سهلاً على قطز رحمه الله أن يذكّر الناس بالجهاد كسبب رئيسي من أسباب النصر، ولابد أن تفقه الأمة الإسلامية أنها لا سبيل لها لرفع رأسها في الأرض إلا بالجهاد، ولذلك فالجهاد هو ذروة سنام الإسلام.. أي أعلى ما فيه، ومن يتمسك به يكن أعلى الناس في الأرض..

- **السبب الرابع: الإعداد الجيد للمعركة**

فقد أخذ قطز بكل الأسباب المادية لتقوية جيشه، من إعداد للسلاح وتدريب للجنود، وترتيب للصفوف، ووضع للخطة المناسبة، واختيار المكان المناسب، وعقد الأحلاف الدبلوماسية المناسبة، وتهيئة الجو على أفضل ما يكون، ويكفي أن نذكر هنا بالصورة الجميلة البهية الرائعة التي كانت عليها جيوش المماليك في عين جالوت، وكأنها تتجه إلى عرض عسكري، وليس إلى معركة ضارية..

ومن لم يعدّ العدة وتوقعَ النصر فلا شك أنه واهم.. ليس هذا من سنن الله عز وجل..

- **السبب الخامس: القدوة**

التي ضربها قطز رحمه الله لجنوده ولأمته في كل الأعمال.. وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات.. كان قطز رحمه الله قدوة في أخلاقه.. قدوة في نظافة يده.. قدوة في جهاده.. قدوة في إيمانه.. قدوة في عفوه...

لم يشعر الجنود أبدًا بأنهم غرباء عن قطز.. لقد نزل قطز رحمه الله بنفسه إلى خندق الجنود وقاتل معهم، فكان حتمًا أن يقاتلوا معه..

- **السبب السادس: عدم موالاة أعداء الأمة..**

فلم يوال قطز رحمه الله المغول أبدًا مع فارق القوة والإعداد بينهما.. كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع احتياجه لذلك.. لقد سقط الكثير من الزعماء قبل قطز في مستنقع الموالاة للكفار، وكان منطلقهم في ذلك أنهم يجنّبون أنفسهم أساسًا.. ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك - كما يدَّعون - ويلات الحروب.. فارتكبوا خطأ شرعيًّا شنيعًا.. بل ارتكبوا أخطاءً مركبة؛ فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأ.. وتربية الشعب على الخنوع لأعدائه خطأ آخر.. وموالاة العدو واعتباره صديقًا خطأ ثالث...

لكن قطز رحمه الله كان واضح الرؤية.. وتحقق له هذا الوضوح في الرؤية بفضل تمسكه بشرع الله عز وجل.. لقد قرأ في كتاب الله:

{۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١} [المائدة: ٥١].

وهذا تحذير خطير.. بل خطير جدًّا.. من رب العالمين..

وكم هو أحمق - بل ضعيف الإيمان - من يستمع إلى هذا التحذير ثم لا يتلفت إليه..

- **السبب السابع: بث روح الأمل في الجيش والأمة..**

فالأمة المحبطة من المستحيل أن تنتصر.. والإحباط والقنوط واليأس ليست من صفات المؤمنين..

{إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ} [يوسف: ٨٧].

لقد عمل قطز رحمه الله على رفع الروح المعنوية للجيش وللأمة.. ووضح لهم أن نصر الله عز وجل للأمة التى سارت في طريقه ليس أمرًا محتملاً، بل هو أمر مؤكد، وأمر يقيني.. وأمر عقائدي..

" كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي.. إن الله قوى عزيز "

هذه - أيها المؤمنون - قضية منتهية!!

- **السبب الثامن: الشورى الحقيقية**

التى سار على هداها قطز رحمه الله في كل خطواته تقريبًا.. الشورى التى تسعى - حقيقة - للوصول إلى أفضل الآراء، لا إلى تثبيت وتدعيم رأى الزعيم!! الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام.. والذى لا يأخذ بها يضحّى بملايين الطاقات في شعبه، ويفترض في نفسه الكمال، ويخالف طريق الأنبياء، ويورث الضغينة في قلوب أتباعه، ويقع في الخطأ تلو الخطأ.. وفوق ذلك كلِّه يخالف أمر الله عز وجل الذى جاء بلفظ صريح في كتابه العزيز..

{وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩].

- **السبب التاسع: توسيد الأمر لأهله..**

فقد ولّى قطز رحمه الله أولئك الذين يتصفون بصفتين رئيسيتين هامتين لكل وظيفة - صغرت أم كبرت - هاتان الصفتان هما: الكفاءة والأمانة..

{إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ} [القصص: ٢٦].

القوى في مجال عمله.. المتفوق على أقرانه.. السابق لهم.. المتقن لعمله المبدع فيه..

والأمين الذى لا يضيع حق الله ولا حق العباد ولا حق الأمة ولا حق نفسه..

وكم تخسر الأمم إذا وُسّد الأمر لغير أهله.. بل هى من علامات الساعة..

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابيًا سأل رسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فقال: «إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة».

فإذا تولى الأمورَ رجالٌ لا يمتلكون كفاءة ولا يتصفون بأمانة، ولم يصلوا إلى مكانهم إلا بوساطة أو قرابة أو رشوة.. إذا حدث ذلك فاعلم أن النصر بعيد!!

وقد رأينا في قصتنا هذه كيف ولّى قطز رحمه الله فارس الدين أقطاى رئاسة الجيش مع كونه من المماليك البحرية، وكذلك ولى ركن الدين بيبرس على مقدمة جيش المسلمين في عين جالوت مع كونه منافسًا له وصاحب تاريخ وقوة، ومع كونه زعيمًا للمماليك البحرية، ورأينا كيف ولى أمراء الشام على بلادهم ولم يول أصحابه وأقاربه.. ومن كان على هذه الصورة فلابد أن يُنصر.. لأن من حفظ الأمانة حفظه رب العالمين..

" احفظ الله يحفظك.. " هذه قاعدة ثابتة من قواعد النصر..

- **السبب العاشر: الزهد في الدنيا**

وما يفشل الزعماء الوهميون - في زمان قطز أو في زماننا أو إلى يوم القيامة - إلا بغرقهم في الدنيا، وانغماسهم فيها.. وما ظلموا شعوبهم، وما والوا أعداءهم.. إلا جريًا وراء المادة، وسعيًا وراء الدنيا..

ولذلك كان رسول الله ﷺ دائم التحذير من أمر الدنيا.. فقد روى البخارى ومسلم - على سبيل المثال - عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله.. فقال:﴿**إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**﴾.

ولم تكن تلك هى المرة الوحيدة التى حذرنا فيها رسول الله ﷺ من أمر الدنيا؛ فهذا أمر متكرر كثيرًا، وبأكثر من صيغة، وفى أكثر من موقف، وليس كل ذلك إلا لخطورتها الشديدة على المسلمين.. بل على المؤمنين..

وفى قصتنا هذه رأينا الذين تعلقوا بالدنيا كيف كانت حياتهم وطموحاتهم وأحلامهم، وكيف باعوا أنفسهم وشعوبهم وأخلاقهم، بل وعقيدتهم، من أجل أعراضٍ رخيصة من الدنيا.. ورأينا كيف عاشوا في ذلة وصغار، وكيف ماتوا في ذلة كذلك.. رأينا محمد بن خوارزم، وجلال الدين بن خوارزم، والناصر لدين الله الخليفة العباسي، والمستعصم بالله، وبدر الدين لؤلؤ، والناصر الأيوبى وغيرهم...

أما قطز فقد فطن إلى هذا المرض الذى ابتلى به هؤلاء الضعفاء فزهد فيه وتجنبه، وعلم أن متاع الدنيا - مهما كثر - فهو قليل، وأن نعيمها - مهما كان له بريق - فهو زائف ومنقطع؛ فلذلك لم يُفتن بالدنيا لحظة، ولم يطمع فيها قيد أنملة، بل حرص على أن يبيع دنياه كلها، ويشترى الجنة، فترك المال الغزير الذى كان تحت يده، ولم يطمع فيه.. بل باع ما يمتلكه ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار..

ولم يطمع في كرسى الحكم، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبى - على قلة شأنه - إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام، ولم يطمع في استقرار عائلى أو اجتماعى أو أمن وأمان، فكرس حياته للجهاد والقتال، على صعوبته وخطورته، ولم يطمع في أن يمتد به العمر؛ فخرج بنفسه على رأس الجيوش ليحارب التتار في حرب مهلكة، ولا شك أنه يعلم أنه سيكون أول المطلوبين للقتل، ولا شك أنه يدرك كذلك أنه إذا لم يخرج بنفسه، وأخرج من ينوب عنه، فإنَّ أحدًا لن يلومه؛ لأنه الملك الذى يجب أن يُحافظ على نفسه لأجل مصلحة الأمة، لكنه اشتاق بصدق إلى الجهاد في سبيل الله، وتمنى الموت بين صليل السيوف وأسنة الرماح، وزهد في هذه الدنيا الفانية؛ فلم يتردد لحظة، ولم يجزع أبدًا، وكانت حياته تطبيقًا عمليًّا كاملاً لكلماته.. ولذلك أعطاه الله عز وجل الدنيا التى فرَّ منها، وأعطاه الكرسى الذى زهد فيه، وأمده بالغنائم الهائلة، والمال الوفير الذى لم يفكر في الحصول عليه أبدًا!!..

وهكذا عاش قطز رحمه الله عزيزًا شريفًا رافعًا رأسه، مُعِزًّا لدين الله، محبوبًا من شعبه، مرهوبًا من أعدائه...

لقد فقه قطز رحمه الله أن رزق العبد مكفول له قبل أن يولد، وأن نصيبه من المال والسلطة والملك سوف يصل إليه حتمًا، بل سيجرى وراءه حثيثًا.. ولذلك لم يُذِلَّ نفسه أبدًا، وكان دائمًا يعتمد على الذى بيده الرزق والأمر سبحانه، وأجْمَلَ في الطلب؛ فلم يخضع لإنسان مهما بلغت قوته، ولم يرهب جيشًا مهما كانت عدته، وفقه بعمق كلام رسول الله ﷺ الذى رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، والذى قال فيه:﴿أيها الناس، اتقوا الله وأجملوا في الطلب؛ فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفى رزقها، وإن أبطأ عنها.. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب.. خذوا ما حَلَّ، ودعوا ما حَرُمَ..﴾.

رحم الله هذا العلم الجليل، والقائد الفذ " قطز ".. الذى تعلمنا منه - ولا نزال نتعلم - كيف يعيش المسلم بالقرآن، وكيف تخالط كلمات الحبيب المصطفى ﷺ كل ذرة من كيانه.

ونسأل الله عز وجل أن يصلح آخرته كما أصلح دنياه، وأن يعزه أمام الخلق يوم العرض الأكبر، كما أعزه في عين جالوت، وأن يكتب اسمه في سجل الصادقين المخلصين المجاهدين، كما كتب اسمه في سجل الخالدين.. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

كان هذا هو السبب العاشر من أسباب النصر في هذه الموقعة الجليلة... فتلك عشرة كاملة.. وأسأل الله أن ينصر الإسلام والمسلمين (١).

دروس من عين جالوت:

سقط الجيش التترى في مستنقع أعماله..

لقد أفسد جيش التتار في الأرض إفسادًا عظيمًا، والله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين.. وبرغم أن جيش التتار جيش مُفسد إلا أنه سُلط على المسلمين فترة من الزمان (أربعين سنة تقريبًا)، وهُزم أمامهم المسلمون في مئات المواقع الحربية.. ثم دارت الأيام وتمت المعركة الهائلة عين جالوت، وانتصر المسلمون انتصارًا مبهرًا..

{وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠]

وهناك سؤالان قد يخطران على بال المحلل للأحداث، والمتدبر في مجريات الأمور..

وللسؤالين إجابة واحدة..

– **السؤال الأول هو**: كيف سُلّط جيش التتار الفاسد المفسد على أمة الإسلام وهى خير منه مهما خالفت المنهج، ومهما قصّرت في واجباتها؟!

– **السؤال الثانى هو**: جيش التتار الذى انتصر على المسلمين في كل المواقع السابقة هو نفس جيش التتار الذى هُزم في عين جالوت.. لماذا انتصر في السابق؟ وما الذى حدث حتى يهلك الجيش بكامله بهذه الصورة العجيبة؟!

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٣١٢ - ٣٢٩.

والإجابة على السؤالين نجدها في جزء من خطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الصحابى العظيم الملهم، وكان قد أرسل خطابًا إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه الذى كان يقود الجيوش الإسلامية المتجهة لحرب الفرس في موقعة القادسية..

يقول الصحابى الحكيم عمر رضى الله عنه يخاطب سعدًا رضى الله عنه:

" فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسًا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.. فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدّونا شر منا، فلن يُسلّط علينا، فرب قوم سُلّط عليهم مَن هو شر منهم، كما سُلّط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفارُ المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعدًا مفعولاً..

هذا جزء من رسالة الفاروق عمر رضى الله عنه، والتى تُعد من أنفس ما قال، ومن أعظم الرسائل على وجه الأرض.. والرسالة طويلة.. ودراستها في غاية الأهمية لبناء الأمة..

في هذا الجزء الذى ذكرناه يتضح لنا أن الله عز وجل أحيانًا يسلط الكفار والمفسدين على المسلمين إذا عمل المسلمون بمعاصى الله، فإذا التزم المسلمون بتقوى الله عز وجل وساروا على منهج ربهم ومنهج رسوله ﷺ انتصروا على الجيوش التى طالما انتصرت عليهم..

لم ينتصروا عليها لقوة جسد أو لكثرة عَدد أو لكفاءة عُدد، وإنما ينتصرون لارتباطهم بربهم، وبُعد أعدائهم عنه سبحانه..

من هنا نفهم لماذا سُلّط التتار أربعين سنة على المسلمين في الأرض..

ومن هنا نفهم لماذا انتصر المسلمون في عين جالوت على الجيش الذى دوّخ بلاد المسلمين عشرات الأعوام..

ومن هنا أيضًا نفهم أحداثًا كثيرة في التاريخ، وأحداثًا كثيرة في الواقع..

فإذا رأيتم يا إخوانى ضعفًا وخورًا وجبنًا واستكانة في جيوش المسلمين..

وإذا رأيتم تبعية لغرب أحيانًا، ولشرق أحيانًا أخرى..

وإذا رأيتم هوانًا في الرأي، وسقوطًا للهيبة، وذلة في كل الأحوال..

وإذا رأيتم موالاة لمن سفك دماء المسلمين، وتحالفًا مع من دمّر ديار المسلمين، وصداقة مع من شرّد ملايين المسلمين، واستعانة بمن خرّب اقتصاد المسلمين..

إذا رأيتم أن الأمة العظيمة الكبيرة الكثيرة قد أصبحت لا تساوى شيئًا في عيون أعدائها.. فيتطاول عليها أخس أهل الأرض، من إخوان القردة والخنازير، ومن عبّاد البقر، ومن عبّاد البشر، ومن الملحدين..

إذا رأيتم كل ذلك.. فاعلموا أن الأمة تعمل بمعاصى الله، وأن الأمة لا تتبع شرع الله.. وأن الأمة سقطت من عين الله.. وأن الله عز وجل - بنفسه - هو الذى يُسلّط عليها الفاسدين من اليهود والصليبيين والهندوس والشيوعيين وغيرهم..

أهذا شيء يدعو إلى الإحباط واليأس؟

أبدًا.. إنه يدعو إلى التفكر والتدبر والاستفادة من التاريخ والعمل..

وعين جالوت بين أيدينا.. وإلا فلماذا ندرس هذه الأحداث التاريخية التى مرّ عليها قرون وقرون؟!!

العودة إلى الله عز وجل ليست صعبة!!

مهما غرقت الأمة في معاصيها، ومهما ابتعدت عن كتاب ربها، ومهما ضلت طريقها، فإنها تعود إلى الله عز وجل في لحظة واحدة..

هذا إذا أرادت أن تعود..

هذا إذا أرادت أن تعيش..

بل هذا إذا أرادت أن تسود وتقود وترفع رأسها وتُعزّ شأنها..

مهما ابتعدنا عن الله يا إخوانى فإنه يقبلنا إذا عدنا إليه.. بل يفرح بنا - سبحانه وتعالى - إذا عدنا إليه..

روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :﴿لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ﴾..

فقط علينا أن نعود إلى الله.. وسنرى عين جالوت.. وألف عين جالوت..

هذا وحده إذن هو التفسير الشرعى للانتصار والهزيمة في الإسلام.. ينتصر المسلمون بارتباطهم بربهم، ويُهزمون ببُعدهم عن الشرع.. والله عز وجل لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.. (١).

مقتل المظفر قطز:

بالرغم من أن الخطر المغولى قد وحد صفوف المسلمين لمواجهته حينًا من الدهر، إلا أنَّ زوال هذا الخطر قد أعاد الخلافات إلى صفوف المسلمين إلى سابق عهدها، وعلى ما يبدو أن المماليك البحرية لم يغفروا للمظفر قطز قتله أستاذهم أقطاى فبدأوا - بعد زوال خطر المغول - يفكرون جديًّا في الأخذ بالثأر من المظفر قطز يقول ابن خلدون: " إنَّ البحرية من حين مقتل أميرهم أقطاي الجامدار يتحينون لأخذ ثأره وكان قطز هو الذى تولى قتله فكان مستريبًا بهم ولما سار إلى التتر ذهل كل منهم عن شأنه وجاء البحرية من القفر هاربين من المغيث صاحب الكرك فوثقوا لانفسهم من السلطان قطز أحوج ما كان إلى أمثالهم من المدافعة عن الإسلام وأهله نأمنهم واشتمل عليهم وشهدوا معه واقعة التتر على عين جالوت وأبلغوا فيها

(١) راغب السرجاني، قصة التتار، ص٣٠٤ - ٣٠٦.

والمقدمون فيهم يومئذ بيبرس البندقدارى وأنز الاصبهانى وبليان الرشيدي وبكتون الجوكندارى وبندوغار التركى فلما انهزم التتر من الشأم واستولوا عليه وحسر ذلك المد وأفرج عن الخائفين الروع عاد هؤلاء البحرية إلى ديدنهم من الترصد لثأر أقطاي... [١].

وكان بيبرس البندقدارى قد أبدي شجاعة نادرة في قتال التتار في عين جالوت، لا تقل عن شجاعة السلطان المظفر قطز نفسه، وكان يطمع في نيابة حلب، وطلبها بالفعل من المظفر قطز، الذى وعده بها، ولكنه عاد وحنث بوعده وضن عليه بها يقول الذهبي: " ودخل السلطان الملك المظفّر القلعة مؤيدًا منصورًا، وأحبّه الخلق غاية المحبَّة. وعبر قبله البُنْدُقدارى على دمشق، وسار وراء التتر إلى بلاد حلب، وطردهم عن البلاد. ووعده السّلطان بحلب، ثمّ رجع عن ذلك فتأثر رُكْن الدّين البُنْدُقدارى من ذلك. وكان مبدأ الوحشة [٢].

هذا الأمر جعل بيبرس يتنكر له، واتفق مع جماعة من الأمراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه، ثم وافته الفرصة أثناء عودة السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية.

وبالرغم من أنَّ " قطز " قد شعر بما يحاك ضده إلا أن سيف القدر كان أسرع من أن يأخذ حذره، يقول الذهبي: ونقل الصّاحب عزّ الدّين ابن شدّاد أنّ المظفَّر لمّا ملك دمشق عَزَم على التّوجُّه إلى حلب لينظّف آثار التّتار من البلاد، فوشى إليه واشٍ أنّ رُكْن الدّين البندُقدارى قد تنكّر له وتغيّر عليه: وأنّه عاملٌ عليك. فصرف وجهه عن قصْده، وعَزَم على التّوجُّه إلى مصر وقد أضمر الشّرّ للبُنْدُقداريّ. وأسرَّ ذلك إلى بعض خواصه، فاطّلع على ذلك البندُقداري... ثم ساروا والحُقُود ظاهرة في العيون والخُدود، وكلّ منهما متحّرس من الآخر. إلى أن أجمع ركن الدّين البُنْدُقدارى على قتل المظفَّر... [٣].

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ٥ / ٣٨٠.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٧٠/١.

(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤٧١/١ - ٤٧٣.

قال أبو المحاسن:

ثم إن الملك المظفر قطز رتب أمور الشام واستناب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى الكبير. ثم خرج المظفر من دمشق عائدًا إلى مصر إلى أن وصل إلى القصير، وبقى بينه وبين الصالحية مرحلة واحدة، ورحلت العساكر إلى جهة الصالحية وضرب الدهليز السلطانى بها وبقى المظفر مع بعض خواصه وأمرائه، وكان جماعة قد اتفقوا مع الأمير بيبرس البندقدارى على قتل الملك المظفر: منهم الأمير سيف الدين أنص من مماليك نجم الدين الرومى الصالحي، وعلم الدين سنجر، وسيف الدين بلبان، الهارونى وغيرهم، كل ذلك لكمين كان في نفس بيبرس، لأجل نيابة حلب. واتفق عند القصير بعد توجه العساكر إلى الصالحية أن ثارت أرنب فساق الملك المظفر قطز عليها، وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبق معه غيرهم، تقدم إليه الأمير بيبرس البندقدارى وشفع عنده شفاعة في إنسان فأجابه، فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها، وحمل أنص عليه، وقد أشغل بيبرس يده، وضربه بالسيف، ثم حمل الباقون عليه ورموه عن فرسه، ورشقوه بالنشاب فقتلوه، ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية، فنزلوا ودخلوا والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا، فقال: من قتله منكم، فقال بيبرس: أنا، فقال: يا خوند، اجلس على مرتبة السلطان.

أما قطز فإنه دفن في موضع قتله - رحمه الله تعالى - وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخه - رحمه الله تعالى - بعد ما سماه ونعته قال: وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعًا مقدامًا حازمًا حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضى عنه [١].

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير، وتم تتويج قاتله خلفًا له في مكان الاغتيال، وعلى ما يبدو أن سيف الدين قطز قد كانت له مهمة محددة في التاريخ، فما أن أنجزها حتى توارى عن الأعين والأحداث، بعد أن أتم دوره على أكمل وجه، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وتقبله الله في الشهداء.

* * *

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢ / ص ٢٧٣.

الفصل التاسع:
دولة الإيلخانات المغولية من الهمجية إلى الإسلام

للتذكير:

الحرب الأهلية المغولية وتقسيم الإمبراطورية المغولية:

كان جنكيزخان قبل وفاته قد قام بتقسيم إمبراطوريته المترامية الأطراف بين أبنائه الأربعة كالتالي:

١ - نال جوجى الابن الأكبر منطقة بلاد القبجاق، وتشمل المنطقة الممتدة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، ويطلق عليها اسم مغول القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي، وكان غالب سكان هذه المنطقة من الأتراك التركمان، ولما مات " جوجى " في حياة أبيه قرر جنكيز خان أن تكون هذه المنطقة من نصيب حفيده " باتو " (١).

٢ - نال جغتاى المنطقة الممتدة إلى الشمال والشمال الشرقى من نهر سيحون، وهى المنطقة الممتدة في آسيا الوسطى بما فيها بلاد خوارزم وبلاد ما وراء النهر وتركستان الغربية وبلخ وغزنة (٢).

٣ - أما أوكتاى فقد نال مناطق جبال تار باجاي، وأطراف بحيرة ألاجول وحوض نهر إيميل، الذى يصب في تلك البحيرة، ويقع غربى منغوليا (٣).

٤ - ونال تولوى منطقة بلاد فارس والجزيرة والعراق وآسيا الصغرى (٤).

(١) القلقشندى، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٨، المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥، بهيرة محمد غلاب مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق، ص ٤٠، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.

ولكن الوفاق بين الأخوة وأبناء العمومة لم يدم بين أعضاء البيت المغولى من خلفاء جنكيز خان، وكان الخلاف بين خلفاء جنكيز خان مثل كرة الثلج التى كانت تزداد يوما بعد يوم وكلما ارتقى العرش المغولى خان جديد، حتى كانت الحرب الأهلية المغولية التى وقعت في عام ١٢٦٠ م ونتج عنها انقسام الإمبراطورية التى أقامها جنكيزخان إلى أربعة دول مغولية رئيسية قامت بينها الحروب الطاحنة ولم يعد يجمع بينها جميعًا سوى الأصل المغولي، وتفاصيل ذلك - للتذكرة - بإيجاز نقول:

إنه بعد وفاة " جنكيز خان " ظل العرش خاليًا من ملك مدة عامين حتى أجمع الأمراء المغول الكبار على ضرورة التعجيل باختيار خان جديد، واتفقوا على انعقاد مجلس الشورى " القوريلتاى " وكانت القواعد والقوانين المغولية - التى وضعها جنكيز خان - تنص على أن يتولى العرش الابن الأصغر، وطبقًا لذلك كان " تولوى " هو الأحق بالعرش، ولكن أعضاء مجلس الشورى " القوريلتاى " أجمعوا الرأى على اختيار " أوكتاى " لما له من سابق خبرة وتجربة وملازمته لأبيه " جنكيز خان " والتعرف منه على إدارة سير المعارك وإدارة البلاد، ومن هنا بدأت الخلافات المغولية وبدأت تتكون الأحقاد والضغائن في النفوس، ولم يجد " أوكتاى " بدًّا من الموافقة، حيث تمت المبايعة والتنصيب في حضور إخوته وأعمامه وأبناء عمومته، في ربيع عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م (١).

وقد عهد " أوكتاى " بولاية العهد من بعده لابنه الثالث " كوجو " لأنه كان يؤثره بحبه، ولكن هذا الابن قد توفى في حياة أبيه، فاختار " أوكتاى " حفيده " شيرامون بن كوجو " وليًا للعهد بدلاً من أبيه، ولكن هذا الاختيار لم يكن على هوى زوجته " توركينا خاتون " التى كانت ترغب في تولية ابنها " كيوك " الذى كان آنذاك مشغولاً مع الجيش باجتياح أوربا الشرقية، فلما توفى " أوكتاي "، تولت " توركينا خاتون " مهام الحكم كوصية على العرش لحين عقد القوريلتاى لانتخاب الخان الجديد، وهنا بدأت تظهر أطماع الطامعين في عرش المغول، وتنافس عليه المتنافسون، وبدأت الاختلافات

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ١٦ - ١٧، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٢٩.

والخلافات المغولية تطفو جلية بين أبناء البيت المغولي، ولكن " توركينا خاتون " كانت لديها التصميم على تولية ابنها كيوك العرش، فبذلت قصارى جهدها لتحقيق تلك الغاية، وعلى مدى أربع سنوات - هي مدة وصايتها للعرش - عملت على اجتذاب الأقارب والأمراء بأنواع التحف والهدايا، حتى ضمت الأغلبية إلى صفوفها، وصاروا رهن إشارتها، ومن عارضها، أو كانت له أطماع في العرش عملت على التخلص منه، فعملت على عزل الأمراء وأركان الدولة ممن يتقلدون المناصب الكبرى في عهد " أوكتاي "، وكان من بين هؤلاء " جينقاى " الوزير الأعظم للخان، و" محمود يلواج " صاحب الديوان، وعزل " كوركوز " حاكم إقليم خراسان من قبل ا لمغول، وتم إعدامه، وحل محله حاكم مغولى آخر هو " أرغون " (١).

وعندما تأكدت " توراكينا خاتون " من أنها أصبحت تملك الورقة الرابحة، ووجدت أن الظروف كلها مهيأة لنجاح خطتها، أرسلت الرسل إلى كبار الشخصيات المغولية في جميع الأطراف والأمصار لحضور جلسة " القوريلتاى " التى سوف ينصب فيها كيوك رسميًّا خانًا أعظم، كما وجهت الدعوة أيضا إلى السلاطين والأمراء والعظماء في جميع النواحي.

وفى العام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م انعقد القوريلتاى وتم انتخاب كيوك (٦٤٤ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٦ - ١٢٤٩ م): خانًا أعظم للمغول، على أن يكون المنصب وراثيًّا في أولاده وأسرته من بعده، ولقد جاء انتخاب " كيوك " على غير هوى " باتو بن جوجى " الذى كان يعارض هذا الاختيار، ولم يكن في الأصل يرضى عن سياسة سابقيه من الخاقانات الذين كانوا قد انفتحوا على الديانات الأخرى، وسمحوا للنصرانية أن تنتشر بين صفوف طبقات المغول المختلفة، فباتوا - كجده جنكيزخان وعمه أوكتاى - لم يكن يميل إلى أية من الديانات المنتشرة في إمبراطورية المغول، إذ كان ملتزمًا التزامًا لا يتزحزح عن عقيدة أجداده الشامانية، التى يتعبدون فيها الإله والواحد، ولكنهم في الوقت نفسه يعتبرون الشمس والقمر والأرض كائنات سامية

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٩٦.

يتوجهون إليها بالصلوات ويقدمون لها الأضاحي. وكان باتو بصفة عامة يتخذ موقفًا عدائيًّا من " كيوك خان "، ومن أسرة " أوكتاى " بصفة عامة (١).

وبعد انتخاب " كيوك خان " كان العالم ينتظر صدامًا مسلحًا بينه وبين باتو، فقد كان كل منهما يستعد للحرب، وتقدما ليلاقى أحدهما الآخر، ولكن " كيوك خان " مات فجأة في إبريل عام ١٢٤٨م / ربيع الثانى ٦٤٧ هـ، أما والدته " توراكينا خاتون " فقد توفيت قبله بعدة أشهر (٢).

بعد وفاة " كيوك خان " المفاجئة، تولت أرملته " أقول قيمش " الوصاية على العرش، وتولت مهام الحكم لحين انتخاب خان جديد طبقًا لرسوم وعادات الحكم المغولية، وكان الاتجاه السائد هو أن يتولى العرش بعد كيوك خان أحد من أصلابه أو على الأقل من أسرته ولا يتعداها، وعلى ذلك فكانت " أقول قيمش " ترغب في أن يتولى المنصب " شيرامون " ابن أخى كيوك خان، وذلك تنفيذًا للعهد الذى قطعه الأمراء ورجال الدولة لكيوك خان في حياته على أن يكون الحكم وراثيًا في أسرته من بعده، ولكن هذا الاتجاه وجد معارضة شديدة من كثير من الأمراء المغول، لصغر سن " شيرامون " وقلة خبرته، وذهب الاتجاه إلى تولية أحد الأميرين: منكو بن تولوي، أو باتو بن جوجي، وكان كلاهما من كبار الأمراء وأعظم الشخصيات المغولية على الساحة السياسية، وسبق أن اشتركا معا في اجتياح روسيا وشرق أوربا، وكانت بينهما مودة وصداقة كبيرة فضلاً عن العمل العسكرى المشترك (٣).

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٨.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٩ - ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٩٨.
(٣) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٠٧.

على كل حال بعد وفاة كيوك خان أراد أبناء كيوك خان أن يولوا شيرامون المنصب من بعده ولكن هذا الأمر كان يتطلب موافقة " باتو بن جوجي "، كبير الأسرة المغولية الحاكمة سنًّا ومقامًا بينهم - الذى كان معارضًا في الأصل لتولية كيوك خان -، فلما تمت الدعوة لعقد القوريلتاى وتنصيب الخان الجديد، لم يعقد المجلس في منغوليا كما هو المعتاد منذ أيام جنكيزخان، ولكن عقد في بلاد القبجاق، لأن باتو بن جوجى - الذى كان يقيم في بلاد القبجاق في آسيا الوسطى - اعتذر عن الحضور إلى منغوليا لطول ومشقة السفر، ووجه الدعوة لعقد المجلس في بلاد القبجاق، فوافاه الجميع إلى هناك - رغم المعارضة الشديدة لأبناء أوكتاى وجغتاى اللذين أنابوا عنهم في الحضور - حيث تم انتخاب " منكو " ليتولى عرش الخان المغولي، لينتقل العرش المغولى إلى أولاد " تولوى " الذين يمثلون الفرع الثانى من أسرة جنكيزخان.

وقد وجد هذا الاختيار معارضة شديدة من جانب أبناء جغتاى وأوكتاى وكثير من الأمراء المغول، خاصة أولئك الذين كانت لهم أطماع في ولاية العرش المغولي، وأعلنوا بطلان هذا الاختيار لأنه لم يعقد في قراقورم كما تقتضى الرسوم والعادات المغولية التى وضعها جنكيزخان، واحتدم النزاع بين الجانبين وكاد يحدث نزاعًا مسلحًا، لولا أن حزب " باتو بن جوجى " و " منكوخان " نزلوا على رغبة هؤلاء المعارضين وقرروا عقد مجلس القوريلتاى في قراقورم في منغوليا، حيث أعيد انتخاب منكو خان من جديد رغم أنف المعارضين، وأعلن ذلك الاختيار رسميًّا في شهر ذى الحجة ٦٤٨هـ / إبريل ١٢٨٠م.

وبالرغم من ذلك فإن كثير من أمراء المغول لم يرتضوا بهذا الاختيار وسعوا إلى إزاحة منكوخان بالقوة من المنصب، فعملوا على تدبير المؤامرات والدسائس لقلب نظام الحكم، ولكن شاءت الأقدار أن يكتشف منكوخان ما كان يبيت له بليل، وما يحاك له في الظلام، وفى الوقت المناسب ألقى القبض على المتآمرين وزج بهم في غياهب السجون، ثم ما لبث بعد

قليل أن أمر بضرب أعناق هؤلاء المتآمرين ليصفوا له الحكم(١).

ثم كانت وفاة منكوخان المفاجئة التى كانت في سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م مما أطمع الكثير من أمراء البيت المغولى في العرش المغولي، ومن أجل ذلك قرر قوبيلاى العودة إلى منغوليا على أمل أن ينال المنصب الذى أصبح شاغرًا بوفاة أخيه (٢).

وبعد وفاة منكوخان المفاجئة دارت حرب أهلية شعواء على كرسى العرش المغولي، وتفاصيل ذلك أن منكو خان كان له أخ أصغر يدعى " أريق بوكا " وكان يحبه ويقربه إليه، وكان يفوض إليه حكم البلاد في أثناء خروجه في الحملات العسكرية الخارجية، بل إن منكو خان كان يرغب في أن يخلفه على عرش المغول، فلما مات " منكو" أعلن " أريق بوكا " نفسه خانًا أعظم للمغول، ووجد في ذلك المساندة الكبيرة من جانب المحيطين به والمقربين منه ومن أخيه الخان السابق (٣).

ولكن هذا الأمر قد أغضب " قوبيلاى " ولم يوافق عليه، ورأى أنه هو الأجدر لتولى هذا المنصب، وكان مستعدًا لخوض حرب ضروس حتى وإن كانت مع أخيه من أجل عرش الخانية المغولية، وعقد مجلسًا لكبار رجال الدولة وأمراء الحرب الذين كانوا في جيشه في مدينة " كى مينج فو " إحدى مدن الصين الشمالية، وأعلن بعد هذا الاجتماع خلع أخيه، ونصب نفسه خانًا أعظم على عرش المغول وزاد على ذلك أنه جعل من نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين، وأشهد على ذلك الحاضرين وبعث بذلك إلى الآفاق (٤).

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٢٩٦ - ٢٩٧، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢١٦.

(٣) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٣ / ٥٣١، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢١٦.

(٤) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٣٩١.

هذه الخطوة من جانب " قوبيلاى " قد أغضبت كثيرًا من الأمراء المغول في منغوليا، واعتبروها خروجا على العادات والتقاليد المغولية، وتجاوزا لقوانين جنكيز خان التى وضعها والتزم بها السابقون، وذلك لعدة أمور: أولاً لأن الاجتماع الذى عقد لم يكن له صفة الشرعية لعدم حضور أفراد ممثلين عن جميع فروع الأسرة الحاكمة، كما أنه عقد بعيدًا عن المقر الرئيسى لدولة المغول في منغوليا، وثانيًا لأن " قوبيلاى " أعلن عن نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين، ورأوا في ذلك خروجًا على قوانين جنكيز خان وعادات الأسرة الحاكمة، وأصبح العداء سافرًا بين الجانبين وإيذانًا بالدخول في حرب عائلية من أجل عرش المغول.

وبعد تزايد شقة الخلاف بين الأخوين، أصبحت الحرب بينهما هى الحل الوحيد لإثبات عرش المغول لأحدهما، وجاءت الخطوة الأولى من جانب " قوبيلاى " الذى تحرك بقواته تجاه منغوليا سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م حيث التقى مع أخيه وأوقع به الهزيمة النكراء ودخل العاصمة قراقورم عنوة، وألقى القبض على أخيه وزج به في غياهب السجن وظل به حتى مات سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٣م، وارتقى قوبيلاى عرش المغول، وقد أيد هولاكو أخاه قوبيلاى في هذه الحرب بدافع من الود الذى كان يربط بينهما، وكان ذلك التأييد من جانب هولاكو هو الذى رجح كفة " قوبيلاى " على أخيه الآخر [١]

وكانت الحرب بين قوبيلاى وأخيه " أريق بوكا " هى إحدى صور الحرب الأهلية المغولية، فالتحالف بين " قوبيلاى " و " هولاكو " قد قابله تحالف آخر بين أريق بوكا وبركة خان الذى خلف أباه باتو في حكم القبيلة الذهبية [٢] سنة ١٢٥٦ م، ولعل الذى دفع بركة خان إلى التعاون مع أخيه أريق بوكا هو أنه كان قد اعتنق الإسلام قبل أن يتولى العرش وكان كارهًا لحملة هولاكو على العالم الإسلامى وحاول بشتى الطرق إيقافها ولكنه لم يتمكن من هذا، كما أن قوبيلاى كان قد منح أخاه هولاكو منطقة القبجاق

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) سوف يتم بإذن الله الحديث عن هذه القبيلة وتاريخها بالتفصيل في الفصول اللاحقة.

(القوقاز وجنوب روسيا) وهى المنطقة التى كان يسيطر عليها بركة خان، مما أوجب العداء بين الفريقين.

وبعد انتهاء الحرب الداخلية بين قوبيلاى وأريق بوكا زاد التوتر بين بركة خان سلطان القبيلة الذهبية وهولاكو زعيم إمبراطورية الإيلخانات المغولية في فارس والعراق، حيث لم يكن " بركة خان " مستعدًا للتنازل عن أملاكه في مناطق جبال القبجاق لصالح هولاكو خان نزولاً على رغبة الخان المغول قوبيلاي، فدارت بين هولاكو وبركة خان حرب ضروس، بدأها هولاكو بمهاجمة حدود بلاد القبجاق في سنة ١٢٦٠ م، ولكن قوات بركة خان تصدت لقوات هولاكو وردته على أعقابه، ثم إن بركة خان قد أصدر أوامره لجنوده المشاركين لقوات هولاكو في الهجوم على مصر بالانسحاب من جيش هولاكو والانضمام إلى القوات المصرية والقتال إلى جوارها ضد القوات المغولية، وأعلن بركة خان بهذا التصرف مساندته العلنية لقوات المصريين ضد المغول، وربما كانت هذه المساندة هى السبب المباشر في هزيمة المغول في عين جالوت (١).

وقد استمرت الحرب الأهلية الداخلية المغولية حتى سنة ١٢٦٠ م، وكانت لها نتائجها الخطيرة، فقد انفصلت بلاد ما وراء النهر، نظرًا لأوضاعها عن البلدين المتحالفين معًا، الصين التى كانت تحت حكم قوبيلاى خان والإيلخانات في فارس والتى كانت تحت حكم هولاكو وأسرته من بعده، في حين وجدت القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق نفسها - بسبب العداء من مغول فارس والصين - خارج نطاق اتحاد الممالك المغولية، وهذا ما سيجبرنا على دراسة تاريخ هذه الأسر أو الدول المغولية بصفة منفصلة عن بعضها البعض، إذ لم يعد يجمع بينها سوى الأصل المغولى فقط، أما الصين مركز إمبراطورية الخانات الكبار، فقد عرفت تطورًا سيطرت عليه مع مرور الأيام مصالح الصين، ولا يمكننا إلا اعتباره جزءًا من تاريخ الإمبراطورية الصينية.

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٢.

وعليه فلا يمكن الحديث عن تاريخها لأنها بذلك أصبحت خارج نطاق تاريخ المغول. (١)

دولة الإيلخانات المغولية في فارس والعراق:

هولاكو (١٢٥٨ - ١٢٦٥ م):

كان جنكيز خان قبل وفاته قد قسم إمبراطوريته المترامية الأطراف بين أبنائه الأربعة، وكان منطقة بلاد فارس والجزيرة والعراق وأرمينيا وآسيا الصغرى من نصيب تولوى بن جنكيز خان وأبنائه من بعده، ولما توفى تولوى ورث ابنه هولاكو (١٢٥٨ - ١٢٦٥ م) من بعده أملاكه، وقد عمل هولاكو على توسيع وتدعيم سيطرته في المناطق الإسلامية في فارس ومنطقة العالم الإسلامي، واتخذ من مدينة تبريز عاصمة لدولته، وقد ساعده على ذلك علاقته الجيدة مع خان المغول الأعظم قوبيلاى (١٢٦٠ - ١٢٩٤م) وتعاونا معًا في إسقاط الخلافة العباسية وتدمير بغداد، وقد منح قوبيلاى هولاكو لقب خان في حكم إقليم فارس وجعل له ولسلالته الحكم وراثيًا في هذا الإقليم، ولذا فقد انطلق هولاكو نحو البلاد الإسلامية يعيث فيها فسادًا وقتلا وتشريدًا وينشر الرعب والفزع بين المسلمين، ولم يرد تلك الهجمة المغولية سوى انتصار المسلمين في موقعة عين جالوت ورد المغول على أعقابهم، كما أن هولاكو - قبيل معركة عين جالوت - انشغل بأمور الوراثة في البيت المغولي، وانشغل أيضًا بمشاكله مع مغول القبيلة الذهبية الذين اعتنقوا الإسلام. ولكنه على الرغم من ذلك كان يمتلك القوة العسكرية التى أخافت جيرانه المسلمين والنصارى على حد سواء، فقد كان الأرمن والصليبيين في أنطاكية، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ودولة الكرج (جورجيا)، ثم الإمبراطورية البيزنطية بعد ذلك تعمل له ألف حساب وتسعى لاسترضائه، كما أنه سعى لإقامة حلف قوى ضد المسلمين بأن طلب الزواج من ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٥٨ - ١٢٨٢ م) الذى شرع بالفعل في إرسال إحدى بناته غير الشرعيين ليتزوج بها خان المغول وهى ماريا. ولكن جاءت وفاة هولاكو المفاجأة لتؤخر ذلك التحالف الذى سوف يتم في عهد خلفه،

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٧ - ٥٨.

حيث مات هولاكو في مدينة أذربيجان في الثامن من فبراير عام ١٢٦٥م [1]

دولة الإيلخانات المغولية فارس والعراق

(١) محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٧١.

أباقا خان - أبغا - (١٢٦٥ - ١٢٨٢ م/ ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ):

علاقة أباقا خان بالصليبيين:

كانت وفاة هولاكو لحظة فارقة في تاريخ مغول فارس والعراق، وكان له الأثر الكبير في إضعاف المغول وكسر شوكتهم، وقد نجحت طقز خاتون - زوجة هولاكو - في أن تحتفظ بالعرش في إقليم فارس لابنها أباقا، ثم ماتت بعده بوقت قليل، ولكن بعد أن ضمنت أن يكون العرش لابنها من بعد أبيه هولاكو، وكان أول شيء فعله أباقا أن تزوج من مارية البيزنطية، والتى عرفت في البلاط المغول باسم ديسبينا خاتون.

وقد شجع ذلك الغرب الأوربى وعلى رأسه البابوية، فأرسل البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥ - ١٢٦٨ م) إلى أباقا خان يعرض عليه التحالف ضد المماليك في مصر والشام، ولكن أباقا كان مشغولاً بحروبه مع القبيلة الذهبية ولذلك لم يقدم سوى وعودًا غامضة، كما انشغل بحرب أخرى بعد قليل مع أبناء عمومته من آل جغتاي، الذين أغاروا على أملاكه الشرقية سنة ١٢٧٠م، وفى العام نفسه وبعد أن انتهى من مشاكله مع أبناء عمومته وهزيمتهم، فكر أباقا في التحالف مع لويس التاسع، وتعهد بأن يقدم ا لمساعدات الحربية إذا وصل لويس بحملته إلى الشام، ولكن لويس لم يتقدم بحملته إلى الشام، بل وجه حملته إلى تونس حيث مات هناك، ففشل هذا المشروع، وكان لويس قد اتفق مع الأمير الإنجليزى إدوارد أن يتوجها بحملة صليبية معًا، فلما مات لويس كان إدوارد موجودًا في صقلية، فأبحر إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا في التاسع من مايو ١٢٧٠ م.

ولما وصل إدوارد إلى عكا طلب المعونة العسكرية من الخان المغولي أباقا خان، وفى ذلك الوقت كانت القوات المغولية مشغولة بالحرب في التركستان، ولذلك فقد أرسل إلى في منتصف أكتوبر ١٢٧١م عشرة آلآف فارس مغولى من قواته المتمركزة في الأناضول، فتقدمت هذه القوات نحو مدينة عين تاب ثم منها إلى حلب، فتراجعت الحامية المملوكية تاركة المدينة، فتقدمت القوات المغولية حتى وصلت معرة النعمان، ولكن سرعان ما تراجعت من حيث أتت بعد أن علمت تلك القوات، أن القوات المغولية قد أعدت العدة للقائها فآثرت التراجع مؤثرة السلامة، في حين لم يجد

الأمير إدوارد - بعد أن تخلى عنه المغول - بُدًّا من العودة من حيث أتى بعد أن قام ببعض المناورات العسكرية في ضواحى عكا (١).

علاقة مغول فارس والعراق بالظاهر بيبرس والمماليك:

لم تكن قوة مغول فارس والعراق العسكرية فقط هى التى يخشاها الظاهر بيبرس، بل إن القوة العسكرية تلاشى تأثيرها بعد هزيمتهم في عين جالوت، ولكن الخطر الأكبر الذى كان يتهدد العالم الإسلامى وليس المماليك وحدهم هو إمكانية حدوث تحالف بين المغول والصليبيين، ولعل الباعث على ذلك تلك المحاولات المتكررة من جانب كلا الطرفين لإحداث هذا التحالف ضد المسلمين، فقد أرسل أباقا بن هولاكو (١٢٦٥ - ١٢٨٢ م) سفراء إلى البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٧ م، وإلى الملك جيمس الأول ملك أراجون بعدها بسنتين، وإلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤م يقترح القيام بحملات مشتركة ضد دولة المماليك عدوهم المشترك. كما أن البابا نيكولاس الرابع التقط الفكرة وخاطب المغول في شأن التحالف، بيد أن الأمر لم يتعد حدود تبادل السفارات والمفاوضات (٢).

ولمجابهة هذا الخطر الماثل، تحالف بيبرس مع مغول القبيلة الذهبية وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذى اعتنق الإسلام وصار حربًا على بنى جنسه مغول فارس. ويظهر ذلك بوضوح في الرسالة التى بعث بها إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٣ م يقول فيها: " فليعلم السلطان أننى حاربت هولاكو الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصبًا لدين الإسلام " (٣).

وقد رد بيبرس على رسالة بركة خان بسفارة تحمل خطابات الود والهدايا الثمينة، وقد نقل من كانوا في سفارة بيبرس إلى بركة خان أنهم شاهدوا في بلاط بركة خان إمامًا ومؤذنًا خاصًّا لكل أمير، أو أميرة، في بلاط بركة خان، وأنهم شاهدوا الأطفال يحفظون القرآن ببلاد القبجاق (٤).

---

(١) محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٧٢، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٦١.
(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٨.
(٣) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٥.
(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٧٠ - ١٧١، العيني، عقد الجمان، ١ / ٣٣٦٠ - ٣٣٦٣،

وكان هذا التحالف مع بركة خان أحد الخطوات الهامة التى اتخذها بيبرس لتقوية حدود دولته ضد المد المغولى الفارسي، وشملت هذه الخطوات تقوية حدود دولته على طول خط المواجهة مع المغول وبالقرب من نهر الفرات، كما عمل على إفساد الطرق والوديان المؤدية إلى الشام والتى يمكن أن يسلكها المغول في هجماتهم على الشام، وحتى لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يقتاتون به أو ما يصلح كعلف لدوابهم.

كانت هذه التدابير الاحترازية التى اتخذها الظاهر بيبرس سببًا مباشرًا في تضاؤل خطورة هجمات مغول فارس عما كانت عليه في السابق، كما أنها اتسمت بالرعونة والتسرع، وافتقدت إلى الشمول والعنف الذى ميز الهجمات المغولية التى سبقت معركة عين جالوت.

وعن العلاقة العسكرية بين مغول فارس والعراق والظاهر بيبرس نجد أنها قد بدأت مبكرًا، منذ اغتيال المظفر قطز، إذ ظن مغول فارس أن اغتيال قطز سوف ينتج عنه اضطراب في أركان الدولة المملوكية الوليدة، لذا نجد أنه لم يمر وقت طويل على تولى الظاهر بيبرس السلطنة حتى أغار المغول على أطراف مملكته في الشام، ففى العام ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م أغار مغول فارس على قلعة البيرة الهامة الواقعة على ضفاف نهر الفرات، وحاصرت القوات المغولية حاميتها العسكرية بغية الاستيلاء عليها، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إذ إنهم بمجرد رؤيتهم للقوات التى أرسل بها الظاهر بيبرس - نجدة لتلك المدينة - إلا سارعوا بالفرار، ومع ذلك فإن الظاهر بيبرس قد عمل على تحصين مدينة البيرة وزودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عشر سنوات كى تظل شوكة في جنب المغول في الجبهة الشرقية (١).

وفى عام ١٢٦٥م / ٦٦٣ هـ مات هولاكو زعيم مغول فارس، غير أن وفاة الأشخاص في دولة فتية مثل الدولة المغولية، لم يؤثر مطلقا في عزم التتار على تحقيق ما بدأه هولاكو من التقدم نحو غزو دولة المماليك في مصر والشام، ولم توقف وفاة هولاكو تيار العداء المتبادل بين سلاطنة المماليك في مصر والشام وبين مغول فارس والعراق، بل إن الخان الجديد لدولة مغول فارس والعراق أباقا خان (١٢٦٥ م

النويري، نهاية الأرب، ٣ /١٠٥ - ١٠٦.

(١) المقريزي، السلوك، ١ /٥٢٣ - ٥٢٥.

- ١٢٨٢ م / ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ) كان حريصًا على دعم علاقاته بالقوى المسيحية والصليبية المعادية ليس لدولة المماليك فحسب بل للمسلمين جميعًا، بقصد تطويق العالم الإسلامى عامة، فكان يعطف على المسيحيين ويتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوربا. وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هى تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والاستيلاء على بيت المقدس، وقد ظهر أثر هذا التحالف واضحًا عندما انتهز أباقا خان فرصة انشغال بيبرس بمحاربة الصليبيين للإغارة على الحدود الإسلامية. مثال ذلك ما حدث سنة ١٢٦٦ م عندما أغارت الجيوش المغولية على مدينة الحبة على الحدود الفراتية، في الوقت الذى كانت فيه جيوش بيبرس تهاجم مدينة صفد الصليبية (١).

ولكن على الرغم من هذا الجو العدائي، فإنه يبدو أن أباقا خان حاول أن يجرب الصلح مع بيبرس على شروط تلائم المغول فقط، أو بمعنى آخر حاول أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل إلى الظاهر بيبرس رسالة سنة ١٢٦٨ م يعرض عليه فيها الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ مثل قوله: " فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحًا " (٢). غير أن هذه اللهجة المغولية الآمرة في طلب الصلح لم تعجب بيبرس فرد على الرسول المغولى بقوله: " أعلم أن وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض " (٣).

وعلى ما يبدو أن فشل المحاولات الدبلوماسية قد ترتب عليه سياسة عدوانية من جانب مغول فارس والعراق تجاه دولة المماليك، ففى سنة ١٢٦٩ م اتفق المغول مع الصليبيين وشنت قوات أبغا - أباقا - هجومًا على المناطق القريبة من حلب، وحين أسرعت القوات المصرية تحت قيادة السلطان إلى بلاد الشام انهزم المغول وارتدوا عن هذه المناطق. وفى سنة ١٢٧١ م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين

(١) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٦.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٧٤، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٦.
(٣) العيني، عقد الجمان، ١ / ٥٤٩، نقلاً عن العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٦.

في بلاد الشام ولكن كانت الهزيمة من نصيب المغول في المنطقة القريبة من حران، بالرغم من أنَّ الصليبيين حاولوا التخفيف من عبء هجوم المسلمين على المغول بالهجوم على بعض الحصون العربية في بلاد الشام، فكانت الهزيمة من نصيبهم هم أيضًا (١).

وفى سنة ١٢٧٢ م توجه بيبرس لملاقاة مغول فارس والعراق على أرضهم، فحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع بيبرس وجنوده من عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضى العراقية سنة ١٢٧٣ م. ويبدو أن نجاح بيبرس في هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه، إذ يروى مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا خان نكب أسرة الجوينيين الذين كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس، والاتفاق معه على تسليم العراق له، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا ملك الجوينى حاكم العراق، وأخوه الخواجة شمس الدين محمد وزيره، وأبناؤهما، وكلهم أهل فضل وأدب، وأرباب جود وكرم، وكانت مجالسهم محط رجال الأدب والكتاب والشعراء ومناط آمالهم. وبذلوا ما في وسعهم لتعمير ما خربه المغول، ولم يتأخروا على تنفيذ كل ما هو نافع وصالح (٢).

على أن الصراع بين دولتى مغول فارس والمماليك لم يقف عند هذا الحد، إذ سرعان ما انتقل إلى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى في الشمال، والسبب في هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدود بلاده الشرقية، أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها إلى هولاكو، وكانت مقاليد الحكم فيها بيد الوزير معين الدين سليمان البرواناه - البرواناه لفظ فارسى معناه الحاجب -.

وكان هذا البرواناه يعمل إلى جانب أصحاب السيادة في بلاده وهم المغول، فلما تغلب بيبرس على المغول، مال البرواناه إلى جانب المنتصر وأخذ يراسل بيبرس

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٥٨٤ - ٥٨٥، النويري، نهاية الأرب ٣ / ١٨٧ - ١٨٩.
(٢) العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

معلنًا انضمامه إليه، فتقدم بيبرس بجيوشه إلى آسيا الصغرى، وانتصر على الجيوش المغولية انتصارًا ساحقًا عند بلدة أبلستين أو أبلستان[١] سنة ١٢٧٧ م / ٦٧٥ هـ، إذ فقد من المغول في تلك المعركة من ٧٠٠٠ نفس. ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الأهالى استقبالاً رائعًا، ثم عاد بيبرس إلى الشام.

ولما علم أباقا خان بما حل بجيشه في الأناضول، سارع إلى ميدان المعركة في أبلستين، ويقال أنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، ثم صب جام غضبه على أهالى البلاد فقتل منهم عددًا كبيرًا لترحيبهم بسلطان مصر، كما أمر بقتل البرواناه أيضًا بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه؛ لأنه كان السبب في هذه الكارثة[٢].

ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسميًّا، ولكن ربما كان السبب في ذلك أن بيبرس في ذلك الوقت تولاه التعب والمرض بدليل أنه مات في نفس تلك السنة[٣]، بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ١٢٧٧ م/ ٦٧٦ هـ [٤].

وعلى مايبدو أن أباقا - أبغا - لم ينس هزيمته المدوية في معركة الأبلستين [٥] أمام قوات المماليك، وسعوا للانتقام من هزائمهم المتكررة أمام المماليك، وأراد استغلال انشغال السلطان قلاوون بالمسائل الداخلية وكثرة تغير السلاطين وتفرق كلمة أولى العقد والحل داخل الدولة المملوكية، وظن أن أعداء السلطان قلاوون أمثال سنقر الأشقر ومن على شاكلته سوف يقدمون له يد العون في حرب المماليك

---

(١) مدينة تركية في قضاء مرعش، تقع في سهل أحرز فيه السلطان الظاهر بيبرس نصرًا عظيمًا على جيوش المغول سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م. وتدعى اليوم (آل بستان). تعريف بالأعلام الواردة في البداية والنهاية لابن كثير، ١/ ٣.

(٢) تاريخ ابن الفرات، ٧/ ٨٤ - ٨٥، نقلاً عن، العبادي، قيام دولة المماليك الأولي، ص ٢٣٨.

(٣) تاريخ ابن الفرات، ٧ / ٨٥ - ٨٧.

(٤) العبادي، قيام دولة المماليك، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٥) أبلستين: مدينة تركية في قضاء مرعش، تقع في سهل أحرز فيه السلطان الظاهر بيبرس نصرًا عظيمًا على جيوش المغول سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م. وتدعى اليوم (آل بستان).

والمنصور قلاوون، ولذا فإنه أراد نجاح حملته بعمل تحالف ثلاثى الأبعاد فقام بالتحالف مع صليبيو الشام هذه المرة، وتم التخطيط لكى تخرج قوات الصليبيين وأتباع سنقر الأشقر لمقاتلة المماليك في ثلاث جبهات.

وبالفعل خرج قوات المغول في ثلاث فرق: الأولى سارت من جهة الروم بقيادة صمغار وتنجى وطرنجي، والثانية من جهة الشرق بقيادة بيدو بن طوغاى بن هولاكو وفى صحبته صاحب ماردين، أما الفرقة الثالثة وفيها معظم الجيش فسارت مع منكوتمر بن هولاكو، وبلغ عدد الجيش المغولى خمسين ألف فارس ومعهم صاحب سيس والأرمن، فلما علم المسلمون بهذه الحشود استعدت قواتهم وخرج الأمير ركن الدين إياجى على بعساكر دمشق وانضمت إليه العساكر المحاصرة لشيزر (وكانت تابعة لسنقر قبل الاتفاق وتسوية الخلافات بينه وبين السلطان قلاوون) ثم سارت القوات المصرية بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمى واجتمعت هذه القوات في ظاهر حماة، وراسلوا الأمير سنقر الأشقر من أجل إخماد الفتنة وتوحيد الكلمة والوقوف في وجه العدو (المغول)، فاستجاب لهم وأمدهم بعساكر كانت معه في حصن صهيون.

ولما علم الناس بمقدم القوات المغولية وقصدها بلاد الشام وقع بينهم الفزع والهرج والمرج، - والناس مازالوا حديثى عهد بهجمات المغول المدمرة وإسقاط الخلافة وقتل الخليفة - وشاعت بينهم الفوضى وشرع الناس في الهرب من بلاد الشام إلى الديار المصرية، ثم تحركت القوات المغولية وهاجمت أعمال حلب في الحادى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٧٩هـ / أكتوبر ١٢٨٠ م، واستولوا على عين تاب وبغراس ودربساك، ثم دخلوا مدينة حلب - وكانت خالية من العساكر - بدون مقاومة، فقتلوا الناس ونهبوا البلد وأحرقوا الجوامع والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء وأقاموا بها يومين يكثرون الفساد والقتل بحيث لم يسلم منهم إلا من اختفى في المقابر ثم تركوها وخرجوا يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ٦٧٩ هـ / أكتوبر ١٢٨٠ م وعادوا إلى بلادهم محملين بالأسلاب والغنائم [(١)].

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٦٩٠ - ٦٩٣، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١١٨، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ١١٤.

أما عن الأسباب التى أدت إلى رجوع التتار عن بلاد الشام وانسحابهم من حلب قبل خوض المعركة ضد المماليك، من المحتمل أن يكون اتفاق الأمير سنقر مع السلطان قلاوون على نبذ ما بينهما من خلافات واتفاقهما على قتال المغول معًا، كما أن المؤرخون ذكروا أن بعض من كان قد استتر عن أعين المغول في حلب قد خشى على الإسلام والمسلمين، واستجمع شجاعته وصعد مئذنة الجامع وكبر بأعلى صوته على التتار: " جاء النصر من عند الله " وأشار بمنديل إلى جيش المسلمين وأخذ يقول في خلال ذلك: اقبضوهم من البيوت كالنساء. فتوهم التتار من ذلك وخافوا ورجعوا وخرجوا من حلب على وجوههم، ولعل من أقوى الأسباب لفرارهم من حلب هو علمهم بوصول السلطان بقواته من مصر لقتالهم [١].

وكان السلطان المنصور قلاوون قد جمع العساكر في مصر وأنفق في كل أمير ألف دينار وفى كل جندى خمسمائة درهم واستخلف على مصر ابنه الملك الصالح عليّ وسار إلى غزة، وظل بها حتى العاشر من شعبان سنة ٦٧٩ هـ / ديسمبر ١٢٨٠ م فلما علم بهروب المغول وتعجلهم في العودة إلى بلادهم وعاد إلى مصر مرة ثانية [٢].

وبعد فرار التتار من وجه القوات المصرية، فإن السلطان قلاوون لم يفوت الفرصة وأراد محاسبة الصليبيين على مساعدتهم للتتار في دخولهم حلب واستغلالهم انشغال المماليك بالتصدى لخطر التتار ومهاجمة الثغور والحدود الإسلامية، فأمر السلطان الأمير سيف الدين بلبان الطباخى نائب حصن الأكراد بغزو الصليبيين المقيمين في حصن المرقب[٣]، وبالرغم من هزيمة هذه القوات أمام الصليبيين وتراجعهم إلى مصر إلا أن الصليبيين بدءوا يشعرون بخطر المماليك عليهم بعد تراجع المغول إلى بلادهم وشعروا بحرج موقفهم بعد تخلى المغول عنهم، لذا فقد سارعوا إلى طلب الهدنة من سلطان المماليك الذى وافق على تجديد الهدنة، وبالفعل تم عقد الهدنة في يوم الأحد الثالث عشر من المحرم سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م، بعد أن

---

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ١١٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٦٩٠ - ٦٩٩، ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٧ / ٣٠٠.

(٣) بلدة وقلعة حصينة مشرفة على سواحل بحر الشام، في غاية الحصانة والحسن حتى يتحدث الناس بحسنها وحصانتها.

اشترط عليهم إطلاق أسرى المسلمين الذين كانوا في حوزتهم بعد معركة المرقب، والتعهد بعدم معاونة المغول مجددًا ضد المسلمين[١].

معركة حمص وهزيمة المغول:

وفى العام ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م، تجددت الحرب مع مغول فارس والعراق ولعل السبب في تجددها هو قيام البعض من أهل الشام بمهاجمة حدود بلاد الروم وديار بكر التابعة لسيطرة مغول فارس والعراق آنذاك، أضف إلى ذلك مراسلات سنقر الأشقر الذى كان يستحثهم فيها على مهاجمة بلاد الشام، والخلافات الحادة التى كانت بين صفوف المماليك وتفرق كلمتهم، وكان أن جمع أبغا بن هولاكو مايزيد على ثمانين ألف جندى وجعلهم تحت إمرة أخيه منكوتمر، فتقدم ذلك الجيش حيث دخل بلاد الروم ونزل بين قيسارية وأبلستين وأخذت هذه الجموع تستعد لاجتياح بلاد الشام.

وفى تلك الأثناء كان السلطان قلاوون قد غادر مصر إلى الشام حيث علم بأخبار تلك الحشود فأخذ يعمل على الاستعداد لمواجهتها، فاستدعى العساكر من جميع أنحاء مملكته فحضر إليه الأمير أحمد بن حجى من العراق ومعه أربعة آلاف فارس بأسلحتهم، وحضرت النجدات من الملك مسعود خضر صاحب الشوبك، ونجدات سائر العربان والتركمان، وسار السلطان المنصور بقواته التى بلغت نحوًا من خمسين ألف فارس، إلى المرج، ومنها إلى حمص ومعه الجيش حيث وصل إليها في الحادى عشر من رجب ٦٨٠ هـ / أكتوبر ١٢٨١ م، ثم انضم إليه سنقر الأشقر من حصن صهيون بقواته على أن يعود إلى حصن بعد مقاتلة المغول وردهم عن بلاد المسلمين.

وبينما كانت قوات المماليك تجمع نفسها وتنسق عملها بدأت القوات المغولية في التحرك نحو بلاد الشام حيث هاجم أبغا بن هولاكو بقواته قلعة الرحبة وبدأ في حصارها مستغلاً انشغال المماليك بالاستعداد لمواجهة أخيه منكوتمر الذى سار بقواته حتى وصل إلى حماة وخرب المناطق المجاورة لها، ثم تقدم الجموع المغولية

(١) ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٧ / ٣٠٠، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٥ / ٣٩٧.

نحو معسكر المسلمين في حمص حيث التقى بهم بالقرب من مشهد خالد بن الوليد في يوم الخميس الرابع عشر من رجب ٦٨٠ هـ / أكتوبر ١٢٨١م حيث بدأ المغول بهجوم عنيف اضطر المسلمين معه للتراجع أمام شدة الهجوم المغولي، ثم حدث أن انشغل المغول بجمع الغنائم التى خلفها المماليك في انسحابهم، فاستغلها المماليك وكروا راجعين وأعملوا القتل والأسر في صفوف المغول وحملوا عليهم حملة صادقة " وكان الله معهم فيها فانتصروا على التتار "(١).

وفى الوقت الذى كان فيه " أبغا بن هولاكو " محاصرًا للرحبة، وصلت بشائر السلطان إلى نائبها تبشر بهزيمة التتار في حمص، فدقت البشائر في القلعة، فعلم العدو بذلك ومن ثم قرر الرحيل فورًا إلى بغداد، فأمر السلطان قلاوون القوات المملوكية بتتبع فلول المغول الفارين حيث قتل منهم عدد كبير يفوق ما قتل على أرض المعركة أضعاف مضاعفة، وبعيد هذه المعركة بفترة وجيزة مات " أبغا " كمدًا وحزنًا، إذ لم تكن هذه الهجمة على ديار المسلمين إلا تنفيذًا لرغبة منكوتمر وبناء على تشجيع من سنقر الأشقر الذى انقلب على المغول لاحقًا، والغالب أنه توفى في أواخر ٦٨٠ هـ / مارس ١٢٨٣ م، وبعده بقليل توفى منكوتمر في المحرم ٦٨١ هـ / ابريل ١٢٨٣ م، وتولى الحكم بعد أبغا أخوه تكودار بن هولاكو، أما سنقر الأشقر فإن السلطان أرسل إليه جيشًا حاصره في حصن صهيون إلى أن استسلم حيث سيق في الأصفاد إلى مصر حيث بقى في الأسر إلى أن توفى السلطان سيف الدين قلاوون وتولى ابنه الأشرف خليل (٢).

وقد دخل أباقا - أبغا - في عدة حروب مع أبناء عمومته من القبيلة الذهبية، فما كاد يتسلم العرش بعد أبيه حتى داهمته قوات القبيلة الذهبية، وهاجمت حدود دولته في القوقاز، فتقدم بركة خان زعيم القبيلة الذهبية باتجاة بلاد الكرج - جورجيا - ليتقدم إلى الجنوب، ولكن حالف أباقا الحظ إذ توفى بركة خان أثناء قيادته الحملة في يناير من عام ١٢٦٧م، فانتهى مشروعه بموته، وأصبح بإمكان أباقا أن يشعر بالراحة من هذه الجهة، وكان هناك خطر أكبر يتهدد دولة مغول إيران، ألا وهو ذلك التحالف

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٣٩٥، ابن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٧ / ٣٠٤.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٦٩٠ - ٦٩٩، أبو الفدا، المختصر، ٤ / ٢٢ - ٢٧.

الذى وقع بين مغول القبيلة الذهبية، ومغول بلاد ما وراء النهر، ولكن لحسن حظ أباقا أن هذا التحالف لم ينفذ لوفاة بركة خان.

وبالإجمال فإن أباقا خان يعتبر هو المؤسس الحقيقى للإمبراطورية التى ورثها عن أبيه هولاكو، فتمكن من توحيدها على الرغم من كل المصاعب التى واجهته نتيجة اعتناقه البوذية على الرغم من وجوده في دولة وفى محيط يمتلئ بالديانات السماوية، ومع تقدمه في السن استسلم لمعاقرة الخمر، وما لبث أن مات بالحمى في بداية إبريل عام ١٢٨٢م [١].

تكودار أحمد (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م):

ولما توفى أباقا خان خلفه أخاه تكودار ١٢٨٢م / ٦٨١ هـ، الذى اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام قبل توليته العرش، واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامي، فأرسل كتبًا إلى فقهاء بغداد وإلى قلاوون سلطان المماليك في مصر والشام، أعلن فيها رغبته في حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه، كما أظهر رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين.

وفى عهد أحمد تكودار بدأت العلاقات تتحسن بين المغول ودولة المماليك إذ أصبح الإسلام يجمع بين كلا الدولتين، إذ إن التتار الذين كانوا وثنيين يسعون إلى تدمير الإسلام والمسلمين تحولوا إلى مسلمين متحمسين يدافعون عن دار الإسلام ويساهمون في بناء حضارته. وقد بدأ أحمد تكودار يعلن عن رغبته في علاقات المودة والصداقة مع المنصور سيف الدين قلاوون سلطان مصر والحجاز، وأرسل إليه رسالة جاء من فيها ".

... فرمان أحمد إلى سلطان مصر.

أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بواحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته{فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ } [الأنعام: ١٢٥] فلم نزل نميل

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٦٢.

إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك فأضفى علينا من جلابيب الطاقة ولطائفه ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا فاجتمع عندنا في قوريليان المبارك وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدمو العساكر وزعماء البلاد واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها وامتلأت الأرض رعبًا من عظيم صولتها وشديد بطشتها إلى تلك الجهة بهمة تخضع لها صم الأطواد وعزمة تلين لها الصم الصلاد ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه فوجدناه مخالفًا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء وتجرى به في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان تعظيمًا لأمر الله وشفقة على خلق الله فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة وتسكين الفتن الثائرة وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا الله إليه من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء وأننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال إلا بعد إيضاح المحجة ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح إذ كان الشيخ قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن الذى هو نعم العون لنا في أمور الدين فأرسلناه رحمة من الله لمن لبى دعاه ونقمة على من أعرض عنه وعصاه وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين والأتابك بهاء الدين اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتنا ويتحقق عندهم ما تنطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة وأن الإسلام يجب ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ونشاهد أن عظيم نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان أن لا يحرموها بالنظر إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شأن فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعى الاعتماد وحجة يثقون بها من بلوغ المراد فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره وعم أثره فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام

الدين وإظهاره في إيراه كل أمر وإصداره تقديمًا لناموس الشرع المحمدى على مقتضى قانون العدل الأحمدى إجلالاً وتعظيمًا وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ومنعنا أن يلتمس شيء مما استحدث عليها وأن لا يغير أحد شيئًا مما قرر أولا وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها وتأمين سبلها وتسيير قوافلها وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم وحرمنا على العساكر والقراغولات والشحانى في الأطراف التعرض لهم في مصادرهم ومواردهم وقد كان قراغول صادف جاسوسًا في زى الفقراء كان سبيله أن يهلك فلم نهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى واعدناه إليهم ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين فإن عساكرنا طالما رأوهم في زى الفقراء والنساك وأهل الصلاح فساءت ظنونهم في تلك الطوائف فقتلوا منهم من قتلوا وفعلوا بهم ما فعلوا وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلف والتصنع عرية وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعى المضرة التى كانت موجبة للمخالفة فإنها إن كانت طريقًا للذب والذود عن حوزة الإسلام فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين وإن كانت لما سبق من الأسباب فمن يتحرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب وقد رفعنا الحجاب وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم طريقتنا وما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها وحرمنا على جميع العساكر العمل بخلافها لنرضى الله والرسول ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتتجلى بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة ويشكر سابغ ظلها البوادى والحواضر وتقر القلوب التى بلغت من الجهل الحناجر ويعفى عن سالف الجرائر فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم وانتظام أمور بنى آدم فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى وسلوك الطريقة المثلى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد وتسكن الفتنة الثائرة

وتغمد السيوف الباترة وتحل العامة أرض الهوينى وروض الهدون وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ومنع معرفة هذه النعمة فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥] والله تعالى الموفق للرشاد والسداد وهو المهيمن على البلاد والعباد إن شاء الله تعالى... " (١).

وقد رد السلطان المنصور قلاوون برسالة تفيض ودًّا ورقة، وأعلن استعداده للتعاون مع مغول فارس وعقد صلح وسلام معهم لما فيه خير الإسلام والمسلمين وجاء في تلك الرسالة "... بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى بإقبال دولة السلطان الملك المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد أما بعد حمد الله الذى أوضح بنا ولنا الحق منهاجًا وجاء فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذى فضله الله على كل نبى نجى به أمته وعلى كل نبى ناجا صلاة تنير ما دجا فقد وصل الكتاب الكريم المتلقى بالتكريم المشتمل على النبإ العظيم من دخوله في الدين وخروجه عمن سلف من العشيرة الأقربين ولما فتح هذا الكتاب بهذا الخبر العلم المعلم والحديث الذى صحح عند أهل الإسلام إسلامه وأصح الحديث ما روى عن مسلم توجهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت وأن ينبت حب هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت وحصل التأمل للفصل المبتدإ بذكره من حديث إخلاصه في أول عنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية ودخوله في الملة المحمدية بالقول والعمل والنية فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام وألهمه شريف هذا الإلهام فحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين إلى هذا المقال والمقام وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام

وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه وإفاضة جلابيب هذه النعمة العظيمة عليه وتوقله للأسرة التى طهرها الله بإيمانه وأظهرها بسلطانه فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده وصدق المبشرات من كرامة أولياء

(١) أحمد بن على القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف على طويل، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، دار الفكر - دمشق، ٨ / ٦٦ - ٦٩.

الله وعباده

وأما حكاية الإخوان والأمراء الكبار ومقدمى العساكر وزعماء البلاد في مجمع فوريلياى الذى ينقدح فيه زند الآراء وأن كلمتهم اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب وأنه قد فكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم وانتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفًا لما في ضميره إذ قصده الصلاح ورأيه الإصلاح وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك الثائرة فهذا فعل الملك المتقى المشفق من قومه على من بقى المفكر في العواقب بالرأى الثاقب وإلا فلو تركوا وآراؤهم حتى تحملهم الغرة لكانت تكون هذه هى الكرة لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فلم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى.

وأما القول منه إنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة وتركيب الحجة فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته متركبة على من غدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة فإن الله سبحانه وتعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة وجهادنا واجتهادنا إنما هو الله وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول وبارتفاع المنافرة تحصل المظافرة فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان وجيران بجيران بكل أرض.

وأما ترتيب هذه الفوائد الجمة على إذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن أعاد الله تعالى من بركاته فلم ير لولى قبله كرامة كهذه الكرامة والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار إسلام دار إقامة حتى تتم شرائط الإيمان ويعود شمل الإسلام مجتمعًا كأحسن ما كان ولا ينكر لمن بكرامته ابتداء هذا التمكين في الوجود أن كل حق ببركته إلى نصابه يعود.

وأما إنفاذ أقضى القضاة الملة والدين والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة فقد حضروا وأعادا كل قول حسن من أحوال أحواله وخطرات خاطره ومسطرات ناظره ومن كل ما يشكر ويحمد ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد

وأما الإشارة إلى أن النفوس إن كانت تتطلع في إقامة دليل تستحكم به دواعى الود الجميل فلينظر إلى ما ظهر من مآثره من موارد الأمر ومصادره من العدل والإحسان بالقلب واللسان والتقدم بإصلاح الأوقات فهذه صفات من يريد لملكه الدوام فلما ملك عدل ولم يلتفت إلى لؤم من عدا ولا لوم من عذل على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة والمثوبات التى تستنطق بالدعاء الألسنة فهى واجبات تؤدى وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أو عليه يقتصر أوله يدخر إنما يفتخر الملك العظيم بأن يعطى ممالك وأقاليم وحصون أو يبذل في تشييد ملكه أعز مصون.

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحانى بالأطراف التعرض إلى أحد بالأذى وتحتيم إصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى فمن حين بلغنا تقدمه بذلك تقدمنا أيضًا بمثله إلى سائر النواب بالرحبة وحلب وعينتاب وتقدمنا إلى مقدم العساكر بأطراف تلك الممالك بمثل ذلك وإذا اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم إحكام هذه الأحكام وترتب عليه جميع الأحكام.

وأما الجاسوس الفقير الذى أمسك وأطلق وأن بسبب من تزيا من الجواسيس بزى الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجمًا بالظن فهذا باب من ذلك الجانب ستروه وإلى الاطلاع على الأمور صوروه فظفر النواب منهم بجماعة فرفع عنهم السيف ولم يكشف ما غطته خرقة الفقر ولا كيف.

وأما الإشارة إلى أن في اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم وينتظم شمل بنى آدم فلا راد لمن طرق باب الاتحاد ومن جنح للسلم فما جار ولا حاد ومن ثنى عنانه عن المكافحة كمن يريد المصافحة للمصالحة والصلح وإن كان سيد الأحكام فلا بد من أمور تبنى عليها قواعده وتعلم من مدلولها فوائده فإن الأمور المسطورة في كتابه عن كليات لازمة ينعم بها كل معنى معلوم إن تهيأ صلح أو لم وثم أمور لا بد أن تحكم وفى سلكها عقود العهود تنتظم قد تحملها لسان المشافهة التى إذا أوردت أقبلت من معنى دخوله في الدين وانتظام عقده بسلك المؤمنين وما بسطه من عدل وإحسان وسيرة مشهورة بكل لسان فالمنة لله في ذلك فلا يشيبها منه بامتنان وقد أنزل الله تعالى على رسوله حق من امتن بإسلامه (قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان).

ومن المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض ومال فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل فالجواب أن ثم أمورًا متى حصلت عليها الموافقة تمت المصاحبة والمصادقة ورأى الله تعالى والناس كيف يكون إذلال معادينا وإعزاز مصافينا فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة وما تم أمر الدين المحمدى واستحكم في صدر الإسلام إلا بمظافرة الصحابة فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحسن الوداد وجميل الاعتضاد وكبت الأعداء والأضداد والاستناد إلى من يشتد به الأزر عند الاستناد فقد فهم المراد.

ومن المشافهة إذا كانت رغبتنا غير ممتدة إلى ما في يده من أرض ومال فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود فالجواب أنه لو كف العدوان من هنالك وخلى لملوك المسلمين ما لهم من ممالك سكنت الدهماء وحقنت الدماء وما أحقه بأن لا ينهى عن خلق ويأتى مثله ولا يأمر بشيء وينسى فعله وقنغرطاب بالروم الآن وبين بلاد في أيديكم خراجها يجبى إليكم فقد سفك فيها وفتك وسبى وهتك وباع الأحرار وأبى إلا التمادى على ذلك والإصرار.

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الإغارات ولا يقتصر عن هذه الإثارات فتعين مكانًا يكون فيه اللقاء ويعطى الله النصر لمن يشاء فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتفق فيها ملتقى الجمعين مرة ومرة ومرة قد عاف مواردها من سلف من أولئك القوم وخاف أن يعاوده فيعاوده مصرع ذلك اليوم ووقت اللقاء علمه عند الله لا يقدر وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدر وما نحن ممن ينتظر فلته ولا ممن له إلى غير ذلك لفته وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة التى لا تأتى إلا بغتة والله تعالى الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمه إن شاء الله تعالى... " (١).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٧ / ٢٥٨ - ٢٦٤.

ولكن لم يكتب لعلاقات الود أن تدوم بين مغول فارس ودولة المماليك، إذ إن مغول فارس تغيرت على أحمد تكودار وثارت عليه وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤ م وولى مكانه ابن أخيه أرغون بن أبغا (١).

أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١م) :

والحقيقة أن مغول فارس لم تكن لديهم قابلية لفكرة الصلح أو المهادنة أو العيش مع بقية الشعوب في سلام، وهم الذين مازالوا حديثى عهد بوثنية ووحشية وبربرية وتوارثوها كابرًا عن كابر، ولذلك فقد رفضت أذهانهم فكرة السلام والأمان التى فرضها عليهم إسلام أحمد تكودار، ورأوا أن الإسلام سوف يقيد همجيتهم ويهذب بربريتهم ويكف عن بقية الشعوب أذاهم، ولذلك رفضوا مبادئ وتعاليم الإسلام السمحة، ولو وجدوا فيه ما يرضى نفوسهم الضعيفة أو يحقق نزواتهم الشيطانية لما خلعوا سرباله أبدًا. ولهذا فإنهم ثاروا على أحمد تكودار وقتلوه وكذلك فعلوا بنائبه الناق قائد جيشه وذلك بعد أن دارت بينه وبين خصومه الذين يتزعمهم أرغون بن أبغا معارك رهيبة طاحنة انتهت بمقتل أحمد تكودار وسلطنوا عليهم أرغون بن أبغا الذى كان يتزعم خصوم أحمد تكودار، ثم بدأ اضطهاد المسلمين وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور في بلاطه، وتحكم فيهم وزيره سعد الدولة اليهودى وراح يقضى على ما للإسلام من مكانه وينهج سياسة أسلافه في بغض كل ماهو إسلامى ومحاولة الاتفاق مع الصليبيين لتكوين جبهة موحدة في مواجهة دولة المماليك التى دائما ما كانت تقف أمام طموحاتهم وأطماعهم في العالم الإسلامى (٢).

ولم يكتف أرغون بذلك العداء السافر والاضطهاد للمسلمين في فارس وفى كل مكان، بل ذهب أبعد من ذلك بأن أرسل إلى ملوك الغرب وإلى البابا يعرض عليهم حق الاتجار والتنقل في ربوع دولته، والهدف من ذلك هو إضعاف تجارة دولة المماليك والقضاء على قوتهم في الشام ومصر، بل زاد على ذلك إعلان رغبته في التنصر، إلا أن ذلك كله لم يتعد حدود المراسلات وإبداء الرغبات، وظلت علاقة

---

(١) المقريزى، السلوك، ١ / ٨٠٥.

(٢) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٢٦.

مغول فارس بالصليبيين في الشام وأوروبا المسيحية تراوح مكانها [١].

والحقيقة أن الحزب البوذى في دولة مغول فارس والعراق كان ينظر لإسلام تكودار بعين الريبة ولم يكن على استعداد للموافقة على هذا الأمر ولذا فقد أيد أخاه أرغون وجعله يطالب بعرش أبيه ويثور على تكودار أحمد، وجعلوا عهد تكودار مليئًا بالمعارك الداخلية التى كان من نتائجها بعد عامين أى في عام ١٢٨٤م، أن فقد أحمد حياته وعرشه[٢].

ولم يكن أرغون شخصية قديرة على الحكم، ولم يكن يمتلك أى دراية عن الشئون المالية لدولته، ومع ذلك أصر على أن يجبى أموالاً طائلة من دولته للإنفاق منها على ملذاته، وعهد بالحكومة إلى طبيب يهودى عتيق أسماه " سعد الدولة " فاستولى هذا اليهودى على مبالغ طائلة من النقود واستنفذ من المقاطعات كل ما يستطيع، وولى أقربائه حكامًا على جميع الأصقاع أو كاد، وربما كان هذا الأمر لأن أرغون كان عديم الثقة في رعاياه من المسلمين وبدافع من تعصبه للبوذية، وكان من نتيجة تلك السياسة اليهودية البوذية أن بدأت تثور كثير من الأقاليم في وجه أرغون، وتعرضت البلاد في عهده لعديد الأزمات، وأصبحت على شفير الانهيار.

ولكن الدولة في عهد أرغون كان لها كثير من الحظ - على الرغم من هذا التدهور الحاصل لها -، إذ لم يجر بينها وبين القبيلة الذهبية في القوقاز إلا مناوشات بسيطة، بينما الحدود مع مصر وبلاد ما وراء النهر لم تتحرك أبدًا، ولم تحدث إلا ثورتين خفيفتين في جورجيا تمكن أرغون من القضاء عليهما سريعًا، ولكن وفى أثناء فتنة ضد اليهود في شيراز لقى أرغون حتفه في مارس سنة ١٢٩١ م أثناء عملية قام بها لتجديد شبابه اقترحها عليه كاهن بوذي، وفى الوقت الذى كان يرقد فيه أرغون على سرير الموت، تم القبض على سعد الدولة اليهودى ونفذ فيه حكم الإعدام [٣].

---

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٢٧.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٧٧.

(٣) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٧٨.

كيخاتو (١٢٩١ - ١٢٩٥ م) :

بعد وفاة أرغون حدث نزاع كبير بين أفراد المغول على العرش المغولى في فارس والعراق، ولكن تمكن كيخاتو - الذى كان حاكمًا للقوقاز في عهد أخيه أرغون - من الوصول إلى العاصمة والاستيلاء عليها، وكان هذا هو الحل الأسوأ والأشقي، لأن كيخاتو كان أكثر عجزًا من أخيه وذو طبيعة مترددة، ولم تكن لديه الشجاعة اللازمة لاتخاذ التدابير الفعالة لحماية شعبه، وحدود دولته، وقد أفلست الدولة في عهده مما اضطره إلى إصدار أوراق مالية من مختلف الفئات رفض الشعب أن يتعامل بها، ورفض حاكم إقليم خراسان التعامل بهذه الأوراق المالية، وارتفعت الأسعار وقلت الأقوات، وانتشر قطاع الطرق والعصابات، وعمت الفوضى في جميع المجالات، وفى ظل هذه الأزمة الاقتصادية التى تمر بها البلاد دخل كيخاتو في حرب لا طائل منها مع القبيلة الذهبية، جعلت الأمور تنتقل من سيِّئ إلى أسوأ، ثار الشعب في وجهه وانتهى الأمر بإعدامه في مارس عام ١٢٩٥م [(١)].

بعد مقتل أحمد تكودار سارت جماعة من التتار وأغاروا على الرحبة وأخذوا منها الكثير من الماشية والدواب، فخرجت إليهم القوات الإسلامية من دمشق وتمكنت من ردهم على أعقابهم سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢م وكان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون قد خرج من مصر بقواته إلى الشام، فسار إلى حلب ثم غادرها في الرابع من جمادى الآخرة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢م لمحاصرة قلعة الروم [(٢)]، وكانت تحت طاعة المغول، وكان أهلها يوادعون المغول ويتحالفون معهم ضد المسلمين " وقد سكن أهلها على مخادعة الجار وموادعة المغول وممالأتهم على الإسلام بالنفس والمال " [(٣)].

فنصب الملك الأشرف خليل بن قلاوون عليها عشرين منجنيقا واستمر في حصارها مدة ثلاثة وثلاثين يومًا، وتم فتحها عنوة يوم السبت الحادى عشر من رجب

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) قلعَة الرُوم: قلعة حصينة في غربى الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط. معجم البلدان - (ج ٣ / ص ٤٣١).

(٣) اليافعي، مرآةالجنان، ٤ / ٢١٩، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٢٨.

٦٩١ هـ / يونيو ١٢٩٢م وسماها قلعة المسلمين، وكان أهلها من النصارى ولكن تحت طاعة مغول فارس والعراق، وعاد السلطان إلى دمشق ثم القاهرة فدخلها يوم الأربعاء الثاني من ذى القعدة ٦٩١هـ / أكتوبر ١٢٩٢م [١].

وشيئًا فشيئًا بدأت قوة مغول فارس تذبل وتضمحل، ولم تعد بحالة تسمح لها بمتابعة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الشام وبلاد الإسلام، وذلك لأسباب منها الصراع الداخلي بين ملوك فارس حول الاستيلاء على العرش، وكان كيختو (كيخاتو) ملك مغول فارس والعراق الذى خلف أخاه أرغون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م قد أسرف في إنفاق الأموال الكثيرة على ملذاته وفيما لاطائل من ورائه حتى نضبت خزائنه، مما أدى إلى ضعف دولته، ومع هذا الضعف والترهل الذى اعترى دولته فإنه بعث رسولاً إلى الملك الأشرف خليل بكتاب يتضمن المطالبة بحلب لأن أباه هولاكو كان قد فتحها من قبل ويهدد بأنه إذا لم يسمح له بذلك غزا بلاد الشام، فأجابه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (... بأنه قد وافق القان ما كان في نفسى فإني - كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله فإني أرجو أن أردها دار إسلام كما كانت وسينظر أينا يسبق إلى بلاد صاحبه) [٢].

وواضح من الرسالة مدى القوة التى كان يشعر بها الأشرف تجاه خصمه حيث تظهر فيها روح التحدى والمبادرة، ومن ثم بادر بالكتابة إلى نوابه في بلاد الشام بالاستعداد وتجهيز الجيش لهذا الأمر، وكان ذلك في عام ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣م إلا أن هذه الاستعدادات لم يكتب لها أن تتم بسبب وفاة كل من السلطان الأشرف خليل ووفاة ملك التتار كيخاتو ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م، إذ خرج بيدو على كيخاتو (كيختو) والتقى معه في قتال شديد انتهى بمقتل كيختو، واستقل بيدو بالملك فخرج عليه نائب خراسان غازان بن أرغون وجمع الجيوش وقاتل بيدو حتى أخذ الملك منه وقتل بيدو بعد معركة حامية قرب همدان، وكان بيدو محبًا للنصرانية وبذل كثيرًا من الجهد لوضع العقبات في سبيل نشر الإسلام بين المغول [٣].

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٢٨.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٨٧٦، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٢٨.
(٣) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٢٩.

بايدو (١٢٩٥م):

الحقيقة التى لا مراء فيها أن حكام دولة مغول فارس والعراق أو الإيلخانات كانت تعيش في محيط غريب عنها، ففى الوقت الذى كان حكامها يتدينون ويلتزمون بالبوذية كان أغلبية الشعوب في الدولة تدين بالإسلام مع وجود أقلية من النصارى واليهود، ومنذ عهد تكودار أحمد ويشهد البلاط المغولى صراع قوة بين البوذية والإسلام، فمنذ ذلك العهد والإسلام في تزايد في البلاط المغولي، بعد أن مال كثير من الأمراء المغول وأفراد العائلة المالكة نحو الإسلام، وبعد إعدام كيخاتو تمكن الحزب البوذى داخل الأسرة المغولية الحاكمة من النجاح في إيصال أحد أقرباء كيخاتو البوذيين وهو بايدو إلى سدة الحكم، ولكن الحزب الإسلامى لم يدعه يهنأ بالحكم إلا بضعة أشهر وطرده من الحكم في نوفمبر من العام ١٢٩٥م (١).

غازان محمود (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م):

بعد أن أزيح بايدو عن سدة الحكم، تولى العرش غازان الابن الأكبر لأرغون وكان في الرابعة والعشرين من عمره آنذاك، وكان قد اعتنق الإسلام وتسمى باسم محمود، واستبدل لقب خان بلقب السلطان، وكان أول شيء فعله أنه كافأ الذين ساعدوه في الحصول على العرش، فكافأ نوروز بأن فوض إليه نيابة المملكة، كما عين أخاه خدابندا واليًا على خراسان، وفى عهده علا شأن الإسلام والمسلمين، وانطفأت نار البوذية في بلاد فارس منذ قدومه، ولم يحاول أن يحمى البوذية أحد وتحولت المعابد إلى مساجد، وتم تحويل ممتلكاتها القديمة إلى المسلمين، والكهنة البوذيون الذين بقيت أقلية منهم فقط في البلاد أعفوا من مناصبهم (٢).

ويرجع الفضل في إسلام غازان وزيره المسلم نوروز، الذى كان على علم بالتصوف والتاريخ، وكان غازان قد نذر بين يدى هذا الوزير أن يعتنق دين الإسلام إذا انتصر على بايدو، وسرعان ما نفذ وعده بعد تغلبه عليه، وذلك بمساعدة عالم كبير يدعى صدر الدين (٣).

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص٨٠.
(٢) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ٤ / ٣١ - ٣٢.
(٣) جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر والشام، ص ١٧٥.

وبدأ غازان في التخلص من المناوئين لحكمه وكان منهم جند العويراتية [(١)] وكانت هذه الطائفة العسكرية بزعامة طرغاى قد خرجت على كنمتو - عم غازان - في ولايته وساعدت بيدو في التمرد وقتل كنتمو ثم وقفت بجواره حتى تولى الحكم، فلما تولى غازان البلاد أراد أن يقتل طرغاى وينتقم من أتباعه لمشاركتهم في مقتل عمه، لكن طرغاى هرب هو ومن معه من العويراتية إلى بلاد الشام بعد أن عبروا الفرات، فكتب كتبغا إلى نائب الشام أن يسير الأمير علم الدين سنجر الدوادارى إلى الرحبة لاستقبالهم، فخرج من دمشق لهذا الغرض واستقبلهم وأحسن إليهم ثم سير أكابرهم إلى القاهرة حيث خرج الأمراء على رأس الجند للقائهم ورحب بهم كتبغا ومنحهم الإقطاعات وأجرى عليهم الأرزاق وأنزلهم الحسينية ولم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد، وصادف ذلك غلاء عظيم واشتد الأمر على الناس [(٢)].

وقد أثار ترحيب كتبغا بالعويراتية حقد وسخط العامة والخاصة لاسيما الأمراء، فالعامة سخطوا عليه لأنه رحب العويراتية وقد ظل الكثير منهم على وثنيته وزاد الطين بلة أن السلطان منحهم الحرية التامة في إقامة طقوسهم الوثنية ولم يعترض على عدم صيامهم عند حلول شهر الصيام (رمضان الكريم)، بل إنه لم يحاول أن يعرض عليهم الإسلام ومنع الناس من التعرض لهم، أما أمراء المماليك وكبار لرجال الدولة المملوكية فقد ساءهم كثيرًا ذلك الترحيب لأن السلطان كتبغا منحهم الإقطاعيات وأجرى عليهم الأرزاق ومنحهم المناصب العليا وكل ذلك على حساب الأمراء المماليك، كما أنه اتهم الكثير من أمراء المماليك بمكاتبة التتار، مما أثار سخطهم عليه، وعلى ما يبدو أنه كان يرمى من وراء ذلك إلى أن يجعل هؤلاء

---

(١) ويقال أو يراتية، نسبة إلى أويرات وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء الأعلى من حوض نهر ينيسى بأواسط آسيا وهم أصل جنس الكالموك وكانت هذه القبائل قد خضعت قديمًا لسلطة جنكيزخان وساعدته في حروبه، وكان أبناء هذه الطائفة يمتازون بجمالهم مما كان سببًا في تنافس أمراء الدولة على التزوج من بناتهم، فتكاثر نسلهم في القاهرة، وقد ظل أفراد هذه الطائفة يتمتعون بكثير من النفوذ في عهد الملك العادل كتبغا إلى أن عزل في سنة ٦٩٦هـ وخلفه الملك المنصور لاجين، فقبض على جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الإسكندرية حيث سجنوا بها، وفرق من بقى منهم في القاهرة على الأمراء، فاتخذوهم جندًا لهم. المقريزي، الخطط المقريزية، ٢ / ٢٢ - ٢٣.

(٢) الصفدي، الوافى بالوفيات، ٢ / ٢١ - ٢٢.

العويراتية عونًا له ضد منافسيه من أمراء المماليك، لا سيما وأن أعدادهم كانت تفوق العشرة آلاف من المحاربين [1] ولعلاقة النسب التى كانت تربط مقدم هؤلاء العويراتية (طرغاي) والسلطان كتبغا، وكلا الرجلين قد تزوجا من بنات هولاكو في أيامهم الأولى [2].

وكان ذلك الترحيب بخصوص غازان محمود من جانب سلاطين المماليك سببًا إضافيًا في توتر العلاقة بين كلا الدولتين المتنافستين في عهد غازان محمود، وهذا ما سنعرض بالتفصيل:

العلاقة مع المماليك:

قبيل اغتيال السلطان حسام الدين لاجين ونائبه منكوتمر كان جماعة من أمراء المماليك على رأسهم الأمير قبجق [3]، والأمير سيف الدين بكتمر [1] قد فروا إلى

(١) المقريزي، الخطط المقريزية، ٢ / ٢٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٨١٢ حاشية ٢.

(٣) سيف الدين قبجق المنصوري. هو الأمير الكبير سيف الدين يقول الصفدى عنه: " أصله مكتسب لا بالشراء، وكان رجلاً كريمًا حازمًا بطلاً شجاعًا مبرزًا في جودة الرماية لا يرامى رميه ولا تتقى سهامه، غاية في العقل وتقدم في الفكر والوقوع في صواب الرأي، قليل النظير معدوم المثيل، من فرسان الإسلام المشاهير وأفرادها المذكورين، وكان يجيد الكلام والخط باللغة المغولية.
وحكى لوالدى عن نفسه أنه كان كابتًا لحسن أحد نونيات المغول، وأن أباه كان رأسًا من رؤوس الكتابة بالمغولية مجيدًا في الترسل فيها، وقال له: مثل ما عندكم كلام جيد وكلام رديء هكذا عندنا.
ولما كان في المماليك المنصورية كان مؤاخيًا لحسام الدين لاجين لا يكاد يصبر واحد منهما على الآخر، وأكلهما وشربيهما واحد، فلما انتهت الأيام إلى ملك لجين انعكس ذلك الود عليّ.
ولم يزل قبجق مقدمًا في البيت المنصورى رأسًا من رؤوس المماليك السلطانية وأمر، ومع هذا أستاذه لا يثق به ولا يسكن إليه، ولا يوال يتقى بادرة منه، وكان لا يخرجه معه في بواكيره إلى الشام خوفًا منه لا يهرب إلى المغول.
فلما ملك الملك الأشرف أجل قدره ونوه به، وكان من أقرب المقربين إليه، وربما استشاره في بعض الأمر.
وكان رجلاً داهية. فلما قتل الأشرف وتقلبت بالناس الأمور حتى ملك العادل كتبغا لم يبق بحاشيته دأب إلا لاجين، وتقصد قبجق لقص جناح لاجين حتى اتفقا وطردا كتبغا وملك لاجين، وخير قبجق بين نيابة مصر والشام، فاختار الشام فبعثه إليها وجاءها وهو يظن أنه مالكها.
ثم تواترت الأخبار بقصد التتار أطراف البلاد، فجردت العساكر المصرية والشامية ورسم لقبجق بالخروج وأن يكون مقدمًا عليهم، فخرج إلى حمص وعرض يوم خروجه عرضًا ما رأى قبله مثله، وخرج على قومه في زينته وعليه قباء مزركش بالذهب المرصع، بالجواهر يبهر العيون، وعليه كلوتة

بلاد المغول حيث رحب بهم غازان واستقبلهم أحسن استقبال وأكرمهم، وكان لجوء هؤلاء الأمراء المماليك إلى غازان سببًا في اجتياح المغول لبلاد الشام، إذ شجع هؤلاء الأمراء غازان على اجتياح وغزو بلاد الشام وذلك نتيجة لسوء العلاقات بين الأمراء المماليك والسلطان ونائبه واضطراب البلاد نتيجة لتغير السلاطين، ورأى غازان أنَّ في ذلك فرصته لغزو بلاد الشام، وقام بتجهيز قواته على وجه السرعة حيث أرسل في جمع العساكر من جميع أطراف مملكته، وأرسل إلى الأمير سلامش

مثل ذلك، وفى وسطه كاش ملبس بالذهب وعليه قطع الجوهر، وكذلك كان سرج فرسه وكنبوشه ولجامه.

ونزل بحمص وخيم عليها فقال منكوتمر للاجين: ما قصرت سلطنت قبجق وبعثت معه الجيوش والأمراء وقعدت أنت وحدك برقبتك، وندمه؛ وكان هذا دأب منكودمر يوحش بين لاجين مخدومه وبين كبراء الأمراء، ويتقصد إبادتهم.

ووفاته في آخر جمادى الأولى سنة عشر وسبعمائة، ونقل إلى حماة ودفن بتربته التى بناها فيها وهى مشهورة. الصفدي، الوافى بالوفيات، ١ / ٢٢٢ - ٢٢٣.

(١) وكان أصل بكتمر هذا من جملة مماليك الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة للملك المنصور قلاوون، وكان أخذ من بلاد الروم سنة خمس وسبعين وستمائة فيما أخذ من مماليك السلطان غياث الدين كيخسرو متملك بلاد الروم عندما دخل الملك الظاهر بيبرس إلى مدينة قيسرية، وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمة الظاهر، فصار بكتمر هذا إلى طرنطاي، وطرنطاى يوم ذاك مملوك الأمير سيف الدين قلاوون الألفى قبل سلطنته فرباه وأعتقه. فلما قتل طرنطاى صار بكتمر هذا للأشرف خليل، فرتبه في جملة الأوجاقية في الإسطبل السلطاني. ثم نقلها المنصور لاجين وجعله أمير آخور صغيرًا، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة بعد وفاة الفاخري. وما زال يترقى حتى ولى الوزارة، ثم الحجوبية بدمشق ثم نيابة غزة ثم نيابة صفد ثم حجوبية الحجاب بديار مصر إلى أن مات. وهو صاحب المدرسة والدار خارج باب النصر من القاهرة. وخلف أموالاً كثيرة، وكان معروفًا بالشح وجمع المال.

قلت: وعلى هذا كان غالب أولاده وذريته ممن أدركنا. قال الشيخ صلاح الدين الصفدى في تاريخه: وكان له حرص عظيم على جمع المال إلى الغاية، وكان له الأملاك الكثيرة في كل مدينة، وكان له قدور يطبخ فيها الحمص والفول وغير ذلك من الأوانى تكرى، وكان بخيلاً جدًّا. حكى لى الشيخ فتح الدين بن سيد الناس قال: كنت عنده يومًا وبين يديه صغير من أولاده وهو يبكى ويتعلق في رقبته ويبوس صدره، فلما طال ذلك من الصغير قلت له: يا خوند، ماله؟ قال: شيطان يريد قصب مص. فقلت: يا خوند، إقض شهوته. فقال: يا بخشي، سير إلى السوق أربع فلوس هات له عودًا. فلما حضر العود القصب وجدوا الصغير قد نام فما تعنى وتعب في طلب القصب. فقال الأمير بكتمر: هذا قد نام، ردوا العود وهاتوا الفلوس. انتهى كلام الصفدي.

قلت: ولأجل هذا كانت له تلك الأملاك الكثيرة والأموال الجمة. وإلا من هو بكتمر بالنسبة إلى غيره من الأتابكية ونواب البلاد الشامية وغيرهم من عظماء الأمراء ولكن هذا من ذاك. انتهى. انظر ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٣ / ٥٦.

بن أفال بن بيجو [١] التترى نائبه على بلاد الروم أن يوافيه ومعه خمسة وعشرين ألفًا تقريبًا، وطلب منه أن يعبر بهؤلاء القوات أرمينية ويسير بهم إلى بلاد الشام، على أن يقابله غازان بجيش قوامه خمسة وسبعين ألفًا، وتكون نقطة الالتقاء مدينة حلب [٢].

ولكن حدث الانشقاق في صفوف المغول حيث طمع القائد سلامش - نائب غازان على بلاد الروم - في الاستقلال ببلاد الروم (آسيا الصغرى) وطلب الملك لنفسه على أساس أنه أقرب في النسب إلى جنكيزخان من غازان، فلم يستجب لطلب غازان في التوجه إلى بلاد الشام وغزوها وأخذ يكون جيشًا لقتال غازان وأرسل إلى السلطان حسام الدين لاجين في مصر - قبل وفاته - يطلب مساعدته في الحرب ضد غازان، مما اضطر غازان إلى تأجيل خطته القاضية بغزو بلاد الشام لحين الانتهاء من تمرد سلامش، فأرسل قواته إليه ودارت بينهما معركة حامية عند بلدة سيواس[٣] في الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٩٨ هـ / مارس ١٢٩٩م حيث لم يستطع سلامش من الوقوف في وجه القوات المغولية وتفرق عنه أتباعه ومناصروه [٤].

---

(١) ذكر العيني: أن جد هذا الرجل هو الذى فتح بلاد الروم في سنة إحدى وأربعين وستمائة، وملكها بعد قتل عالم كثير، وعند نزوله حضر إليه أبو بروانا وعرفه بنفسه وعرفه أيضًا أن هذه إقليم عظيم، وأنه لا ينظر إلى من قتل منه، والتزم أن يحمل له كل سنة خراجًا ويكون هو ومن معه رعيته، فوافقه على ذلك وقرر عليه في كل سنة ثلاثمائة وستين ألفًا من الدراهم، وألف رأس غنم، وألف رأس بقر، وألف رأس جمل. وقال له بعض أمرائه: يا خوند هذا يأخذ هذا المقدار من ضيعة واحدة من هذه الإقليم. فقال له: إذا استمر هذا يجيء غيره، وبقى هذا إلى سنة أربع وخمسين وستمائة، فخرج هلاون ومات بيجو وأخذ ولده أفال مكانه، وحضر إليه بروانا، وكان أيضًا والده توفي فأكرمه وخلع عليه وقرر عليه ما كان يحمل والده لوالده، واستقر إلى أن توفى أفال وملك سلامش ابنه البلاد وأقام فيها، وملك جبال قرمان وضياعًا كثيرة، ثم عصى على ملوك المغول، فلما ملك قازان سير إليه جوبان وقطلوجا، فضربوا معه مصافًا، فخامرت عليه أمراؤه فانكسر، وكان سبب عبوره إلى مصر. بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٣٢٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٨٧١، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ٩٨، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٤٢.

(٣) سيواس.

هى مدينة (سيواس) تقع في شمال شرق تركيا قرب مدينة (توقات). وتسمى باليونانية (سيباستيا) أو (سيباستيبول) تقع في وسط الأناضول على نهر (هاليس HALIS) أو (قزيل أرماق) أى النهر الأحمر. تعريف بالأماكن الواردة في البداية والنهاية لابن كثير - (ج ٢ / ص ٧٨).

(٤) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٨ - ١٠، أبو المحاسن بن تغربردي،

وفى تلك الأثناء كانت قوة قوامها خمسة عشر ألف فارس من المماليك قد بدأت في التحرك لنجدة سلامش، ولكن الأمراء المماليك لما علموا بهزيمته وضعف موقفه وتفرق أتباعه عنه أمسكوا عن التحرك لنجدته، ثم وصل سلامش إلى دمشق في الخامس من شعبان ٦٩٨ هـ / مايو ١٢٩٩م ومنها إلى القاهرة هو وبعض أفراد أسرته وأتباعه وخاصته حيث كان موضع ترحيب من السلطان وكبار رجال الدولة، وبالرغم من أنه قد عرض عليه الإقامة في مصر أو الشام معززًا مكرمًا إلا أنه طلب رفقة الجيش المصرى المتجه إلى الشام لقتال المغول، ليتسنى له العودة إلى بلاده، وكان له ما أراد إلا أنّ غازان تمكن من القبض عليه في بلاد سيس وقتله بعد ذلك (١).

وكان موقف المماليك المؤيد لسلامش - الثائر على سلطة غازان - سببًا قويًا لسرعة تحرك جحافل المغول إلى بلاد الشام، حيث أراد غازان الانتقام من المماليك لموقفهم من سلامش وجعل ذلك سببًا لتحركه أضف إلى ذلك تحريض الأمير سيف الدين قبجق - نائب الشام السابق - الدائم لغازان وتشجيعه له على غزو الشام وأخذها من أيدى المغول، يضاف إلى ذلك ما اتهم به نيروز وزير غازان بمكاتبة السلطان لاجين - قبل وفاته -، كما غضب غازان من الأمير بلبان الطباخى (٢) نائب حلب الذى أرسل جيشًا إلى ماردين عاث فيه فسادًا فاتخذ غازان من ذلك ذريعة في غزو الشام مستغلا انشغال أمراء المماليك بأمور الحكم فشد عزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكها (٣) يضاف إلى ما تقدم استقبال المماليك الوافدين من التتار والهاربين من

النجوم الزاهرة، ٨ / ١١٨ - ١١٩، المقريزي، السلوك، ١ / ٨٧٧.
(١) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ١١.
(٢) الطباخى ملك الأمراء، سيف الدين بلبان المنصوري. أمير جليل، موصوف بالشجاعة والحشمة، وكثرة الغلمان، والعدد والخيول، وجودة السياسة. عمل نيابة حلب مدة ونيابة طرابلس وغير ذلك توفى بالساحل في كهلاً يقول عنه أبو ا لمحاسن بن تغربردي: وكان من أعيان الأمراء وأحشمهم وأشجعهم وأكثرهم عدة ومماليك وحاشية. وولى نيابة حلب قبل ذلك بمدة، ثم ولى الفتوحات بالساحل ودام عليها سنين. وكان جميل السيرة والطريقة وله المواقف المشهورة والنكاية في العدو. رحمه الله تعالى.
ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٨ / ١١٨ - ١١٩، الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤ / ٢٧٩.
(٣) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٤٥.

وجه غازان وطائفة التتار الأوبرانية على وجه الخصوص التى دخلت مصر أيام العادل كتبغا، وكانوا قد هربوا من غازان بعد هزيمة خصمه بيدو فهاجروا إلى مصر، أضف إلى ذلك سببًا رئيسيًّا وهو خروج سلامش بن أفال ونبذه من بلاد الروم ونبذه لطاعة غازان ودخوله مصر واستنجاده بالمماليك مما أثار الحقد في نفس غازان فصمم على غزو الشام ومصر وتحرك بالجيش صوب الشام، حيث عبر الفرات بقوات كثيرة مما أثار الرعب والهلع في نفوس الناس التى نفرت من هذه الأنباء وخشيت أن يتكرر لها ما حدث سابقا مع سلفه هولاكو(١).

وفى مصر كان الناصر محمد بن قلاوون قد استعد جيدًا لملاقاة المغول، وتحرك بنفسه على رأس الجيش المتجه إلى الشام وبصحبته الكثير من كبار الأمراء ورجال الدولة المملوكية، فلما وصلت القوات إلى غزة وتحللوا من القيود العسكرية وخرج الأمراء المماليك للصيد، ففكر زعماء طائفة الأبرانية - الذين قدموا من بلاد المغول أيام السلطان العادل كتبغا - في اغتيال كل من الأمير بيبرس الجاشنكير (٢) والأمير

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) هو بيبرس بن عبد الله، الملك المظفر ركن الدين بيبرس البرجى المنصورى الجاشنكير.

أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وعتقائه، وتنقل في الخدم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية. وتولى الأستادارية للملك الناصر محمد بن قلاوون.

وكان إقطاعه كبير، فيه عدة إقطاعات لأمراء.

ولما كان أستادارًا كان سلار نائبًا بالديار المصرية؛ فحكما في البلاد وتصرفا في الممالك، وصار الملك الناصر ليس له من السلطنة إلا الاسم فقط.

وكان نواب البلاد الشامية خشداشية الجاشنكير من البرجية؛ فقوى أمره بهم، إلى أن توجه الملك الناصر إلى الحجاز ورد من الطريق إلى الكرك وأقام بها، وأرسل يعلم أمراء الديار المصرية؛ ليقيموا سلطانًا. لعب الأمير سيف الدين سلار بالجاشنكير هذا، وحسن له السلطنة حتى تسلطن، ولقب بالملك المظفر بعد أن أفتى له جماعة من القضاة والفقهاء بذلك، وكتب محضرًا مثبوتًا على القضاة، وناب سلار له، واستوثق له الأمر.

وكانت سلطنته في يوم السبت بعد العصر ثالث عشرين شوال سنة ثمان وسبعمائة - وقيل في ذى القعدة في بيت سلار -، وركب من بيت سلار بخلعة السلطنة إلى القلعة، ومشوا الأمراء بين يديه، ودقت البشائر، وسارت البريدية بذلك إلى سائر الممالك، وكتب له الخليفة المستكفى بالله على تقليده بخطه. وكان من جملة عنوانه أنه: من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم.

وجلس الأمير بتخاص والأمير قلى والأمير لاجين لاستحلاف الأمراء والعساكر، واستفحل أمره، وأعطى، وأنعم. قيل إن خلعه التى خلعها وصلت إلى ألفين ومائتى خلعة. ودام في الملك إلى أن وقع بينه وبين الملك الناصر وحشة؛ وهو أن الملك الناصر لما دخل إلى الكرك سأل من نائبها الأمير آقوش

سلار[1]، وذلك انتقامًا لما حدث لهم من ذهاب أيامهم وذهاب سلطتهم وأملاكهم

عن الأموال الحاصلة بها؛ فأحضر النائب بمائتى ألف درهم لا غير؛ خوفًا أن يطلعه على المال؛ فيأخذه كله، وأخرج آقوش من نيابة الكرك، وقنع بالكرك. وخطب للملك المظفر بيبرس هذا بجامع الكرك بحضرة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتأدب الملك الناصر معه وسكت حتى أنه كان إذا كاتبه يكتب: الملكى المظفري. وقصد بذلك سكون الأحوال. ابن تغرى بردي، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي، ١ / ٢٩٨.

(١) هو سلار بن عبد الله المنصوري، الأمير سيف الدين، نائب السلطنة بديار مصر.
كان تركى الجنس، وكان أبوه أمير شكار عند صاحب الروم، فلما غزا الملك الظاهر بيبرس التتار والروم كان سلار هذا ممن أسر في الوقعة، فاشتراه قلاوون بعد مدة وأعطاه لولده الصالح على، ومات الصالح فعاد سلار إلى ملك الملك المنصور ثانيًا، واستمر عنده، وصار من أعيان مماليكه، ثم صار في خدمة ولده الملك الأشرف خليل، من جملة أعيان الأمراء، إلى أن قتل، ثم ترقى في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وبقى أحد المتكلمين في الدولة إلى أن خلع الملك الناصر وتسلطن الملك المنصور حسام الدين لاجين، سار سلار المذكور من العوجاء إلى الديار المصرية لتحليف الأمراء بها للملك المنصور لاجين.
ولما قتل لاجين، وأعيد الملك الناصر محمد إلى الملك، صار سلار هذا نائب السلطنة بالديار المصرية، ولم يدع للملك الناصر أمرًا ولا نهيًا، وبقى له ثروة ومال جزيل يضرب به المثل كثرة، وكان إقطاعه نحوًا من أربعين إمرة طبلخاناة، قيل إنه كان متحصله في كل سنة ألف ألف دينار، وكان مع ذلك قليل الظلم، كبير العقل، ذا دهاء وخبرة، ونهضة وسياسة. تمكن من الدولة إحدى عشرة سنة، ورشح للسلطنة لما توجه الملك الناصر محمد إلى الكرك، فامتنع وسلطن بيبرس الجاشنكير مع تقدمه على بيبرس المذكور، وعمل النيابة له ولا زال على ذلك حتى عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه، وقتل الملك المظفر بيبرس، وقبض الملك الناصر على أربعين أميرًا ممن كان يستوحش منهم من أصحاب بيبرس، فلما رأى سلار ذلك تخوف وطلب الشوبك، فأنعم عليه الملك الناصر بنيابة كرك الشوبك، فتوجه إليها، وأقام بها مدة، ثم خشى على نفسه ففر إلى البرية، ثم ندم، وطلب الأمان، وحضر إلى القاهرة، فأمسك واعتقل ومنع عنه الطعام والشراب حتى أكل خفه من الجوع. ومات.
قيل: إنهم دخلوا عليه قبل موته وقالوا له: قد عفا عنك السلطان، فقام ومشى من الفرح خطوات، ثم خر ميتًا، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة عشرة وسبعمائة، وقيل: في العشرين من جمادى الأولى من السنة، والله أعلم.
وكان أسمر اللون، أسيل الخد، لطيف القد، صغير اللحية.
وكان أميرًا جليلاً، مهابًا شجاعًا، مقدامًا، وكان فيه كرم وحشمة، ورئاسة، قيل: إنه حج مرة ففرق في أهل الحرمين أموالاً كثيرة، وغلالاً وثيابًا. تخرج عن الوصف، حتى أنه لم يدع بالحرمين فقيرًا، وبعد هذا مات وأكبر شهوته رغيف خبز. وكان في شونته من الغلال ما يزيد عن أربعمائة ألف أردب.
وكان سلار كبير الأمراء في عصره، وافتتح بأشياء من الملابس لم تعرف قبله، معروفة به. وتوجه في سنة تسع وتسعين إلى دمشق، فقرر عز الدين حمزة القلانسى في وزارة دمشق، وابن جماعة في القضاء، ومهد أمورها، ثم عاد بموكب يضاهى الملوك، وكان شهد وقعة شقحب مع الملك الناصر، وابتلى فيها بلاء عظيمًا، وثخنت جراحاته.
وكان كثير البر. بعث إلى مكة في سنة اثنتين وسبعمائة في البحر عشرة آلاف أردب قمح، ففرقت في

وإقطاعاتهم التى كانت لهم في دولة العادل كتبغا - وهو من جنسهم - الذى تخلص منه المماليك، وبالتخلص من كتبغا زال ما كان لهم من امتيازات في دولته، ثم ما تبع من ذلك حيث قتل السلطان لاجين الكثير من أمرائهم وأزال ماكان لهم من امتيازات سياسية وصادر ممتلكاتهم هذا بخلاف من أودع السجون منهم، وكان هؤلاء المتآمرين يطمحون إلى إعادة كتبغا إلى السلطنة من جديد، ولكن مؤامرتهم فشلت في تحقيق ماكانوا يصبون إليه حيث ردتهم المماليك السلطانية على أعقابهم وألقى القبض على معظم طائفة الأوبرانية حيث شنق عدد منهم وسجن البعض الآخر [1].

وبعد أن قضى الناصر محمد على هذه المؤامرة تحرك بالجيش في وسط شدة شديدة حيث أدركهم الشتاء وموسم المطر، وكثر الجراد الذى أتلف كل شيء مما جعل الناس يتشاءمون من ذلك، ووصل الجيش المملوكى إلى حمص في وعسكر عندها في يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول ٦٩٩ هـ / ديسمبر ١٢٩٩م، وفى وقت كان عد الجيش المملوكى لا يتعدى العشرين ألف فارس، كان جيش المغول يفوق المائة ألف فارس، فلما بدأت المعركة وحمى الوطيس لم تستطع القوات المملوكية الصمود في وجه المغول، ولم يبق مع الناصر محمد بن قلاوون إلا القليل من الأمراء، وفر المنهزمون إلى حمص طلبًا للنجاة وتركوا خلفهم كل شيء، ومنها إلى بعلبك التى أغلقت أبوابها في وجوه المنهزمين، فعرجوا على دمشق ومنه عن

فقراء مكة، وأوفى ديون غالب أهل مكة، حتى يقال إنه كتب أسماء جميع من كان بمكة ساكنًا، فأعطى كلا منهم قوت سنة، وكذا فعل بالمدينة.

وكان إذا لعب بالكرة لا يرى في ثيابه عرق، وكذا في غير ذلك.

قال الجزري: وجد له بعد موته ثمانمائة ألف ألف دينار، وذلك غير الجوهر والحلى والخيل والسلاح.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: هذا كالمستحيل، فإن ذلك يكون حمل خمسة آلاف بغل، وما سمعنا عن أحد من كبار السلاطين ملك هذا القدر، لا سيما وهو خارج عن الجوهر وغيره. انتهى كلام الذهبى باختصار.

قال ابن دقماق في تاريخه المسمى بالجوهر الثمين في الملوك والسلاطين قال: ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة، فيها طلب سلار وأحيط بموجود وجميع حواصله، واعتقل بالقلعة، فدخل إليه فأبى أن يأكله، فطولع السلطان بذلك، فمنعه الطعام إلى أن مات جوعًا.

قيل: إنه كان يدخل إليه من أجرة أملاكه في كل يوم ألف دينار. ابن تغربردي، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - (ج ١ / ص ٤٥٩).

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٨٨٢ - ٨٨٤، ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ١٥.

طريق الساحل إلى مصر، وكان وقع هذه الهزيمة على الناس مريرًا إذ دب في نفوسهم الخوف والهلع وخرجوا إلى الطرقات يجأرون خوفًا من بطش المغول (1).

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فإنه اتجه بعد الهزيمة التى لحقت بجيوشه مع فريق من الأمراء وطائفة يسيرة من الجند إلى بعلبك تاركًا خلفه كثيرًا من المؤن والذخائر وتابع سيره حتى دخل دمشق، غير أنه لم يكد يصل إليها حتى جاءت الأخبار بزحف غازان على هذه المدينة بعد استيلائه على ماكان بحمص من الذخائر وخزائن السلطان، فوقع الرعب في قلوب الأهلين وخرجت النساء باديات الوجوه وترك الناس حوانيتهم وتجارتهم وأموالهم وازدحموا جميعًا على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ودفعوا الأجور الباهظة في سبيل نقلهم على الخيل والحمير، بل توجه كثير من الأهالى إلى مصر وتركوا دمشق خاوية ليس بها غير جماعة اتفقوا فيما بينهم على اختيار وفد من كبرائهم وعلمائهم لطلب الأمان من غازان، كان من بينهم قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة (2)، وشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية وبعض الفقهاء والقراء والأعيان، وقد بذل لهم غازان الأمان وقرئ في دمشق على الناس وقد نص على: " بقوة الله تعالى. ليعلم أمراء التومان والألف والمائة وعموم عساكرنا من المغول والتازيكا والأرمن والكرج وغيرهم ممن هو داخل تحت طاعتنا. إن الله لما نور قلوبنا بنور الإسلام وهدانا إلى ملة النبى عليه السلام{أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾} [الزمر: ٢٢]. ولما سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طرائق الدين،

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٨٨٨، ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ١٧، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٧٨.

(٢) قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الكنانى الحموى بمصر، له معرفة بفنون، وعدة مصنفات، حسن المجموع، كان ينطوى على دين وتعبد، وتصون وتصوف، وعقل ووقار، وجلالة وتواضع، درس بدمشق، ثم ولى قضاء القدس، ثم قضاء الديار المصرية، ثم قضاء الشام، ثم قضاء مصر، وولى مشيخة الحديث بالكاملية، ومشيخة الشيوخ، وحمدت سيرته ورزق القبول من الخاص والعام، وحج مرات وتنزه عن معلوم القضاء لغناه مدة، وقل سمعه في الآخر قليلاً فعزل نفسه، ومحاسنه كثيرة ومن شعره:

لم أطلب العلم للدنيا التى ابتغيت ::: من المناصب أو للجاه والمال

لكن متابعة الأسلاف فيه كماكانوا فقدر ما قد كان عن حالي.

أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٢ / ٣٥.

غير متمسكين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام. وكان أحدهم إذا تولى{سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ} [البقرة: ٢٠٥] الآية. وشاع أن شعارهم الحيف على الرعية، ومد الأيدى الباغية إلى حريهم وأموالهم، والتخطى عن جادة العدل والإنصاف، وارتكابهم الجور والاعتساف، حلمتنا الحمية الدينية والحفيظة الإسلامية على أن توجهنا إلى تلك البلاد لإزالة هذا العدوان، مستصحبين للجم الغفير من العساكر، ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا الله تعالى بحوله وقوته لفتح تلك البلاد أن نزيل العدوان والفساد، وبسط العدل في العباد، ممتثلين الأمر المطاع الإلهي{ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ } [النحل: ٩٠] الآية.

وإجابة إلى ما ندب إليه الرسول ﷺ: **﴿المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم، وما ولوا﴾**. وحيث كانت طويتنا مشتملة على هذه المقاصد الحميدة، والنذور الأكيدة، مَنَّ الله علينا بتبلج تباشير النصر المبين، وأتم علينا سكينته، فقهرنا العدو الطاغية، والجيوش الباغية. فرقناهم أيدى سبأ، ومزقناهم كل ممزق، حتى جاء الحق وزهق الباطل، فازدادات صدورنا انشراحًا للإسلام، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام، منخرطين في زمرة من حبب إليهم الإيمان، فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثقة، والنذور المؤكدة، فصدرت مراسمنا العالية أن لا يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها بدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة، وآمال مفسوحة، بعمارة البلاد، وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة. وكان في هذا الهرج العظيم وكثرة العساكر تعرض بعض نفر يسير إلى بعض الرعايا وأسرهم، فقتلنا منهم ليعتبر الباقون، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر، وليعلموا أنا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة، وأن لا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان من اليهود والنصارى والصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا، لأنهم من جملة الرعايا. قال عليه السلام: **﴿الإمام الذى على الناس راع وهو مسؤول عنهم﴾**. فسبيل القضاة والخطباء والمشايخ والعلماء والشرفاء والأكابر وعامة الرعايا الاستبشار بهذا النصر الهني، والفتح السني. وأخذ الحظ الوافر من الفرح والسرور، مقبلين على الدعاء لهذه الدولة

القاهرة، والمملكة الظاهرة ".

فلما فرغ من قراءته نثر عليه ذهب وفضة بالمقصورة، وضجت العامة، ودعوا للملك، وسكن جأشهم بعض الشيء [١].

على أن المغول لم يلتزموا بالأمان المبذول لأهل دمشق، إذ سرعان مانزل غازان على دمشق وعاثت جيوشه فسادًا في ظاهر المدينة وامتدت أيدى جنده إلى بيت المقدس والكرك تنهب وتأسر، ونزل بدمشق ما نزل بغيرها من مدن الشام، فأخذت أموال أهلها بالباطل، ولم تسلم من المغول إلا قلعة دمشق الحربية التى اعتصم بها وإليها أرجواش المنصورى وحال دون استيلاء المغيرين، وقد تحدث معه في تسليمها الأمير قبجق وبعض الأمراء الذين التجأوا إلى غازان وأغروه بمهاجمة بلاد الشام وقالوا له: دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها؛ فأجابهم: دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها، ثم وبخهم ولم يسلم قلعة دمشق، وتهيأ للقتال والحصار؛ واستمر على حفظ القلعة. ثم ترادفت قصاد غازان إلى أرجواش هذا، وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة؛ فثبته الله تعالى ومنع ذلك بالكلية وملك قازان دمشق وخطب له بها في يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر. وصورة الدعاء لغازان أن قال الخطيب: " مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان " وصلى الأمير قبجق المنصورى وجماعة من المغل بالمقصورة من جامع دمشق؛ ثم أخذ التتار في نهب قرى دمشق والفساد بها، ثم بجبل الصالحية وغيرها، وفعلوا تلك الأفعال القبيحة، ثم قرروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرة، وحصل على أهل دمشق الذل والهوان وطال ذلك عليهم، وعمل الشيخ كمال الدين الزملكانى في ذلك قوله:

لهفى على جلق يا شرما لقيت ::: من كل علج له في كفره فن
بالطم والرم جاؤوا لا عديد لهم ::: فالجن بعضهم والجن والبن

وللشيخ عز الدين عبد الغنى الجوزى في المعنى:

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٣ / ٤١٤.

بلينـــا بقـــوم كـــالكلاب أخســـة ::: علينا بغارات المخاوف قـــد شـــنوا
هم الجن حقًّا لـــيس في ذاك ريبـــة ::: ومع ذا فقد والاهم الجـــن والـــبن

ولابن قاضى شهبة الطويل:

رمتنا صروف الدهر حقّـا بســبعة ::: فما أحد منـــا مـــن الســـبع ســـالم
غـــلاء وغـــازان وغـــزو وغـــارة ::: وغـــدر وإغبـــان وغـــم مـــلازم

وفى المعنى يقول أيضًا الشيخ علاء الدين الوداى وأجاد الطويل:

أتى الشام مع غازان شيخ مســلك ::: على يده تـــاب الـــورى وتزهـــدوا
فخلوا عن الأموال والأهـــل جملـــة ::: فمـــا منـــهم إلا فقـــير مجـــرد

ودامت هذه الشدة على أهل دمشق والحصار عمال في كل يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش (١).

ولـم يتمتـع أهـالى دمشـق بـالأمن والطمأنينـة إذ شـدد المغـول الحصـار علـيهم واشتطوا في جمع الأموال حتى عجز كثير من الناس عن دفع مافرض عليهم، واشتد الغلاء في دمشق، وكثرت القتلى في الطرقات من الجنود والعامة، ولم ينج من تلك الشدة أحد من الناس لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والفقهاء والقراء والعلماء حتى امتنع الناس عن الخروج من بيوتهم خوفًا من تسلط المغول، ولما حاول تقى الدين ابن تيمية وجمع من العلماء والفقهاء الوصول إلى غازان ليشكو له سوء معاملة جنوده للناس وما وقع لهم من ظلم وحيف وجور شديد، ويطالبوه بالالتزام بالأمان، ولكن الحاشية المغولية منعتهم من الوصول إليه (٢).

على أن عدم نجاح المغول في احتلال قلعة دمشق لم يثنهم عن بسط نفوذهم وسيطرتهم على بلاد الشام، وقام بتوزيع المناصب العليا أتباعه وأنصاره وعلى من أدخلوه وأغروه بغزو بلاد الشام فعين الأمير قبجق واليا على بلاد الشام، كما أسند إليه ولاية القضاء والخطباء، وتولى الأمير ناصر الدين يحيى بن جلال الختنى الوزارة وقرئ تقليد التعيين على منبر المسجد الأموي، ونص على: " الحمد لله الذى جرّد لنصر هذه الدولة القاهرة سيفًا قاضيًا، وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضيًا

(١) أبو المحاسن ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٨ / ١٢٥.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٨٩١ - ٨٩٣.

قاضيًا، وارتضى لها من أصفيائها من أصبح الملك عنه راضيًا، نحمده ونشكره على نعمته التى أورثتنا الممالك، وجمعت لنا ما بين النصر والفتح وما أشبه ذلك، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنيل النجاة وترفع الدرجات، ونشهد أن محمدًا نبيه المرسل بالهدى والصدق، والمبعوث بدين الحق صلى الله عليه صلاة تنيله الوسيلة والفضيلة، وعلى آله خير آل وأشرف قبيلة، وبعد: فإن الله تعالى لما منّ علينا بالإيمان، وهدانا إلى أشرف الأديان، حمدناه وشكرناه على أنه أضاف إلى ملكنا للدنيا ملكنا للآخرة، وجلل علينا حلل الدين الفاخرة، ونذرنا أن نعم الرعيّة بعدلنا، ونشمل البرية بفضلنا، وأن لا نسمع بمظلوم إلا نصرناه، ولا نطلع على مقهور إلا أنقذناه، فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم، ومن فيها من غاضب وظالم، هاجرنا لنصر الله تعالى ونصرة الدين، وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين، وراسلناهم وأنذرنا، وكاتبناهم وزجرناهم، ووعظناهم فلم تنفع فيهم العظة، وأيقظناهم فلم تكن فيهم يقظة، فلقيناهم بتقوى الله تعالى، فكسرناهم وقطعنا آثارهم، وملّكنا الله تعالى أرضهم وديارهم، وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل، فلم ينج منهم إلا الفريد، ولا سلم إلا البريد، فلما استقر تملكنا البلاد وجب علينا حسن النظر في العباد، فأحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور، وأمعنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور، فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم، ويقيم ما أباد من قوامها القويم، يقول فيسمع مقاله، ويفعل فتقتفى أفعاله، يكون أمره من أمرنا، وحكمه من حكمنا، وطاعته من طاعتنا، ومحبته هى الطريق إلى محبتنا، فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى الكفيلى المجاهدى الأميرى الهمامى النظامى السيفي، ملك الأمراء في العالمين، ظهير الملوك والسلاطين قبجق، هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة، والمحتوى على هذه المناقب الجميلة، وأن له حرمة المهاجرة إلى أبوابنا، ووسيلة القصد إلى ركابنا، فعرفنا له هذه الحرمة، وقابلناه بهذه النعمة، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين، وعلى ما استحفظ قوى أمين، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا، فأقمناه مقامنا في العدل والقضايا، فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية والساحلية والجبلية والعجلونية والرحبية من العريش إلى سلمية، نيابة تامة عامة، كاملة شاملة، يؤتمر فيها بأمره، ويزدجر فيها بزجره، ويطاع في أوامره ونواهيه، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا

يعصيه، له الأمر التام والنظر العام، وحسن التدبير وجميل التأثير والإحسان الشامل لأهل البلاد، واستجلاب الغزاة والقوّاد، وتأمين من يطلب الأمان والطاعة والامتنان متفقًا في الاستخدام والتأمين مع ملك الامراء ناصر الدين، فإن اجتماع الآراء بركة، والهمم تؤثر إذا كانت مشتركة، وكل من أمّناه فإنه أماننا أجريناه على قلمهما ولسانهما.

وقد أنعمنا عليه بالسيف، والسنجق الشريف، والكؤوس، والبائزة الذهب برأس السبع، ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله، وليكونوا تحت حكمه رفعة لقدره، وتنويهًا باسمه، وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين والصدور والأعيان والجمهور بأن يتحققوا أنه نائبنا في السلطنة الشريفة، فإن له هذه المنزلة المنيعة، وليطيعوه طاعة تزلفهم لديه وتقربهم إليه، ويحصل لهم بها رضاه عنهم وإقباله عليهم وقربهم منه، وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على ما يحبّ.

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه، وخشيته في نقضه وإبرامه وتعظيم الشرع وحكامه، وتنفيذ قضية كل قاض على قول إمامه وليعتمد الجلوس للإنصاف والعدل، وأخذ حق المشروف من الأشراف، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه، وليكف الكفّ العادية عن كل من يتعدى إليه، وقد تقدم من الأمر بالآثار الجميلة في الشام المحروس ما تشوقت إليه الأعين وتاقت إليه النفوس، وقد رده الله سبحانه إليهم ردًّا جميلاً، فليكن بمصالح الدولة ومصالح الرعية كفيلاً، والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلاً ويوضح له إلى مراضي الله ومراضينا دليلاً، بمنّه ولطفه... " [(١)].

وقد ظل أهل دمشق يعانون كثيرًا من الضيق حتى عاد غازان إلى بلاده في جمادى الأولى سنة ٦٩٩هـ، ولكن كان في عزمه العودة من جديد لأخذ مصر من أيدى المماليك وفى ذلك يقول: " إننا نرجع إلى بلادنا وقد تركنا بالشام ستين ألفًا من

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ /٣٦٦ - ٣٦٧.

جيشنا، وإنا سنعود في الخريف لأخذ الديار المصرية " (١).

بعد أن أقرَّ في نيابة دمشق الأمير قبجق، وأقام " قطلوشاه " على الحامية المغولية ببلاد الشام، ثم مالبث " قطلوشاه " أن لحق بغازان، ومن ثم انفرد " قبجق " بتصريف الأمور في دمشق وبلاد الشام، وأراد أن يمد جسور المودة بينه وبين المماليك في مصر فرحل إلى مصر بصحبة عدد من الأمراء، وما إن غادر قبجق بلاد الشام إلى مصر حتى خرج أرجواش من قلعة دمشق التى كان يحفظها من سيطرة المغول، ونادى في الناس: " احفظوا البلد والزموا الأسوار وأخرجوا العدد " وما لبث أن أصبح يشرف بنفسه على شئون دمشق ثم أصدر أوامره بأن يذكر اسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في الخطبة مقرونًا باسم الخليفة العباسى بالقاهرة، وكان لهذا التغيير رنة فرح فى قلوب الأهالى (٢).

أما موقف الناصر محمد فإنه لما عاد إلى مصر أخذ يعد العدة لمحو العار الذى لحق به من جراء الهزيمة التى أوقعها المغول بجنده، ففرض ضرائب جديدة ورغب الأثرياء في التبرع بالمال حتى يتمكن الجيش المصرى من صد المغول، كما أنفذ السلطان إلى نواب القلاع ببلاد الشام يأمرهم بحمايتها، كما كتب إلى قبجق وغيره من الأمراء يدعوهم إلى طاعته، فأجابوه إلى طلبه (٣).

يقول المقريزي: " ثم أخذ السلطان الناصر في التجهيز للمسير إلى الشام ثانيًا، وشرع الأمراء في الاهتمام بأمر السفر، وجمعوا صناع السلاح للعمل. وأخذ الوزير في جمع الأموال للنفقة، وكتب إلى أعمال مصر بطلب الخيل والرماح والسيوف من سائر الوجهين القبلى والبحري، فبلغ القوس الذى كان يساوى ثلاثمائة درهم إلى ألف درهم، وأخذت خيول الطواحين وبغالها بالأثمان الغالية، وطلبت الجمال والهجن والسلاح ونحو ذلك. فأبيع ما كان بمائة بسبعمائة وبألف، ونودى بحضور الأجناد البطالين، فحضر خلق كثير من الصنائعية، ونزلوا أسماءهم في البطالين. وفرقت

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٢ / ٤٢٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٨٦.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٨٩٧ - ٩٠٠، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٨٦.

أخباز المفقودين، ورسم لكل من أمراء الألوف بعشرة من البطالين يقوم بأمرهم، ولكل من الطبلخاناه بخمسة، ولكل من العشراوات برجلين. واستخدم جماعة من الأمراء الغزاة المطوعة احتسابًا.

واستدعى مجدى الدين عيسى بن الخشاب نائب الحسبة ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الرعية للنفقة على العساكر، فأحضر فتوى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام للملك المظفر قطز، بأن يؤخذ من كل إنسان دينار، فرسم له سلار بأخذ خط الشيخ تقى الدين محمد بن دقيق العيد، فأبى أن يكتب بذلك، فشق هذا على سلار واستدعاه وقد حضر عنده الأمراء، وشكا إليه قلة المال وأن الضرورة دعت إلى أخذ مال الرعية لأجل دفع العدو، وأراد منه أن يكتب على الفتوى بجواز ذلك فامتنع، فاحتج عليه ابن الخشاب بفتوى ابن عبد السلام، فقال: لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وفضة وحلى نسائهم وأولادهم هم ورأه، وحلف كلاً منهم أنه لا يملك سوى هذا، كان ذلك غير كاف، فعند ذلك كتب بأخذ الدينار من كل واحد. وأما الآن فيبلغنى أن كلا من الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذى يستنجى منه في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر، وقام عنهم [(١)] فطلب ناصر الدين محمد ابن الشيخي متولب القاهرة، ورسم له بالنظر في أموال التجار ومياسير الناس، وأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله.

فما أهَلَّ جمادى الأولى حتى استجد عسكر كبير، وغصت القاهرة ومصر وما بينهما بكثرة من ورد من البلاد الشامية حتى ضاقت بهم المساكن، ونزلوا بالقرافة الخمور وشق ظروفها على يد ابن تيمية " [(٢)].

ولما أتم السلطان إعداد حملته، خرج من القاهرة متجها إلى بلاد الشام ثم تبعه الجيش بقيادة الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير الأستادار، فتقابلا مع

---

(١) وكان الشيخ قصد بهذا تسميع الأمير سلار حيث جهز بنته لما زوجها من أمير موسى ابن أستاذه الملك الصالح، والأمير بيبرس حيث جهز ابنته لما زوجها من بُرلغى قريب السلطان، وكان كل منهما قد جهز بنته بما لا يوصف ولا يضبط. بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٣٧١.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٨٩٨.

الأمير قبجق وأتباعه في منتصف الطريق بين غزة وعسقلان، وطلبا إليهما التوجه إلى السلطان بالصالحية، فلبوا دعوته. ولما بلغ السلطان أمر قدومهم ركب إلى لقائهم وبالغ في إكرامهم، ثم عاد بهم إلى قلعة ا لجبل حيث عفا عنهم وخلع عليهم وعهد إلى قبجق بولاية الشوبك إجابة إلى طلبه، ومالبث أن عاد الأميران بيبرس وسلار على رأس الجيش المتجه إلى دمشق حيث رحب السلطان بمقدمهما (١).

وقد واصل الجيش المصرى سيره إلى بلاد الشام لإقرار الأمن في هناك وإشعار الناس بعودة الحكم لدولة المماليك وعودة الحكم الإسلامى من جديد، وتمكن الجيش المصرى من دخول دمشق يوم السبت العاشر من شعبان ٦٩٩هـ / أول مايو ١٣٠٠ م، وعاد الحكم الإسلامى مرة أخرى إلى دمشق بعد خروج قوات غازان، ثم أرسل الأمير سلار جيشًا إلى حلب فدخلها وقتل من كان بها من جند غازان، ولم يفلت منهم إلا القليل الذين لحقوا ببلاد المغول، وأخبروا " غازان " بما كان من دخول قبجق في طاعة الملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتم توزيع النواب على ولاياتهم " واستقر كل نائب في مملكته " حيث تم تعيين جمال الدين الأفرم نائبًا للسلطنة بالشام حيث تتبع جمال الدين الأفرم كل من كان بدمشق من المفسدين الذين تولوا جمع المال من الرعية في أيام غازان، وكذلك الذين أفشوا أسرار الناس، حيث وقعت عليهم العقوبات (٢).

ثم خلع سلار على الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وأنعم عليه بعشرة آلاف درهم. وبعد أن عادت الأوضاع في بلاد الشام عادت إلى حظيرة دولة المماليك، سار الأميران بيبرس وسلار بالعسكر في شهر رمضان سنة ٦٩٩ هـ / مايو ١٢٠٠م، وعادوا إلى مصر فاستقبلهم السلطان والناس استقبالاً حسنًا (٣).

على أن العداء لم ينته بين المغول والمماليك، فقد ذاع في المحرم سنة ٧٠٠ هـ بدمشق نبأ مسير غازان إلى بلاد الشام، فلما وصل الناصر محمد نبأ مسير غازان

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٠٠ - ٩٠٢، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٨٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٠١، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ / ١٢، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٥٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٠٢، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك، ص ١٥٨.

على بلا د الشام أخذ الأمر على محمل الجد وأخذ يعد العدة لملاقاة المغول مرة ثانية والدفاع عن بلاد الشام، ولما أتم الاستعدادات تحرك بالجيش إلى غزة في وقت جاءت إليه الأخبار بعبور " غازان " بقواته نهر الفرات باتجاه بلاد الشام، ولكن الناصر محمد لم يواصل المسير مع الجيش من غزة باتجاه المغول وذلك بسبب الشدائد الكثيرة التى واجهت الجيش بسبب الأمطار الثلوج التى توالت لمدة أربعين يومًا مما أدى إلى هلك كثير من دواب الجيش وتلف المهمات العسكرية وارتفعت الأسعار إلى الضعف، فأصيب الناصر محمد بالوهن والإرهاق وآثر العودة إلى مصر في نهاية ربيع الأول ٧٠٠هـ / يناير ١٣٠١م (١).

أما فيما يتعلق بموقف غازان فإنه بعد أن عبر الفرات سار متجهًا إلى أنطاكية، غير أن شدة البرد حملته على عدم مواصلة الزحف، فرجع أدراجه بعد هجومه على أنطاكية وجبل السماق حلب ونهبه الأموال وأسره العدد الوفير من الرجال، حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم، وحالت الأمطار الغزيرة والثلوج المتكاثفة دون دخول المغول دمشق، أضف إلى ذلك أن معظم خيول وإبل جيش غازان قد نفقت، وأمام هذا لم يجد بُدًّا من العودة إلى بلاده بعساكره وخذلهم الله وردهم خائبين " ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال " وعاد أهل الشام إلى منازلهم بعد أن كانوا قد هجروها خوفًا من بطش المغول، وعاد الجيش المصر بقيادة نائب السلطنة من معسكره عند المرج بعد أن قضى هناك أربعة أشهر بعد أن اطمأن على عودة غازان إلى بلاده (٢).

وكان غازان يأمل أن تساعده الدول الأوربية في انتزاع سورية من قبضة المماليك، فأرسل إلى ملكى إنجلترا وفرنسا عدة سفارات تطلب العون ضد المماليك، فلم يلق طلبه قبولاً إذ كان طلبه أقرب للخضوع له منه للتحالف أو التعاون (٣).

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٠٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ / ١٥ - ١٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٠٩، أبوالمحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٣٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ / ١٦، ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٤٦.

(٣) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٩٠، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٧٤.

ولما يئس غازان من مناصرة ملوك أوربا له، اتجه إلى مهادنة سلاطين المماليك فأرسل في رمضان سنة ٧٠٠ هـ / مايو ١٣٠١ م رسالة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع وفد مكون من الفقيه كمال الدين موسى بن يونس قاضى الموصل [١]، والأمير ناصر الدين على خواجا، وقد عاب غازان في هذه الرسالة على المماليك الهجوم على أملاكه من غير سبب، وتوعده الانتقام إذا وصل لعلمه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم ومقاتلتهم بنواحى حلب والفرات، وناشده الله والدين أن يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاد المماليك من الخراب، وطلب منه أخيرًا أن يعد له الهدايا والتحف[٢]، وقد نصت الرسالة على: " بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمدية، فرمان السلطان محمود غازان، ليعلم السلطان المعظم الملك الناصر أنه في العام الماضى بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا وأفسدوا فيها، لعناد

---

(١) الشيخ العلامة كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك الفقيه الشافعي، كان إمام وقته في مذهب الشافعى وغيره، وكان يشتغل الحنفيون عليه في مذهب أبى حنيفة، ويحل الجامع الكبير في مذهب أبى حنيفة وكان متقنًا علم المنطق والطبيعى والإلهي، وكان إمامًا مبرزًا في العلم الرياضي، وأتقن المجسطى وأقليدس والموسيقى والحساب بأنواعه، وكان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والإنجيل، وشرح لهم هذه الكتابين شرحًا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضح لهم مثله، وكان إمامًا في العربية والتصريف، وكان يقرئ كتاب سيبويه والمفصل وغيرهما، وكذلك كان إمامًا في التفسير والحديث، وقدم الشيخ أثير الدين الأبهرى واسمه المفضل بن عمر بن المفضل إلى الموصل، واشتغل على الشيخ كمال الدين المذكور، وكان الشيخ أثير الدين الأبهرى المذكور حينئذ إمامًا مبرزًا في العلوم، ومع ذلك يأخذ الكتاب ويجلس بين يديه ويقرأ عليه.

قال القاضى شمس الدين بن خلكان: ولقد شاهدت بعينى أثير الدين الأبهرى وهو يقرأ المجسطى على الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور، واستمر سنين عديدة يشتغل عليه، وكان الأثير إذ ذاك صاحب تصانيف، يشتغل فيها الناس، وقصد تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن، المعروف بابن الصلاح، الفقيه الشافعي، الشيخ كمال الدين المذكور، وسأله في أن يقرئه المنطق سرًّا، وتردد ابن الصلاح إلى الشيخ كمال الدين مدة يقرأ عليه المنطق ولا يفهمه، فقال له ابن يونس المذكور: يا فقيه، المصلحة عندى أن تترك الاشتغال بهذا الفن. فقال له ابن الصلاح: ولم ذلك؟ فقال: لأن الناس يعتقدون فيك الخير، وهم ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد، فكأنك تفسد عقائدهم فيك، ولا يصح لك من هذا الفن شيء، فقبل ابن الصلاح إشارته، وترك قراءته، وكان الشيخ كمال الدين بن يونس المذكور يتهم في دينه، لكون العلوم العقلية غالبة عليه، وكانت تعتريه غفلة لاستيلاء الفكرة عليه، فعمل فيه بعضهم.

أجدك إن قد جاد بعد التعبس غزال بوصل لى وأصبح مؤنسي.

وعاطيته صهباء من فيه مزجهاكرقة شعرى أو كدين ابن يونس.

أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ١ / ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٨٩.

الله وعنادنا، كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة وأحوال شنيعة من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة، فأنفنا من تهجمهم، وغرنا من تقحمهم، وأخذتنا الحمية الإسلامية، فحدتنا على دخول بلادهم ومقابلتهم على إفسادهم، فركبنا بمن كان لدينا من العساكر، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر، وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا، سلكنا سنن المرسلين، واقتفينا آثار المتقدمين، واقتدينا بقول الله تبارك وتعالى " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " وأنفذنا صحبة يعقوب الكرجي جماعة من القضاة والأئمة الثقات، وقلنا: " هذا نذير من النذر الأولى، أزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشفة ".

فقابلتم ذلك بالإصرار، وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالأضرار، وأهنتموهم وسجنتموهم، وخالفتم سُنن الملوك في حسن السلوك، فصبرنا على تماديكم في غيكم وإخلادكم إلى بغيكم إلى أن نصرنا الله وأراكم في أنفسكم قضاة، " أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله "، وظننا أنهم حيث تحققوا كُنه الحال، وآل بهم إلى ما آل، أنهم ربما تداركوا الفارط من أمرهم، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم، وأوجه إلينا وجه عذرهم، وأنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى الديار المصرية رُسلاً لإصلاح تلك القضية، فبقينا بدمشق غير متحثحثين، وتثبطنا تثبط المتملكين المتمكنين، فصدّهم عن السعى في صلاح حالهم التواني، وعللوا نفوسهم بالأماني.

ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا، أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلتقونا على حلب أو الفرات، وأن عزمهم مصر على ذلك لا سواه، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقياهم، ووصلنا الفرات مُرتقبين ثبوت دعواهم، وقلنا لعلهم وعساهم، فما لمع لهم بارق، ولا ذرّ لهم شارق، فتقدّمنا إلى أطراف حلب، وتعجبنا من بطائهم غاية العجب، فبلغنا رجوعهم بالعساكر، وتحققنا نكوصهم عن الحرب، وفكرنا أنه متى تقدّمنا بعساكرنا الزاخرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أخرب البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، وعم ضرر العباد، وخراب البلاد، فعدنا بفتيًا عليها، ونظرة لطف من الله إليها.

وها نحن أيضًا الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة، ومُستعملون المجانيق وآلات الحرب، وعازمون بعد الإنذار، {

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء: ١٥].

وقد سيّرنا حاملى هذا الفرمان الأمير الكبير ناصر الدين بن على خواجا، والإمام العالم ملك القضاة كمال الدين موسى بن يونس، وقد حملناها كلامًا يُشافهانهم بهن، فليثقوا بما تقدمنا به إليهما، فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما، لنكون كما قال الله تعالى:{قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾} [الأنعام: ١٤٩]، فتُعدّون لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تداركوا الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلوبة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم.

فليُمعن السلطان لرعيته النظر في أمره، فقد قال ﷺ :﴿من ولاّه الله أمرًا من أمور هذه الأمة واحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلّته وفقره". وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر، " والسلام على من اتبع الهدى﴾.

كتب في العشر الأول من شهر رمضان سنة سبعمائة بجبال الأكراد، والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله الطاهرين (١).

ولما وصل هذا الوفد برسالة غازان إلى القاهرة استقبل بالحفاوة والتكريم، ثم دعى إلى قلعة الجبل حيث اجتمع الأمراء والعسكر وكبار رجال الدولة، وبدأ القاضى كمال الدين موسى بن يونس قاضى الموصل - أحد سفراء غازان - في الحديث حيث خطب خطبة بليغة تحدث فيها عن أهمية الصلح والسلام بين الدولتين المملوكية والمغولية، وقد تحقق الملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ورجال دولته من نوايا غازان عن طريق سؤال القاضى كمال الدين وقالوا له: أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء فنحن نحلف لك أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى، ورغبوه غاية الرغبة؛ فحلف لهم بما يعتقده أنه ما يعلم من قازان وخواصه غير الصلح وحقن الدماء ورواج التجار ومجيئهم وإصلاح الرعية. ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٣٨٧ - ٣٨٨.

حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحًا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم (١).

وبعد أن تأكد الناصر محمد بن قلاوون ورجال دولته من نوايا غازان السلمية وأحسوا بالصدق من كلام القاضى كمال الدين موسى بن يونس قاضى الموصل بعث الناصر محمد رسالة إلى غازان فند له فيها ماورد في رسالته وأكد له فيها أن المغول هم الذين يبدأون دائمًا بالعدوان، كما ذكر له أنه لن يهاديه حتى يبدأ هو بإرسال الهدايا إليه، وعاب على غازان إذلال المسلمين في دمشق وما جاورها من بلاد وتخريبه المساجد والآثار مما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وختم الناصر كتابه لغازان مؤكدًا له استعداده لمصادقته إذا جنح للسلم، وأبعد الكفار الذين لايحل له أن يتخذهم بطانة له (٢) وفيما يلى نص الكتاب: " فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام، ورعينا له حق القصد فتلقيناه منا بسلام، وتأملناه تأمل المتفهم لدقائقه، المستكشف عن حقائقه، فألفيناه قد تضمن مؤاخذة بأمور، هم بالمؤاخذة عليها أحرى، معتذرًا في التعدى بما جعله ذنوبًا لبعض طالب بها الكل، والله يقول: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [الأنعام: ١٦٤].

أما حديث من أغار على ماردين فمن رجّالة بلادنا المتطرفة، وما نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة، والأحوال الشنيعة. وقولهم إنهم أنفوا من تهجّمهم، وغاروا من تقحمهم، واقتضت الحمية ركوبهم في مقابلة ذلك، فقد تلمّحنا هذه الصورة التى أقاموها عذرًا في العدوان، وجعلوها سببًا إلى ما ارتكبوه من طغيان فالجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين، لم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكف يدها الممتدة ولا يغير هممها مستعدة، وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والنفاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق، ولم يزل ملك ماردين ورعاياه منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد، عنهم متولّين، كبر مكرهم، والله تعالى يقول:{وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ} [المائدة: ٥١].

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٨ / ١٤١ - ١٤٢.
(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٩١.

ومن حيث جعلتم هذا جنبًا موجبًا للحمية الجاهلية، وحاملاً على الانتصار الذى زعمتم أن هممكم به مليّة، فقد كان هذا القصد الذى ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجب ذلك فعلها والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار، اتباعًا لقوله تعالى:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا } [الشورى: ٤٠] لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان، وتطأوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهك حرمة البيت المقدس الذى هو ثانى بيت الله الحرام، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإن احتججتم بأن زمام تلك الغارة بيدنا، وسبب تعدّيهم من سببنا، فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأن عدم الصلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك.

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين، واقتفاء آثار المتقدمين في إنفاذ الرسل أولاً، فقد تلمحنا هذه الصورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة، والجواب عن ذلك أنهم ما وصلوا إلاّ وقد دنت الخيام من الخيام، وناضلت السهام عن السهام، وشارف القوم القوم، ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعض يوم، وأشرعت الأسنة على الجانبين، ورأى كلّ خصمه رأى العين، ولا نحن ممن لاحت له رغبة راغب، فتشاغل عنها ولها، ولا ممن يسالم فيقابل ذلك بجفوة النفار والله تعالى يقول:{ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا }

[الأنفال: ٦١]. كيف والكتاب بعنوانه، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: ما أضمر الإنسان شيئًا إلاّ أظهره الله في صفحات وجهه وفلتات لسانه. ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعة في أغمادها، والأسنة مستكنةٌ في أعوادها، والسهام غير مفوقة، والأعنة غير مطلقة، لسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم.

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم، وأبدوه من غليظ كلمهم في قولهم: فصبرنا على تماديكم في غيّكم، وإخلادكم إلى بغيكم، فأى صبر ممن أرسل عنانه إلى المكافحة، قبل إرسال رسل المصالحة، وجاس خلال الديار، قبل ما زعمه من الإنذار والإعذار، وإذا فكروا في هذه الأسباب، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب، علموا الغدر في تأخير الجواب، وما يتذكر إلاّ أولوا الألباب.

وأما ما يتحججوا به مما اعتقدوه من نصرة، وظنوا من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب في كل كرة الكرّة، فلو تأملوا ما ظنّوه ربحًا لوجدوه هو الخسران المبين

ولو أمعنوا النظر في ذلك لما كانوا به مفتخرين، ولتحققوا أن الذى اتفق لهم كان غرمًا لا غنمًا، وتدبّروا معنى قوله تعالى:{إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا} [آل عمران: ١٧٨]. ولم يخف عنهم ما أبلته السيوف الإسلامية منهم، وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التى لو كانت مجتمعة عند اللقاء لما ظهر خبر عنهم، فإنا كنا في مفتتح ملكنا، ومبتدى أمرنا حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد، فلما تحققنا خبركم، وقفونا أثركم، بادرنا نقدّ أديم الأرض سيرًا وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضررًا وضيرًا ونؤدى من الجهاد السنة والفرض، ونعمل بقوله تعالى:{۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ} [آل عمران: ١٣٣].

فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة، وثوقًا بقوله تعالى:{كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً} [البقرة: ٢٤٩]، وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التى كم وطئت موطئًا يغيظ الكفار، فكتب لها به عمل صالح، وسارت في سبيل الله يفتح الله عليها أبواب المناجح، وتعدّدت أيام نصرتها التى لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس، ولما قدرتم أن تنكروها، وفى تعب من يجحد ضوء الشمس، وما زال الله لها نعم المولى ونعم النصير، وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ النصرة:{وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤].

وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجرى المواقف التى هى بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب، وكم من ملك أُستظهر عليه ثم نُصر، وعاوده التأييد فجبره بعدما كُسر، خصوصًا ملوك هذا الدين، فإن الله تكفّل لهم بحسن العقبى فقال سبحانه:{وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨].

وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا، كوننا لم نسّير إليهم رسولاً عند حلولنا بدمشق، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نُزد على أن اعتددنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان، وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان، وأنفقنا جزيل الأموال في جمع العساكر والجحافل، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى:{مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ} [البقرة: ٢٦١].

ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد، فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رغبة عن حث الركاب، وتلبثنا تلبث الراسيات،{وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ} [النمل: ٨٨] وبعثنا طائفة من العساكر لمقابلة من أقام بالبلاد، فما لاح لهم منهم بارق ولا ظهر، وتقدمت فلحقت من حمله على التأخير الغرر، ووصلت الفرات فما وقعت للقوم على أثر.

وأما قولهم إنا ألفينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يلتقوننا على حلب أو الفرات. وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقبين وصولنا، فالجواب على ذلك أنه حين بلغنا حركتهم جزمنا، وعلى لقائهم عزمنا، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله ﷺ الواجب الطاعة على كل مسلم، المفترض المبايعة والمتابعة على كل معترض ومسلّم، طائعين لله ولرسوله في أداء فرض الجهاد، باذلين في القتال بما أمرنا الله غاية الاجتهاد، لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمتابعته، ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله، فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل، وتبلغ بقوة الله في النصر الرجاء والأمل، ووصلت أوائلها إلى أطراف بلاد حماة وتلك النواحي، فلم يقدم أحد عليها، ولا جسر أن يمد حتى ولا الطرف إليها، فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء، والله لا يخلف الميعاد، فعدنا لاستعداد جيوشنا التى لم تزل تندفع في طاعة الله تعالى اندفاع السيل، عاملين بقول الله تعالى:{وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ } [الأنفال: ٦٠].

وأما ما جعلوه عذرًا في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أفسد البلاد مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، فقد فهم هذا المقصود، ومتى ألفت البلاد والعباد منهم هذا الإشفاق؟، ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟، وها آثارهم موجودة، ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة، وهل هذا اعتماد من رمق شخص الإسلام بإنسانه؟، كيف ورسول الله عليه السلام يقول:**المسلم من سلم الناس من يده ولسانه**، وأسارى المسلمين عندهم في أشدّ وثاق، في يد الأرمن والتكفور منهم يخالف ما ادعوه من الإشفاق.

وقد كان المسلمون غزوا عسكر أبغا وقتلوا من قتلوا من التتار، وحصل لهم التمكن في البلاد والاستظهار. واستولوا على ملك آل سلجوق ولا تعرضوا لدار ولا جار، ولا عفوا أثرًا من الآثار، ولا حصل لمسلم منهم ضرر، ولا أوذى في ورد ولا صدر، وكان أحدهم يشترى قوته بدرهمه وديناره، ويأبى أن يمتد إلى أحد المسلمين يد أضراره، هذه سنة أهل الإسلام، وفعل من يريد لملكه الدوام.

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا، وما أبدوه من الاهتمام بجمع العساكر، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل، فالله تعالى يقول:{ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾} [آل عمران: ١٧٣].

وأما قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بأن لا يصدر عن ذلك جواب، ومن قصده الصلح والإصلاح، كيف يقول هذا القول الذى عليه فيه من جهة الله وجهة رسوله أى جناح؟ وكيف يضمر هذه النية، وينجح بهذه الطوية، ولم يخف مواقع هذا القول وخلله؟ والنبى ﷺ يقول: «نية المرء أبلغ من عمله». وبأى طريق تهدر دماء المسلمين التى من تعرض إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مُطالبًا وغريمًا، ومؤاخذًا بقوله تعالى:{ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾} [النساء: ٩٣].

وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد وجمع العساكر التى يكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الإمداد، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرة العُدد، المتكاثرة المدد، المدعوة بالنصر الذى يحفها في الظعن والإقامة، الواثقة بقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة»، المبلغة في دين الله آمالاً، المستعدة لإجابة داعى الله إذ قال:{ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا } [التوبة: ٤١].

وأما رسلهم وهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا، فأكرمنا وفادتهم، وعززنا لأجل مُرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم، هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم، وأنهم ما دُفعوا لأفواه

الخطوب، إلا لما ارتكبوه من ذنوب، وما كان ينبغى أن يُرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا يُندب لهذا المهم إلا من يُجمع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها، ولو أتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها، وقد كان عمه الملك أحمد راسل والدنا السلطان الشهيد، وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب.

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت الآنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلاً ما أمر الله به مجتنبًا ما عنه نهى، وانضم في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنّان، وتجنب التشبه بمن قال الله في حقهم:{قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ} [الحجرات: ١٧]، وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولاً من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلاً، ويروق جوابه وخطابه حتى يتلو كل أحد: يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً. صارت حجتنا وحجة المركبة على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك في سائر الممالك، ومظافرتنا له تكسب الكافرين هوانا، والمُشاهد لتصافينا يتلو قوله تعالى:{وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا} [آل عمران: ١٠٣].

وينتظم إن شاء الله شمل الصلح أحسن انتظام، ويحصل التمسك من الموادعة والمُصافاة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام، وتستقر قواعد الصلح على ما يُرضى الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام (١).

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٣٩٤ - ٣٩٧.

موقعة عرض ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م :

ومن الواضح أن " غازان " لم يكن راغبا في الصلح كما ادعي، إنما كان في حاجة إلى هدنة يستعيد فيها قوته لعدوان جديد، لذلك لم تؤت المراسلات ثمرتها المرجوة، فاستؤنفت الحرب من جديد بعد عام واحد، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة بقيادة القائد قطلوشاه على رأس ثمانين ألف مقاتل ونزلوا على نهر الفرات وتقابلوا مع جيوش أمراء الشام بمكان يقال له الكوم بالقرب من عرض [١] سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م، حيث دارت رحى الحرب بين الفريقين وانتهى الأمر بهزيمة المغول [٢].

موقعة شقحب [٣] - مرج الصفر [٤] ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م :

وعلى ما يبدو أن المغول لم يكونوا يستسلمون بسهولة، فسرعان ما جهزوا جيشًا أكثر عددًا وعدة، فأعاد قطلوشاه السير في مائة ألف من التتار والكرج والأرمن، وأسرع في السير باتجاه بلاد الشام بعد أن ذكر له المنهزمون من المغول في موقع عرض أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يخرج من الديار المصرية بعد وأن ليس بالشام سوى جند الشام، فجد قطلوشاه في السير بقواته بهدف مباغتة المسلمين في الشام قبل مجيء القوات المصرية [٥].

ولما علم الناس بأنباء مسير المغول صوب بلاد الشام وقع الإرجاف والرعب في

(١) بلدة بالشام بين تدمر والرصافة الهاشمية. المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣١.

(٢) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٤ / ٤٨، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٩٧.

(٣) شقحب: قرية في الشمال الغربى من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحى دمشق، المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣٢.

(٤) مرجُ الصُّفّر: مَوْضِعٌ بَيْنَ دِمَشْقَ وَالْجَوْلان وهُوَ سَهْلٌ وَاسِعٌ عَلَى بُعْدِ ٣٧ كمْ عَنْ دِمَشْقَ جَنُوبًا. وَفِى شَرْق قَرْيَةِ شقحب، وَيَشْمَلُ الْيَوْمَ بَعْضَ أَرَاضِى قُرَى: زَاكِيَة، وشقحب، وأركيس، والزريفية، وَغَيْرهَا. جَرَتْ فِيهِ عِدَّةُ مَعَارِكَ حَاسِمَة، مِنْهَا مَعْرَكَةٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الزَّاحِفِينَ إِلَى دِمَشْقَ - بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْيَرْمُوكِ - وَالرُّومِ الْبِيزَنْطِيَّةِ في سَنَةِ ١٤ هـ، وَمَعْرَكَةٌ في أَيَّام بَنِى مَرْوَان، وَمَعْرَكَة بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّلِيبِيِّينَ في سَنَةِ ٥١٩ هـ، وَمَعْرَكَةُ التَّتَار وَجَيْش الْمُسْلِمِينَ في سَنَةِ ٧٠٢ هـ في عَهْدِ السُّلْطَان النَّاصِر مُحَمَّدِ بْن قلاوُون. الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ الْوَارِدَةِ في السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، ١ / ٤١١.

(٥) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٦٧.

قلوبهم وهموا بالرحيل عن بلاد الشام إلى مصر وترك الناس حلب وحماه ولجأوا إلى دمشق وأرادوا الذهاب إلى مصر، ولم يمنعهم إلا النداء الذى نودى به في المدينة وهو: ﴿من خرج حل ماله ودمه﴾ (١).

ولما علم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتحركات المغول جد في الرحيل إلى بلاد الشام لنجدة المسلمين، وكان أمراء المماليك في الشام قد تشاوروا في أمر المغول مابين رأى يقول بانتظار قدوم السلطان بالجيش، ورأى ينادى بضرورة دفع المغول عن بلاد الشام ومنازلتهم إلى حين مجيء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولكنهم خشوا من أن يأخذهم المغول على حين غرة ويفاجئهم في دمشق فرحلوا منها وخرجوا لملاقاة المغول، في الوقت الذى كان السلطان قد وصل إلى بلاد الشام وبلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجهوا إليه بالجيش، فلقوه في يوم السبت ثانى رمضان، وقبلوا له الأرض. ولبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على المحاربة بشقحب تحت جبل غباغب (٢)، وكان " قطلوشاه " قد وقف على أعلى النهر. فوقف في القلب السلطان وبجانبه الخليفة والأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير، وعز الدين أيبك الخازندار وسيف الدين بكتمر أمير جاندار وجمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام وبرلغى وأيبك الحموي، وبكتمر البوبكرى وقطلوبك ونوغاى السلاح دار وأغرلوا الزيني، وفى الميمنة الحسام لاجين أستادار ومبارز الدين سوار أمير شكار، ويعقوبا الشهرزورى ومبارز الدين أوليا بن قرمان، وفى الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماة والعربان، وفى الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير السلاح والأمير قرا سنقر بعساكر حلب والأمير بدخاص نائب صفد، وطغريل الإيغانى وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار، بمضافيهم.

ومشى السلطان والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار السلطان يقف، ويقول الخليفة: يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم ﷺ، والناس في بكاء شديد، ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض، وتواصى بيبرس وسلار على الثبات في

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٥٧.
(٢) وغباغب: قرية في حوران قريبة من دمشق.

الجهاد. وعاد السلطان إلى موقفه، ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفًا واحدًا، وقيل لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه، ولكم سلاحه وفرسه.

فلما تم الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع الليل بعد الظهر من يوم السبت المذكور، وأقبل " قطلوشاه " بمن معه من التوامين وحملوا على الميمنة وقاتلوها،

فثبتت لهم وقاتلتهم قتالاً شديدًا، وقتل الحسام لاجين أستادار وأوليا بن قرمان وسنقر الكافري، وأيدمر الشمسى القشاش وأقوش الشمسى الحاجب والحسام عليّ بن باخل، نحو الألف فارس. فأدركهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في بيبرس والبرجية فأتوه وصدم بهم قطلوشاه، وأبلى ذلك اليوم هو وبيبرس بلاءً عظيمًا، إلى أن كشفا التتار عن المسلمين [(١)].

وانتهى الأمر بأن أوقع المماليك الهزيمة بالمغول وفر " قطلوشاه " إلى الفرات بفلول جيشه، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر في الصحراء من شدة العطش والجوع [(٢)].

لقد كان لموقعة شقحب نتائج بالغة إذ إن المغول لم تقم لهم قائمة بعد هذه الموقعة ذلك أنه قضى على أغلب جيشهم في هذه الموقعة، ولم يعبر " قطلوشاه " مقدم المغول نهر الفرات إلا في القليل من أتباعه وعلم غازان بهزيمة الجيش، فانتشر الحزن في بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها من المدائن إلى لقاء من عاد من جيش المغول سالمًا لاستجلاء الخبر اليقين، إذ للهزيمة أثر سيِّئ على أنفسهم وهم الذين كانوا يتباهون بأنهم قوم لا يعرفون الهزيمة، واستمر الحزن في تبريز شهرين على من فقد في شقحب واغتم غازان غمًّا عظيمًا لما علم بهزيمة جيشه حتى اقترب من الموت، ثم جلس غازان لمحاكمة قطلوشاه وقادة الجيش المنهزم، فأنكر عليهم الهزيمة وَهَمَّ بقتلهم إلا أن بعض الأمراء تشفع فيهم فلم يقتلوا ولكن أبعد قطلوشاه عن البلاط المغولى إلى جيلان وضرب بقية القادة وأهينوا [(٣)].

وكاد غازان يمت كمدًا وحزنًا ليس من هزيمة جيشه الفاجعة في شقحب وحدها ولكن أيضًا من رسالة الملك الناصر محمد بن قلاوون التى يحقر فيها من شأنه ويطلب منه الجلاء عن العراق، ويتوعده أنه سيأتى بجيوشه ليبعده عنها بالقوة، وقد نصت الرسالة على الآتي:

---

(١) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣٣ - ٩٣٤، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٦٠ - ١٦١.
(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٣٣ - ٩٣٤، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ١٦٠ - ١٦١، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ١٩٧.
(٣) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٧١ - ١٧٢.

الحمد لله على ما جدّد لنا من النعمة التامة، وسمح به من الكرامة العامة حين أعاد النعيم إلى كماله، والسرور إلى أتم حاله، فاستأنست النفوس إلى استمرار عوائدها، وارتاحت القلوب إلى معجز فوائدها، وأضاءت شمس المعالي، وطلعت بدورها بالسعد المتوالي، إذ كانت غلطة من الدهر فاستدركها، وسقطة بدت عنه فما تركها، فقرّت بذلك العيون، وتحققت في بلوغ الآمال الظنون، فلله الشكر الجزيل ما أومض في الجو بارق، وسرى في الآفاق نجم طارق.

وبعد: فليعلم الملك الجليل محمود، جامع الجيوش وحاشد الجنود، أنه تظاهر بدين الإسلام، وأشهر ذلك بين الأنام، وأبطن خلاف ما ظهر، وتظاهر بالباطل والحقّ ستر، ثم فعل ما قدره الله عز وجل وما حكم به القدر، فحملنا ذلك على أنه تقدير، وأن ليس يجدى فيما أراد الله عز وجل تدبير، فما لبث الملك إلا أيسر مدّة، وأرسل رسله إلينا مجدّه، وهو يطلب الصلح ويحرّض عليه، ويذكر الإسلام ويندب إليه، وزعم أنه ليس يختار الفساد في الأرض، فإن الواجب علينا وعليه إصلاح ذوى الدين وأنّ ذلك فرض، فعلمنا مقصده في مقاله، وتستر منا بستر يلوح وجه القدر من خلاله، فأكرمن رسله كرامة تليق بفعالنا، وسمعنا رسالتهم وجاوبناهم على مقتضى حالهم لا مقتضى حالنا، وأعدناهم إليه بما هم مصرّون عليه، فعاد رسوله يطلب رسولاً يسمع كلامه وليس يخفى عنا مقصده ومرامه، فأرسلنا إليه ما طلب، وركبناه فرس البغى فيا بئس ما ركب.

فما كان إلا عند وصول رسلنا إليه، فجهز عسكره وأظهر من الغدر ما لم يكن يخفى عليه، وأمرهم بما عاد وباله عليهم، وحرّضهم على ما وجدوه حاضرًا لديهم، ثم تقدم معهم وعدى بهم ماء الفرات، وجهزهم ورجع، وعلم أن الغلبة من قراه، فما كان إلا أن دخلوا البلاد، وعملوا بما أمرهم من الفساد، وتفرقت خيولهم في الأطراف والأوقاف، وقطعوا أيدى الأشجار وأرجل الزروع من خلاف، ونزلوا بالقرب من حلب، وشنوا الغارات وجدّوا في الطلب، وجيوشنا الشامية لهم بالمرصاد، وقد أخلصوا لله تعالى نية الجهاد، وهم يتقدمون إليهم كل وقت ويظهرون لهم الضعف والتأخير ليتوسطوا البلاد ويحصل هناك التدبير، فعاد منهم تومان إلى القريتين، فجهز من جيوشنا إليهم ألفان، فوجدوهم قد أخذوا أغنام التركمان، فوافوهم بالقرب

من عرض فكانا كفرسى رهان، فلم يلبث الباغون ساعة من النهار، حتى عجل الله بأرواحهم إلى النار، وبقيت أجسادهم ملقاة بأرض عرض إلى يوم العرض، ولم يفلت منهم إلا من يفعل الخير إنهم قد صاروا أخيارًا، ثم أخذ منهم جماعة أسارى: كرج، وأرمن، ومغل، ونصارى؛ فما أقنعهم ذلك، ولا اكتفى بأرواحهم مالك، وهموا طالبين الغوطة، ولم يعلموا أن من دونها رماحًا مشروعة وجيادًا مربوطة، وعساكر يتأخرون عنهم قليلاً بعد قليل، وجيوشنا ترصدهم بالغداة والأصيل، فلما عاينوا دمشق المحروسة ظنوا أنهم بدخولها يستبشرون، وما علموا أنهم من حولها إلى جهنم يحشرون، فعبروا عليها وطلعوا إلى جبل يعرف بالمانع، فأخذ الرعب من قلوبهم بالمجامع، وتحققوا أن نتيجة الغدر الهلاك، وأن مصرع البغى ليس لهم منه فكاك، فمالوا إلى جانب البرية للفرار، وطلبوا أطراف الميمنة للذلة والانكسار، فضربت عليهم جيوشنا حلقًا، وسلبوهم أثواب الحياة والبقاء، ودارت بهم الخيول وبثت سنابكها سماء من العجاج نجومها الأسنة، فطارت إليهم عقبان من الجياد قوادمها القوادم وخوافيها الأعنة، وتصوبت عيون السمر إلى قلوبهم كأنها تطلب سويداها، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنها أرادت تروى صداها، فشربوا كأس المنون لما تبلجت صفحات الصفاح، وعانتهم عيون الرماح، وأنشأت لهم الحوافر غمامة من الغبار، ونزلت عليهم أمطار من السهام كمطار الشرار، وأخذتهم رعود من الصهيل وأبرقت في جوانبها بروق من كل سيف صقيل، ولم تغب الشمس حتى افترشوا أديم الأرض والوعر والسهل، والتجأ من بقى منهم إلى جبل يعصمهم من القتل، وباتوا عليه ليلة الأحد، وأيقنوا أن ليس ينجو منهم أحد، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، وأيسوا من الخلاص وقنطوا من السلامة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا أن أرواحهم من أجسادهم قد ذهبت، ونادوا بلسان حالهم، وقد قربت مدّة آجالهم، اعتقنا أيها الملك الرحيم، واعف عنا أيها الملك العظيم، فإننا جميعنا مسلمون ولا تؤاخذنا بما جناه كفارنا المسرفون، فإننا منهم بريئون، فأردنا أن يطلب النصر من حيث عوّدنا من العفو، فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقًا ليذهبوا، وتركناهم من فعالنا يتعجبوا، ففروا فرار الشاة من الأسد، ولم يلتفت منهم والد إلى ولد.

فلو رأيت أيها الملك ذلك اليوم، لبقيت زمانًا يروعك رؤياه في النوم، وما كنت ترى من جيشك إلا قتيلاً أو أسيرًا وكان يومًا على الكافرين عسيرًا فلله درّه من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، والقيد والأسر، وهلك الذين هم ديوية الفرسان، قد قادهم الذل والصغار ورعاة العربان، والكرج قد لحقت بقية آثارهم، وعجل الله بدمارهم، والأرمن وقد سيق من سلم منهم في القيود إلى خزانة البنود.

ولو نظرت عيناك ما جرى من أرض حوران إلى الفرات، لراعك وأرعبك من الهول ما كنت تراه، ولو رأيت أصحابك كيف بقوا طعم الرخم والذباب، لقلت من هول ما شاهدت: يا ليتني كنت ترابًا، وكيف لك بالتراب؟ ولكن روعك من السماع أسهل عليك من العيان، فنظرك إلى من عاد إليك من أصحابك يكفيك في البيان، وإنما لو حضرت لرأيت ذلك المقام مشهود، الذى فيه الملائكة شهود.

ولقد نصحنا لك أيها الملك فما ارعويت، وبذلنا من القول فما رعيت، وركبت من خيل البغى أجرى كُميت، وقلنا لك إن من جرد سيف البغى كان به المقتول، فلم تع القول ولم تصغ لمن يقول، فاستيقظ لنفسك، وتلق هذه المصيبة التى تدخل بها إلى رمسك، ولا يغرك بالله الغرور، واعلم أن ذلك في الكتاب مسطور، واندك المين بالإيمان، ودع عنك ما يسوله الشيطان، فإنه ما يأمرك إلا بما جنيت ثماره، ولا تحصد إلا ما زرعت بذاره.

وأنت تزعم أن الإسلام شريعتك وبه تدين، فنجتمع نحن وأنت على كلمة الإيمان، ولا تعثوا في الأرض مفسدين وتخرج عن بغداد والعراق ونعيدها إلى خليفة رسول الله ﷺ، الذى شرق به ظلام الآفاق، ونتبع نحن وأنت أمره ونؤيد به هذا الدين، ومن فعل غير هذا فعليه اللعنة إلى يوم الدين، لتعلم أنك كما تزعم متمسك بشريعة المسلمين، وإن أنت سولت لك نفسك خلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعن قليل تخلو منك العراق والعجم، ويصير وجودك إلى العدم، وقد أوضحنا لك القول لكيلا تميل، وهديناك إلى أقوم سبيل، ثم تتقدم بإرسال رسلنا المسيّرة إليك في أتم الكرامة، وتسيّر معهم من يوصلهم إلينا في حرز الأمن والسلامة، وترتحل بمن بقى من جيشك إلى طبرستان، وتخلى لمالكها هذه الأوطان.

وبلغنا أنك قلت إن خيلك ورجلك تدخل الديار المصرية، فقد صدقت أنت لكن المنجمين غلطوا في القضية، أما الخيل فإنها دخلت مجنوبة، وأما الرجال فكان في حلوقهم الطبول وبأيديهم الصناجق مقلوبة، فقد صدقت منهم المقال، وتباركت بهذا الفأل، وعن قليل نأتيك برجال تميد من تحتها الأرض وتزحف، فترى ما يهولك حتى تتمنى أن تنجو ولو على بطنك تزحف، فتيقظ من رقدة المنام، وبادر الرحيل، والسلام(١).

وفى الثالث عشر من شوال سنة ٧٠٣ هـ / مايو ١٣٠٣م توفى غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، وقيل في سبب موته أنه أصيب بالحمى الشديدة حزنًا على هزيمة جيشه في شقحب أمام المماليك وبسبب علمه بالمؤامرة التى دبرت لخلعه من الحكم، وقيل: إنه مات مسموما (٢).

وتعتبر شخصية " غازان " من الشخصيات القلقة في التاريخ الإسلامي؛ فقد أسلم وأعلن إسلامه وأظهر احتفاله وفرحه الشديد بالإسلام، وأظهر العدل بين الرعية وحرص على نشر الإسلام بين التتار، وأوقف المد الوثنى باتجاه المنطقة العربية الإسلامية، واستبشر المسلمون بهذا الأمر، وبالرغم من ذلك فقد كانت علاقته بدولة المماليك في أشد حالات العداوة والبغضاء، ولم تفلح مساعى الصلح بين كلا الدولتين المسلمة السنية، وعلى مايبدو أن هذا راجع إلى الرغبة في السيطرة التى كانت تسيطر على المغول بصفة عامة ولم يستطع غازان أن يتخلص منها - بالرغم من إسلامه - ولازمته طيلة حياته بعدما ورثها من أسلافه، كما أن الشام التى كانت تتنازعها كلا الدولتين في عهد غازان كانت يسيل لها لعاب أى حاكم فكيف بنا إذا علمنا أن بلاد الشام كانت بعيدة نوعًا ما عن السلطة المركزية المملوكية في مصر وظن " غازان " أن الحصول عليها سيكون أمرًا ميسورًا، ولاننسى أن المماليك منذ هزيمة المغول في عين جالوت وإقامة الخلافة العباسية في القاهرة وهى تقوم بدور البطولة أمام العالم الإسلامى وتظهر بمظهر المدافع عن مصالح الخلافة العباسية

---

(١) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١ / ٤٢٣ - ٤٢٥.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٣، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٧٣.

والمسلمين بصفة عامة، هذا الدور لم يكن المماليك على استعداد أن يتخلوا عنه تحت أى ظرف من الظروف، في حين - على الأرجح - أن غازان بعد إسلامه كان يتطلع للقيام بهذا الدور ولهذا سعى لإسقاط دولة المماليك وإعادة الخلافة العباسية إلى بغداد تحت إشرافه وسيطرته.

أوليجاتو (١٣٠٤ - ١٣١٦ م):

وعلى ما يبدو أن الصراع الذى وقع بين غازان والمماليك كان سببًا في اعتلال صحة غازان، واشتد به الغضب حين علم بالمؤامرة التى دبرت لخلعه وتولية ألفرنك بن كيخاتو بدلا منه، فمات كمدًا في ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بعد أن قضى في الحكم تسع سنوات (١).

على أى حال فقد خلف غازان على العرش " أولجايتو بن أرغون بن أبغا " (المعروف بخدابندا) (٢) ولقب نفسه بالملك غياث الدين، وبدأ حكمه بعلاقات ودية مع المماليك والناصر محمد بن قلاوون وأوفد إلى الناصر محمد السفراء يؤكد له فيه الحرص على توثيق أواصر الصداقة والسلام، وتضمن كتابه جلوسه على تخت الملك بعد أخيه محمود غازان، وخاطب السلطان بالأخوة، وسأل إخماد الفتن، وطلب الصلح، وقال في آخر كلامه: " عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ". فأجيب

(١) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٣.

(٢) وخدابندا: معناه عبد الله بالفارسي، غير أن أباه لم يسمه إلا خربندا، وهو اسم مهمل معناه: عبد الحمار. وسبب تسميته بذلك أن أباه كان كلما ولد له ولد يموت صغيرًا، فقال له بعض الأتراك: إذا جاءك ولد سمه اسمًا قبيحًا يعش، فلما ولد له هذا سماه خربندا في الظاهر واسمه الأصلى أبحيتو، فلما كبر خربندا وملك البلاد كره هذا الاسم واستقبحه فجعله خرابندا، ومشى ذلك بمماليكه، وهدد من قال غيره، ولم يفده ذلك إلا من حواشيه خاصة. ولما ملك خربندا أسلم وتسمى بمحمد، واقتدى بالكتاب والسنة، وصار يحب أهل الدين والصلاح. وضرب على الدرهم والدينار اسم الصحابة الأربعة الخلفاء، حتى اجتمع بالسيد تاج الدين الآوى الرافضي، وكان خبيث المذهب، فما زال بخربندا، حتى جعله رافضيًا وكتب إلى سائر مماليكه يأمرهم بالسب والرفض، ووقع له بسبب ذلك أمور. قال النويري: كان خربندا قبل موته بسبعة أيام قد أمر بإشهار النداء ألا يذكر أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، وعزم على تجريد ثلاثة آلاف فارس إلى المدينة النبوية لينقل أبا بكر وعمر رضى الله عنهما من مدفنهما، فعجل الله بهلاكه إلى جهنم وبئس المصير، هو ومن يعتقد معتقده كائنًا من كان.
أبو المحاسن بن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٣ / ٢٨٧.

وجهزت له الهدية، وأكرم رسوله [1].

وعلى ما يبدو أن " أوليجاتو " لم يكن على استعداد لإقامة السلم والصلح مع دولة المماليك والملك الناصر محمد بن قلاوون ولم يكن صادقا في طلبه، وأن الذى دفعه إلى ذلك هو محاولة مغول الشمال (القبيلة الذهبية) التحالف مع المماليك ضد مغول الجنوب، فأراد " أوليجاتو " برسالته تلك وإظهار نوايا الصلح والسلم إجهاض محاولة التحالف بين مغول الشمال ودولة المماليك حتى لاتقع دولته بين فكى كماشة، وكان له ما أراد حيث صرف الناصر محمد بن قلاوون النظر عن التحالف مع مغول الشمال بعد ورود كتاب أوليجاتو إليه [2].

وسرعان ما أظهر " أوليجاتو " العداوة للمماليك خاصة وللسنة عامة بعد أن اعتنق المذهب الشيعى [3]، ليس ذلك فقط بل سعى إلى نشره في الجهات الغربية من دولته وأمر الخطباء أن لايذكروا في خطبهم إلا عليّ بن أبى طالب وولديه وأهل البيت، ولم يتوقف عند هذا الحد بل أرسل السفراء إلى البابا " كلمنت الخامس " و " إدوارد الثانى " ملك إنجلترا، وفيليب الجميل ملك فرنسا يطلب منهم أن يساعدوه في السيطر على بلاد الشام ومصر، إلا أن ملوك أوربا والبابا لم يكترثوا لطلبه، ولا بتحقيق رغبته لأن أحوالهم الداخلية لم تكن تسمح لهم بخوض غمار حرب مع المسلمين خاصة بعد القضاء على باقى الإمارات الصليبية في فلسطين، والتى كانت تعتبر ثغورًا لهم وكان ذلك منذ عام ١٢٩١م عندما استعاد الأشرف خليل بن قلاوون

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٦.

(٢) يقول المقريزي: " وقدم رسل الملك طقطاى صاحب سراى وبر القبجاق في أول ربيع الأول، وأنزلوا بمناظر الكبش، وأجريت لهم الرواتب. ثم حضروا بهديتهم وكتاب ملكهم، وهو يتضمن الركوب لحرب غازان ليكون في المساعدة عليه، فأجيب بأن الله قد كفاهم أمر غازان، وأن أخاه خربندا قد أذعن للصلح، وجهزت له هدية خرج بها مع الرسل الأمير سيف الدين بلبان الصرخدى إلى الإسكندرية، وساروا في البحر. المقريزي، السلوك، ٢ / ٦.

(٣) وقد استمر خرابنده بعض الوقت مقيمًا على السنة إلى أن كانت سنة ٧٠٩ حينما انتقل إلى مذهب الشيعة) بسبب الرافضى (ابن المطهر) الذى ألف له كتاب: " منهاج الكرامة " ودعاه فيه إلى اعتناق مذهب الرافضة بعد أن حسنه له وقبح صورة مذهب أهل السنة في عينه. ابن تيمية لم يكن ناصبيًّا، ١ /٥.

أخر الأراضى العربية التى كان الصليبيون قد استولوا عليها من أيدى المسلمين [(١)].

وكانت الأحداث السابقة كلها عوامل لتأجيج الصراع بين المماليك والمغول، فتحول " أولجايتو " إلى المذهب الشيعى جعله يخالف مذهب عامة المسلمين لا سيما المماليك والخلافة العباسية في القاهرة، كما أن محاولة " أوليجاتو " التحالف مع نصارى الغرب ضد دولة المماليك المسلمة، قد أوقفه في صف أعداء الإسلام والمسلمين، وهناك عامل آخر جعل من الخلاف مستحكمًا بين كلا الدولتين، فقد استقبل الناصر محمد عددًا من معارضى " أوليجاتو " بزعامة الأمير بدر الدين جنغلى بن شمس الدين البابا ورحب بهم وأكرم وفادتهم سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤م ورتب لهم الرواتب وأعطاهم الإقطاعيات الكبيرة، ووزع جماعة منهم على الأمراء [(٢)].

لما فرَّ قراسنقر والأفرم ألد أعداء السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون إلى بلاد المغول وفى صحبتهم عدد من الأمراء المماليك، رحب بهم أوليجاتو ورتب لهم الرواتب السنية ثم استقبل كل منهما على انفراد حيث حسن له قراسنقر عبور الشام وهن عليه أمر الناصر محمد، أما الأفرم فإنه حسن له أخذ بلاد الشام ولكن حذره من قوة الناصر محمد وكثرة عساكره.

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٦، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ٢٧٨، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٤، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ١٧٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٥٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ / ٢٩.

وقد كافأ أوليجاتو هذين الأميرين على المعلومات التى أدليا بها إليه عن حال دولة المماليك، فمنح قراسنقر ولاية مراغة، وأقطع همذان للأفرم (١).

بهروب هؤلاء الأمراء إلى أوليجاتو وتحريضهم له على غزو بلاد الشام، قويت الرغبة داخله في تنفيذ هذه الخطة، ومما قوى عزمه أيضًا أن الناصر محمد كان قد عزل الأمير مهمنا بن عيسى من نيابة ورئاسة الأعراب فأغضبه ذلك ولحق بأوليجاتو وشجعه وحرضه على غزو بلاد الشام، وتحرك خرابندا بقواته نحو الشام، فعلم الناصر بذلك فجمع الجيش واستعرض قواته وكتب إلى نواب الشام بالاستعداد، وسار بالقوات إلى الشام حتى لم يبق بمصر أحد العساكر، وبينما كان الناصر في طريقه بالقوات إلى الشام وردت ألأخبار بأن المغول توجهوا بقواتهم إلى الرحبة، ثم تركوها وعادوا إلى بلادهم - بعد حصار قصير - في ليلة السادس والعشرين رمضان ٧١٢هـ / يناير ١٣١٣م، وكان من سبب عودتهم قلة العلف اللا زم لدوابهم وغلاء الأسعار وموت الكثير منهم بسبب البرودة القارصة، وذكر أيضًا أن نجمة خاتون محظية الملك خرابندا ومغنيته كانت معه في حصار الرحبة، وطلبت من خرابندا

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ١١٥، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٤، ويقول المقريزي، أن نهاية هذين الرجلين ": ومات الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب حلب، ببلاد المراغة، وقد أقطعه إياها ابو سعيد بن خربندا. وكان موته بمرض الإسهال وقد أعيا الملك الناصر قتله، وبعث إليه كثيرًا من الفداوية، فصانه الله منهم، بحيث قتل من الفداوية بسببه نحو مائة وأربعة وعشرين فداويًّا. ولما بلغ السلطان الناصر محمد موته قال: وا لله ما كنت أشتهى موته إلا من تحت سيفي، وأكون قد قدرت عليه وبلغت مقصودى ولكن الأجل حصين.
وكانت له مع الفداوية أخبار طويلة: منها أن السلطان الناصر محمد أعطى يونس التاجر مالاً كثيرًا، وبعثه إلى توريز ليتخذ له بها أصحابًا يثق بهم حتى يرد إليه الفداوية فيأووا عنده، وعرف يونس بمقاصده. ثم إن السلطان تلطف مع صاحب مصياف، وبذل له مالاً كثيرًا حتى ندب له من الفداوية طائفة. فبعثهم السلطان إلى يونس فأواهم وأعلمهم بالغرض، فانتظروا وقتًا يصلح للوثوب مدة أيام إلى أن ركب النوين الكبير جوبان يريد مدينة توريز، وركب آقوش الأفرم وقراسنقر إلى جانبيه. فخرج اثنان من الفداوية، أحدهما للأفرم والآخر لقراسنقر، فبدر أحدهما وضرب آقوش الأفرم، فاتقى الضربة بيده، وكان عليه قرضية، فانشق كمه وجرحت يده، وجبن الآخر عن قراسنقر، لقتل الفداوي. ووقع الحذر، وكبست الفنادق والخانات بتوريز، وقبض على يونس، فقام الوزير ناصر الدين خليفة بن خواجا على شاه معه حتى تخلص من القتل. ولم يصب قراسنقر بسوء، وعولج الأفرم حتى برئ من جراحته واحترسا على أنفسهما.
المقريزي، السلوك، ٢ / ١١٥.

الرحيل وترك الرحبة لأنها ضجرت من هذا المكان فاستجاب لها [(١)] ومن ثم عول السلطان على الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن أمر نائبه الأمير سيف الدين أرغون ووزيره أمين الدين بجمع الأموال من دمشق[(٢)].

على أن المغول مالبثوا أن اشتبكوا مع المماليك في حرب سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥م في ماردين، ويرجع السبب في ذلك إلى أن نائب حلب كان قد عهد إلى الأمير شهاب الدين قرطاى بالذهاب إلى ماردين لإخضاع واليها الذى خالف أوامر السلطان الملك الناصر محمد - وكان للمغول أموال سنوية يحصلون عليها من هذه الجهة - فصادف وجودهم وجود قرطاي، ومن ثم رأى هذا الأمير أن يحاربهم، فاشتبك معهم في حرب، انتهى الأمر فيها بقتل بعضهم وأسر البعض الأخر، وسيق الجميع إلى حلب، ولما علم السلطان بذلك سُرَّ سرورًا عظيمًا وأرسل الخلع والهدايا لنائب حلب وقرطاى [(٣)].

أبو سعيد (١٣١٦ - ١٣٣٥ م):

ولما توفى أوليجاتو سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦م خلفه ابنه أبوسعيد وهو في الثالثة عشرة من عمره، وقد آلت الوصاية عليه إلى الأمير جوبان الذى أصبح أميرًا للأمراء، بينما اشترك على شاه مع رشيد الدين فضل الله في الوزارة، وكان بداية عهد أبوسعيد هذا مع المماليك طيبة إذ تحسنت العلاقات بين أبوسعيد والناصر محمد وذلك لأسباب عدة منها أنه في سنتى ١٣١٨ - ١٣١٩م نزل ببلاد آسيا الصغرى قحط ومجاعة، ثم تلتها الأعاصير والزوابع مما أثار فزع أبو سعيد فاستشار علماء الدين في سبب تلك الشدائد فأخبروه بأن السبب ما انتشر في البلاد من فساد وموبقات وشرب للخمر، فأمر أبو سعيد بغلق الحانات وإصلاح أحوال البلاد، وأظهر الدين الإسلامى والمذهب السني، على وجه الخصوص، مما كان له أكبر الأثر في تحسين العلاقات بين الدولة المغولية ودولة المماليك وجنح الفريقان إلى السلم وتركوا القتال

(١) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٢٤٥ - ٢٤٦، ٢٥٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ /٦٦ - ٦٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢ / ١١٩، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٨ / ٣٤ - ٣٥ محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ٢ / ١٤٧، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٥.

بالإضافة إلى ضعف دولة أبى سعيد واضطراب أحوالها ووقوع الفتنة بين المغول بسبب تحكم جوبان في أبى سعيد وعجز الأخير عن القبض عليه، وقتل بسبب هذه الاضطرابات والفتنة كثير من الأمراء المغول والجنود والأتباع وانتصر أبو سعيد على خصمه فسر بذلك السلطان الناصر محمد لما فيه من انقسام صفوف المغول وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية (١).

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون مازال يحمل العداوة للمغول إلى حد كبير، حتى إنه أرسل سنة ٧٢٠ هـ ثلاثين رجلاً من طائفة الحشاشين (٢) في سوريا إلى فارس من أجل اغتيال قراسنقر حاكم مراغة - الذى سبق وأن فرَّ من قبضة الناصر محمد ولجأ إلى المغول فولوه المراغة -، وعلى الرغم من فشل المحاولة فإنها أخافت المغول إلى حد كبير، فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الإسماعيلية حضروا لقتل السلطان أبو سعيد وجوبان والوزير عليّ شاه، و " قراسنقر " وأمراء المغول، فاحتجب أبو سعيد في خيمته خوفًا على نفسه، كما أنكر جوبان على مجد الدين إسماعيل السلامى (٣) الذى كان يقوم

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ١٨٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤ / ٩٣ - ٩٤، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول والمماليك، ص ١٨٧.

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذه الطائفة راجع كتابنا " تاريخ التطرف الشيعى ".

(٣) عرف بخواجا مجد الدين السلامي: إسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامى تاجر الخاص في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان يدخل إلى بلاد التتار ويتجر ويعود بالرقيق وغيره، واجتهد مع جوبان إلى أن اتفق الصلح بين الملك الناصر وبين القان أبى سعيد، فانتظم ذلك بسفارته وحسن سعيه فازدادت وجاهته عند الملكين، وكان الملك الناصر يسفره ويقرّر معه أمورًا فيتوجه ويقضيها على وفق مراده بزيادات، فأحبه وقرّبه ورتب له الرواتب الوافرة، في كل يوم من الدراهم واللحم والعليق والسكر والحلواء والكماج والرقاق مما يبلغ في اليوم مائة وخمسين درهمًا، عنها يومئذ ثمانية مثاقيل من الذهب، وأعطاه قرية أراك ببعلبك، وأعطى مماليكه إقطاعات في الحلقة، وكان يتوجه إلى الأردن ويقيم فيه الثلاث سنين والأربع والبريد لا ينقطع عنه، وتُجهَّز إليه التحف والأقمشة ليفرّقها على من يراه من الخواص أبى سعيد وأعيان الأردن، ثقة بمعرفته ودرايته، ولما مات الملك الناصر قلاوون تغير عليه الأمير قوصون وأخذ منه مبلغًا يسيرًا، وكان ذا عقل وافر وفكر مصيب وخبرة بأخلاق الملوك وما يليق بخواطرها ودراسة بما يتحفها به من الرقيق والجواهر، ونطق سعيد وخلق رضى وشكالة حسنة وطلعة بهية، ومات في داره من درب السلامى يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، ودفن بتربته خارج باب النصر، ومولده في سنة إحدى وسبعين وستمائة بالسلامية، بلدة من أعمال الموصل. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ٢ / ١٨٣.

بالسفارة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون هذه المؤامرة وهدده بالقتل وقال له: "" ويلك لك؟ أنت كل قليل تحضر إلينا هدية، وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب مصر، لتمكر بنا حتى تقتلنا الفداوية والإسماعيلية " وهدده أنه يقتله شر قتلة، ورسم عليه، فقام معه الوزير عليّ شاه حتى أفرج عنه (١).

وبالرغم من هذا التوتر الذى أصاب العلاقات فيما بين الدولتين إلا أن مساعى الصلح التى بذلها مجد الدين إسماعيل السلامى وجوبان قد أثمرت عن اتفاق للسلام بين كلا الدولتين وكلا الرجلين أبو سعيد المغول والناصر محمد بن قلاوون نوكان أن أرسل أبو سعيد إلى الناصر محمد بن قلاوون طالبًا إجراء الصلح وإحلال السلام مع المماليك ولكن بشروط منها:

١ - ألا يدخل الإسماعيلية بلاد المغول.

٢ - لا يرد أى فرد قدم من مصر إلى بلاد المغول.

٣ - من يفد إلى مصر من المغول لا يرد إلى بلده إلا برضائه.

٤ - ألا يعهد سلطان مصر إلى العرب أو التركمان بالإغارة على بلاد المغول.

٥ - أن يكون الطريق بين دولة المغول في فارس ودولة المماليك خاليًا من الموانع التى تعوق سير التجارة بين الدولتين.

٦ - أن يسير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز رافعًا علم سلطان مع علم أبوسعيد.

٧ - ألا يسعى سلطان مصر في القبض على الأمير قراسنقر حاكم مراغة (٢).

فجمع السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمراء واستشارهم في ذلك بعدما قرأ عليهم كتاب أبى سعيد فاتفق الرأى على عقد الصلح بالشروط المذكورة، ومن أسباب ذلك الصلح أن جوبان مدبر دولة أبى سعيد كان مسلمًا وأن السلطان الناصر يرغب

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٠٩.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٠٩ - ٢١٠، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٧، فايد حماد عاشور، ص ١٨٨.

في منع الخارجين عليه من الدخول في خدمة المغول وتحريضهم على غزو الشام وقتال المسلمين (١)، وعقدت الهدنة بينهما لمدة عشر سنين وعشرة أيام وتوقفت العلاقات من أجل ذلك حتى اعترف كل منهما راية الآخر في الحج (٢) وجهزت الهدايا لأبى سعيد بما قيمته أربعين ألف دينار (٣)، وصار يدعى لأبى سعيد بعد الملك الناصر محمد بن قلاوون على منابر مكة، وحدث أن أرسل الناصر محمد رسله ومعهم كتاب يطلب من التتار ألا يمكن عرب آل عيسى من دخولهم العراق لخروجهم على طاعة الملك الناصر محمد واعتدائهم على رسل أبى سعيد وسرقتهم للهدية في هذه المرة وأن العسكر خرج لقتالهم، ثم سافر المجد السلامى إلى التتار ليبشرهم بعودة الرسل وكتب لصاحب مكة بإكرام حجاج العراق والدعاء لأبى سعيد بعد الملك الناصر محمد في منابر مكة، ونادى أبو سعيد في بلاده بالحج وانتشر العدل في بلاده وأراق الخمور ورفع شهادة الإسلام وعمر المساجد والجوامع (٤).

وقد تبدلت علاقات العداوة والبغضاء بين الدولتين إلى علاقة من الوئام والسلام وتبادلت الرسائل والهدايا فيما بينهم، وكان من أثر تلك العلاقة الطيبة بين الدولتين أن أصبح الحجيج أمنين على أنفسهم وأموالهم من شر اعتداء الأعراب عليهم أثناء الطريق فيقول المقريزي: " اعتنى أبو سعيد بأمر حاج العراق عناية تامة، وغشى المحمل بالحرير ورصعه باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر، وجعل له جترًا ينصب عليه إذا وضع. فلما مر ركب العراق بعرب البحرين خرج عليهم ألف فارس يريدون أخذهم، فتوسط الناس بينهم على أن يأخذوا من أمير الركب ثلاثة آلاف دينار، فلما قيل لهم: إنما جئنا من العراق بأمر الملك الناصر صاحب مصر وكتابه إلينا بالمسير إلى الحجاز أعادوا المال، وقالوا: " لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء "، ومكنوهم من المسير. فبلغ ذلك السلطان فَسُرَّ به، وبالغ في الإنعام على العربان. وكان السلطان قد بعث إلى أمراء المغل وأعيانهم الخلع، فلما انقضى الحج خلع عليهم

---

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص ١٨٩.

(٢) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٣١٣، المقريزي، السلوك، ٢ / ٢١٠، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص ١٨٩.

(٣) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢١٠، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص ١٨٩.

(٤) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢١٠، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المغول ودولة المماليك، ص ١٨٩.

الأمير أرغون النائب، ودعا لأبى سعيد بعد الدعاء للسلطان بمكة " (١).

وتخطت العلاقات بين الدولتين حدود السياسة إلى حد الرغبة في المصاهرة السياسية، فقد تزوج الأمير أبى بكر بن الأمير أرغون النائب على بنت السلطان، وتولى العقد قاضى القضاة شمس الدين الحريرى الحنفي، على أربعة آلاف دينار (٢).

وفى تلك الأثناء حدث أن بلغ أبوسعيد سن الحادية والعشرين من عمره ولم يكن له من الحكم إلا الاسم في حين كان نائبه جوبان يسيطر على مقاليد الأمور داخل دولة المغول ووصل به الحد أنه بدأ يوزع المناصب العليا بين أبنائه فأناب ابنه دمشق خواجا على الجيش وعين ابنه الثانى دمرداش حاكمًا على آسيا الصغرى، وبلغ من تضييق جوبان على أبوسعيد أنه كان يطلب المال منه ولا يعطيه إياه (٣).

غير أن أبوسعيد بدأ يتطلع إلى ممارسة سلطاته ويتخلص من سيطرة جوبان عليه وينهى استئثاره بمقاليد الحكم دونه، فحاول القبض على جوبان حين خروجه مع ابنه حسين بالجيش إلى الحدود الشرقية لصد هجمات مغول بلاد ما وراء النهر على خراسان، ولكنه قبض على دمشق خواجا وقتله سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧م وبعث في القبض على جوبان ولكنه فشل.

وأصبح العداء سافرًا بين أبو سعيد ونائبه جوبان بعد أن أدرك جوبان مدى العداء الذى يكنه له أبو سعيد، وأراد أن يقصيه عن حكم بلاد مغول فارس فأحضر شخصًا من نسل " جنكيزخان " يسمى ساؤور ونصبه على بلاد المغول يقصد بذلك خلع أبو سعيد من منصبه، وجمع جيشًا مكونًا من سبعين ألف مقاتل لقتاله والتقى بأبي سعيد، وكادت الدائرة تدور على أبيسعيد لولا خيانة بعض أتباع جوبان وانضمامهم إلى أبي سعيد فمالت الكفة من جديد إلى أبي سعيد فهزم جوبان واضطره إلى الفرار من أرض المعركة وانتهى به المطاف إلى أن قتل سنة ٧٢٨ هـ، وفرَّ ساؤور ولم يعرف مصيره (١).

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢١٤ - ٢١٥.
(٢) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٨٣ - ٢٨٤.
(٣) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٠٩.
(١) ابن أيبك الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ٣٤٦، المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٩٢.

وفى تلك الأثناء كان دمرداش ابن جوبان قد أخضع آسيا الصغرى لحكمه، وبدأ يستبد بالأمور فيها، وصار يضيق على تجار المماليك ومنع إرسال الرقيق إلى أمراء المماليك في مصر، كما أنه أساء معاملة رسل الناصر محمد الذين أرسلهم إليه، وضيق على التجار المصريين والشاميين، ثم إن الناصر محمد أراد أن يستميل دمرداش بن جوبان إليه - حفاظًا على مصالحه ومصالح دولته - فأخذ يخادعه ويترضاه ويهاديه، إلى أن بدأ يميل إليه وأرسل كتابًا إلى الناصر محمد يعلن فيه دخوله في طاعته ويستأذنه في القدوم عليه بعساكره ليكون نائبًا له على آسيا الصغرى [١].

ولم يمض وقت طويل على مقدم دمرداش إلى مصر، حيث ألقى القبض عليه وأودعه السجن هو وعدد من أتباعه من الأمراء الذين جاءوا بصحبته، حيث تبين للناصر محمد سوء نيته في السيطرة على عرش مصر بالقوة، وكان الذى حدث أن الناصر محمد أرسل بدر الدين محمود ملك دولة بنى قرمان [٢] في طلب أسرة دمرداش من القلعة التى تركهم فيها دمرداش ليأتوا إلى مصر ليشملهم برعايته وكرمه، فرفضوا وآثروا البقاء في بلادهم وقالوا: " لا حاجة لنا في مصر " ثم إن بدر الدين محمود أوغر صدر الناصر محمد على دمرداش وأرسل إليه يقول له: إن دمرداش هو الذى منع أولاده من القدوم إلى مصر، وأنه - دمرداش - ما قدم إلى مصر إلا ليستولى على ملكها بالقوة، يقول المقريزي: " وفيه عاد جواب ابن قرمان بأنه ركب إلى القلعة التى فيها أهل دمرداش، وعرفهم أنه حفر بمرسوم السلطان، وبعث إليهم بكتاب دمرداش أنهم يقدمون عليه بمصر، فردوا جوابه: " لا حاجة لنا في مصر ". وذكر ابن قرمان أن هذا بمباطنة دمرداش لهم، وحط عليه بأنه سفك دماء كثرة، وقتل من المسلمين عالمًا عظيمًا، وأنه جسور وما قصد بدخوله مصر إلا طمعًا في ملكها. وبعث ابن قرمان الكتاب صحبة نجم الدين إسحاق الرومى أنطالية،

---

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢١٠.

(٢) قامت هذه الدولة في جنوب غرب آسيا الصغرى في أواسط القرن السابع الهجري. ومؤسسها هو قرمان بن صوفى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٦١م، القلقشندي، صبح الأعشي، ٥ / ٣٦٥، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢١١.

وهى القلعة التى أخذها منه دمرداش وقتل والده، وأنه قدم ليطالبه بدم أبيه. فلما وقف السلطان على الكتاب تغير، وطلب دمرداش وأعلمه بما فيه. وجمع السلطان بينه وبين إسحاق، فتحاققا بحضرة الأمراء، فظهر أن كلا منهما قتل لصاحبه قتيلا، فكتب جواب ابن قرمان معه وأعيد. وقد تبين للسلطان خبث نية دمرداش، فقبضه وأمسك من معه من الأعيان، وهم محمود شاهنشاه وعدة أخر في يوم الخميس العشرين من شعبان، واعتقل دمرداش ببرج السباع من القلعة، وفرق البقية في الأبراج، وفرقت مماليكه على الأمراء، ورتب له ما يكفيه " (١).

وكان الخطأ الذى وقع فيه دمرداش أنه أسرف في تقديم الهدايا والهبات إلى الأمراء المماليك، بقصد أن يضمن ولاءهم ويضم ويحقق عن طريقهم أطماعه حين تسنح الفرصة، ثم أخذ ينتقد الناصر محمد ويتنقص من قدره، حتى مالت إليه قلوب الأمراء المماليك، فخشى الناصر محمد من ذلك، كما أنه اشتغل بالوقيعة والفتنة بين الأمراء حتى أوقع بينهم العداوة والبغضاء؛ يقول المقريزي: "... وكان للقبض على دمرداش أسباب: منها أنه كان له بالروم مائة ألف رأس من الغنم، فلما وصلت قطيا أطلق منها للأمير بكتمر الساقى عشرين ألفًا، ولقوصون وبقية الأمراء كل واحد شيئًا حتى فرق الجميع، فلم يعجب السلطان ذلك. ودخل دمرداش يومًا الحمام فأعطى الحمامى ألف درهم، والحارس ثلاثمائة، فزاد حنق السلطان منه. ثم أخذ دمرداش يوقع في الأمراء والخاصكية، ويقول: هذا كان كذا، وهذا كان كذا، وهذا ألماس الحاجب كان حمالاً، فما حمل السلطان هذا منه. " (٢) ثم كان جواب ابن قرمان الذى أكد شكوك الناصر محمد في دمرداش، فتحققت شكوكه فأمر بالقبض عليه.

ولم يكد أبو سعيد إيلخان فارس يعلم بما حدث حتى أرسل سفارة إلى السلطان الناصر محمد تحمل كتابًا يتضمن رغبته في إنفاذ دمرداش إليه، على أن يرسل إليه في مقابل ذلك الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، فمال السلطان إلى تحقيق هذه الرغبة في أول الأمر، لكنه مالبث أن عدل عن ذلك وعول على قتله حتى لا تشفع له أخته

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٩٧.
(٢) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٩٧.

" بغداد خاتون " [١] والوزير غياث الدين بن رشيد عند أبو سعيد، فأمر بشنقه يوم الخميس ٤ شوال سنة ٧٢٨ هـ / ٢٢ أغسطس سنة ١٣٢٨م ثم حنط رأسه وأرسل به إلى أبو سعيد[٢].

وقد تحسنت العلاقات بين المغول ودولة المماليك في عهد الناصر محمد بن قلاوون وأبو سعيد حتى لقد قال أبو المحاسن بن تغربردي: " وأما أبو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لاتنقطع بينهما، ويسمى كل منهما الآخر أخًا. وكانت الكلمتان واحدة، ومراسيم الملك الناصر تنفذ في بلاد أبو سعيد، ورسله يتوجهون. إليه بأطلابهم وطبلخاناتهم بأعلامهم المنشورة " [٣].

وقد الدولة في عهد أبو سعيد في صراعات مريرة مع خانات القبيلة الذهبية، وخاض معها العديد من المعارك الطاحنة وفى أحد تلك المعارك، وتحديدًا في الثانى من نوفمبر عام ١٣٣٥ م فقد أبوسعيد حياته وخر صريعًا على أرض المعركة [٤].

تفكك دولة الإيلخانات المغولية:

وبما أن أبو سعيد لم يكن لديه أبناء ذكور، فقد وقع صراع مرير على العرش بعد وفاته، فاعتلى العرش من بعده " أربا كماون " من سلالة " هولاكو "، بمساعدة الوزير غياث الدين محمد، ولقب بمعز الدنيا والدين، وقد عمد هذا الخان على إثر توليته الحكم إلى تقوية مركزه بزواجه من أرملة جوبان وأخت أبو سعيد ليضمن بذلك ولاء بيت " هولاكو "، ثم سار لمحاربة " أزبك " زعيم القبيلة الذهبية وأوقع به الهزيمة، ولكنه لم يهنأ بهذا الانتصار، إذ سرعان ما خرج عليه الأمير " عليّ باد شاه

(١) بغداد بنت النوين جوبان زوج أبو سعيد كانت أولاً زوج الشيخ حسن وكان أبوسعيد يعشقها وكان أبوها يفهم ذلك فلا يمكنها من دخول الأردو فلما هرب جوبان وقتل أخوها وهرب الآخر إلى مصر اغتصبها أبو سعيد من زوجها وصارت عنده في أعلى مكانة ويقال: إنه لم تكن في تلك البلاد أحسن منها وصار لها في جميع الممالك الكلمة النافذة وكانت تركب في مركب حفل من الخواتين وتشد في وسطها السيف فلم تزل على علو منزلتها إلى أن مات أبو سيعد فقتلت بعده وذلك في سنة ٧٣٦. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ١ / ١٦٦.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢١١.

(٣) النجوم الزاهرة / ٩ / ٢١١.

(٤) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٩٠.

" وانضم إلى " دلشاد خاتون " أرملة أبوسعيد، كما عاد الأمراء إلى انتخاب خان جديد، فوقع الاختيار على موسي، من سلالة هولاكو، وما لبث أن تولى زمام الحكم حتى خرج عليه " على بادشاه " ونازعه الحكم سنة ١٣٣٦ م.

ولم تستقر الأمور في دولة المغول بتولية الخان موسي، بل تصدعت أركان الدولة في عهده، فاستقل الأمراء بولاية الأقاليم، نخص بالذكر منهم الشيخ حسن الجلائرى الذى كان يلى حكم الروم بآسيا الصغرى، وحاجى توغاى حاكم أرمينية وديار بكر، منذ سنة ٧٣٢هـ، وكان هذا الخير يعادى على باد شاه، فأرسل إلى الشيخ حسن الجلائرى يطلب منه إعداد قواته، فسار الشيخ حسن قاصدًا تبريز لمحاربة على باد شاه على رأس جيش من التركمان والجرجان وأوقع به الهزيمة وقتله سنة ١٣٣٦م ثم دخل بغداد واستولى عليها (١).

وقد بلغ من اضطراب الأمور في دولة المغول بفارس أن أصبح بها ثلاث سلاطين: موسى خان، ومحمد شاه الذى أقامه الشيخ حسن الجلائري، واتخذ تبريز مقرًّا لحكمه، وتوغاى تيمور الذى استدعاه الأمراء من مازندران بعد تولية محمد شاه وولوه سلطانًا بخراسان، وصار يدعى له في الخطبة وينقش اسمه على السكة (٢).

وهكذا انحلت إمبراطورية المغول في فارس انحلالاً تامًّا، وانقسمت أملاكها بين أسرات عديدة أمثال الجلائريين والمظفرين والسرباداريين (خراسان).

* * *

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٢٤١، محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢١٣.
(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢١٣.

الفصل العاشر:
مغول القبيلة الذهبية

جوجى خان (٥٨٠ - ٦٢٤ هـ/ ١١٨٤ - ١٢٧٧ م):

لما قسم " جنكيز خان " إمبراطوريته المترامية الأطراف بين أبنائه، نال ابنه الأكبر " جوجى " خان منطقة بلاد القبجاق، وتشمل المنطقة الممتدة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، ويطلق عليها اسم مغول القبيلة الذهبية، ويعد جوجى هو صاحب الفضل في ضم بلاد القوقاز إلى إمبراطورية المغول، حيث نزلت قواته من العشائر المغولية التى صار يطلق عليها اسم مغول القبجاق، وقد انتشرت سيطرته من موسكو إلى فرغانة بتركستان مرورًا بجبال القوقاز وسهوب نهر الفولجا، وجبال أورال وكازاخستان وشواطىء البحر الأسود، ومصب نهر الدانوب (١).

وكان أغلب السكان في هذه المنطقة - قبل مجيء المغول - من الأتراك والتركمان، وحين غزا المغول المنطقة امتزج شعبها بالمغول امتزاجًا عظيمًا، حتى استحال التمييز بينهما، وصاروا جنسًا واحدًا، ودخلوا معهم في الإسلام، وشاركوهم في الملك والسلطة، حتى تسمت مملكة المغول هناك باسم سلطنة القبجاق، ودولة القبجاق (٢).

وعرف مغول هذه الدولة باسم مغول القبيلة الذهبية نسبة إلى لون خيامهم الذهبية، أو مغول الشمال على اعتبار أن سلطتهم كانت تقع شمال خانية تركستان وما وراء النهر، وخانية إيران والعراق وآسيا الصغرى، كما كانوا يسمون أيضًا الكومان عند البيزنطيين، وباسم بولوفتسيان عند الروس (٣).

باتو بن جوجى (٦٢٤ - ٦٥٤ هـ/ ١٢٢٧ - ١٢٥٦م):

---

(١) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٤٩.
(٢) الرمزي، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ص ٢٢٠ - ٢٢١.
(٣) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٤٨.

وبعد وفاة " جوجى " في حياة أبيه " جنكيز خان "، خلفه ابنه " باتو " بموافقة " جنكيز خان" ومن بعده خليفته " أوكتاى خان "، وكان جوجى قد أنجب أربعة عشر ولدًا، فوقع الاختيار على باتو لخلافة أبيه.

وفى بداية دولة مغول القبيلة الذهبية كان باتو بن جوجى يعمل تحت لواء الخاقان الأعظم للمغول - كما هو الحال في بقية دول المغول بعد وفاة جنكيزخان - ولم تكن هناك نية للاستقلال عن إمبراطورية المغول الأم ولم تكن الخلافات قد بدأت، فانخرط باتو بن جوجى في العمل المسلح تحت لواء دولة المغول الموحدة - حتى تلك اللحظة - ففى عهد الخان الأعظم للمغول أوكتاى (١٢٢٩ - ١٢٤١) تقدمت القوات المغولية تحارب في أكثر من اتجاه، ففى الوقت الذى تقدمت في قوات نحو الصين، كانت هناك قوات أخرى تتعقب الخوارزميين، ثم بدأ جيش آخر من جيوش المغول بزعامة " باتو بن جوجى " في قيادة الحملات المغولية شمال بحر قزوين، وذلك في نفس السنة (٦٣٤ هجرية)، وأخذ في قمع القبائل التركية النازلة في حوض نهر الفولجا، ثم زحف بعد ذلك على البلاد الروسية الواسعة، وذلك في سنة ٦٣٥ هجرية.. [١].

وبدأ هذا الجيش المغولى الرهيب بقيادة باتو بن جوجى يقوم بالمذابح الشنيعة في روسيا النصرانية.. فاستولى على العديد من المدن الروسية، وذلك في سنتى ٦٣٥ و٦٣٦ هجرية.. سقطت تحت أقدام هذا الجيش مدن " ريدان "، ثم " كولومونا " بعدها بأيام، ثم سقطت مدينة " فلاديمير " الكبيرة بعد صمود ستة أيام فقط، واقترن سقوطها بمذبحة بشعة، ثم سقطت " سوذال "، ثم توجهت الجيوش المغولية إلى أعظم مدن روسيا " موسكو " فتم اجتياحها وتدميرها، ثم سقطت بعد ذلك مدن " يورييف " و" جاليش " و" بريسلاف " و" روستوف " و" ياروسلاف "، ثم سقطت مدينة " تورزوك " وبذلك احتل المغول دولة روسيا بكاملها[٢].

---

(١) راغب السرجاني، قصة التتار من البداية، ص ٨٢.

(٢) ومع أن مساحة روسيا سبعة عشر مليون كيلومتر مربع.. إلى جانب أعداد سكانها الهائلة وأحوالها المناخية القاسية إلا أن المغول احتلوها بالكامل في عامين فقط!!).

وفى سنة ٦٣٨ هجرية انسابت جيوش المغول غربًا بقيادة " باتو بن جوجى إلى مملكة أوكرانيا، وقلبوا هذه المنطقة رأسًا على عقب، وعاثوا فيها فسادًا وتخريبًا واحتلوها بكاملها (ومساحتها ستمائة ألف كيلومتر مربع)، واجتاحوا العاصمة " كييف "، ودمروا كنوزها العظيمة، ولقى أكثر سكانها مصرعهم.. ثم نهبوا إمارة غاليسيا الروسية، وقد ظلت تلك المنطقة الشاسعة (روسيا وأوكرانيا) تحت حكم المغول ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان ٦٣٦ - ٨٨٦ هـ.

وبعد أن أتم المغول اجتياح روسيا، قام باتو بن جوجى بتقسيم جيوشه إلى قسمين: زحف القسم الأول على بولندا، وتوجه القسم الثانى إلى المجر، وتقدم القسم الأول باتجاه بولندا في سنة ٦٣٩ هجرية بقيادة " بايدر " إلى الشمال الغربى من دولة أوكرانيا فدخلت مملكة بولندا، ودمرت الكثير من المدن البولندية، فلم يجد الملك البولندى إلا أن يستعين بالفرسان الألمان القريبين منه حيث إن ألمانيا تقع في غرب بولندا مباشرة، فجاء الأمير هنرى دوق " سيليزيا الألمانية " واشترك مع ملك بولندا في تكوين جيش واحد لملاقاة المغول، غير أن هذا الجيش لقى هزيمة ساحقة على أيدى الجيوش التترية بقيادة " بايدر ".. وتقدموا حتى وصلوا مدينة برلين، بعد أن أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك، وبالمدن الخراب والدمار. وفى هذا الإقليم وحده جمعوا أكياسًا ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم، فبلغ مجموعها ٢٧٠٠٠٠ أذن، وأخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة وبذلك تمكن باتو بن جوجى من إخضاع بولندا أيضًا لحكم المغول(١).

أما القسم الثانى من القوات المغولية، فقد تقدمت إلى المجر في نفس التوقيت حيث التقوا مع ملك المجر في موقعة رهيبة دمر على أثرها الجيش المجرى بكامله، وبذلك احتلت المجر أيضًا، ولما كان المجريون والمغول من أصل واحد، ترك المغول هذه البلاد بعد سنة واحدة من احتلالها، واكتفوا بتبعيتها لهم من الناحية الرسمية.

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٨، براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٧٣، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٨٧، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٨٢.

ثم نزل " بايدر " من بولندا في اتجاه الجنوب لمقابلة جيوش المغول بقيادة باتو في المجر، وفى طريقه للنزول اجتاح دولة " سلوفاكيا " وضمها بكاملها إلى إمبراطورية المغول..

ثم تدفقت الجيوش المغولية إلى دولة " كرواتيا " فاجتاحته.

وقد انزعج الأوربيون كثيرًا من تقدم المغول داخل أوربا وتقدمهم باتجاه أوربا الغربية، وأحس العالم المسيحى بخطر التدمير الذى تعرض له بقية العالم الإسلامي، فبعث البابا جريجورى التاسع كتابا إلى الأمراء والملوك المسيحيين يحثهم فيه على التكاتف لإعلان حرب صليبية على هؤلاء الغزاة التتر (١).

وبذلك وصلت الجيوش المغولية بقيادة " باتو بن جوجى " إلى سواحل البحر الأدرياتى (وهو البحر الفاصل بين كرواتيا وإيطاليا)، وبذلك يكون المغول قد ضموا إلى أملاكهم نصف أوروبا تقريبًا!!..

وكان من الممكن أن يستمر باتو بن جوجى في الفتوحات التترية في أوروبا - وقد وصلت حدود دولة التتار إلى دول ألمانيا والنمسا وإيطاليا - لولا أن الخاقان الكبير ملك التتار " أوكيتاى " مات في هذا العام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م فاضطر الأمير " باتو بن جوجى " أن يوقف الحملات، ويستخلف أحد قواده على المناطق المفتوحة، ويعود إلى " قراقورم " عاصمة التتار في منغوليا للمشاركة في اختيار الخاقان التترى الجديد.. وبذلك سلمت أقاليم أوربا الغربية من خطر محقق كان ينتظرها على أيدى هؤلاء المغول.

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٥ - ٣٧، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٨٨، راغب السرجاني، قصة التتار، ص ٨٢، براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٧٣.

غزو المغول (التتار) بقيادة باتو بن جوجى شرق أوربا

وفى العام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م انعقد القوريلتاى وتم انتخاب كيوك (٦٤٤ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٦ - ١٢٤٩ م): خانًا أعظم للمغول، على أن يكون المنصب وراثيًا في أولاده وأسرته من بعده، ولقد جاء انتخاب " كيوك " على غير هوى " باتو بن جوجى " الذى كان يعارض ها الاختيار، ولم يكن في الأصل يرضى عن سياسة سابقيه من الخاقانات الذين كانوا قد انفتحوا على الديانات الأخرى، وسمحوا للنصرانية أن تنتشر بين صفوف طبقات المغول المختلفة، فباتوا - كجده جنكيزخان وعمه أوكتاى - لم يكن يميل إلى أية من الديانات المنتشرة في إمبراطورية المغول، إذ كان ملتزمًا التزامًا لا يتزحزح عن عقيدة أجداده الشامانية، التى يتعبدون فيها الإله الواحد، ولكنهم في الوقت نفسه يعتبرون الشمس والقمر والأرض كائنات سامية يتوجهون إليها بالصلوات ويقدمون لها الأضاحي. وكان باتو بصفة عامة يتخذ موقفا عدائيًا من كيوك خان، ومن أسرة أوكتاى بصفة عامة (١).

وبعد انتخاب كيوك خان كان العالم ينتظر صدامًا مسلحًا بينه وبين باتو، فقد كان كل منهما يستعد للحرب، وتقدما ليلاقى أحدهما الآخر، ولكن كيوك خان مات فجأة في إبريل عام ١٢٤٨م / ربيع الثانى ٦٤٧ هـ، أما والدته " توراكينا خاتون " فقد توفيت قبله بعدة أشهر (٢).

بعد وفاة كيوك خان المفاجئة، تولت أرملته " أقول قيمش " الوصاية على العرش، وتولت مهام الحكم لحين انتخاب خان جديد طبقا لرسوم وعادات الحكم المغولية، وكان الاتجاه السائد هو أن يتولى العرش بعد كيوك خان آخر من أصلابه أو على الأقل من أسرته ولا يتعداها، وعلى ذلك فكانت " أقول قيمش " ترغب في أن يتولى المنصب " شيرامون " ابن أخى كيوك خان، وذلك تنفيذًا للعهد الذى قطعه الأمراء ورجال الدولة لكيوك خان في حياته على أن يكون الحكم وراثيًا في أسرته من بعده، ولكن هذا الاتجاه وجد معارضة شديدة من كثير من الأمراء المغول، لصغر سن " شيرامون " وقلة خبرته، وذهب الاتجاه إلى تولية أحد الأميرين: منكو بن

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٨.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٣٩ - ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ١٩٨.

تولوي، أو باتو بن جوجي، وكان كلاهما من كبار الأمراء وأعظم الشخصيات المغولية على الساحة السياسية، وسبق أن اشتركا معًا في اجتياح روسيا وشرق أوربا، وكانت بينهما مودة وصداقة كبيرة فضلاً عن العمل العسكرى المشترك [1].

على كل حال بعد وفاة كيوك خان أراد أبناء كيوك خان أن يولوا شيرامون المنصب من بعده ولكن هذا الأمر كان يتطلب موافقة باتو بن جوجي، كبير الأسرة المغولية الحاكمة سنًّا ومقامًا بينهم - الذى كان معارضًا في الأصل لتولية كيوك خان -، فلما تمت الدعوة لعقد القوريلتاى وتنصيب الخان الجديد، لم يعقد المجلس في منغوليا كما هو المعتاد منذ أيام جنكيزخان، ولكن عقد في بلاد القبجاق، لأن باتو بن جوجى - الذى كان يقيم في بلاد القبجاق في آسيا الوسطى - اعتذر عن الحضور إلى منغوليا لطول ومشقة السفر، ووجه الدعوة لعقد المجلس في بلاد القبجاق، فوافاه الجميع إلى هناك - رغم المعارضة الشديدة لأبناء " أوكتاى " و " جغتاى " اللذين أنابوا عنهم في الحضور - حيث تم انتخاب منكو ليتولى عرش الخان المغولي، لينتقل العرش المغولى إلى أولاد تولوى الذين يمثلون الفرع الثانى من أسرة " جنكيزخان " [2].

ثم كانت وفاة " منكوخان " المفاجئة التى كانت في سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م مما أطمع الكثير من أمراء البيت المغولى في العرش المغولي، ومن أجل ذلك قرر " قوبيلاى " العودة إلى منغوليا على أمل أن ينال المنصب الذى أصبح شاغرًا بوفاة أخيه [3].

وفى عهد باتو بن جوجي، بدت سيطرة مغول القبيلة الذهبية واضحة على الإمبراطورية الروسية، فقد أجبر باتو الأباطرة الروس على تقديم فروض الولاء والطاعة له ولدولته منذ الوهلة الأولى لتوليه الحكم، كما أنه فرض عليهم دفع

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٠٧.

(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٢٩٦ - ٢٩٧، بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٠، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٤، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢١٦.

الضرائب السنوية له، وبدت مظاهر سيطرته على الأباطرة الروس أنه غدا بلاط باتو قبلة الأمراء والأباطرة الروس، فقد ذهب الدوق الأعظم أياروسلاف الأول دوق فلاديمير إلى بلاط باتو بن جوجى عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م لتقديم فروض الولاء والطاعة. كما أنه كلما نشبت المنازعات بين الأمراء الروس كان باتو هو المرجع في حلها من قبل جميع الأمراء[١].

وقد بدأت علاقة باتو بجيرانه السلاجقة مبكرًا، فقد أرسل السلطان السلجوقى غياث الدين ثلاث بعثات إلى باتو، كلها تعبير عن الخضوع والطاعة والولاء لحكمه، في حين عاش الأمير دافيد مجورجياد ابن الملك رافيد الخامس بعض الوقت في بلاط باتو تعبيرا عن الخضوع التام لسيطرته وكرهينة عنده لضمان حسن النوايا [٢].

بركة بن جوجى (٦٥٥ - ٦٦٦ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٦٧ م):

وكان بركة قد أسلم قبل أن يعتلى العرش المغولي أثناء وجوده في بلاد ما وراء النهر حيث التقى بتاجرين قادمين من بخارى فشرحا له تعاليم الإسلام، فأعجب بتعاليم وروح الإسلام، وسارع إلى إشهار إسلامه على الملأ، وهناك رواية أخرى تقول أن إسلامه كان بتأثير مشايخ مدينة خوجند وبخارى وبخاصة الشيخ شمس الدين الباخرزى الذى أسلم " بركة " على يديه، وعاهده على أن يحمل قومه جميعًا على اعتناق الإسلام، ونفذ " بركة " عهده وأسلم قومه جميعًا، واتخذ في جميع بلاده المساجد والمدارس وقرب العلماء والفقهاء ووصلهم وأجزل لهم العطاء [٣].

ويعتبر بركة أول من أسلم من إيلخانات المغول، وقد أخلص للإسلام الإخلاص كله، وجعل كل جيشه من المسلمين، وجرت العادة أن يحمل كل فارس في هذا الجيش سجادة للصلاة، حتى إذا ما حان وقت الصلاة أدوا الفريضة على أكمل وجه، كما كان لكل أمير وأميرة في بلاطه إمام ومؤذن خاص، وكان الأطفال يحفظون

---

(١) الباز العريني، المغول، ص ١٨٠، آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص ٢٧٢.

(٢) إيبرها، حضارة الصين، ص ٣٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشي، ٤ / ٣٠٩، القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة: الثانية، مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ١٩٨٥، ١ / ٢١١، أرنولد، الدعوة للإسلام، ص ٢٥٩.

القرآن في المدارس التى أنشأها لهم. وقد فتح هذا لإيلخان المسلم بلاده لمشاهير العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء وعلماء الكلام، وأصبحت مجالسه تغص بهؤلاء، وتجرى فيها المناظرات الدينية بينه وبينهم أو بينهم وبين أصحاب الأديان الأخري، وكان هو نفسه سنيًّا شديد التمسك بدينه محبًّا له، وقد اشتد غضبه عندما تقدم هولاكو لغزو الخلافة العباسية، ولم يكن يستطع منع ذلك الغزو، ولكنه توعد هولاكو بالحرب بعد أن اعتدى على حرمة الخليفة وقتله هو وأهل بيته، ودمر بغداد عاصمة الخلافة العباسية. (١).

واتخذ بركة خان من مدينة سراى (٢) عاصمة لدولة مغول القبيلة الذهبية، وأدار منها شئون الحكم (٣).

وبعد وفاة " منكوخان " المفاجئة دارت حرب أهلية شعواء على كرسى العرش المغولي، وبالطبع فإن مغول القبيلة الذهبية أسهموا بدور فعال في هذه الحرب، وتفاصيل ذلك أن منكو خان كان له أخ أصغر يدعى " أريق بوكا " وكان يحبه ويقربه إليه، وكان يفوض إليه حكم البلاد في أثناء خروجه في الحملات العسكرية الخارجية، بل إن منكو خان كان يرغب في أن يخلفه على عرش المغول، فلما مات " منكو " أعلن " أريق بوكا " نفسه خانًا أعظم للمغول، ووجد في ذلك المساندة الكبيرة من جانب المحيطين به والمقربين منه ولا سيما أن بركة خان - الذى خلف أخاه جوجى - كان من أكبر المؤيدين له (٤).

---

(١) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٤٣.

(٢) سراي: مدينة تقع في شمال غرب بحر قزوين. تم بناؤها في عهد بركة خان بن جوجى بن جنكيزخان. تصفها الروايات العربية بأنها مدينة كبيرة، ذات أسواق وحمامات ومساجد، وفيها طوائف مختلفة من الناس، من روس ومغول وروم وشركس، كل طائفة تسكن على حدة، ولما انتشر الإسلام في تلك الجهات صارت المدينة مقصد العلماء والأدباء، أمثال قطب الدين الرازى وسعد الدين التفتازاني وغيرهما.

(٣) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٦٠.

(٤) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٣ / ٥٣١، فؤاد عبد المعطى الصياد، " المغول في التاريخ "، ص ٢١٦.

ولكن هذا الأمر قد أغضب قوبيلاى ولم يوافق عليه، ورأى أنه هو الأجدر لتولى هذا المنصب، وكان مستعدًّا لخوض حرب ضروس حتى وإن كانت مع أخيه من أجل عرش الخانية المغولية، وعقد مجلسا لكبار رجال الدولة وأمراء الحرب الذين كانوا في جيشه في مدينة " كى مينج فو " إحدى مدن الصين الشمالية، وأعلن بعد هذا الاجتماع خلع أخيه، ونصب نفسه خانًا أعظم على عرش المغول وزاد على ذلك أنه جعل من نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين، وأشهد على ذلك الحاضرين وبعث بذلك إلى الآفاق (١).

وبعد تزايد شقة الخلاف بين الأخوين، أصبحت الحرب بينهما هى الحل الوحيد لإثبات عرش المغول لأحدهما، وجاءت الخطوة الأولى من جانب قوبيلاى الذى تحرك بقواته تجاه منغوليا سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م حيث التقى مع أخيه وأوقع به الهزيمة النكراء ودخل العاصمة قراقورم عنوة، وألقى القبض على أخيه وزج به في غياهب السجن وظل به حتى مات سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٣م، وارتقى " قوبيلاى " عرش المغول، وقد أيد هولاكو أخاه قوبيلاى في هذه الحرب بدافع من الود الذى كان يربط بينهما، وكان ذلك التأييد من جانب هولاكو هو الذى رجح كفة قوبيلاى على أخيه الآخر (٢).

وكانت الحرب بين " قوبيلاى " وأخيه " أريق بوكا " هى إحدى صور الحرب الأهلية المغولية، فالتحالف بين " قوبيلاى " و " هولاكو " قد قابله تحالف آخر بين أريق بوكا وبركة خان الذى خلف أباه باتو في حكم القبيلة الذهبية (٣) سنة ١٢٥٦ م، ولعل الذى دفع بركة خان إلى التعاون مع أخيه أريق بوكا هو أنه كان قد اعتنق الإسلام قبل أن يتولى العرش وكان كارهًا لحملة هولاكو على العالم الإسلامى وحاول بشتى الطرق إيقافها ولكنه لم يتمكن من هذا، كما أن قوبيلاى - بدافع من الحقد والكره لبركة خان لموقفه من وراثة العرش - كان قد منح أخاه " هولاكو " منطقة القبجاق (القوقاز وجنوب روسيا) وهى المنطقة التى كان يسيطر عليها بركة

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٣٩١.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٤٩ - ٥٠.
(٣) سوف يتم بإذن الله الحديث عن هذه القبيلة وتاريخها بالتفصيل في الفصول اللاحقة.

خان، مما أوجب العداء بين الفريقين.

وبعد انتهاء الحرب الداخلية بين " قوبيلاى " و " أريق بوكا " زاد التوتر بين بركة خان سلطان القبيلة الذهبية وهولاكو زعيم إمبراطورية الإيلخانات المغولية في فارس والعراق، حيث لم يكن بركة خان مستعدًّا للتنازل عن أملاكه في مناطق جبال القبجاق لصالح هولاكو خان نزولاً على رغبة الخان المغولي قوبيلاي، فدارت بين هولاكو وبركة خان حرب ضروس، بدأها هولاكو بمهاجمة حدود بلاد القبجاق في سنة ١٢٦٠ م، ولكن قوات بركة خان تصدت لقوات هولاكو وردته على أعقابه، ثم إن بركة خان قد أصدر أوامره لجنوده المشاركين لقوات هولاكو في الهجوم على مصر بالانسحاب من جيش هولاكو والانضمام إلى القوات المصرية والقتال إلى جوارها ضد القوات المغولية، وأعلن بركة خان بهذا التصرف مساندته العلنية لقوات المصريين ضد المغول، وربما كانت هذه المساندة هى السبب المباشر في هزيمة المغول في عين جالوت (١).

وفى الحقيقة أنه كان يوجد أكثر من سبب لحدوث الشقاق والخلاف بين القبيلة الذهبية ودولة الإيلخانات في فارس والعراق، فمنذ أن أعلن بركة خان إسلامه وسعى جاهدًا لإعلاء كلمته، وحدث الشقاق، فلم يكن بركة خان يرضى عن قيام هولاكو بقتل وتشريد المسلمين، وحزن كثيرًا لإسقاط الخلافة العباسية وإهانة الخليفة وقتله، واعتبر أن هولاكو قتل الخليفة دون الرجوع أو استئذان الأسرة المغولية، وكان يري: " أن هولاكو دمر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم، ولم يميز بين الصديق والعدو، وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة، ثم أردف بقوله: " فلو أمدنى الله تعالى لطالبته بدماء الأبرياء " (٢) كما أن الصراع على وراثة العرش المغولى (في منغوليا) كان سببًا في إحداث الشقاق، فكان كلا من هولاكو وبركة خان يؤيد خانًا يختلف عن الذى يريده الآخر - وهذا ما عرضنا له أنفًا -، كما حدث نزاع بين كلا الرجلين حول ملكية بعض المناطق مثل أران وأذربيجان، كما أن إيلخانات المغول بخسوا حق مغول القبيلة الذهبية في عهد بركة خان في ثلث الغنائم التى

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٢.
(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ٣٣٢.

قررها لهم من قبل جنكيزخان (١).

والشيء الذى أوقد نار الخلاف بين هولاكو وبركة خان، هو أن قوبيلاى قام بالانتقام من بركة خان - لرفضه توليه العرش المغولى ومساندته منافسه على العرش أريق بوكا - بأن أسند حكم مناطق القبيلة الذهبية لهولاكو وطلب منه القضاء على بركة خان وانتزاع الأراضى منه، مما أجج الصراع بين هولاكو وبركة خان (٢).

وفى هذا الإطار كان سعى بركة خان للتحالف مع دولة المماليك في مصر والشام للانتصار للإسلام والمسلمين من هولاكو وعقد التحالف معهم ولتطويق دولة الإيلخانات والقضاء عليها.

بعد هذا نستنتج أن الصدام المسلح بين كلا الرجلين كان أمرًا حتميًّا لحسم الخلاف بينهما، فقام بركة خان بالهجوم على القوقاز - الذى كان تحت سيطرة هولاكو - في الثانى من يناير عام ١٢٦١ م وحقق نصرًا حاسمًا على قائد هولاكو المدعو " تيريك "، وبرغم هذا الانتصار الكبير إلا أن بركة خان لم يستطع إخراج هولاكو من القوقاز، فعاد بقواته من حيث أتى (٣).

وبعد أن توفى " هولاكو " خلفه ابنه " أباقا خان "، وورث منه العداء لمغول القبيلة الذهبية، ولذا سارع للانتقام لهزيمة أبيه على يد " بركة خان "، فجهز جيشًا ضخمًا جعل على قيادته قائده المشهور " يشموت " والتقى بقوات بركة خان التى يقودها " نوقاى " في منطقة القوقاز، وكان النصر حليف يشموت الذى فرق جيوش خصمه بعد أن أصابه في عينه، فتقهقرت قوات مغول القبيلة الذهبية وتشرذمت.

ولكن بركة خان لم يرض بهذه الهزيمة وخرج بنفسه على رأس جيش جرار، وتوغل في مناطق القوقاز، واستولى على أران وجورجيا وعلى المدن الرئيسية في بلاد القوقاز، ولم ينقذ دولة الإيلخانات توغل بركة خان فيها إلا الوفاة التى أدركته خلال تلك الحملة مما أوقف مشاريعه وأعيد جيشه إلى بلاده مرة أخرى (٤).

---

(١) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٦٩.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٢.
(٣) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ٥٣.
(٤) رشيد الدين، جامع التواريخ، ٢ / ١١٣ - ١١٥.

منكوتمر (٦٦٦ - ٦٧٩ هـ / ١٢٦٧ - ١٢٨٠ م):

تولى الحكم بعد " بركة خان " ابن أخيه منكوتمر، الذى سار على نهج عمه في إعلاء شأن الإسلام والمسلمين في دولته، ودخل في عدة حروب مع أبغا - أباقا - بن هولاكو، وعمل على تحسين علاقاته مع دولة المماليك، فأرسل سفارة إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١م وقد حملت السفارة رسالة تؤكد عزم منكوتمر على مواصلة القتال حتى يتم استرداد الأملاك الإسلامية التى استولى عليها " هولاكو " وطلب من السلطان بيبرس مساندته حتى يتم استئصال أسرة هولاكو [(١)].

وقد حاول " منكوتمر " تقريب المسافات بين مغول القبيلة الذهبية ومغول الإيلخانات وعقد سلامًا مع الإيلخانات في عام ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨م، ولكن عوامل الخلاف كانت أكثر من عوامل الاتفاق، وسرعان ما وقع الخلاف بين كلا الدولتين، ووقع الصدام بينهما، فسعى منكوتمر للتحالف مع المماليك في مصر والشام، كما أنه عقد تحالفًا مع مغول بلاد ما وراء النهر بهدف تطويق مغول الإيلخانات من كل اتجاه[(٢)].

تدان منكو (١٢٨٠ - ١٢٨٧ م):

لم يمهل القدر " منكوتمر " أن يتم ما بدأه في علاقاته مع دولة المماليك، فقد توفى سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠ م، وتربع مكانه أخوه تدان منك، الذى سار على نهج أخيه في تحسين علاقاته بدولة المماليك، وحسن من علاقاته مع السلطان الملوكى قلاوون، ثم أعلن إسلامه بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم، أى في عام ١٢٨٣م [(٣)].

وهكذا ظلت الروح الإسلامية غالبة على دولة مغول القبيلة الذهبية منذ عهد بركة خان وخلفائه الذين حكموا من بعده، حتى أننا نرى أن " تدان منكو " قد أظهر التصوف والزهد والبعد عن مباهج الحياة يقول النويري: "... واستمر تدان منكو في الملك إلى سنة ست وثمانين وستمائة، فأظهر الزهد والتخلى عن النظر في أمور المملكة وصحب الفقراء والمشايخ وقنع بالقوت، فقيل له: إن المملكة لا بد لها من

---

(١) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٢١١.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٠٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ١ / ٩٤٢.

ملك يسوس أمورها، فنزل عن الملك لتلابغا... " [١].

تلابغا بن منكوتمر (١٢٨٧ - ١٢٩١ م):

وما لبث " تدان منكو " أن تنازل عن الحكم، وانقطع للعبادة والزهد، ومجالسة العلماء، فتولى بعده ابن أخيه " تلابغا بن منكوتمر ".

وقد أكمل " تلابغا " طريق سابقيه في معارضة دولة الإيلخانات في فارس والعراق، فقام بتجهيز حملة عسكرية عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م توجهت للحدود مع فارس، ولكنها لم تحقق النتائج المرجوة منها، ثم تكررت المحاولة الثانية في عام ١٢٩٠ م وكانت وجهة هذه المحاولة هى ضم أذربيجان، إلا أن مصير هذه الحملة كان كسابقتها ولم تحقق الآمال المرجوة منها [٢].

وعلى ما يبدو أن معظم الأعمال العسكرية التى قام بها " تلابغا " كان محكوم عليها بالفشل وعدم تحقيق نتائج إيجابية، فبعد حملاته الفاشلة على دولة الإيلخانات، كانت له حملة فاشلة على بولندا والمجر، وإن كانت هذه الحملة الأخيرة قد نتج عنها اهتزاز مركزه داخل القبيلة الذهبية [٣].

طقطقاى (١٢٩١ - ١٣١٢ م):

وما لبث طقطقاى أن نازع تلابغا بن منكوتمر الملك ودبر له مؤامرة قضى بها على حياته، وتولى من بعده الحكم سنة ١٢٩١م.

وفى عهد طقطقاى هذا تحسنت العلاقات مع دولة المماليك، فأرسل رسالة إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٤٠٤هـ تحمل هدية وكتابًا يعرض فيه استعداده لمساعدته في محاربة غازان محمود، وأرسل إليه السلطان المملوكى ردًا ذكر فيه أن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه " أوليجاتو " خرابنده أذعن للصلح. يقول المقريزي: "... قدم الرسل الذين توجهوا إلى الملك طقطقاي صاحب بلاد الشمال: وهم الأمير بلبان الصرخدى ورفقته، ومعهم نامون رسول طقطقاي بهدية

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٧ / ٢٤٨.
(٢) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٧٣.
(٣) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٧٤.

سنية، وكتاب يتضمن أن عسكر مصر تسر إلى بر الفرات ليسير معهم ويأخذ بلاد غازان، ويكون لكل منهما ما يصل إليه من البلاد. فأكرم الرسول وجهزت له الهدايا، وأجيب بأن الصلح قد وقع مع خربندا ولا يليق نقضه، فإن حدث غير ذلك عمل بمقتضاه... (١).

وقد دخل طقطقاى في صراع مسلح مع الإيلخان المغولى " أوليجاتو " في أكثر من موقع ولكن هذه الحرب لم تؤت ثمارها المرجوة منها؛ ولأن الحرب قد أنهكت قوى الدولتين معًا فقد أصبح الأرض ممهدة لعقد السلم بين كلا الدولتين، وجاءت الخطوة من جانب طقطقاى الذى أرسل سفارة في بداية عهده إلى أوليجاتو، ثم بعث برسالة أخرى في ٢٩ ذى الحجة سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م بهدف عقد السلم بين الدولتين (٢).

محمد أوزبك (٧١٣ - ٧٤١ هـ / ١٣١٣ - ١٣٤٠ م):

وبعد أن توفى طقطقاى سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣م تولى الحكم بعده ابن أخيه محمد أوزبك، والذى حذا حذو بركة خان في في نشر الإسلام حتى غدا ثابت الأركان في عهده.

وعلى الرغم من تحمس أزبك للدين الإسلامى وتفانيه والإخلاص له، فإنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين؛ فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بالتبشير لدينهم ونشره في بلاده(٣).

وكان لاعتناق " أزبك خان " الإسلام أثر كبير في استمرار العلاقات الودية بينه وبين دولة المماليك في مصر، فتبادل كل من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأزبك خان المراسلات والهدايا، كما اقترنت العلاقة بينهما بمصاهرة سلطان المماليك ببنت أزبك خان... يقول النويري: "... إنَّ السلطان الملك الناصر قد خطب إلى الملك أزبك بن طغولجا بن منكوتمر بن طغان بن باطوخان بن دوشى خان بن

(١) المقريزي، السلوك، ٢ / ٧.
(٢) عبد الله القاشاني، تاريخ أوليجاتو، ص ٨٩، بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص ٧٤.
(٣) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢١٨.

جنكيزخان ملك البلاد الشمالية من تكون الذرية الجنكيزخانية، وجهز إليه الأمير علاء الدين أيدغدى الخوارزمى وغيره كما تقدم في سنة ست عشرة وسبعمائة، فلما عرضت كتب السلطان على الملك أزبك.

قال الترجمان للرسول لما أراد أن يتكلم بالمشافهة: إن القاضى يعنى الملك أزبك.

يقول: إن كان في مشافهتك غير السلام فخاطب به الأمراء، ثم جمعت الأمراء مقدمى التمانات، وهم سبعون أميرًا، فكلمهم الرسول في ذلك فنفروا منه، وقالوا هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جنكيزخان وإلى هذا الوقت. وفى مقابلة ماذا تجهز ابنة ملك من الذرية الجنكزخانية إلى الديار المصرية، وتقطع سبعة بحور؟ ونحو هذا من الكلام، ولم يوافقوا على ذلك في أول يوم، ثم اجتمعوا في يوم آخر بعد أن وصلت إليهم هداياهم التى جهزها السلطان إليهم وأعيد الحديث في ذلك فأجابوا إليه وسهلوه، وقالوا: ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك. وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته إلى ما طلب إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين سنة كلام، وسنة خطبة، وسنة مهاداة، وسنة زواج، واشتطوا في طلب المهر والشروط فلما اتصل ذلك بالسلطان فرجع عن الخطبة والحديث فيها وتكررت رسله إلى الملك أزبك ورسل الملك أزبك إليه والسلطان لا يذكر أمر الخطبة ولا تتضمن رسائله غير السلام والمودة على العادة، ثم توجه الأمير سيف الدين أطرجى من جهة السلطان إلى الملك أزبك بالهدايا والتحف وخلعة سلطانية مزركشة مكللة فلبسها الملك أزبك ثم ابتدأ الأمير سيف الدين أطرجى بذكر الزواج، وقال: قد جهزت لأخى السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب، وقد عينت له ابنة من البيت الجنكيزخانى من نسل الملك بركة بن باطوخان بن دوشى خان بن جنكيزخان، فقال أطرجي: إن السلطان لم يرسلنى في هذا الأمر، وهذا أمر عظيم لو علم السلطان بوقوعه جهز لهذه الجهة المعظمة ما يليق وما يصلح لها وأراد بذلك رفع الأمر إلى وقت آخر فقال الملك أزبك: أنا أرسلها إليه من جهتى فما وسع الرسول إلا مقابلة أمره بالسمع والطاعة فلما استقر هذا الأمر قال الملك أزبك للرسول: أحمل مهر هذه الجهة فاعتذر أنه لا مال

معه. فقال: نحن نأمر لتجار أن يقرضوك ما تحمله فأمرهم بذلك. فاقترض عشرين ألف دينار عينًا وحملها ثم قال له: إنّه لا بد لها من عمل فرح يجتمع فيه الخواتين، فاقترض مالاً آخر قيل إنه سبعة آلاف دينار، وعمل الفرح وجهزت الخاتون، وصحبها جماعة من الرسل، وعدة في الخواتين وقاضي مدينة صراي، وتوجهوا من جهة الملك أزبك وركبوا البحر في ثاني شهر رمضان سنة تسع عشرة وسبعمائة، وحصل لهم مشقة عظيمة إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية في شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة.

ولما طلعت الخاتون من المركب جعلت في خركاة مذهبة على عجلة وجرها المماليك إلى دار السلطنة بالثغر، وأجريت لهم الإقامات المتوفرة، وجهز السلطان إلى خدمتها جماعة من الحجاب وثمان عشرة حراقة فركبت الخاتون في الحراقة الكبرى السلطانية وركب بقية من معها في بقية الحراريق، ووصلت الخاتون إلى الساحل المقابل للقاهرة من بحر النيل في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة وفرشت مناظر الميدان السلطاني لنزولها، ولما وصل ركب الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة الشريفة وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية الأكابر، وتوجهوا إلى خدمتها وحملت من الحراقة في محفة على أكتاف مماليك نائب السلطنة إلى أن استقرت بقاعة الميدان السلطاني، وضرب لها أيضًا بالميدان دهليز أطلس معدني كان قد عمل للسلطان، ومد لها ولمن معها أسمطة تصلح لمثلها، وأجريت عليهم الإقامات. فلما كان في يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر أحضر السلطان الرسل وهم رسل الملك أزبك ورسل ملك الكرج ورسل الأشكري فمثلوا بين يديه، أو أدوا ما معهم من الرسائل وأحضروا الكتب والتقادم، ثم أمر السلطان نائبه الأمير سيف الدين أرغون والأمير سيف الدين بكتمر الساقي وهو من أخص مماليكه أن يتوجها إلى الميدان وينظرا الخوند الخاتون الواصلة، فتوجها إليها ورأياها - فيما بلغني - ونقلت في بقية النهار إلى قلعة الجبل وحملت على عربة يجرها بغل يقوده أحد مماليكها حتى استقرت بقاعة أعدت لها بقلعة

الجبل كان السلطان قد أنشأها لم يبن بالمملكة الإسلامية مثلها ثم عقد العقد المبارك في يوم الاثنين السادس من شهر ربيع الآخر على ثلاثين ألف مثقال عينا حالة منها ما قدم وهو عشرون ألف دينار التى تقدم ذكرها وعقد العقد قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة وقبل العقد عن السلطان بوكالته نائبه الأمير سيف الدين أرغون وبنى السلطان بها ثم أعاد الرسل ومن حضر في خدمتها بعد أن شملهم بالإنعام الوافر وجهز معهم الهدايا الجليلة إلى الملك أزبك وغيره وكان عودهم في شعبان وتأخر منهم قاضى مراى بسبب الحج فحج وعاد إلى بلاده في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة (١).

وكان من أثر هذه المصاهرة أن ازدادت الصلات توثقا بين دولة المماليك في مصر ومغول القبيلة الذهبية، وعد الحال بين هاتين الدولتين إلى ما كانت عليه أيام الملك الظاهر بيبرس الذى حالف بركة خان وتزوج بابنتيه، وبذلك ارتبطت دولة مغول القبيلة الذهبية بدولة المماليك في مصر برباط المصاهرة (٢).

وفى عهد أوزبك بلغت دولة مغول القبيلة الذهبية أوج مجدها، فقد خضعت لها طوعا ممالك روسيا وكانت تدفع له الجزية السنوية، كما أنه قام بغزو مناطق القوقاز عام ١٣٣٥ م ثم جاء ابنه جانى بك من بعده وأتم هذا المشروع (٣).

---

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٣٢ / ٢٥٠ - ٢٥٢.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٢١.

(٣) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١١٦، ١١٨.

تينى بك (١٣٤١ م):

بعد وفاة أوزبك خان، خلفه ابنه تينى بك، الذى غير سياسة ومنهج أبيه وسابقيه من خانات القبيلة الذهبية وبدأ يتقرب من النصارى في بلاده مما جعل الإسلام يتراجع في عهده، ولكن هذا الأمر لم يكن ليرضى به أحد في دولته فثاروا عليه وخلعوه بالقوة من العرش وأحلوا بدلاً منه أخوه جانى بك [١].

جانى بك ١٣٤١(- ١٣٥٧ م):

بعد أن تمكن جانى بك من انتزاع عرش البلاد من أخيه، انطلق لاستكمال المشاريع التى بدأها أبوه، فاستفاد من حالة الفوضى التى كانت تسود منطقة القوقاز، وضعف قبضة مغول فارس على تلك المنطقة، فقاد الحملة ونجح فيها هذه المرة في محاولته ودخل مدينة تبريز، فبعد هجوم قصير ولكنه شديد تمكن من دخول تبريز العاصمة عام ١٣٥٧، ثم ما لبث أن عاد إلى بلاده بعد أن قوض حكم تلك البلاد لابنه، وعلى ما يبدو أنه قد فرَّ من هذه البلاد بعد أن انتقل إليها الطاعون الكبير، الذى تفشى في ما بين عامى ١٣٤٨ م و١٣٤٩ م وقتل الكثير من الناس في القرم، ثم ما لبث أن عاد إلى الظهور في تبريز من جديد في نحو عام ١٣٥٧ م، ولدى عودته من تبريز إلى عاصمة بلاده سراى ما لبث أن مات فيها بعد قليل، وربما كان قد أصيب بهذا الطاعون أثناء حملته على القوقاز[٢].

كما أن جانى بك سعى إلى توطيد علاقاته مع المظفرين [٣] من أجل فتح الطريق أمام دولته إلى البحر المتوسط، ذلك المنفذ الذى فقدته القبيلة الذهبية منذ عام ١٣٥٤م، عندما احتل الأتراك مضيق الدردنيل [٤] ولكن المظفرين

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١١٨.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١١٨ - ١١٩.

(٣) قامت هذه الدويلة بعد تفكك دولة مغول فارس والعراق أو ما يعرف بدولة الإيلخانات.

(٤) نجح العثمانيون في العام ١٣٥٤ م في اجتياز الدردنيل واتخاذ موقع قدم لهم على الجهة الأوربية من المضيق، وقد أدى استيلاء الأتراك على مضيق الدردنيل أن تتوقف المبادلات التجارية بين القبيلة الذهبية ووادى النيل، وإن لم يعد لتلك المبادلات في ذلك الوقت أهمية كبري، ونتيجة لهذا التطور انفصلت القبيلة الذهبية عن البحر المتوسط، وبالتالى أبعدت عن السياسة الكبري، على أساس أن هذه

رفضوا تلك العروض، فاضطر إلى فتح طريق آخر، يمتد من أذربيجان إلى سورية والمتوسط عبر العراق [1].

كما أن جانى بك قد سعى إلى توطيد علاقاته السياسية والتجارية مع دولة المماليك في مصر والشام، فتبادلت المراسلات بينه وبين السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٦٥٧ هـ [2].

تحلل وتفكك دولة مغول القبيلة الذهبية:

وبعد وفاة " جانى بك " دخلت البلاد من بعده مرحلة من الفوضى والاضطراب، فقد تولى العرش من بعده ابنه بيردى بك سنة ١٣٥٧م، ولكن إخوته دخلوا معه في صراع على العرش، وأدت هذه الصراعات إلى التخلى عن الفتوحات التى كان آباؤهم قد حققوها في القوقاز، ونتج عن ذلك الصراع أيضًا انقلاب كامل في أحوال دولة مغول القبيلة الذهبية، فما كاد بيردى بك يحكم سنتين أو ما يقاربهما حتى أبعد عن العرش على يد أحد إخوته الذى ما لبث أن اغتيل بدوره هو الآخر بعد ذلك ببضعة أسابيع، وبعد ذلك تتالت الدسائس والاغتيالات وتفتت الدولة كما حدث في بلاد الفرس (دولة الإيلخانات الفارسية) قبل سنوات وقامت الحرب بين عدد من القواد ومدعى العرش، ولكن أيًا منهم لم يفلح في أن يكون سيد البلاد كلها ولا أن يثبت في السلطة لوقت طويل. فتنازع الأمراء السلطة واستقلوا بولاية الأقاليم؛ فاستقل " أرض خان " بالعاصمة سراى - عاصمة مغول القبيلة الذهبية -، والأمير " ما ماى " بالقرم " سنة ٧٧٦هـ، ودخلت إمبراطورية روسيا في خضم تلك الأحداث مستفيدة من حالة الفوضى التى اعترت دولة مغول القبيلة الذهبية وأوقعوا الهزيمة النكراء بالقائد ماماى في عام ١٣٨٠ م، وتوقفوا عن دفع الجزية السنوية التى كانوا يدفعونها للقبيلة الذهبية، ثم طمح طقتمش ابن

السياسة كانت تدور بين سواحل هذا البحر، ولم تعد القبيلة الذهبية موجودة إلا كدولة أوربية شرقية، ففى هذه المنطقة وحدها بقى للدولة المتمركزة على الفولجا أهمية سياسية.

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١١٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور، دولة بنى قلاوون في مصر، ص ٢٢١.

بـردى بـك إلـى عـرش آبائـه، واسـتفاد مـن معونـة تيمورلنـك لـه، فسـار لمحاربـة أرض خـان وأوقـع بـه الهزيمـة، ولمـا تـوفى هـذا الخـان فـي منتصـف ٧٧٦هــ، سـهل علـى طقتقمش الاسـتيلاء علـى أعمالـه فـي جبـال خـوارزم، كمـا ضـم سـراى إلـى حوزتـه، ومـا زال يـوالى انتصـاراته حتـى اسـتعاد ملـك آبائـه مـن أيـدى الأمراء المتغلبين [١].

* * *

(١) بيرتولـد شـبولير، " المغـول فـي التـاريخ "، ص ١٢١ - ١٢٢، محمـد جمـال الـدين سـرور، دولـة بنـى قلاوون في مصر، ص٢٢١ هامش ٢.

الفصل الحادى عشر: تيمورلنك واجتياح العالم الإسلامى من جديد

بعد أن بدأت دولة مغول القبجاق أو القبيلة الذهبية، ومغول الإيلخانات في فارس والعراق في الانهيار، وشاخت إمبراطورية المغول وشارفت على الزوال، ظهر فجأة من أعاد إلى أذهان الناس سيرة خانات المغول السفاكين، لاح في الأفق نجم الطاغية تيمورلنك، فأقام دولة فتية سار فيها على نهج جنكيز خان وهولاكو في القتل والتشريد وإشاعة الرعب والفزع في نفوس الناس.

وولد تيمورلنك سنة ١٣٣٦ م، في قرية خواجه بالقرب من مدينة سمرقند، وأصله من قبيلة جوركان، إحدى فروع قبيلة برلاس التترية، وهو حفيد قراشور نويان وزير جغتاى - الابن الثانى لجنكيز خان - أطلق عليه لقب كوركان، ومعناه صهر الملوك، وأصل اسمه " تمر "، ثم أضيف إليه " لنك " ومعناه الأعرج لإصابته في فخذه حين كون عصابة لسرقة الأغنام وصار يعرج، وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أراضيهم حتى وصل إلى الملك يقول ابن عربشاه: "... " تمرلنك "... وهو بالتركى الحديد ابن ترغاى بن أبغاى ومسقط رأس ذلك الغدار قرية تسمى خواجة إيلغار وهى من أعمال كش... من مدن ما وراء النهر عن سمرقند... وقيل لما سقط إلى الأرض ذلك السقيط كانت كفاه مملوءتين من الدم العبيط فسألوا عن أحواله الزواجر والقافة وتفحصوا عن تأويل ذلك من الكهنة وأهل العيافة فقال بعضهم يكون شرطيًا وقال بعض ينشأ لصًا حراميًا، وقال قوم بل يكون قصابًا سفاكًا، وقال آخرون بل يصير جلادًا بتاكًا وتظافرت هذه الأقوال، إلى أن آل أمره إلى ما آل، وكان هو وأبوه من الفدادين ومن طائفة أو شاب لا عقل لهم ولا دين، وقيل كان من الحشم الرحالة والأوباش البطالة، وكان ما وراء النهر مأواهم، وتلك الضواحى مشتاهم، وقيل كان أبوه إسكافيًا فقيرًا جدًا، وكان هو شابًا حديدًا جلدًا، ولكنه لما كان به من القلة يتجرم، وبسببه تلك الأصرام تتضرر وتتضرم ففى بعض الليالى سرق غنمة واحتملها فضربه الراعى في كتفه بسهم فأبطلها، وثنى عليه بأخرى في فخذه فأخطلها، فازداد كسرًا على فقره، ولؤمًا على شره، ورغبة في الفساد، وحنقًا على

العباد والبلاد، وطلب له في ذلك الأضراب والنظراء، وعشا عن ذكر الرحمن فقيض له من الشياطين القرناء، مثل عباس وجاهنشاه، وقمارى وسليمان شاه، وأيدكو تيمور وجاكو وسيف الدين، نحو أربعين لا دنيا لهم ولا دين، وكان مع ضيق يده وقلة عدده، وضعف بدنه وحاله وعدم ماله ورجاله يذكر لهم أنه طالب الملك ومورد ملوك الدنيا موارد الهلاك، وهم في ذلك يتناقلون عنه هذا النقل وينسبونه إلى كثرة الحماقة وقلة العقل، ويدنونه منهم ويقبلون إليه ليسخروا منه ويضحكوا عليه

إن المقـــــادير إذا ســـــاعدت ::: ألحقـــــت العـــــاجز بالحـــــازم

فشرع فيما يقصده والقضاء يرشده والقدر ينشده

لا يؤيســـنك مـــن مجـــد تباعـــده ::: فـــإن للمجـــد تـــدريجًا وترتيبًـــا

إن القناة الـــتى شـــاهدت رفعتـــها ::: تنمـــو فتنبـــت أنبوبًـــا فأنبوبـــا

... وقيل إنه كان في بعض تجرماته فضل الطريق صورة، كما ضلها معنى وسيرة، وكاد يهلك عطشًا وجوعًا، وسار على ذلك أسبوعًا فوقع في أثناء ذلك على خيل السلطان فتلقاه الجشارى باللطف والإحسان وكان تيمور ممن يعرف خصائص الخيل بسماتها ويفرق بين هجانها وهجينها بمجرد النظر إلى هيأتها، فأطلع الجشارى على ذلك منه وأخذ علم ذلك عنه وزاد فيه رغبة، وطلب منه دوام الصحبة وجهزه إلى السلطان مع أفراس له طلبها منه وأخبره بفضيلته وما شاهده عنه فأنعم السلطان عليه ووصى به الجشارى ورده إليه، فلم ينشب الجشارى أن مات فتولى تيمور وظيفته ولا يزال يترقى عند السلطان حتى تزوج شقيقته ثم أن غاضبها في بعض مكافحاته ومقاله فعيرته بما كان عليه من أول أمره وحاله فسل السيف ونحاها على أنها تفر من بين يديه فلم تكترث به ولم تلتفت إليه فضربها ضربة أزهق بها نفسها وأسكنها رمسها ثم لم يسعه إلا الخروج والعصيان والتمرد والطغيان إلى أن كان من أمره ما كان وكان السلطان اسمه حسين، وهو من بيت الملك ونافذ الكلمتين، وتخت ملكه مدينة بلخ وهى من أقصى بلاد خراسان،... ونسبًا يتصل تيمور إلى جنكيز خان من جهة النساء حبائل الشيطان ولما استولى تيمور على ما وراء النهر وفاق الأقران، تزوج بنات الملوك فزادوه في ألقابه كوركان، وهو بلغة المغول الختن لكونه صاهر الملوك وصار له في بيتهم حركة وسكن وكان للسلطان المذكور من الوزراء أربعة

عليهم مدار المضرة والمنفعة هم أعيان الممالك، وبرأيهم يقتدى السالك... " (١).

وعندما بلغ تيمور لنك الثالثة والثلاثين من عمره أصبح حاكمًا على إقليم تركستان الشرقية وإقليم ما وراء النهر، وهى المنطقة التى حكمها خانات المغول من فرع جغتاى ابن جنكيز خان، ومنذ تولى تيمورلنك السلطة شن حربًا واسعة على بلاد فارس ثم العراق، وعلى بلاد روسيا، حيث توجد القبيلة الذهبية، وعلى شرق بلاد الأناضول حيث أملاك الدولة العثمانية، وفى نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الميلادى تقدم إلى بلاد الشام حيث حلب ودمشق وغيرها.

وترجع انتصارات " تيمورلنك " في كل هذه الأقاليم إلى حروبه التى كانت شديدة الوطأة لا تعرف الرحمة، مما أدخل في الأذهان عصر خانات المغول الأوائل، ويلاحظ على فتوحات " تيمورلنك " في بدايتها أنها كانت بطيئة ومتأنية ولكنها كانت فتوحات مدروسة مكن فيها تيمور لنفسه ولدولته في الإقليم الذى حكمه، وقد ظلت حروب تيمور لنك منذ عام ١٣٨١ م وحتى وفاته عام ١٤٠٤م. وكانت بداية عمليات " تيمورلنك " الرئيسية ضد خانات المغول في فارس حيث نجح فيما بين عامى ١٣٧٩ م و١٣٨٥م في إخضاع كل بلاد الفرس الشرقية والانتصار على عدد من العائلات المالكة - التى قامت على أنقاض دولة الإيلخانات المغولية - مثل عائلة الكورتيين في هرات، كما وجه تيمور لنك قواته لاجتياح وتخريب أذربيجان وجورجيا وأرمينية وشمال العراق في الفترة ما بين ١٣٨٥ م و١٣٨٧م، كما قاموا بطرد الحاميات العسكرية من القوقاز، وقتلوا عشرات الألوف من السكان، ونهبوا أعدادًا لا تحصى من المدن (٢).

ثم إن تيمور لنك هاجم بقواته باجتياح أصفهان وشيراز، وارتكب فظائع لم يسمع بها من قبل، ولكن اضطرته الظروف العودة إلى بلاد ما وراء النهر لإخماد ثورة قامت ضده، فانتصر على مدبريها ونكل بهم، ثم قام بحملة على روسيا عام ١٣٩١ م وتقدم في السهوب الروسية حتى صل الفولجا (٣).

---

(١) عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص ١ - ٣.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٧، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٧٦.
(٣) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٧.

ثم عاد تيمور لنك إلى سمرقند فأعاد بناءها لتكون مقرًّا لإقامته الشتوية، وزينها أحسن الزينة، واعتنى بها أشد الاعتناء لتمجيد وتخليد اسمه، وأظهر العناية بالآداب والفنون، وشاد فيها أبنية فخمة، وجمع فيها العلماء والفنانين والحرفيين من جميع البلاد المفتوحة ليكونوا في خدمة أمجاده، ولكن وعلى الرغم من ذلك لم يمكث فيها طويلاً، إذ سرعان ما يخرج بقواته من سمرقند عامى ١٣٩٢ م و١٣٩٣م فغزا بلاد فارس من جديد كما غزا العراق وهاجم سورية، طاردا الملوك المحليين في كل مكان عروشهم، إذا لم يفضلوا أن يقدموا له الولاء على الأقل، وفى العام ١٣٩٥ م تقدم بقواته مجتاحًا كل ما قابله حتى وصل إلى البحر المتوسط وحدود آسيا الصغرى (١).

وبعد هذه المرحلة طمع " تيمور لنك " في أملاك القبلة الذهبية في روسيا، فتقدم بعدة حملات متلاحقة حتى وصل مدينة موسكو، وفى سنة ١٣٩٥م اتجهت القوات المغولية إلى بلاد الأناضول فخضعت له مدينتى أرزنجان وسيواس وغيرهما، وبعدها بثلاث سنوات كانت حملات تيمور لنك على شمال الهند في عام ١٣٩٨ م وتميزت حملاته على الهند بالقسوة التى لم يعهدها أحد منذ عهد خانات المغول الأوائل (٢).

علاقة تيمور لنك بدولة المماليك:

ثم بدأ تيمور لنك يتطلع إلى الأملاك التابعة والخاضعة لسلطان دولة المماليك في بلاد الشام وبلاد الجزيرة، فاستطاع أن يستولى على ماردين وتبع ذلك الاستيلاء على فارس في مايو ١٣٩٣م ثم إنه قدم بجحافله إلى بغداد سنة ٧٩٥هـ / يوليو ١٣٩٣م وضرب عليها الحصار لمدة شهرين كاملين، إلى أن نجح في دخول المدينة فقتل أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها (٣).

ثم بدأ تيمورلنك يتطلع إلى مصر وبقية بلاد الشام، فأرسل في سنة ٧٩٦ هـ / مارس ١٣٩٦م إلى السلطان المملوكى يرعد فيها ويبرق ويقول له:{قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ

---

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٧.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٣٧، محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص ٧٧.
(٣) أبو المحاسن بن تغربردي، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي، ١ / ٢٢٣، المقريزي، السلوك، ٣ /٤١٦.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾} [الزمر: ٤٦]. اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكي، ولا نرحم باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا، ومن جهتنا. فقد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل، فقل له: {إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ} [النمل: ٣٤]، وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعمد الرمال، ونحن أبطال، وأقيال، وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، وعزنا أبدًا بالسؤدد مقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل، وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم، فالحصون منا، مع تشييدها لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا، ولا يسمع، وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام، وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعددتم لكم النار، وبئس المصير، {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾} [النساء: ١٠]. فلما فعلتم ذلك وأردتم أنفسكم موارد المهالك. وقد قتلتم العلماء، وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغى والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفى غد ينادى عليكم {فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠] فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغى والعدوان، وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة. وقد سلطنا عليكم إله له أمور مقدرة، وأحكام مدبرة، فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقا وغربًا، وأخذنا منها كل سفينة غصبًا. وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادى منادى الفراق: هل ترى لهم من باقية؟، ويسمعكم صارخ الغناء، بعد أن يهزكم هزًا، {هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا} [مريم: ٩٨]، وقد أنصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن

الماضين، وتعصوا رب العالمين، فما على الرسول إلا البلاغ المبين. وقد أوضحنا لكم الكلام، فأسرعوا برد جوابنا، والسلام... [(١)].

غير أن السلطان المملوكى قد ثبت أمام هذه التهديدات ورد على رسالة تيمور لنك يقول له فيها: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} [آل عمران: ٢٦]، حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية، ونزعاتكم الشيطانية، فكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية، وسيرة الكفرة الملاكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك، ولا ترحمون عسيرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذاك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين، لا من صفات السلاطين، ويكفيكم هذه الشهادة الكافية وبما وصفتم به أنفسكم ناهية{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾} [الكافرون: ١ - ٦]، ففى كل كتاب لعنتم، وعلى كل لسان كل مرسل نعيتم، وبكل قبيح وصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، إنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع، نحن المؤمنون حقًا، لا يدخل علينا عيب ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركته تأويله. فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، إذا السماء انفطرت. ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع. نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة. {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾}

[آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]. وأما قولكم قلوبنا كالجبال، وعمدنا كالرمال، فالقصَّاب لا يبالى بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم، {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً

---

(١) المقريزي، السلوك، ٣ / ٢٣٧ - ٢٣٨.

كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩]. الفرار الفرار من الرزايا وحلول البلايا. واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، وإن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ألا إن حزب الله هم الغالبون. أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة. لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ففى نظمه تركيك، وفى سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان. أم اتخذتم إلهًا ثان. وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم،{لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾} [مريم: ٨٩ - ٩٠]، قل لكاتبك الذى وضع رسالته، ووصف مقالته: وصل كتابك كضرب رباب، أو كطنين ذباب. كلا سنكتب ما يقول، ونمد له من العذاب مدًّا، ونرثه ما يقول إن شاء الله تعالى.{وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٧]. لقد لبكتم في الذى أرسلتم. والسلام. (١).

ثم إن السلطان المملوكى خرج بقواته من القاهرة إلى بلاد الشام في ربيع الآخر بعد أن وصلت إليه الأنباء بتحرك تيمورلنك باتجاه مدينة حلب، فوصل دمشق في يوم الاثنين من نفس الشهر، ثم رحل نحو حلب بعد أن علم أن جنود تيمورلنك قد بلغت البيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات، فأخذ جند مصر في عبوره ليلاً – وقيل: إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى - وأوقعوا بهم وغنموا منهم الشيء الكثير، ولكنهم لم يلتقوا في معركة حاسمة. ثم رحل تيمورلنك بلا منازلة (٢).

ويبدو أن تيمور لنك وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول في معركة مكشوفة مع السلطان برقوق، لا سيما وأن طقتمش إيلخان بلاد الدشت والسراى وما جاورها هاجم بلاده، فاضطر إلى الاشتباك معه، ثم زحف شرقا نحو الهند تاركا بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه (٣).

---

(١) المقريزي، السلوك، ٣ / ٢٣٧ - ٢٣٨.
(٢) المقريزي، السلوك، ٣ / ٧٢٤ - ٧٣١، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ١٢ / ٧٢٤ - ٧٥٦، ابن إياس، بدائع الزهور، ٢ / ٣٠٢.
(٣) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٢٧.

وبعد أن رحل تيمور لنك فإن السلطان الظاهر برقوق قد توجه إلى دمشق حيث استقبل رسل السلطان العثمانى التى أتت تعرض عليه التحالف مع دولة المماليك ضد تيمور لنك والمساعدة في استعادة بغداد من أيدى التتار، وبالرغم من سرور الظاهر برقوق بهذه المبادرة إلا أنه رفض أن يكون شرف استعادة بغداد من أيدى التتار لغير دولة المماليك، ولكنه قدم الشكر للسلطان العثمانى على عرضه المساعدة في قتال التتار(١).

وما لبث السلطان المملوكى برقوق أن كتب تقليدًا بنيابة بغداد لأحمد بن أويس (٢)

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ٢ / ٣٠٢، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ٩ / ٣٨١، العسقلاني، إنباء الغمر، ١ / ٣٦٧.

(٢) أحمد بن أويس بن الشيخ حسن بن حسين بن آقبغا بن إيلكان، السلطان غياث الدين صاحب بغداد وتبريز وغيرهما من بلاد العراق.

ملك بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس سنة أربع وثمانين وسبعمائة، واستمر بممالك العراق إلى سنة خمس وتسعين وسبعمائة، خرج من بغداد فارًّا من تيمورلنك لما استولى على بغداد، وقصد نحو البلاد الحلبية وصحبته نحو أربعمائة فارس من أصحابه.

وسبب استيلاء تيمور على بغداد هو أن تيمور أخذ شيراز وقتل متملكها شاه منصور وبعث برأسه إلى بغداد، وبعث بالخلعة والسكة إلى السلطان أحمد هذا فلبس الخلعة، وضرب السكة باسم تيمورلنك وأذعن لطاعته، ثم إن أهل بغداد كاتبوا تيمور يحثونه على المسير إليهم فتوجه إليها بعساكره، واستولى عليها بعد أمور ووقائع، وفر السلطان أحمد منها إلى جهة حلب.

وسبب مكاتبة أهل بغداد لتيمور أن ابن أويس المذكور كان أسرف في قتل أمرائه، وبالغ في ظلم رعيته، وانهمك على الفجور والخمر، وكان قدوم تيمور إلى بغداد والاستيلاء عليها بحيلة دبرها على أهل بغداد، وهو أن السلطان أحمد لما بلغه مجيئه أرسل بالشيخ نور الدين الخرسانى إلى تيمور فأكرمه. وقال: أنا أترك بغداد لأجلك، ورحل يريد السلطانية، فبعث نور الدين كتبه بالبشارة إلى بغداد، وقدم في أثرها، وكان تيمور قد سار يريد بغداد من طريق أخرى، فلم يشعر ابن أويس - وقد اطمأن - إلا وتيمور قد نزل غربى بغداد قبل أن يصل الشيخ نور الدين، فدهش عند ذلك ابن أويس وقطع جسر بغداد ورحل بأمواله وأولاده من ليلة السبت رابع عشر شوال، وترك البلد، فحاصرها تيمور، وأرسل ابنه في إثر ابن أويس فأدركه بالحلة فتواقعا، وانتصر ابن تيمور، ونهب مال سلطان أحمد وسبى حريمه، وقتل وأسر.

ونجا ابن أويس في طائفة وهم عراه، وقصد حلب لائذًا بجناب الملك الظاهر برقوق سلطان مصر، فلما وصل إلى قريب حلب خرج للقية نائبها الأمير جلبان قراسقل والأمراء والعساكر الحلبية، وأنزله بالميدان ظاهر حلب، ثم كتب النائب يخبر الملك الظاهر برقوق بقدوم سلطان أحمد إلى حلب، فورد الجواب للنائب المذكور بالإدرار عليه من أموال الديوان السلطانى ما يكفيه من النفقات وغيرها، وأن يبالغ في إكرامه، فامتثل ذلك، ولا برح محفولاً فيما أجرى عليه إلى أن برز المرسوم السلطانى بطلبه إلى القاهرة، فتوجه إليها، فلما وصلها نزل الملك الظاهر برقوق في جميع العساكر المصرية إلى لقائه، وذلك في يوم الثلاثاء سابع عشر ربيع الأول سنة ست وتسعين وسبعمائة، إلى الريدانية خارج القاهرة،

وقعد بمسطبة مطعم الطيور إلى أن قرب منه ابن أويس، نزل السلطان عن فرسه ومشى عدة خطوات، فمشى إليه الأمير بدخاص حاجب الحجاب، ومن بعده الأمراء للسلام عليه، والأمير بدخاص يعرفه اسم كل أمير ووظيفته، وهم يقبلون يده، حتى أقبل الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، فقال له الأمير بدخاص: هذا ابن أستاذ السلطان، فعانقه ابن أويس ولم يدعه يقبل يده، ثم جاء من بعده الأمير بكلمش أمير سلاح، فعانقه أيضًا، ثم من بعده الأمير أيتمش رأس نوبة الأمراء، وهذه الوظيفة مفقودة الآن، فعانقه أيضًا، ثم الأمير سودون الشيوخونى النائب، فعانقه، وانقضى سلام الأمراء، فمشى عند ذلك السلطان ونزل عن المسطبة، ومشى نحو العشرين خطوة، فلما رأى ابن أويس ذلك هرول حتى التقيا، فأومأ ابن أويس ليقبل يد السلطان، فلم يمكنه، وعانقه، وبكوا ساعة، ومشى والسلطان يطيب خاطره ويعده بعوده إلى ملكه، ويده في يده حتى صعدا المسطبة وجلسا معًا على المقعد من غير كرسي، وتحادثا طويلاً، ثم قدم قباء من حرير بنفسجي بفرو قاقم وطرز ذهب وفرس من الخاص بسرج ذهب وكنبوش زركش وسلسلة ذهب، فركبه من حيث يركب السلطان، ثم ركب السلطان بعده، وسارا إلى أن قربا من قلعة الجبل، وقد خرج معظم الناس لمشاهدة ابن أويس المذكور إلى أن وصلا تحت الطبلخاناة، أومأ إليه السلطان بالتوجه إلى المنزل الذى أعد له على بركة الفيل، فتوجه إليه، وجلس لأكل السماط، فمد الأمير جمال الدين محمود الأستادار بين يديه سماطًا جليلاً، فأكل، وأكل الأمراء بعده، وانصرفوا، ثم أرسل السلطان إليه بمائتى ألف درهم فضة، ومائتى قطعة قماش سكندري، وثلاثة أفراس بقماش ذهب، وعشرين مملوكًا وعشرين جارية، ثم دخل في الليل ثقل ابن أويس وحريمه.

وفى يوم الخميس عمل السلطان الخدمة بالإيوان المعروف بدار العدل على العادة، وحضر ابن أويس الخدمة، وأجلسه السلطان رأس ميمنته، ومد السماط، وقام الأمراء من جلوسهم، فهم ابن أويس بالقيام معهم، فمنعه السلطان من ذلك، فاستمر في جلوسه حتى انتهى الموكب، ونهض متوجهًا إلى منزله والأمراء بين يديه، وقدامه جاووشيته، ونقيب جيشه، وتكرر طلوعه إلى القلعة إلى أن أخذ الملك الظاهر في أسباب السفر إلى البلاد الشمالية.

وتزوج الملك الظاهر بالخاتون تندو بنت حسين بن أويس ابن أخى القان غياث الدين أحمد هذا، ومبلغ الصداق ثلاثة آلاف دينار، وبنى بها ليلة الخميس عاشر الشهر المذكور ليلة سفره، وأصبح من الغد نزل السلطان من قلعة الجبل من باب السلسلة إلى الرميلة، وقد وقف القان ابن أويس وجميع الأمراء والعساكر، وقد لبسوا آلة الحرب ومعهم أطلابهم، فسار السلطان، وعليه قرفل بغير أكمام، وكلفته على رأسه، وتحته فرس بعرقية من الصوف سميك إلى باب القرافة، والعساكر قد ملأت الرميلة، فرتب بنفسه أطلاب الأمراء ومر في صفوفهم غير مرة حتى رتبها أحسن ترتيب، ثم مضى إلى قبر الإمام الشافعى رضى الله عنه فزاره، وتصدق على الفقراء بملغ له جرم، ثم توجه لزيارة السيدة نفيسة، وفعل كما فعل في زيارة الشافعي، وعاد إلى الرميلة، وأشار إلى الطلب السلطانى بالمسير، فتوجه إلى الريدانية في أعظم قوة وأبهج زى وأفخر هيئة، وجرى فيه من جنائب الخيل، ومن السلاح ما يقصر الوصف عن حكايته.

ثم مشى الملك الظاهر وإلى جانبه القان بن أويس المذكور، وهو على فرس بقماش ذهب، وقد دهش عقله مما رأى، وبجانب ابن أويس الأتابكى كمشبغا الحموي، ثم مشى أطلاب الأمراء على منازلهم، ونزل السلطان بخيمة بالريدانية، ونزل بن أويس بوطاق آخر، ثم سافرا من الغد إلى أن وصلا إلى دمشق في العشرين من جمادى الآخرة، فأقام ابن أويس إلى مستهل شعبان، وسافر من دمشق يريد بغداد، وقد قام له الملك الظاهر برقوق بجميع ما يحتاج إليه، وعند وداعه خلع عليه أطلسين، وسيف

وجرد حملة عسكرية كبيرة تحت قيادته، وزوده بالأمراء المماليك والخيل والجمال والسلاح والأموال، فتمكن هذا الجيش من دخول بغداد في أواخر جمادى الثانى سنة ٧٩٦ / يونيه سنة ١٣٩٤م بعد أن أوقعوا الهزيمة بجيش التتار بقيادة ميران شاه، ثم عمل على إصلاح ما تهدم من أسوار بغداد وترميم حصونها (١).

وما أن تخلص تيمورلنك من مشاكله مع جيرانه الشرقيين حتى عاد لمناوئة دولة المماليك من جديد، ففى العام ٧٩٩ هـ أرسل إلى الظاهر برقوق يطلب منه إطلاق سراح أحد أقربائه وهو أطلمش المأسور لدى برقوق وقال له: "... إما أن يرسلوا قريبنا أطلمش وإن لم يفعلوا فدماء المسلمين في أعناقهم والسلام... "، غير أن السلطان برقوق اشترط إطلاق سراح من هم في بلاط التتار من المسلمين أولاً (٢).

واتخذ تيمور لنك من هذه الحادثة مسوغًا لمهاجمة البلاد الإسلامية، وكان ذلك في عهد الملك الناصر فرج وبدأ زحفه على الدولة المملوكية قبل أن يتمكن السلطان الجديد فرج من ترتيب أموره، وحاول الاتصال بالسلطان العثمانى بايزيد والتحالف معه ضد الدولة المملوكية، ولكن السلطان العثمانى رفض المشاركة في قتل المسلمين

بسقط ذهب، وأعطى تقليدًا بنيابة السلطنة ببغداد، فأهوى بن أويس لتقبيل الأرض، فلم يمكنه الظاهر من ذلك إجلالاً له، واستقل ابن أويس بالمسير إلى أن وصل بغداد في سنة ست وتسعين وسبعمائة، فتسلمها على عادته، ومهد ممالكها، ثم أخذ يسير في رعيته بالظلم والعسف، وقتل جماعة من أمرائه، فوثب عليه من بقى من الأمراء بموافقة الرعية عليه، وكاتبوا نائب تيمورلنك بشيراز ليتسلما، فمضى إليها وتسلمها، ونزح عنها السلطان أحمد بن أويس.

وتوجه إلى قرا يوسف بن قرا محمد التركمانى صاحب الموصل، واستنجده، فسار معه إلى بغداد، فخرج أهل بغداد لقتالهما، والتقى الرفيقان، فانهزم سلطان أحمد وعاد إلى جهة دمشق وصحبته قرا يوسف وقعا الفرات، ومعهما جمع كثير من التركمان وغيره، ونزلا بالساجور بالقرب من حلب، فخرج إليهم نائب حلب الأمير دمرداش المحمدي، والأمير دقماق نائب حماه، وبقية العساكر، والتقوا على الساجور، وكان بينهم وقعة عظيمة، وحمل قرا يوسف بمن معه على العساكر الحلبية، فانكسر العسكر الحلبى وتفرق شملهم، بعد أن أسر الأمير دقماق نائب حماه وجماعة من الأمراء وذلك في ثانى عشرين شوال سنة اثنتين وثمانمائة، ثم عاد السلطان أحمد بن أويس وقرا يوسف إلى نحو بلاد الروم، ثم عاد بعد مدة إلى بغداد وملكها أيضًا، وحكمها مدة إلى أن قدمها تيمورلنك ثانيًا بعد عوده من البلاد الشامية بمدة، فخرج منها ابن أويس هاربًا بمفرده، وجاء إلى حلب، فدخلها في يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة ست وثمانمائة، وهو لابس لبادًا في زى الفقراء. أبو المحاسن بن تغربردي، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي، ١ /٤٦ - ٤٨.

(١) المقريزي، السلوك، ٣ / ٧٣١، العسقلاني، إنباء الغمر، ١ / ٣٧١.

(٢) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ٩ / ٤٥٢، العيني، عقد الجمان، ٢٥ / ١٤.

وإهدار دمائهم، فتقدم تيمورلنك باتجاه بغداد فتصدى له القان أحمد بن أويس وساعده قرا يوسف التركماني، وتمكنا من إيقاع الهزيمة النكراء بتيمورلنك في عام ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩م وأجبراه على الفرار بحشوده من أمام بغداد هاربًا باتجاه حلب (١).

وبالرغم من أن تيمورلنك وصل إلى مدينة حلب بجموع قليلة بلغ تعدادها السبعة آلاف مقاتل هاربا من قوات بغداد، واشتبك مع قوات نائب حلب ونائب حماة ودارت دائرة الحرب بين العسكرين فانهزم نائب حلب وحماة وقتل من عسكرهما عدد كبير منهم جانى بك اليحياوي، أتابك العسكر، وأسر نائب حماة دقماق المحمدى فاشترى نفسه منهم بالمال، وعاد نائب إليها مهزومًا (٢).

ثم أصبح الطريق مفتوحًا أمام تيمور لنك لاجتياح ما تبقى من بلاد الشام لاسيما بعد هزيمته لقوات الدولة العثمانية وحلفائها أحمد بن أويس وقرا يوسف التركماني، ورفض السلطان فرج - بناء على مشورة من حوله - التحالف مع الدولة العثمانية، فأصبح العالم في الشرق الإسلامى متشرذمًا متفرقا، (٣) فتقدم تيمور لنك باتجاه ملطية في ٢٥ من محرم سنة ٨٠٣ هـ / أكتوبر ١٤٠٠م وأبادها تقريبًا، ونهب مدينة سيواس وقتل أهلها ودفن بعضهم أحياء وحرق الكثير منهم - على عادة أسلافه -، ثم أرسل إلى الناصر فرج رسالة تفيض تهديدًا ووعيدًا قال له فيها: "... لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتل رسلنا دون سبب، وحبسه أطلمش، الذى كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه. ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاؤه قد أوكل إلى البارى يوم القيامة، وينبغى عليك أن ترحم نفسك وأهل مملكتك، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجى أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذى يتحرق للثأر. وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خرابًا وبمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها، وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم في عنقك... " (٤).

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ١٢ / ٢١٥.
(٢) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٢ / ٢١٥.
(٣) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٢ / ٢١٧.
(٤) نقلاً عن حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٧٣.

غير أن السلطان فرج لم يأبه بهذه التهديدات التى أرسلها تيمور لنك وقام بالقبض على رسله ووضعهم في السجون، فتحركت مكان الغيظ والشر في تيمورلنك فقرر التعجيل بمهاجمة الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام (1).

والذى حدث أن تيمورلنك زحف بقواته باتجاه بلاد الشام وتمكن من الاستيلاء على مدينة البهنسا في رجب سنة ٨٠٣ هـ / نوفمبر ١٤٠٠م، وضربت السكة باسم تيمورلنك وأقيمت خطبة الجمعة باسمه أيضًا، وأردف بالاستيلاء على مدينة عنتاب - إلى الشمال من حلب - بعد أن فتحت أبوابها أمامه، فدخلها بمنتهى السهولة بعد أن فرَّ نائبها إلى مدينة حلب (2) ثم تقدم بجموعه الجرارة باتجاه مدينة حلب حيث تمكن من إيقاع الهزيمة النكراء بجيشها وبطش بهم بطشًا شديدًا واستباح هو وجنوده المدينة وعاثوا بها فسادًا، وصارت المدينة لهم كالكلأ المباح، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ. وقيل كانت القتلى أكوامًا مكدسة في شوارع المدينة. حينئذ طلب نائبها ومن معه الأمان، فأمنهم تيمور وامتلك زمتم المدينة وقلعتها (3).

"... ثم رحل تيمور من حلب بعد أن أقام بها شهرًا، وتركها خاوية على عروشها، خالية من سكانها وأنيسها، قد خربت وتعطلت من الأذان والصلوات، وأصبحت خرابًا يبابًا مظلمة بالحريق موحشة قفرًا، لا يأويها إلا البوم والرخم. وسار تيمور قاصدًا جهة دمشق، فمر بمدينة حماة، وكان أخذها ابنه ميران شاه.

وكان من خبرها أن ميران شاه بن تيمور نزل عليها بكرة يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الأول المذكور، وأحاط بها بعساكره، بعد أن نهب خارج مدينة حماة، وسبى النساء والأطفال، وأسر الرجال، واستمرت أيدى أصحابه يفعلون في النساء والأبكار تلك الأفعال القبيحة، وخربوا جميع ما هو خارج عن سور المدينة. هذا وقد استعد أهل حماة للقتال، وركب الناس سور المدينة، وامتنعوا من تسليم المدينة، وباتوا على ذلك فلما أصبحوا خادعهم ابن تيمور، ففتحوا له بابًا من أبواب المدينة، ودخل ابن تيمور المذكور مدينة حماة ونادى بالأمان؛ فقدم الناس عليه، وقدموا له أنواع

---

(١) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٣٢.

(٢) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٣٢.

(٣) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ٢ / ٢٥٥.

المطاعم، فقبلها منهم، وعزم أن يقيم رجلاً من أصحابه عليها، فقيل له: إن الأعيان قد خرجوا منها، فخرج إلى مخيمه وبات به.

ثم رحل يوم الخميس عنها ووعد الناس بخير؛ ومع ذلك فإن قلعة حماة لم يتسلمها، بل كانت امتنعت عليه.

فلما كان ليلة الجمعة نزل أهل القلعة وقتلوا من أصحاب ابن تيمور رجلين كان أقرهما بالمدينة، فلما بلغ ذلك ابن تيمور رجع إليها واقتحم البلد، وأشعل النار بها، وأخذ أصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون حتى صارت كمدينة حلب غير أنه كان رفق بأهل حلب، فإنه كان سأل قضاة حلب لما صاروا في أسره عن قتاله، ومن الشهيد. فأجاب محب الدين محمد بن محمد بن الشحنة الحنفي بأن قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذا، فقال:﴿**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد**﴾، فأعجبه ذلك، وحادثهم، فطلبوا منه أن يعفو عن أهل حلب، ولا يقتل أحدًا؛ فأمنهم جميعًا وحلف لهم، فحصل بذلك بعض رفق بالنسبة إلى غيرهم... " (١).

"... أما أهل دمشق، فإنه لما قدم عليهم الخبر بأخذ حلب، نودى في الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة، والاستعداد لقتال العدو المخذول، فأخذوا في ذلك؛ فقدم عليهم المنهزمون من حماة، فعظم خوف أهلها، وهموا بالجلاء، فمنعوا من ذلك، ونودي: من سافر نهب، فعاد إليها من كان خرج منها وحصنت دمشق، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق، ونصبت المكاحل على أسوار المدينة، واستعدوا للقتال استعدادًا جيدًا إلى الغاية.

ثم وصلت رسل تيمور إلى نائب الغيبة بدمشق ليتسلموا منه دمشق، فهم نائب المدينة بالفرار، فرده العامة ردًّا قبيحا وصاح الناس وأجمعوا على الرحيل عنها، واستغاث النساء والصبيان، وخرجت النساء حاسرات لا يعرفن أين يذهبن، حتى نادى نائب المدينة بالاستعداد. وقدم الخبر في أثناء ذلك بمجيء السلطان إلى البلاد الشامية، ففتر عزم الناس عن الخروج من دمشق ما لم يحضر السلطان... " (٢).

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ١٢ / ٢٢٧.

(٢) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ١٢ / ٢٢٧.

وتقدم السلطان فرج بن برقوق بالقوات المصرية باتجاه دمشق ووصلها بالفعل في السادس من جمادى الأول سنة ٨٠٣ هـ / يناير ١٤٠١م "... وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال إلى الله بنصرته. وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره إلى مخيمه عند قبة يلبغا ظاهر دمشق، وتهيأ للقاء تيمور هو بعساكره، وقد قصرت المماليك الظاهرية أرماحهم حتى يتمكنوا من طعن التمرية - التيمورية - أولاً بأول لازدرائهم عساكر تيمور... " (١).

وقد عسكر السلطان فرج بقواته في سهل قبة يلبغا على بعد ميلين من دمشق، أما تيمور لنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة - إحدى قرى دمشق - ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا، في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي، وظل على هذا الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة إلى أن تمكنت القوات المملوكية من رد الجموع التترية عن دمشق وكبدتها خسائر فادحة، فاضطر تيمورلنك إلى مراسلة السلطان فرج لطلب الصلح على أساس إطلاق سراح أطلمش، وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة، وكان رد السلطان فرج في غاية الود والكرم، ولبى معظم طلبات تيمور لنك بما فيها إطلاق سراح أطلمش في ظرف أيام معدودة، وما صاحب ذلك من الوعود بعلاقات ودية مع تيمورلنك (٢).

والحقيقة أن تيمورلنك ومن قبله أسلافه لم يكونوا يعرفوا غير لغة القوة، فظن أن خطاب السلطان فرج الودى إليه ضعفًا فسارع في مهاجمة غوطة دمشق ونجح في دخولها في سرعة مدهشة وشرع في مهاجمة دمشق ذاتها، وبدلاً من أن يتحد أمراء المماليك أمام هذا الخطر الداهم، إلا إنهم راحوا يتنافسون بينهم على المناصب والإقطاعيات وسادت بينهم الفتن والدسائس والوقيعة، وسعى أمراء المماليك إلى خلع السلطان فرج وحاولوا سلطنة الشيخ لاجين الجركسي، وتسلل عدد من الأمراء المماليك من الجيش في دمشق إلى مصر لتنفيذ خطتهم، فاضطر السلطان إلى

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ١٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٣٨.

اصطحاب عدد كبير من الأمراء وأسرع في العودة إلى القاهرة لمواجهة هذه الفتنة، تاركين مشق لتواجه المصير المظلم، وكان ذلك في ليلة الجمعة ٢١ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ..

ولما علم تيمور لنك بتلك الأنباء قوى عزمه وضيق الخناق على دمشق، وزحف عليها بعساكره، غير أن الدمشقيين قاتلوه أشد قتال وردوه عن مدينتهم بعد أن أسروا عددًا كبيرًا من جنده، ثم أخذوا من خيوله عددًا كبيرًا وقتلوا من جيشه نحو الألف، وأظهروا صمودًا كبيرًا، فاضطر تيمور لنك المخادعة، فبعث إلى حاكم المدينة يطلب التفاهم على الصلح فبعثوا إليه وفدًا من أعيان المدينة برئاسة القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى (١)، فلما "... توجه إلى تيمور واجتمع به وعاد إلى دمشق وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه، وتلطف معه في القول، وترفق له في الكلام، وقال له: هذه بلدة الأنبياء والصحابة وقد أعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عنى وعن أولادي، ولولا حنقى من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولى ما أتيتها وقد صار سودون المذكور في قبضتى وفى أسري؛ وقد كان الغرض في مجيئى إلى هنا، ولم يبق لى الآن غرض إلا العود، ولكن لا بد من أخذ عادتى من التقدمة من الطقزات. وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحًا يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدواب والملابس والتحف تسعة؛ يسمون ذلك طقزات؛ والطقز باللغة

---

(١) تقى الدين بن مفلح الحنبلى ٧٥١ - ٨٠٣هـ، ١٣٥٠ - ١٤٠٠م.

إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، قاضى القضاة تقى الدين ابن العلامة شمس الدين الحنبلى الدمشقى قاضى قضاة الحنابلة بدمشق.

كان إمامًا فقيهًا، عالمًا فاضلاً، دينا، ولى قضاة دمشق، وحمدت سيرته إلى أن امتحن في واقعة تيمورلنك.

ومات في شعبان سنة ثلاث وثمانمائة.

وهلكت أيضًا في هذه السنة المذكورة بدمشق وحلب وغيرهما من البلاد الشامية في محنة تيمور بالقتل والجوع والحريق خلائق، ولا يعلمها إلا الله، فإن والدى رحمه الله ولى نيابة دمشق قبل محنة تيمور بأيام قلائل، ثم وليها ثانيًا بعد أن خرج تيمور بعساكره عنها، فدخلها فوجدها خرابًا، وقد تحير أين يسكن بدمشق، إلى أن أشار عليه أهلها بأن يسكن بالقرمانية فسكنها إلى أن شرع في عمارة دار السعادة، فتحول إليها بعد مدة طويلة.

أبو المحاسن بن تغربردي، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي، ١ / ٣٠.

التركية: تسعة، وهذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا... " [١].

وانخدع ابن مفلح بهذه الخدعة ورجع إلى أهل دمشق يمنعهم عن مقاتلة التتار ويذكر لهم محاسن تيمورلنك وصفاته النبيلة، ثم سلم باب المدينة لجنود التتار وأصبحت المدينة في حوزتهم فنكث بوعوده وأمانه لأهل دمشق، يقول أبو المحاسن بن تغربردي: "... فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذل الناس عن القتال ويثنى على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيمًا، ويكف أهل دمشق عن قتاله فمال معه طائفة من الناس، وخالفه طائفة أخرى وأبوا إلا قتاله، وباتوا ليلة السبت على ذلك وأصبحوا نهار السبت وقد غلب رأى ابن مفلح على من خالفه، وعزم على إتمام الصلح، ونادى في الناس: إنه من خالف ذلك قتل وهدر دمه؛ فكف الناس عن القتال. وفى الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، واستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتجار حمل ذلك كل أحد بحسب حاله؛ فشرعوا في ذلك حتى كمل، وساروا به إلى باب النصر ليخرجوا به إلى تيمور، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، وهددهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقالوا له: " أنت احكم على قلعتك، ونحن نحكم على بلدنا "، وتركوا باب النصر وتوجهوا، وأخرجوا الطقزات المذكورة من السور، وتدلى ابن مفلح من السور أيضًا ومعه كثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيم تيمور، وباتوا به ليلة الأحد وعادوا بكرة الأحد، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدة وظائف ما بين قضاة القضاة، والوزير، ومستخرج الأموال، ونحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، وهو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمن أمان أهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصة؛ فقرئ الفرمان المذكور على منبر جامع بنى أمية بدمشق وفتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط، وقدم أميرمن أمراء تيمور، جلس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر إليها من عساكر تيمور فمشى ذلك على الشاميين وفرحوا به، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجه معه من أعيان دمشق الثناء على تيمور، وبث محاسنه وفضائله، ودعا العامة لطاعته وموالاته، وحثهم بأسرهم على جمع المال الذى تقرر لتيمور عليهم، وهو ألف ألف دينار، وفرض ذلك على الناس كلهم، فقاموا به من غير

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ١٢ / ٢٣٩.

مشقة لكثرة أموالهم. فلما كمل المال حمله ابن مفلح إلى تيمور ووضعه بين يديه فلما عاينه غضب غضبًا شديدًا، ولم يرض به، وأمر ابن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه، فأخرجوا من وجهه ووكل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان - والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب إلا أن سعر الذهب عندهم يختلف وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار - فالتزموا بها وعادوا إلى البلد، وفرضوها ثانيًا على الناس كلها عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر وألزموا كل إنسان من ذكر وأنثى حر وعبد بعشرة دراهم وألزم مباشر كل وقف بحمل مال له جرم، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانيًا بلاء عظيم وعوقب كثير منهم بالضرب، فغلت الأسعار، وعز وجود الأقوات، وبلغ المد القمح - وهو أربعة أقداح - إلى أربعين درهمًا فضة، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جمعة إلا مرتين حتى دعى بها على منابر دمشق للسلطان محمود ولولى عهده ابن الأمير تيمورلنك وكان السلطان محمود مع تيمور آلة، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلا من يكون من ذرية الملوك.

ثم قدم شاه ملك أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور.

ثم بعد جمعتين منعوا من إقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة أصحاب تيمور بدمشق كل ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، وأعوان تيمور تحاصره أشد حصار، حتى سلمها بعد تسعة وعشرين يومًا وقد رمى عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر. يكفيك أن التمرية من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب؛ فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نفطًا فأحرقوها عن آخرها، فأنشأوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة.

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة إلا نفر قليل دون الأربعين نفرًا، وطال عليهم الأمر، ويئسوا من النجمة، وطلبوا الأمان، وسلموها بالأمان.

قلت: لا شلت يدهم! هؤلاء هم الرجال الشجعان. رحمهم الله تعالى. " (١).

---

(١) النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

ولما صارت المدينة وقلعتها في حوزة تيمورلنك انتقم منها أبشع انتقام وأنزل بأهلها أشد أنواع العقوبة، يقول أبو المحاسن: "... وكان تيمور لما اتفق أولاً مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة، والذى تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور فخرج إليه ابن مفلح بأموال أهل مصر جميعها فلما صارت كلها إليه وعلم أنه استولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فروا من دمشق، فسارعوا أيضًا إلى حمل ذلك كله، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه فلما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها، فتتبعوا ذلك وأخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء فلما فرغ ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها، فكتبوا فلك ودفعوه إليه، ففرقه على أمرائه، وقسم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ونزل كل أمير في قسمه، وطلب من فيه، وطالبهم بالأموال، فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء مالا يوصف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوسًا، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعًا، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذى هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتنى أموت وأستريح مما أنا فيه، ومع هذا تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو بنته وهى توطأ، وولده وهو يلاط به، فيصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس. ورأى أهل دمشق أنواعًا من العذاب لم يسمع بمثلها؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه ومنهم من كان يضع الحبل بكتفى الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ومنهم من كان يربط إبهام يدى المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويفر في منخريه الرماد مسحوقًا، فيقر على ما عنده شيئًا بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتًا مخافة أن يتماوت. ومنهم من كان يعلق المعذب بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار

ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانيًا.

واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يومًا، آخرها يوم الثلاثاء ثامن وعشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

فلما علمت أمراء تيمور أنه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا إلى تيمور، فسألهم:هل بقى لكم تعلق في دمشق؟ فقالوا: لا؛ فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق أتباع الأمراء، فدخلوها يوم الأربعاء آخر رجب، ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الحور وغيرها، وسبوا نساء دمشق بأجمعهن، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال.

ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها آخرها يوم الجمعة.

وكان تيمور - لعنه الله - سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يومًا، وقد أحترقت كلها وسقطت سقوف جامع بنى أمية من الحريق، وزالت أبوابه وتفطر رخامه، ولم يبق غير جدره قائمة. وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسومًا خالية، ولم يبق بها دابة تدب، إلا أطفال يتجاوز عددهم آلاف، فيهم من مات، وفيهم من سيموت من الجوع... " (١).

ومن عجيب الأمر أن " تيمورلنك " بعث إلى السلطان فرج بن برقوق يطلب إليه الإفراج عن أطلمش قريبه - الذى كان أسيرًا لدى برقوق ولم يرض بإطلاقه - ويعتذر إليه عما بدر منه... فأطلقه مقابل أن يطلق تيمور سراح من عنده من الأسري، فأطلقهم ورحل بحملته عن بلاد الشام(٢).

---

(١) النجوم الزاهرة، ١٢ / ٢٤٠ - ٢٤١.

(٢) العسقلاني، إنباء الغمر، ١ / ٥٣٨، ٦٠٤، ٦٢٨.

وبعد أن رحل " تيمور لنك " عن دمشق عين السلطان فرج بن برقوق الأمير نوروز الحافظى (١) نائبًا على بلاد الشام ليصلح ما أفسدته يد تيمور وجنوده.

وكان الذى حدث أن تيمورلنك انشغل عن الدولة المملوكية بالحرب مع الدولة العثمانية حيث استطاع " تيمور لنك " من إيقاع الهزيمة النكراء بصفوف الجيش العثمانى بقيادة بايزيد، بل وقع بايزيد نفسه في أسره، واحتل العاصمة الثانية للدولة العثمانية مدينة بروسة، وأعاد جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التى استولى عليها العثمانيون، وكان ذلك في العام ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م (٢).

وما لبثت العلاقات الودية أن عادت بين " تيمور لنك " والسلطان فرج بن برقوق، بعد أن استجاب برقوق وقبض على خصوم " تيمور لنك " الذين فروا إليه (٣) وتبادلت الرسائل الودية وعبارات الثناء والهدايا بين كلا الرجلين، واعتذر "

---

(١) نوروز الحافظى الظاهرى برقوق. أول ما رقاه خاصكيا ثم أمير آخور عوضًا عن بكلمش سنة ثمانمائة وكان قبل ذلك أمره رأس نوبة صغيرًا في رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة ثم رام القيام على السلطان فنم عليه بعض المماليك فقبض عليه في صفر سنة إحدى وثمانمائة وقيد وحمل إلى إسكندرية فسجن بها ثم نقل لدمياط ثم أفرج عنه في التى بعدها واستقر رأس نوبة كبيرًا وصار ناظر الشيخونية وحضر قتال إيتمش ثم وقعة تيمورلنك ورجع مع المنهزمين واستقر يتنقل في الفتن كما ذكر في الحوادث إلى أن قتل في ربيع الآخر سنة سبع عشرة، وكان متعاظمًا عبوسًا مهابًا شديد البأس سفاكًا للدماء ميشوم النقيبة ما كان في عسكر إلا انهزم ولا ضبط أنه ظفر في وقعة قط، وهو الذى عمر قلعة دمشق بعد رحيل " تيمور لنك ". وكان جبارًا ظالمًا عسوفًا بخيلاً، وقد سمعت المقريزى يقول أنه سمعه يقول ما معناه إنه ليشق على أن لا يكون في مماليك أستاذى الملك الظاهر رجلاً كاملاً في أمور المملكة وتدبير الرعية والرفق بهم. وقد أغفله ابن خطيب الناصرية مع أنه من شرطه ولذا استدركه ابن قاضى شهبة إشارة ولم يترجمه. وقال غيره: إنه لما قتل حملت رأسه إلى القاهرة على يد جرباش كباشه وعلقت أيامًا على باب زويلة؛ وكان أميرًا جليلاً كريمًا شجاعًا رئيسًا عفيفًا ضخمًا معدودًا من أكابر الملوك بلغت جوامك مماليكه وحواشيه بدمشق بعد عصيانه زيادة على عشرين ألف دينار في الشهر وقيل: زيادة على ثلاثين، عارفًا بالحروب وعنده دهاء وتدبير، ولما كان عاصيًا هو والمؤيد على الناصر فرج كان هو الأكبر والمشار إليه وكان محببًا لطائفة الجراكسة وهو المطلوب عند خشداشيته الظاهرية ولذلك تخلف بدمشق لظنه أنهم لا يعدلون عنه إلى غيره. الضوء السخاوي، الضوء اللامع، ٥ / ١٠٩.

(٢) المقريزي، السلوك، ٣ / ٣٦، محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ٥٠ - ٥١.

(٣) وكان الأميرين قرا يوسف وأحمد بن أويس قد تعديا على بغداد وحاولا الاستيلاء عليها من يد حاكمها من قبل تيمور لنك طاهر بن أحمد بن أويس، فسير إليهما تيمور لنك ولده ميران شاه في مائة ألف فارس فهربا منه ولجئا إلى دمشق فقبض عليهما حاكمها وسلمهما إلى " تيمورلنك " بطلب من السلطان فرج بن برقوق.

تيمورلنك " عن اضطراره إلى اكتساح بلاده [١].

ثم جاءت وفاة تيمور لنك في آخر سنة ٨٠٧هـ / يناير ١٤٠٥م في مدينة أوترار على ضفاف نهر جيحون، وهو في الطريق لغزو الصين [٢].

وقد تعرضت دولة " تيمور لنك " بعد وفاته إلى تصدع كبير، فقد انتشرت الحرب الدامية بين أبناء وأحفاد المتوفي، إلى أن استطاع ابنه شاه رخ ان يعيد بناء ما تهدم، ويستعيد الكثير من أملاك أبيه الضائعة، وأراد أن يفتح صفحة جديدة مع سلاطين المماليك، فأرسل أكثر من رسالة إلى السلطان برسباي، يبدى فيها جميعًا رغبته في إقامة علاقة ودية مع دولة المماليك ويستأذنه في كسوة الكعبة المشرفة وحفر بئر ماء في مكة المكرمة [٣]، غير أن ذلك كان يقابل بالرفض من قبل سلاطين المماليك، خوفًا من أطماع شاه رخ في بلاد الحجاز وتاريخ أسلافه غير المطمئن، كما أن سلاطين المماليك لم تكن لديهم الرغبة في أن يشاركهم أحد كائنًا من كان في شرف كسوة الكعبة المشرفة.

ثم تتالت الرسائل التى بعث بها شاه رخ إلى برسباى وبها طلبات قد تكون مستحيلة مثل: السماح له بزيارة بيت المقدس، وطلب إقامة الخطبة باسمة على منابر دولة المماليك، وسك العملة باسمه، هذه المطالب جعلت برسباى يسيء إلى رسله أكثر من مرة، مما أغضب شاه رخ، وجعله يأخذ اتجاهًا عدائيًا للدولة المملوكية، فأخذ يستعدى عليها دولاً أخرى مثل الدولة العثمانية، وأمراء التركمان، وحاول تكوين تحالف مضاد لها، فما كان من السلطان الأشرف برسباى إلا أن لاطفه وأرسل إليه بهدية ورسالة. يقول أبو المحاسن: "... خرج قاصدًا شاه رخ، الشريف تاج الدين، من الديار المصرية إلى جهة مرسله، وصحبه الأمير أقطوه الموساوي، وعلى يده هدية من السلطان إلى شاه رخ المذكور، وكتاب جواب كتابه يتضمن منعه من كسوة الكعبة، بأن العادة قد جرت قديمًا وحديثًا أن لا يكسو الكعبة إلا ملوك مصر، والعادة اعتبرت في الشرع في مواضع، وأن للكسوة أوقافًا تقوم بعملها، لا يحتاج،

(١) حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٤٦، محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ٢ / ٢٥٧.
(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٤٠.
(٣) المقريزي، السلوك، ٤ / ٨٣٣، الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ٣ / ٣٣٤.

إلى مساعدة في ذلك، وإن أراد الملك وفاء نذره، فليبع الكسوة ويتصدق بثمنها في فقراء مكة، فهو أكثر ثوابًا، حيث يتعدى نفع ذلك إلى جماعة كبيرة، وأشياء من هذه المقولة... " (١).

وفى عهد الظاهر جقمق العلائى كانت العلاقة بين دولتى المماليك والتتار علاقات ودية إذ وافق السلطان جقمق في سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة بشرط أن تكون الكسوة من الداخل، أى تحت كسوة السلطان المملوكي، ولكن قوبل هذا السماح للمغول بكسوة الكعبة بالسخط من قبل عامة الناس وخاصتهم. "... وعظم ذلك على أمراء الدولة والمصريين إلى الغاية... " ولم ينس المسلمون فظائع التتار التى كانت منهم، وبالرغم من أن السلطان الظاهر جقمق قد اعتذر عن ذلك للشعب المصرى وعامة المسلمين الساخطين عليه "... واعتذر الملك الظاهر بقوله: " إن هذه قربة، ويجوز أن يكسو الكعبة كائن من كان " (٢).

إلا أن المصريين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة لم يقبلوا هذا الاعتذار ولم يقبلوا أيضًا أن يكون لملك المغول كسوة على كعبتهم المشرفة - وإن كانت متواراه - ولم يستطع جقمق مواجهة هذا السخط الذى ساد بين المسلمين فأمر بنزع كسوة شاه رخ من على الكعبة سنة ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م ولم يبق سوى الكسوة التى كانت ترسل من مصر (٣).

وبعد وفاة " شاه رخ " خلفه ابنه " أولوغ بك " منذ العام ١٤٤٧م، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على كرسى الملك، إذ سرعان ما ظهر له منافسون كثر أزاحوه عن العرش بعد أن سملت عيناه وقتل، وأخيرًا وصل إلى العرش أبو سعيد (١٤٥٢ - ١٤٦٩ م) ثم بعد مقتله وقطع رأسه سنة ١٤٦٩م خلفه ابنه حسين بايكار (١٤٦٩ - ١٥٠٦ م) وقد طالت فترة حكمه وبلغت أكثر من سبعة وثلاثين عامًا، وفى نهاية حكمه وقعت البلاد في فوضى عارمة، وبدأ أولاده يثورون عليه، ثم حدثت أن بدأت

(١) النجوم الزاهرة، ١٥ / ٣٦٤ - ٣٦٥، ووردت على هذا النحو في، المقريزي، السلوك، ٤ / ٩٣٢.
(٢) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة ـ، ١٥ / ٣٦٤ - ٣٦٥.
(٣) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة ـ، ١٥ / ٣٦٤ - ٣٦٥.

دولة الصفويين [١] بزعامة إسماعيل الأول تقتطع أجزاء كبيرة من حدود دولة

(١) تنتسب الأسرة الصفوية إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلى (٦٥٠هـ - ٧٣٥هـ)، الذى كان في بداية عهده من مريدى الشيخ تاج الدين الزاهد الكيلاني. كان واعظًا صوفيًّا في مدينة (أردبيل) ثم أسس فرقة صوفية تسمى (الإخوان) وقد كثرت هذه الفرقة في إقليم (أذربيجان).
بعد وفاته أخذ مشيخة طريقته ابنه صدر الدين (٧٠٤هـ - ٧٩٤هـ)، ولما توفى صدر الدين تولى ابنه " خواجة على " الذى كانت له لقاءات مع تيمور لنك، وتولى مشيخة الطريقة مدة ٣٦ سنة، ومات في فلسطين سنة ٨٣٠هـ، وقبره معروف في يافا باسم قبر الشيخ " على العجمى ". وكان للخواجة على ميل للتشيع ولم يكن تعصبًا بل تشيّع خفيف.
ثم تولى ابنه إبراهيم الذى لقب بـ " شيخ شاه " أى " الشيخ الملك "، لأن مظاهر الملك ظهرت عليه. وتوفى سنة ٨٥١هـ، وكان تشيعه واضحًا للإمامية، وأدخل أتباعه بصراعات مع أهل السنة في داغستان، وخلفه ابنه الأصغر جنيد والذى كثرت فيه عهده المظاهر الملكية.
وجنيد كان شيعيًّا جلدًا متعصبًا محاربًا لأهل السنة، وقد قتل في إحدى حروبه في مدينة شيروان سنة ٨٦١هـ، وخلف ابنه حيدر وتزوج من " مارتة " بنت حسن أوزون " الطويل " - حسن الطويل مؤسس دولة " آق قونيلو " التى حكمت شمال غرب إيران. -، وكانت أمها " كاترينا " ابنة " كارلو يوحنا " ملك مملكة طربزون - هذه المدينة تقع الآن في تركيا على البحر الأسود وهى مملكة يونانية آنذاك -، اليونانية النصرانية.
وحيدر أول من لقب بلقب " سلطان " في العائلة الصفوية وأمر أتباعه الدراويش بأن يضعوا على رؤوسهم قلنسوة مخروطية الشكل مصنوعة من الجوخ الأحمر، وتحتوى على اثنتى عشرة طية رمزًا للأئمة الاثنى عشر عند الشيعة الإمامية، وسموا بـ " قزلباش "، وهى كلمة تركية تعنى " الرأس الأحمر ". وقد كوّن حيدر جيشًا للانتقام لمقتل والده من ملك شروان، ولكنه قتل سنة (٨٩٣هـ)، وكان لحيدر ثلاث أولاد: على، إبراهيم، وإسماعيل، وقد خاف الأمير يعقوب أمير " آق قونيلو " منهم فسجنهم، ثم أطلق سراحهم بعد وفاة يعقوب، ولكن على وإبراهيم قتلا، وذهب إسماعيل إلى مدينة " كيلان " على بحر قزوين جنوب أردبيل، وقد رعاه السادات الصوفية، وحاول منذ صغر تجميع الصوفية والقزلباشية حوله، وتجميعهم من أجل الانتقام من قتلة أبيه وجده، وتم ذلك وتوجه إلى أمير دولة التركمان " آق قونيلو " سنة (٩٠٧هـ)، وقتله وجلس على ملكه بعد أن بايعته كل قبائل التركمان، وأعلن دولته الصفوية.
الشاة إسماعيل أول ملك للدولة الصفوية (٩٠٧هـ/١٥٠١م).
كما سبق ذكره، قتل الشاه إسماعيل " أمير الآق قونيلو " وأعلن قيام الدولة الصفوية وعاصمتها في مدينة " تبريز " وأول ما قام أعلن أن مذهب دولته الإمامية الاثنى عشرية وأنه سيعممه في جميع بلاد إيران، وعندما نُصح أن مذهب أهل إيران هو مذهب الشافعى قال: " إننى لا أخاف من أحد.. فإن تنطق الرعية بحرف واحد فسوف أمتشق الحسام ولن أترك أحدًا على قيد الحياة " ثم صك عملة للبلاد كاتبًا عليها: " لا إله إلا الله، محمد رسول الله، على ولى الله "، ثم كتب اسمه وأمر الخطباء في المساجد بسب الخلفاء الراشدين الثلاثة، مع المبالغة في تقديس الأئمة الاثنى عشر. وقد عانى أهل السنة في إيران معاناة هائلة وأجبروا على اعتناق المذهب الأمامى بعد أن قتل الشاه إسماعيل مليون إنسان سنى في بضع سنين..
وكان لا يتوجه لبلاد في إيران إلا فعل أشياء يندى لها الجبين من قتل ونهب حتى قتل من أعاظم علماء

تيمورلنك، وانتهى الأمر بأن استولى الصفويين كل أملاك حسين بايكار وخضوع دولته لهم نهائيًّا في العام ١٥٠٧ م (١).

وهكذا انتهت آخر دولة مغولية في بلاد الفرس، وإن كان من الحق أن نقول بأن عهد تيمور لا يمكن أن نسميه عهدًا مغوليًّا إلا في أضيق المعاني، فعلى الرغم من أنه سليل عائلة مغولية نبيلة فإن عهده وعهد خلفائه كان في واقع الأمر سيطرة تركية.

على أن سلالة تيمور لنك لم تنته بسقوط دولتهم في فارس، بل على العكس من ذلك، فإن آخر حفيد للفاتح تمكن من تأسيس إمبراطورية جديدة قوية وطويلة الأجل، وهذا الحفيد هو بابور أول المغول الكبار في الهند (١٥٢٥ - ١٥٣٠ م) الذين وجد بين خلفائه سلاطين ذوو شهرة واسعة من أمثال " السلطان أكبر " و " أوران زيب " (٢).

* * *

العجم " السنة " وحرّق كتبهم وانهزم كثير من العلماء، منهم جد مؤلف " عنوان المجد " على بلاد الأكراد السنية في بلاد العراق.

ثم أمر الشاه إسماعيل الجنود بالسجود له. وكان من دمويته أن ينبش قبور العلماء والمشايخ " السنة " ويحرق عظامهم، وكان إذا قتل أميرًا من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص ما. وكان أتباعه يقدسونه ويعتقدون أنه لا ينكسر ولا يقدر عليه أحد.

هذا هو مؤسس الدولة الصفوية (إسماعيل شاه) التى تعد الدولة المؤسسة لكل دول الشيعة الاثنى عشرية فيما بعد.

وتمكن العثمانيون والأفغان من القضاء على هذه الدولة عام ١٧٢٢ م.

(١) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٢) بيرتولد شبولير، " المغول في التاريخ "، ص ١٤٣ - ١٤٤.

وأخيرًا

فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمنى ومن الشيطان

والنقص في أصل الطبيعة كامن ::: فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلومًا جهولا!!!

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يسأل الله لى غفران الذنوب وتقبل صالح الأعمال، وأن يرزقنى الشهادة في سبيله وأن يدخلنى الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، ومرافقة نبيه محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد.

ولمن أراد التواصل معى لإسداء النصح والتبصير بالأخطاء، فرحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي:

جمهورية مصر العربية - محافظة البحيرة - إيتاى البارود - عزبة الحكر

د / رجب محمود إبراهيم بخيت

وعبر الهاتف:

٠٤٥٩١١٨٤٢٨ / ٠٤٥٣٤٣٣٩٥٩

٠١٠٣٨٤٤٩٣٢

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

ثبت بأسماء حكام وقادة القوى المغولية التى تناولها الكتاب

أولا: خانات المغول العظام:

جنكيزخان: (١٢٠٦ - ١٢٢٧ م).

أوكتاي: (١٢٢٩ - ١٢٤١ م).

توراكينا: (١٢٤١ - ١٢٤٦ م).

بصفتها وصية على العرش

كيوك: (١٢٤٦ - ١٢٤٨ م).

أوغول قيمش: (١٢٤٨ - ١٢٥١ م).

بصفتها وصية على العرش

منكو: (١٢٥١ - ١٢٥٨ م).

قوبيلاي: (١٢٦٠ م - ١٢٩٤ م).

* * *

ثانيًا: خانات دولة إيلخانات فارس والعراق:

هولاكو: (١٢٥٦ - ١٢٦٥ م).

أباقا: (١٢٦٥ - ١٢٨٢ م).

تكودار أحمد: (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م).

أرغون: (١٢٨٤ - ١٢٩١م).

كيخاتو: (١٢٩١ - ١٢٩٥).

بايدو: (١٢٩٥).

غازان محمود: (١٢٩٥ - ١٣٠٤).

أوليجاتو خرابندة محمد: (١٣٠٤ - ١٣١٦ م).

أبو سعيد بهادر: (١٣١٦ - ١٣٣٥م).

أربا كماون (معز الدين): ١٣٣٥ - ١٣٣٦ م).

موسي: (١٣٣٦ م).

انقسام فارس بين أسرات عديدة أمثال الجلائريين والمظفرين والسرباداريين (خراسان): (١٣٣٦ - ١٣٥٣ م).

* * *

ثالثًا: خانات القبيلة الذهبية:

باتو بن جوجي: (١٢٣٧ - ١٢٥٦ م).

بركة خان: (١٢٥٧ - ١٢٦٦ م).

منكوتمر: (١٢٦٧ - ١٢٨٠ م).

تواد منكو: (١٢٨٠ - ١٢٨٧ م).

تولى بوقا: (١٢٨٧ - ١٢٩١ م).

طقطقاى غياث الدين: (١٢٩١ - ١٣١٢ م).

أوزبك غياث الدين محمد: (١٣١٢ - ١٣٤١ م).

تينى بك: (١٣٤١ م).

جانى بك: (١٣٤١ - ١٣٥٧ م).

عصر فوضى واضطراب: (١٣٥٧ - ١٣٨٠ م).

* * *

المصادر والمراجع

- السيوطي: السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥ م):

١ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ط القاهرة ١٣٢٧ هـ

٢ - تاريخ الخلفاء، ط القاهرة، ١٢٥١ هـ

- تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

- أبو شـامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن شهاب الدين الشافعى الدمشقى ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨ م):

١ - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط القاهرة ١٢٨٧ م

٢ - الذيل على الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسينى الدمشقي، بعنوان " تراجم رجال القرنين السادس والسابع، ط القاهرة ١٩٤٧ م.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربى ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م):

العبر وديوان المبتدأ والخبر أو تاريخ ابن خلدون، ط القاهرة ١٢٨٤ هـ.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م):

١ - المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزي)، ط القاهرة ١٣٣٤ هـ.

٢ - السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة، ط القاهرة، ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٤ - ١٩٣٩م.

- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣ م):

تاريخ مصر المعروف باسم: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط القاهرة ١٤١٢ هـ.

- العصامي: سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالي.

- **جوزيف نسيم:** العدوان الصليبى على مصر، ط الإسكندرية ١٩٦٨ م.
- **ابن واصل** (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعى ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م):

مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب.

- **بيرتولد شبولير:** المغول في التاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، ط دمشق الأولي، ١٩٨٩ م.
- **الحنبلي:** شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، ط مكتبة القدس بالقاهرة، ١٣٥١ هـ.
- **ابو الفدا:** (إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ / ١٣٢١ م)

المختصر في أخبار البشر، ط دار المعرفة ببيروت.

- **ابن الوردي:** (زين الدين عمر، ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م)

تتمة المختصر في أخبار البشر، ط القاهرة ١٢٥٨هـ / ١٨٦٨م.

- **أبو المحاسن:** (جمال الدين بن يوسف بن تغربردى ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٥ م)

١ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي.

٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

- **النويري:** (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

- **القلقشندي:** (أبو العباس أحمد، ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م)

١ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة: الثانية، مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ١٩٨٥،

٢ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط القاهرة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤ م

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف على طويل، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، دار الفكر - دمشق.

- **محمد بن شاكر الكتبي:** (فخر الدين محمد بن أحمد الكتبي، ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)

فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، ط١، دار صادر - بيروت ١١٩٧٣ - ١٩٧٤م.

- **فؤاد عبد المعطى الصياد:** المغول في التاريخ، ط القاهرة ١٩٨٠ م.
- **الذهبي:** (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي):

١ - العبر في خبر من غبر

٢ - تاريخ الإسلام، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣ - سير أعلام النبلاء، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

- بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، ط الكويت، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨١ م.
- **الصفدي:** الوافى بالوفيات.
- **اليافعي:** مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.
- **ابن عرب شاه:** عجائب المقدور في أخبار تيمور.
- **ابن أيبك الدواداري:** (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري)

الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية. (وهو الجزء الثامن من حوليته: كنز الدرر وجامع الغرر).

- **العينى** (بدر الدين محمود العينى ت ٨٥٥ هـ):

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.

- **قاسم عبده قاسم:** ١ - دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك، ط دار الشروق بالقاهرة، ١٩٩٤ م.

٢ - عصر سلاطين المماليك / التاريخ السياسى والاجتماعي، ط دار عين، بالقاهرة، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م.

- **سعيد عبد الفتاح عاشور:** ١ - الحركة الصليبية، ط القاهرة، ١٩٦٣ م

٢ - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ط دار النهضة بالقاهرة، ١٩٩٠م

٣ - قبرص والحروب الصليبية.

- ابن الفرات: (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م)

تاريخ ابن الفرات المعروف باسم الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك.

- **ابن حجر العسقلاني:** إنباء الغمر بأنباء العمر.
- **الصيرفي:** نزهة النفوس والأبدان.
- **ابن أيبك الدواداري:** الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر.
- **محمد فريد:** تاريخ الدولة العلية العثمانية.
- **محمود رزق سليم:** عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبي، ط القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.
- **حكيم أمين:** قيام دولة المماليك الثانية، ط دار الكتاب العربى للطبع والنشر.
- **السخاوي:** الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع.
- **العسقلاني:** الدرر الكامنة في إعيان المئة الثامنة.
- **فايد حماد عاشور:** ١ - الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين في العصر الأيوبي.

٢ - العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ط دار المعارف بالقاهرة.

- **محمود الحويري:** العلاقات المبكرة بين أوربا والمغول، ط١ القاهرة ١٩٨٦م.

- **عبد السلام فهمي:** تاريخ الدولة المغولية في إيران.
- **رشيد الدين:** (فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير بن موفق الدولة ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) جامع التواريخ.
- **السيد الباز العريني:** المغول، ط بيروت ١٩٦٧م.
- **حافظ حمدي:** ١ - الدولة الخوارزمية والمغول، ط القاهرة ١٩٤٩م.

  ٢ - الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولي.
- **بارتولد:** ١ - تاريخ الترك في آسيا الوسطي، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، ط القاهرة ١٩٥٨م.

  ٢ - تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، ط الكويت، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨١ م.
- **هارولد لام:** جنكيزخان وجحافل المغول، ترجمة مترى أمين، ط القاهرة، ١٩٦٢ م.
- **الجوزجاني:** طبقات ناصري.
- **الخضري:** تاريخ الدولة العباسية، ط القاهرة ١٩٧٠م.
- **مصطفى طه بدر:** محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على يد المغول، ط القاهرة، ١٩٤٧ م.
- **د / راغب السرجاني:** قصة التتار من البداية إلى عين جالوت.
- **ابن الأثير:** (على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م).

  الكامل في التاريخ، ط القاهرة، بولاق، ١٢٩٠ هـ.
- **ابن الجوزي:** تلبيس إبليس، تحقيق محمود مهدى استانبولي، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- **الشهرستاني:** (أبو الفتح محمد عبد الكريم).

الملل والنحل، تحقيق أحمد فهمى محمد، ط٢ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ.

- **هيرة محمد غلاب**: مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق (٦٣٥ـ ٧٣٦هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٣٣٥م) رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب / جامعة طنطا، ٢٠٠٠ م.
- **القمى** (سعد بن عبد الله بن أبى خلف الأشعرى ت ٣٠١ هـ/ ٩١٣م):

المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، ط طهران ١٩٦٣ م.

- **ستيفن رانسيمان**: تاريخ الحروب الصليبية، ط بيروت ١٩٦٩م.
- **ابن العبري**: (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب الملطي، المعروف بابن العبرى ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦ م).

تاريخ مختصر الدول، ط بيروت ١٩٥٨ م.

- **نجم الدين إبراهيم بن على الحنفى الطَّرَسوسي**: تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي.
- **ابن أبي الفضائل** (مفضل بن أبى الفضائل، ت ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م):

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ط باريس، ١٩١٢ م.

- **براون**: (إدوارد جرانفيل، ت ١٩٢٦ م).

تاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدي، ترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، ط القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

- **كارل بروكلمان**: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط بيروت ١٩٤٩م.
- **النسوي**: (نور الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد المنشي).

سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، ط القاهرة ١٩٥٣م.

- **ابن كثير**: (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م).

البداية والنهاية، ط مكتبة السعادة بمصر، ١٣٥١ هـ ـ ١٣٥٨ هـ.

- **توماس أرنولد**: الدعوة إلى الإسلام، تعريب د/ حسن إبراهيم حسن، د/ عبد

المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، ط٣ القاهرة ١٩٧٠ م.

- **الرمزي**: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ط أورتيورغ الأولى ١٩٠٨ م.
- **آدم متز**: الحضارة الإسلامية، ترجمه إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة، ط القاهرة.
- **د / محمد جمال الدين سرور**: ١- دولة بنى قلاوون في مصر، ط دار الفكر العربي، القاهرة.

  ٢- الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، ط القاهرة ١٩٦٠ م.
- **د / محمد أحمد محمد**: دخول مغول العراق وفارس في الإسلام، ط دار الفكر العربي، القاهرة.
- **د / محمود سعيد عمران**: المغول وأوروبا، ط المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- **د / عادل إسماعيل محمد هلال**: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، ط دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- رينيه جروسيه: جنكيزخان قاهر العالم، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسي، مراجعة د / سهيل زكار، ط دمشق الأولي، ١٩٨٢ م / ١٤٠٣ هـ.
- **د / أحمد مختار العبادي**: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ط القاهرة، ١٩٨٨ م.
- **د / رجب محمود إبراهيم بخيت**: ١ - تاريخ الدولة الأيوبية، ط دار الإيمان بالمنصورة، ٢٠٠٨ م.

  ٢ - الشيعة... التاريخ الكامل، ط دار الإيمان بالمنصورة، ٢٠٠٩م.

  ٣ - تاريخ دولة المماليك، ط دار الإيمان بالمنصورة، ٢٠٠٩م.

* * *

الفهرس

المقدمة ٤
الفصل الأول: المغول قبل جنكيز خان........ ٦
آسيا في القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادي: ٦
أولا: الأمم والدول المتحضرة:........ ٧
١ - الصينيون:........ ٧
- أسرة " كين ": ٧
- أسرة " سونج ":........ ٧
٢ - الأتراك الأويغوريون: ٧
٣ - الأتراك القراخطائيين:........ ٩
٤ - الخوارزميون: ١٠
٥ - بقية بلدان آسيا الإسلامية:........ ١٠
ثانيًا: قبائل المغول والتتار:........ ١١
وأهم هذه القبائل وأصولها وأماكن تواجدها الآتي:........ ١٣
١ - التتار:........ ١٣
٢ - المغول:........ ١٣
وكانت أمة المغول منقسمة إلى عدة قبائل، منها:........ ١٤
- قبائل النايمان:........ ١٤
- قبائل الكيريت أو الكيرايت:........ ١٤
- قبائل الأورات أو الأويرات:........ ١٥
- قبائل الأورات أو الأويرات:........ ١٥
لمحة عن بيئة المغول وتشكيل شخصيتهم:........ ١٧
تاريخ المغول قبل ظهور جنكيزخان:........ ١٨
دخول المغول المعترك السياسي:........ ٢٤
الخلاف بين المغول والتتار: ٢٥
" يسوكاى الشجاع " وبداية ملامح دولة المغول: ٢٩
الفصل الثاني: جنكيزخان وإخضاع القبائل المغولية لسيطرته........ ٣٣
الفصل الثالث: أحوال العالم الإسلامى قبيل الغزو المغولي ٥٠
ولنلق نظرة على العالم الإسلامى في أوائل القرن السابع الهجري:........ ٥٠

١- الخلافة العباسية: ٥٠
٢- مصر والشام والحجاز واليمن: ٥٤
٣- بلاد المغرب والأندلس: ٥٥
٤- الدولة الخوارزمية: ٥٦
٥- الهند: ٦٢
٦- إسماعيلية فارس: ٦٢
٧ - الأناضول (تركيا): ٧٠
الفصل الرابع: غزو المغول للدولة الخوارزمية ٧٤
توتر العلاقة بين المغول والدولة الخوارزمية: ٧٤
اجتياح المغول للدولة الخوارزمية: ٨١
الاستيلاء على مدينة أترار: ٨٢
سقوط مدينة بخاري: ٨٥
اجتياح " سمرقند.. " في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م: ٨٨
اجتياح بقية الدولة الخوارزمية ونهاية السلطان محمد بن خوارزم شاه: ٩٢
اجتياح خراسان: ١٠١
اجتياح مدينة بلخ وما حولها (شمال أفغانستان الآن): ١٠٣
اجتياح الطالقان: ١٠٤
اجتياح مدينة نسا: ١٠٤
اجتياح مرو: ١٠٥
اجتياح نيسابور: ١٠٩
اجتياح هراة: ١١٠
اجتياح باميان: ١١١
جلال الدين منكبرتي ولواء المقاومة: ١١١
اجتياح أذربيجان: ١٢١
اجتياح أرمينيا وجورجيا..: ١٢٣
اجتياح همذان وأردبيل: ١٢٤
المغول على أبواب تبريز: ١٢٥
اجتياح بيلقان: ١٢٧
المغول يقفون على أبواب مدينة " كنجة": ١٢٨

اجتياح داغستان والشيشان: ١٢٩
التهديد بغزو شمال العراق.. .... ١٢٩
اجتياح الجنوب الغربى من روسيا: ١٣٢
تقييم الموقف في سنة ٦١٩ هجرية: ١٣٢
تقييم الموقف في سنة ٦٢٠ هجرية:- ١٣٤
الحادثة الأولى: ١٣٤
الحادثة الثانية: ١٣٦
الحادثة الثالثة: ١٤٠
الحادثة الرابعة: ١٤٣
أحداث سنة ٦٢١ هجرية: ١٤٤
حقًا: ما أشبه الليلة بالبارحة!!!!! ١٤٥
أحداث سنة ٦٢٢ هجرية:- ١٤٦
ظهور حركة المقاومة بزعامة جلال الدين منكبرتي: ١٥٠
وفاة الخليفة الناصر لدين الله ٦٢٢ هـ: ١٥١
أحداث سنتى ٦٢٣ و٦٢٤ هجرية:- ١٥٢
عودة جنكيزخان إلى منغوليا وموته: ١٥٤
الفصل الخامس: خلفاء جنكيز خان ١٦٠
حروب المغول في إيران: ١٦٢
اجتياح المغول جورجيا وأرمينية: ١٧٠
اجتياح المغول أقاليم الصين الشمالية: ١٧١
اجتياح المغول لأوربا: ١٧٢
وفاة الخاقان أوكتاى خان عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م: ١٧٥
كيوك خان (٦٤٤ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٦ - ١٢٤٩ م): ١٨١
الفصل السادس: الحرب الأهلية المغولية ١٨٤
تولية " منكو خان " عرش المغول (٦٤٨ - ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧ م): ١٨٤
التقارب الصليبى المغولى ضد المسلمين: ١٨٦
التوسع المغولى في عهد منكو خان: ١٩١
الحرب الأهلية المغولية وتولية " قوبيلاى خان " عرش المغول (٦٥٨ - ٦٩٣هـ / ١٢٦٠ - ١٢٩٤م): ١٩٢

الفصل السابع: هولاكو وإسقاط الخلافة العباسية ١٩٦
حملة هولاكو على طائفة الإسماعيلية:.. ١٩٩
هولاكو وإسقاط الخلافة العباسية: ٢٠٨
نتائج سقوط بغداد: ٢٥٠
بغداد بين سقوطين!.. ٢٥٥
أمراض الأمة: ٢٦٠
الفصل الثامن: حملة هولاكو على الشام وموقعة عين جالوت ٢٦٩
التحالف المغولي الصليبي لاجتياح الشام:.. ٢٧٤
حصار ميافارقين: ٢٧٤
موقعة عين جالوت:.. ٢٨٣
الوضع السياسي في مصر قبيل عين جالوت: ٢٨٣
موقعة عين جالوت:.. ٢٨٧
بقى أن نقول:... ٣٠٠
آثار " عين جالوت ".. ٣٠١
أسباب النصر في عين جالوت:.. ٣١٠
دروس من عين جالوت:.. ٣١٦
مقتل المظفر قطز:.. ٣١٩
الفصل التاسع: دولة الإيلخانات المغولية من الهمجية إلى الإسلام ٣٢٣
الحرب الأهلية المغولية وتقسيم الإمبراطورية المغولية: ٣٢٣
دولة الإيلخانات المغولية في فارس والعراق:.. ٣٣١
هولاكو (١٢٥٨ - ١٢٦٥ م): ٣٣١
أباقا خان - أبغا - (١٢٦٥ - ١٢٨٢ م/ ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ): ٣٣٣
علاقة أباقا خان بالصليبيين:... ٣٣٣
علاقة مغول فارس والعراق بالظاهر بيبرس والمماليك:...................................... ٣٣٤
معركة حمص وهزيمة المغول: ٣٤١
تكودار أحمد (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م): ٣٤٣
أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١م) :.. ٣٥٠
كيخاتو (١٢٩١ - ١٢٩٥ م) ٣٥٢
بايدو (١٢٩٥م):... ٣٥٤

غازان محمود (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م): ٣٥٤
العلاقة مع المماليك: ٣٥٦
موقعة عرض ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م : ٣٨٣
موقعة شقحب - مرج الصفر ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣م : ٣٨٣
أوليجاتو (١٣٠٤ - ١٣١٦ م): ٣٩١
أبو سعيد (١٣١٦ - ١٣٣٥ م): ٣٩٥
تفكك دولة الإيلخانات المغولية: ٤٠٢
الفصل العاشر: مغول القبيلة الذهبية ٤٠٤
جوجى خان (٥٨٠ - ٦٢٤ هـ / ١١٨٤ - ١٢٧٧ م): ٤٠٤
باتو بن جوجى (٦٢٤ - ٦٥٤ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٥٦م): ٤٠٤
بركة بن جوجى (٦٥٥ - ٦٦٦ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٦٧ م): ٤١١
منكوتمر (٦٦٦ - ٦٧٩ هـ / ١٢٦٧ - ١٢٨٠ م): ٤١٦
تدان منكو (١٢٨٠ - ١٢٨٧ م): ٤١٦
تلابغا بن منكوتمر (١٢٨٧ - ١٢٩١ م): ٤١٧
طقطقاى (١٢٩١ - ١٣١٢ م): ٤١٧
محمد أوزبك (٧١٣ - ٧٤١ هـ / ١٣١٣ - ١٣٤٠ م): ٤١٨
تينى بك (١٣٤١ م): ٤٢٢
جانى بك ١٣٤١(- ١٣٥٧ م): ٤٢٢
تحلل وتفكك دولة مغول القبيلة الذهبية: ٤٢٣
الفصل الحادى عشر: تيمورلنك واجتياح العالم الإسلامى من جديد ٤٢٥
علاقة تيمور لنك بدولة المماليك: ٤٢٨
وأخيرًا ٤٤٩
ثبت بأسماء حكام وقادة القوى المغولية التى تناولها الكتاب ٤٥٠
المصادر والمراجع ٤٥٢
الفهرس ٤٥٩

* * *